الشيخ علي الطنطاوي

رجال من التاريخ



الجزء الأول

دار البشير

الطبعة الأولى بمصر

1418 هـ - 1998 م

• الكتـــــاب : رجال من التاريخ - جـ 1 .

• الـكـــاتـــب : على الطنطاوى.

• النشر والتوزيع: دار البشير للثقافة - دار المنارة - جدة .

تليفاكس 302404، 308909 ☎ 210907 - 228277

• التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية .المحلة الكبرى .منشية البكرى

ص . ب265 تليفاكس : 228277

• الإيداع القانونى : 1997/15197.

• الترقيم الدولى :9ـ 056 ـ 278 ـ 977.

• تصميم الغلاف : الفنان / عطية الزهيرى

المقدمة

كل ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة . استمرت إذاعتها أعواماً، تعبت في إعدادها كثيراً ، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير ، بلغت ثلاثمائة حديث أو تزيد ، ضاعت فيما ضاع مما كتبت ، وأرجو ألا يضيع عند الله ثوابها ، إن كتب الله لي بكرمه الثواب عليها .

كنت إذا أردت الحديث عن رجل ، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه ، وقيدت في ورقة ما أختار من أخباره ، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات ، ثم أعمد إلى خبر منها ، فأجعله مدخلاً إليها ، وأحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي ، ويخلص من تخيل الكاتب في القصة الأدبية ، لعلي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب ، فأوفق حيناً ، ويجانبني حينا التوفيق .

وكنت كلما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال ، فتح لي الباب للكلام على أقرانه وأمثاله ، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين ، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك ، ولو أني استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة ، في كل أسبوع حديثاً ، وجاء مائة مثلي يصنعون مثل صنعي ، لما نفدت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال ، وأنا لست من المولعين بجمع الكتب ، ورصها في الخزائن لأزهي بها ، وأفخر بكثرتها ، ولا أقتني إلا الكتاب الذي أحتاج إليه ، أرجو النفع به ،

أو المتعة بقراءته ، وقد اجتمع لي ـ على هذا ـ في مكتبتي الصغيرة ، هنا وفي دمشق ، أكثر من تسعين مجلدة في تراجم الرجال والنساء ، فلو أن في كل واحدة منها سيرة مائة منهم ، لكان من ذلك تسعة آلاف من سير العظماء

ومن نظر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابي (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التي أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن ، قلت فيها :

(إن في كتب التاريخ والأدب ، والمحاضرات والرحلات ، آلافًا من سير العظماء ليست في كتب التراجم على كثرتها .

من ذلك أنني كنت أتسلى مرة بالنظر في (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين ، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حفدة جنكيزخان المسلمين ، وكان يحكم مملكة واسعة المدى ، مترامية الأطراف ، كثيرة الجيوش ، واسعة الخيرات . فهل سمعتم باسم طرمشيرين ؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين ، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر ، عاشت حينًا من الدهر ، كانت تسمى دولة البلغار ، وكانت عاصمتها بقرب « ستالينغراد » ؟ .

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها ، فارجعوا إن شئتم إليه ، تَطَلَّعوا عليه .

ولما كتب لي أن أزور القارة الهندية ، وأندونيسيا ، رأيت للمسلمين فيها تاريخًا ما كنت أعرفه ، ولا كان مما يدرس في المدارس ، ولا مما يوجد في الكتب التي اطلعنا عليها . تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذي يحيط به ، والقلم البليغ الذي يكتبه ، وفي هذا الكتاب مثال صغير عليه في سيرة : الملك الصالح (228) ، ومن نظر في كتابي عن أندونيسيا ، وقرأ قصة دخول الإسلام إليها ، لرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول .

***

والعجب ممن يزعم أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، هل كان مع الرسول ـ ﷺ ـ في مكة سيف ؟ والمجتمع الإسلامي الأول ، الذى كان فيه مع محمد أبو بكر وعلى وخديجة وسلمان وصهيب وبلال ، وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام ، هل كان معهم سيف ؟ !

هل تنبهتم إلى أسمائهم ؟ هل أدركتم الرمز الذى تشير إليه ؟ لقد مثل فيه الرجال بأبى بكر ، والنساء بخديجة ، والأولاد بعلى ، وهل المجتمعات إلا رجال ونساء وأولاد ؟ ومثل فيه العرب بهؤلاء ، والفرس بسلمان ، والحبشة ببلال ، والروم بصهيب ، وهؤلاء هم قطان هذه البقعة من الأرض .

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها دعوى بلا دليل ، والدليل القائم ، عليها لا معها ، انشروا مصور العالم الإسلامى وانظروا ، هل البلاد التى دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً ، أم البلاد التى دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح ، وانطواء راياته ، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة ؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقية ؟ وهل بلغت كوريا واليابان ، أم انتشر فيها الإسلام وحده ؟

وهل أكره الفاتحون الأولون أحداً على الإسلام ؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين ، كالإسكندر ، وجنكيز ، وبونابرت ، وهتلر ، وأمثال لهم كثير ، فأين الآن ما فتحوه ؟

لقد كان زيتًا صببته على ماء ، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً ، فلما بطل الهز عاد الزيت زيتا والماء ماءً . بقى فى البلاد غالبون ومغلوبون ، مفتوحة بلادهم وفاتحون .

أما الفتح الإسلامى فقد كان كاختلاط الماء بالخل ، صبَّ ماءً على الخل

ثم انظر هل تقدر أن تفصل الخل عن الماء ؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التى بلغها الفتح هل تميِّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين ، من أبناء البلاد الأولين ؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة ، ليست أمة العرب ، ولا أمة الفرس ، ولا أمة الترك ، ولكن أمة محمد ـ ﷺ ـ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10]

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها مقالة جاهل بالطبع البشرى ، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها .

إن الإسلام عقيدة ، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة ، فمن سمع أن العاطفة تجىء بالقوة والبطش ؟ إذا فَرِكَتْك امرأتك (أى كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها إما أن تحبينى وإما أن أكسر أضلاعك ؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه ؟ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : 256] . لقد عرف التاريخ حكامًا طغاة جبارين ، يكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين ، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون ، ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم ، حتى تمتلئ بحبهم ؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم ؟

أقمت فى أندونيسيا شهراً ، نهارى فيه مع العلماء والأدباء ، وسهرى فى المحاضرات والندوات ، زرت الجامعات والمكتبات ، ووقفت فى آخر جزيرة « جاوه » على قبر الرجل الذى حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم ، وهم يعظمونه فيقولون : (سلطان إبراهيم) .

فمن إبراهيم هذا ؟ ما وجدت ممن لقيت من الناس ، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء . فكيف إذن دخلت هذه البلاد فى الإسلام ، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مائة وخمسون مليوناً ، كلهم

مسلم بالقيد الرسمى ، مسلم بالإحصاء الجغرافى ، نسأل الله أن يخلصها من مكر الملحدين ، والبانجاسيلا (المبادئ الخمسة) التى جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين ، ومن كيد المكفِّرين المنفِّرين المنصِّرين الذين يدعون افتراء بالمبشرين .

إن فى تاريخ الإسلام فى أندونيسيا رجالاً أبطالا ، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم .

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمائة مجلد . نعم وأكثر من ذلك ، لا أبالغ ، ولا ألقى القول جزافاً ، صدقونى .

إن تاريخنا أعظم تاريخ ، ولكننا أمة تجهل تاريخها . هذا التاريخ الذى ليس لأمة مثله ، هذا التاريخ الذى يفيض بالحب ، والنبل والتضحية والبطولة والإيمان .

ولست أعنى التاريخ السياسى وحده ، بل التاريخ العلمى أولا . تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين فى ميدان الطروس ، بأسنة الأقلام ، وهجروا لذلك لذائذهم ، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم ، واطرحوا رغبات الغنى والجاه ، وكل ما يتزاحم عليه الناس ، واستهانوا فى سبيله بكل صعب ، حتى أنهم كانوا يرحلون الإبل أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان ، أو من مغربها فى الأندلس ، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد، فى طلب مسألة مفردة ، أو حديث واحد . أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتيات ، فسارت البشرية على ضوئها . كانوا فى عصر الحكمُ فيه حكم مطلق ، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم ، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها

الحصانة التى يعتز بها القضاء ويكفلها لهم القانون الآن [1] ، تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم ، وفارقوا أهليهم وخلفوا دنياهم وراء ظهرانيهم ، أداء لحق الله وإعلاء لكلمة الله ، ما كانوا عادين ولا باغين ، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حربا دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع ، فما كانت دفاعا عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة ، فنهدنا [2] ندافع عنها ، إنما هى حرب دفاع عن العقيدة .

أرأيتم الجائعين فى أفريقية ، الذين تسمعون أنباءهم فى الإذاعات ، وتقرؤونها فى الجرائد . . . إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء ، وما يدفع عنهم البلاء ، فوقف ظالم فى طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم ، يريد أن يميتهم فى دورهم حتى تصير هى قبورهم .

ألا تقاتله ؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون . نزل عليهم المصباح الهادى فى (حراء) والدنيا تتخبط فى الظلماء ، فحملناه لينير لهم طريقهم ، فاعترضنا من يمنعنا .

قلنا : تعال فاحمل النور معنا ، تكن منا ، لك ما لنا وعليك ما علينا . قال: لا .

قلنا : فدعنا نمر ونحن نحميك من عدوك ، ونرد عنك من يعتدى عليك ، ونبذل نحن أرواحنا دونك ، لا نريد منك إلا أجرة يسيرة من مالك ، مقابل ما نبذل من دمائنا ، قال : لا .

---

(1) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ) .
(2) نهد : أى نهض .

فما الذى نصنعه معه إلا أن نقاتله ؟ هذا هو الجهاد .

إن تاريخنا السياسى أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم ، ولا يخلو ـ على ذلك ـ من أمور لا يحسن أن ننشئ عليها أولادنا ، أمور تقضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون ، ويحسنون ويسيئون ، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

حتى المجتمع الذى كان أسمى مجتمع بشرى ، الذى كان (ظاهرة) لم تُسْبق ولم تتكرر ، مجتمع الصحابة لم يَخْلُ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة ، ولكن من دس الدسائس بينهم ، وفرق بالكذب جمعهم . فلماذا ندرسها لأولادنا ؟ لماذا ، وقد كره علماؤنا الخوض فيها ؟ وكيف نسمح لمدرس غر قد يكون قليل الدين ، أن يقيم من نفسه حكمًا بين عائشة أم المؤمنين وعلى أمير المؤمنين ؟

تقولون : ما الحل ؟ لقد بصرت بالحل أيام الوحدة لما كنت قاضى دمشق ، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التى تديرها الأوقاف [1] ، وكتبت بذلك إلى الوزير [2] ، فكلفنى وضع مناهج جديدة لهذه المدارس ، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً ، كان منها : أنى رفعت من المنهج التاريخ السياسى ووضعت مكانه مادة سميتها : (أعلام الإسلام) . ندرس فيها مناقب العظماء ، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم ، وأمضى الوزير ما اقترحت ، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن .

أنا مدمن القراءة يومى كله إلا ساعات العمل ، أمضيه فى المطالعة ومحادثة الكتب ، من يوم أتقنت القراءة ، قبل سبعين سنة ، وأنا أقرأ . وأكثر

(1) أى رئيس مجلسها الأعلى .
(2) عبد الحميد السراج .

ما أولعت به التاريخ ، وذلك بعد إقامة لساني بتعلم العربية ، وضمان آخرتي ـ وما تضمن إلا برحمة منه ـ بمعرفة الشرع . فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم ، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات ، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت ، (ورجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التي حسب قوم أني كتبتها للأطفال فعدوها من أدب الأطفال ، مع أني لم أكتبها لهم ، وأسلوبها يعلو ـ كثيراً ـ عن أفهامهم .

بدأت بهذه الأنواع كلها من سنة 1930 من حين كنت (محرراً) في جريدة (فتى العرب) ، بل لقد بدأت ، في الفتح والزهراء سنة 1347 هـ ، وهذا الكتاب ثمرة باقية ، مما فقد .

وهذه هي الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب . أما الطبعات المسروقة فلا أحصيها . ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها .

وقد وقفت أنا على طبعها ، وعدلت فيها ، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل في مجلة ولا صحيفة ولا كتاب ، بل لم يذع من الإذاعة ، لأنه لم يكمل ، وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع .

وليس لأحد في هذا الكتاب ولا في غيره من كتبي حق من حقوق الطبع ، ومن ادعى ذلك كان كاذباً .

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذي تنفد فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها . أقول هذا لمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين ، لا يردعهم عنه الدين ، ولا الخَلق المتين ، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلا فيها . ولا يحرصون إلا عليها ، يلبسون للمؤلف عندما يلقونه جلد الحمل

الوديع ، فإذا صار الكتاب فى أيديهم ، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب الكاسر ، وهذه تذكرة لمن شاء أن يذّكر ، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد .

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقى الله لى منه ما يكفينى وسآخذ حقى يوم أكون محتاجاً إليه ، لا من ريالات المعتدى ودولاراته ، بل من حسناته التى هى وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته .

نسأل الله أن يحيى قلوبنا ، حتى نراقب ربنا ، ونذكر آخرتنا ، وأن يهدينا جميعاً : الناشرين والمؤلفين .

أما (دار المنارة) التى تنشر هذا الكتاب اليوم ، فهى منِّى ليست غريبة عنى ، وصاحبها ديِّن أمين على حين قلَّت فى الناس الأمانة ، وأنا لا أزكِّيه على الله ولكن أزكِّيه للناس . وأنا أعلم أنَّ هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها .

أمَّا جودة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك .

وبعد : فما أردتها مقدمة للكتاب ، ولكن تعريفًا بهذه الطبعة استرسل فيه القلم ، وانبسط المجال فطال المقال .

علي الطنطاوي

الفصل الأول

- سيد رجال التاريخ 1
- سيد رجال التاريخ 2
- معلمة الرجال
- سيدة جليلة

من سيدات المجتمع الإسلامى

سيّدُ رجال التاريخ

*** من صور الهجرة ***

نحن الآن فى مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك ، بين الإصلاح والجمود ، بين محمد وقريش ، وبذلت قريش قوَّتها ، وبذلت قريش مالها ، وقدمت دنياها كلها ، فى شيء واحد : هو أن تمنع هذاالخير عن الدنيا .

قال محمد : « **افتحوا لى الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء ، فأنصر الضعيف،وأنجد المظلوم ، وأعيد للبشرية كرامتها ، وللعقل سلطانه** » ، قالوا : لا

قال : « **افسحوا لرسالتى لتنطلق فى الزمان ، فإنها ليست لبلد واحد ، ولا ليوم واحد** » ، قالوا : لا ! ولكن تعال نملكك إن شئت علينا ، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيِّد هذا البلد كله . وسخر التاريخ من قريش . . . يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض ، وزعامة الدنيا ، ويضع فى أيديهم مفاتيح الكنوز : كنوز المال ، وكنوز العلم ، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر ، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية ، النائمة بين جبلين ، وراء رمال الصحراء .

وانطلقوا يؤذونه ، ويتوعدونه ، لعلَّ الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب . رموا فى طريقه الشوك وهو ماش ، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد ، ورموه فى الطائف بالحجارة وأسالوا دمه ، وهزءوا به ، وسلطوا عليه سفهاءهم .

فلم يثر هذا كله غضبه ولكن أثار إشفاقه ، إشفاق الكبير على الأطفال

المؤذين ، والعاقل على المجانين ، وكان جوابه : « **اللهمَّ اهد قومى فإنَّهم لا يعلمون**» .

ولم يصرفه عن وجهته شيء ، إلاَّ إن صرف القمر عن مسيرة فى قبَّة الفلك زرَّ ردة تلقيه عليه ، أو حجر ترميه به .

وآذوا المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم ، وعذبوهم ، وكانوا يبطحون المسلم عارياً على الرمال الملتهبة التى يشوى عليها اللحم ، ويضعون عليه الصخرة الهائلة ، ويلوِّحون له بالماء ، ويقولون : اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك . فيقول : أحد ! أحد ! .

وتشغله لذَّة المفاجأة ، عن لذعة العذاب ، ونشوة الأمل بالجنَّة ، ، عن شقوة الألم فى الدنيا .

احتملوا فى سبيل الله كل شيء ، الضرب ، والجرح ، والحرق ، والجوع ، والسهر ، واستحْلَوا فى سبيل الله المرائر ، واستحبوا أبغض المكاره إلى النفوس إن كان فيها رضا الله .

ودعاهم الرسول إلى ما هو أشد من هذا كله ، إلى فراق الوطن ، وترك الأهل ، وأن يمشوا فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها ، وليست منهم ، ولا لسانها لسانهم ، ولا دينها دينهم ، إلى الحبشة يجاورون فيها النصارى ، ونصارى الحبشة أولى بهم من مشركى العرب ، ولتجدن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى (1) ، فخرجوا من منازلهم وهجروا أهليهم ، ومشوا إلى الحبشة فلحقهم أذى قريش إلى الحبشة .

وأوغلت قريش فى كفرها وصدِّها وعنادها ، ولكن هل تقدر قريش أن تطفىء نور الله ؟

(1) اقرأ الآية كاملة واعرف سبب نزولها تعرف من هم النصارى المقصودون .

إن البخار الذى من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر فى زجاجة ، وإن حصرته وجد منفذاً أو مزق الإناء ، وكذلك صنع الإسلام .

وهاجر المسلمون مرَّة ثانية ولكنها هجرة إلى ديار عربية ، إلى قرية قدر لها أن تبقى الدهر خاملة ضائعة وراء الرمال ، حتى تتشرف بمحمد ، فإذا هى أم المدائن ، وعاصمة العواصم ، منها تبع عيون الخير والهدى لتسيح فى الأرض ، فتسقيها وتعمها بالخيرات ، وإليها تنصب أنهار الملك والغنى والسلطان من كل مكان .

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق فى مكة إلا النبى ورجلان اثنان مرافقه فى السفر ، ووكيله فى مكة . رجلان كانا أول من أسلم . وآخر من هاجر : سيد الكهول أبو بكر وسيد الشباب علىّ .

تأخر محمد كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميئوس منها فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً .

وكما يتأخر الراعى الأمين ، عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله .

تأخر يحمى أتباعه ، ويستقبل بصدره الخطر .

وجاء الخطر على أشد صوره وأشكاله .

اتفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة فى تاريخ الجنس البشرى .

جريمة لو تمت ، لما كانت فى التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة ، ولا كانت للراشدين دولة ، ولا للأمويين ، ولا للعباسيين ، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية ، ولا بنى الأموى ، ولا النظامية ولا الحمراء ، ولما قامت الحضارة التى قبست منها أوربا حضارتها : من الشام فى الحروب

الصليبية ، ومن الأندلس بعد ذلك ، ولبدل التاريخ طريقه ، ولكنا اليوم على حال لا يعلمها إلا الله .

وهنا تتجلى رجولة محمد وشجاعته ، وثبات أعصابه ، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه ـ حين فتح محمد الباب ، وخرج يشق صفوفهم ، يقتحم الجموع ، التي جاءت تطلب دمه ، أرادوا قتله وأراد الله حياته ، فتم ما أراد الله ، وروعتهم المفاجأة وأعمت أبصارهم ، وما عادوا إلى أنفسهم حتى كان محمد قد مضى ، وصحوا كأنَّ حلماً مرَّ بهم ، وشقوا الباب ونظروا ليتوثقوا ، فرأوا فراش محمد وفيه رجلٌ نائم ، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء .

* * *

وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد ، وعمَّ الصريخ مكة وضواحيها ، وخرج القرشيون فرساناً ومشاة يركضون خيولهم ، ويعدون إلى كل ناحية يتلفتون مذعورين .

ما لهم ؟ ما لهم وهم حماة الديار ، وفرسان المعارك ، قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم ؟ ما لكم يا ناس ؟ قالوا : خرج محمد !

وماذا تطلبون منه ؟ أخذ أموالكم ؟

قالوا : معاذ الله إنه الأمين المأمون أداها عن آخرها ؟

أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها ؟

قالوا : حاشا لله ، إنه أحسن الناس خلقاً ، وأطهرهم يداً .

ماذا تريدون منه ؟ قالوا : إنَّه سيجند الدنيا كلها ، لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا وكبريائنا ، سيضطرنا إلى هدم الحجارة الجامدة ، وعبادة الله الواحد . واتباع سبيل الهدى ، والخير والسداد .

أهذا الذى تنقمون من محمد ؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية !

وعادت قريش بخزيها ، وهاجت الجزيرة ضدَّ محمد ، ووضعت الجوائز ، (مائة ناقة) لمن يأتى بمحمد حياً أو ميتاً .

وبعد أن فارق محمد وصاحبه الغار لحقهم فارس [1] وخاف أبو بكر وقال : والله ما على نفسى خفت ، ولكن عليك ، فأجاب محمد بالكلمة التى تجمع وحدها معجزات الإيمان ، مهما تعددت صورها ، من الشجاعة والتضحية والثبات ، والإيثار ، قال : لا تحزن ، إنَّ الله معنا .

إن الله مع من يكون مع الله ، إن الله ينصر من ينصره ، فلا يحزن من كان الله معه .

إن جبهة معها الله ، لا تنكسر ولو كان ضدَّها الوجود كله !

***

ومشى الموكب إلى الدنيا الواسعة . موكب صغير ، ولكنه أجلُّ من أعظم موكب أحست بوطئته هذه الكرة التى نمشى على ظهرها ، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً وأبعد غاية ، وأخلص نية ، وأعمق فى الأرض أثراً .

موكب صغير يمشى فى الصحراء الساكنة ، لا رايات ولا أعلام ، ولا أبواق ولا طبول ، ولا تقوم له الجند على الصفين ، ولا يصفق له الناس من النوافذ ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذى سيضفى عليها ثوب الخصب

(1) هو سراقة وقد تعاورت هذه الحادثة أقلام ، وأخرجت فيها (أفلام) وكتب أول من تنبه إليها ، وكتبت فيها قصة نشرت فى **الأعدد الممتازة** من (**الرسالة**) الصادر يوم 12 المحرم سنة 1354 هـ .

والنماء، وتُزهى الجبال طرباً ، بالذى سيقيم عليها أعلام النصر والعز ، وتبرز من بطن الغيب جحافل القواد والعلماء والأدباء الذين أنبتهم مسير محمد فى هذه الصحارى .

حتى أشرف على المدينة . وأقبلت جموع كالجموع التى خلفوها فى مكة .

ولكن تلك كانت للشر ، وهذه للخير . وتلك تنادى بالموت لمحمد ، وهذه تنادى بالحياة لرسول الله .

وكانت هذه نقطة التحول فى التاريخ الإسلامى .

كل ما قبلها هزائم ، وما بعدها إنما هو نصر إثر نصر . ولذلك جعلناها ابتداء تاريخنا

* * * *

ها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة ، وقد خرجت كلها تستقبل محمداً، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقطع أكبادها ، حتى يمشى على قلوبها ، وكانت تنشد نشيد الاستقبال :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وها هم الناس يسألون : أيهم هو ؟ أيهم محمد ؟

لا يعرفونه لأنه لم يكن ملكاً ، ولا يلبس الحرير ، ولا تلوح عليه شارات الملك ، ولا يتألق على جبينه التاج ، بل كان عبداً لله متواضعاً ، يلبس ما يلبس الناس ، ويأكل ما يأكلون ، ويجوع إن جاعوا ، ويشبع إن شبعوا ، ولقد كان فى أصحاب الأغنياء الموسرون ، ولكن محمداً أحب أن يعيش فقيراً وأن

يموت فقيراً .

وحسبوا أبا بكر هو النبى ، فكانوا يسلمون عليه ، وهو يشير إلى الرسول يقول لهم بيده : ها هوذا محمد . وأقبلوا يدعونه لينزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف الخالد .

فماذا صنع ؟ انظروا إلى لطفه ولباقته ، إنه لا يريد أن يؤذى أحداً بالرفض ، فقال : اتركوا الناقة فإنها مأمورة ، ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبى أيوب الأنصارى .

أبو أيوب ، الذى كتب الله أن يحضر بعد حرب القسطنطينية وأن يوغل فى الهجوم يريد أن يموت فى أبعد مكان ، فمات ودفن على ضفاف البوسفور ، وبقى قبره يدعو المسلمين إلى فتحها قروناً طوالاً ، حتى كتب الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح .

نحن الآن مع محمد ـ ﷺ ـ فى المدينة . إنه يؤسس الدولة الجديدة ، فيم ترونه يبدأ ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك ؟ إنه لا يريد الملك ! يبنى ثكنة باحتفال عظيم ويجيش جيشاً ؟ إنه لا يبتغى العلو فى الأرض ! يفرض الضرائب ؟ لا ، ولكن يبدأ بعمارة المسجد .

إنها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القارىء عندها . يبدأ بالمسجد ، كما بدىء الوحى بآية (القرآن) و (التعليم) بالقلم .

بدأ بالمسجد والمسجد فى الإسلام ، هو المعبد (رمز) الإيمان ، وهو البرلمان (رمز) العدل ، وهو المدرسة (رمز) العلم .

ولم يغصبه بل شراه بالمال وذلك (رمز) الإنصاف .

ولم يأمر ببنائه ويقعد ، بل شارك أصحابه العمل ، وحمل الحجارة بيده ،

وهذا (رمز) الديمقراطية ، وبناه من اللبن والطين ، بلا زخارف ولا نقوش وهذا (رمز) البساطة [1] .

فكان من هذه (الرموز) الإيمان والعدل والعلم والإنصاف والديمقراطية والبساطة مجموعة شعائر الإسلام .

* * * *

(1) البسيط في اللغة الواسع المبسوط ولكني أردت معناها الشائع .

سَيّدُ رجَال التاريخ

*** يوم الهجرة ***

اليوم تغلق الدواوين [1] أبوابها ، وتسرح المدارس طلاّبها ، وترفع الأعلام في النهار ، وتوقد السرج في الليل ، احتفاء بذكرى الهجرة ، ثمّ يمر اليوم ، كما مرّ الأمس ، ويمر الغد ، لا يسأل ولد أباه، ما معنى الهجرة ؟ وإلام يشير هذا اليوم ؟ ولا يحدِّث أب ولده وأهله حديث الهجرة ، لأن أكثر الآباء لا يعرفون من سيرة نبيهم وهاديهم ، إلا القليل الغامض ، الذى لا يفيد علماً ، ولا ينفى جهلاً ، ولا يأتى منه شىء .

مع أنَّ على كل رب أسرة ، أن يكون فى بيته كتاب جامع من كتب السيرة ، وأن يقرأ فيه دائماً ، وأن يتلو منه على أهله وأولاده وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم ، لينشؤوا على معرفة سيرة الرسول الأعظم - ﷺ - فإنَّ سيرته الينبوع الصافى لطالب الفقه ، والدليل الهادى لباغى [2] الصلاح ، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ ، والدستور الشامل لكل شُعَب الخير .

وأنا من ثلاثين سنة أكتب وأخطب فى الهجرة[3] ما انقطعت عن ذلك سنة ، ولا أزال مع ذلك ، كلما فكرت فيها بدت لى فى أخبارها ، ملاحظات وعبر ، لم تك قد بدت لى من قبل ، ونظرت إليها من جوانب جديدة ، فرأيت

(1) فى بعض البلدان .

(2) أى قاصد

(3) خطبت أول خطبة فيها سنة 1345 هـ فى الاحتفال السنوى للمدرسة الأمينية فصارت الآن ستين بدلاً من الثلاثين ، نسأل الله حسن الخاتمة .

قديمها جديداً ، فهى كالنبع الذى لا يزداد على الاستسقاء إلا غزارة وعذوبة وصفاء .

****

ومن المعروف المشاهد ، أنَّ الألفة تذهب العجب ، ونحن لا نعجب لطيران بيت ضخم من الحديد والفولاذ ، ولا لنطق صندوق صغير من المعادن والأسلاك ، لأننا ألفناه وعرفناه ، مع أن ذلك عجيب فى ذاته ، وفوق العجيب .

وكذلك نحن حين نقرأ سيرة الرسول ـ ﷺ ـ ، نمر بخبر الحادث المدهش ، فلا نكاد ، من ألفتنا إياه وتكرار سماعه ، نفكر فيه ، أو ندهش منه ، ولو سمعنا الآن أن رجلا أمياً ، لم يدخل مدرسة ، ولم يحضر حلقة علم ، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وقام (على ذلك كله) فى قرية معتزلة فى صحراء منقطعة ، ليصلح وحده الدنيا كلها ، ويمنع الحرب منها ، وينزع سلاح الدول القوية العاتية ، ويكلفها بأن تترك دنياها وعتوها ، وأن تتبعه . . . لبلغت بنا الدهشة أبعد الغايات ! فكيف إن سمعنا بعدُ ، بأن هذا الرجل تبعه نفر قليل من الضعفاء المساكين ، وأنه حمل هو وهؤلاء النفر ، أشد أنواع الأذى الجسمى والنفسى ، فثبت وثبتوا على ذلك كله ثباتاً ليس له نظير فى تاريخ البشر .

وكيف لو سمعنا بأن هذا الرجل قد نجح ، وأنه لم تمض على دعوته ثلاثون سنة ، حتى خضعت له أكبر دولتين فى الدنيا اليوم : روسيا وأميركا مثلاً ، واتبعتا ما جاء به ، وقبل به ، وتحمس له شعباهما ، حتى سبقا فى ذلك أتباعه الأولين .

وأنَّ هذا الرجل الأمى الذى لم يتعلم ، قد جاء بكتاب ، هو دستور ، وهو

قانون مدنى ، وهو قانون للأحوال الشخصية ، وهو قانون جزائى ، وهو قانون دولى ، وهو مذهب أخلاقى ، وفيه تاريخ ، وفيه لفتات علمية عجيبة ، وفيه رفع للنفس البشرية إلى أعلى أجواء الطهر والعبقرية والعظم، وهو بعد ذلك مكتوب بأسلوب ، لا يمكن أن يجاريه إنسان ، أو أن يجىء بمثله ، لأنه جاوز أرفع طبقات البلاغة البشرية . . .

وأن هذه الدعوة لم يكن نجاحها، فورة سريعة ، ولا كانت وثبة كنار القش، تشبُّ فى لحظة ، وتخمد فى لحظة ، بل كانت شيئاً أخلد من الخلود، وأبقى من الدهر ، وأنها ، بعد ما مرَّ عليها أربعة عشر قرناً من الزمان ، وبعدما مرَّت بأربعين ألف كيل على الأرض ، وبعدما بلغت آفاق الدنيا ، لاتزال فى نفوس أتباعها على القوة التى كانت عليها فى ابتدائها ، ولا تزال على صفائها وطهرها ، كلما علقت بها أو ضار الزمان ، انتفضت انتفاضة فعادت كما كانت .

كم يكون عجبكم من هذا الرجل ، لو ظهر مثله من جديد ؟

هذا الذى صنعه محمد ، يا أيها السادة ـ هذا هو بالضبط !

نزل عليه جبريل ، وهو منفرد فى جبل قفر ، فى قرية صغيرة متوارية فى واد ضيق ، وراء الرمال المحرقة ، والصحراء المهلكة ، فى قرية لم تسمع بها رومة ، ولم تحس بها القسطنطينية ، ولم تبالها (مدائن) كسرى ، فقال له : انهض ، انهض يا أيها الرجل ، قف وحدك فى وجه قريش فاكسر أصنامها ، وحطِّم آلهتها ، ثم أبدل العرب بانقسامهم وحدة ، وجهلهم علماً ، واجعلهم أساتذة العالم ، وحملة لواء الحضارة ، وادع كسرى وقيصر والدنيا كلها إلى الحق والخير والعدل ، فإن لم تسمع لك ، واعتدت وبغت ، فحاربها لا لتستعمر بلادها ، وتملك أعناقها فما كان النبى داعية ظلم ، ولا كان الإسلام

دين (استعمار)[1] ولا كان الجهاد ، حرب عدوان ، إنما الجهاد ، دفاع عن دعوة الحق أمام من بغى لها الأذى ، وسد على أهلها الطريق إلى الشعوب ، ومنعهم أن يحملوا إليها العلم والحضارة والخير .

حارب أهل الأرض إن حاربوك ، وجاهدهم ولو بقيت وحدك : (لا تكلف إلا نفسك) !

وكانت يا سادة[2] محن شداد ، وكانت أهوال ، ولكن محمداً احتمل ما لا تحتمله الجبال . إنَّ الواحد منا يخشى إن قال كلمة حق ، أو دعا إلى خير ، أن يناله إعراض من أمير ، أو يسمع كلمة سوء من الناس ، أو ينقص مرتبه ، أو يمزق ثوبه ، أو يشتم أو يضرب ، وسيد البشر محمد ـ ﷺ ـ ، شتمه قومه ، وآذوه ، وسخروا منه ، وقالوا عنه مجنون ، وقالوا ساحر ، وقالوا كذاب ، وكانت أم جميل بنت حرب بن أمية ، تحمل الشوك فتلقيه فى طريقه ، حتى إذا خرج تعثر به ، وهى (حمَّالة الحطب) . وكان أمية بن خلف يهمزه ويلمزه وهو (الهمزة اللمزة) . وبلغ بهم الأمر أن جاء عقبة بن أبى معيط بسلا جزور (أحشاء جمل) فألقاه فوقه وهو ساجد ، وسخروا منه : فقالوا له ، سل ربك ، أن ينزل ملكاً يدافع عنك فإنك تقوم فى الأسواق مثلنا ، وتلتمس المعاش . وقال آخر : اسقط علينا السماء كسفاً ، كما زعمت . وقال الثالث : أنا أعرف من أين تجيء بهذا القرآن ، يعلمك إياه رجل فى اليمامة ، يقال له الرحمن . . وهم خلال ذلك يضحكون ويقهقهون ، وكلما فتح فمه ليتكلم لقوه بمثل هذه الأقوال . وقال آخر : يا محمد ، لن نؤمن لك حتى تتخذ سلماً تصعد به إلى السماء ، فتأتى بالله والملائكة معك لينصروك علينا . . . فأنزل الله ـ عز

(1) بالمعنى الذى يراد اليوم ، وإن كان ما يسمونه استعماراً إنما هو فى (الحقيقة) (استخراب) وهم المخربون المدمرون ، لا المستعمرون كما يسمون التنصير والتكفير بالتبشير .
(2) كانت هذه المقالة حديثاً أذيع من إذاعة دمشق أول العهد بإنشاء الإذاعة .

وجل ـ حكاية لأقوالهم هذه : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء90 : 93].

وقالوا له ، لماذا لا ينزل علينا ملك ؟ فرد الله عليهم أن لو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل ملكاً، ولكن فى الأرض بشراً ، فكان رسولهم بشراً مثلهم .

وكان النضر بن الحارث ، كلما قام الرسول من محله ، قعد مكانه وحدَّثهم من حديث ملوك فارس ، وقال : حديثى والله أحسن من حديث محمد . وكانوا كلما جاء يتلو عليهم القرآن ، شغبوا عليه وصاحوا ، وقالوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت : 96] . ولما نزلت عليه آية ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر : 30] . قال أبو جهل ضاحكاً ساخراً : يا معشر قريش زبانية جهنم التى يخوفكم بها محمد تسعة عشر [(1)] فهل يعجز كل مئة منكم عن رجل منهم ؟ ! فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : 31] . وقال أبو جهل : يا معشر قريش ، هل تعرفون ما هى شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟ هى عجوة يثرب بالزُّبْد ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ

(1) اتخذ البهائية الكفرة رقم (19)رمزاً مقدساً ، وجاء المدعو رشاد خليفة يروج لضلالهم متستراً بآيات الله يضعها فى غير موضعها ، وبحساب (الجمل) الذى افتراه اليهود ، وأخذه منه أصحاب (وحدة الوجود) حتى زعم أنه عرف به متى تقوم الساعة . ضلالة بينة فاحذروها وافتراء واضح فلا تخدعوا به .

الْحَمِيمِ ﴾ [الدخان : 43] .

ولم يكفهم ذلك كله حتى قاطعوا محمداً وأصحابه ، وحبسوهم فى الشِّعْبِ أمداً طويلاً لا يبيعونهم ولا يكلمونهم .

فهل ترونها أثرت هذه الأهوال كلها فى عزيمة محمد ؟ أو نقصت من إيمانه بدعوته وحماسته لها ؟ لقد عرضوا عليه معها أقوى المغريات : أن يملكوه عليهم ، وأن يعطوه الأموال ، وأن يقدموا إليه أجمل النساء ليتزوج منهن بمن شاء ، فكان موقفه بعد هذه المغريات كلها ، وهذه المصائب كلها ، أن قال لعمه أبى طالب : « **والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى لأترك هذا الأمر ما تركته** » .

فهل تعرفون فى تاريخ الجنس البشرى ، موقفاً آخر كهذا الموقف ؟

واستمر هذا كله ، وامتد ، لا يوماً ولا يومين ، ولا أسبوعاً ولا شهراً ، امتد سنواتاً طوالاً ، ولو أن رجلاً غير محمد ، لقال : (حسبى . لقد عملت ما علىَّ ، وبذلت الجهد ، فإذاً النجاح مستحيل ، وقد آن لى أن أنسحب وأقعد فى بيتى) .

ولكنَّ الانسحاب لا مكان له فى منهج محمد ، وكلمة المستحيل لا وجود لها فى معجمه ، وإذا لم ينجح فى مكة فلينتقل إلى غيرها . فإن الدعوة للدنيا كلها ، وللعصور كلها ـ وانتقل إلى الطائف ، والنقلة إلى الطائف عسرة والطريق إليها طويل ، ولكنَّ محمداً ـ ﷺ ـ لا يصرفه عن الغاية عسر المسلك، ولا طول الطريق .

وبلغ الطائف وقصد سادة ثقيف الثلاثة لعلَّه يلقى عندهم ، ما لم يلق عند زعماء مكة ، وبدأ يعرض عليهم دعوته ، فإذا أولهم يقول له : (أنا أمرط [1]

(1) أنتف وأمزق .

ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . . . وقال الثانى : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك . . . وقال الثالث : أنا لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظم من أن أردَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، فما ينبغى لى أن أكلمك !) [1] .

قال : « **أما إن رفضتم ما جئت به فاكتموه عنى**» . لجأ إلى نبلهم بعد أن يئس من عقولهم ، فما كانوا نبلاء ، وأغروا به السفهاء والعبيد ، يلحقونه ويدفعونه، ويسبونه ويصيحون به ، حتى أخرجوه إلى طرف البلدة ، وهنا وقد بلغ الهول هذا المبلغ ، دعا رسول الله ـ ﷺ ـ دعاء ، ما تلوته مرة إلا فاضت عيناى ، وما أحسب أحداً يسمعه ويفهمه ، يملك قلبه أن يسيل من الرقة دمعاً من عينيه .

قال : « **اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ،وقلة حيلتى ،وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .**

إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ .

إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وهنا موقف عجب من العجب ، الرسول فى هذه الحال من الشدِّة ، وفى هذا الموقف الذى يُقنط أجلد الأبطال ، رأى بادرة قبول للدعوة عند عبد ضعيف يقال له عدَّاس ، فلم يمنعه كل ما لقى من أن يبلغه دعوة الله وينصرف

(1) هذا الكلام الفارغ من المعنى ـ البعيد عن التهذيب ـ هو الذى يقول أمثاله اليوم ـ بعض من ندعوهم إلى التمسك بالدين تشابهت تفاهة الأولين والآخرين .

إليه ، وينسى ألمه وتعبه ، حتى أسلم .

هذا موقف صغير بالنسبة للرسول ، ولكنه عظيم بالنسبة إلى دعاة البشر فى كل تواريخهم .

ولا يستطيع باحث أن يلقى فى الإخلاص للدعوة ونسيان الذات فى سبيلها ، موقفاً مثله لرجل آخر غير محمد ـ ﷺ ـ .

***

ها هوذا قد جرَّب الدعوة فى مكة ، وفى الطائف ، فلم ينجح ، وصبر ثلاث عشرة سنة ، أربعة آلاف وستمائة وثمانين يوماً ، كل يوم من طوله وشدَّته سنة ، فهل بعد هذا مجال للصبر ؟

ألا يعذر لو ألقى السلاح ، بعد هذا كله وانسحب ؟ .

ولكن لا ! .

إن قريشاً بجهلها وحماقتها تريد أن مد النور عن الأرض كلها ، تريد أن تمنع الخير عن العصور القادمة التى ستتلقى هذا النور ، تريد أن تمنع قيام بغداد والقاهرة ، وجامع قرطبة ، والمدرسة النظامية ، تريد أن تطمس الحضارة التى جاء يقيمها محمد ، فتمتد من أقصى الغرب إلى آخر جاوه ، فماذا يصنع محمد ؟ .

يهاجر ليفتح للدعوة باباً آخر تطل منه على الدنيا .

وكان هذا الباب هو يثرب التى صارت به (المدينة المنورة) .

وسيَّر أصحابه إليها ، وتأخر هو ، لم يترك مكة دار الفزع ، إلى يثرب دار الأمان ، حتى لم يبق فيها أحد من المسلمين .

لم يترك إلا علياً ، وهو منه ، وهو كولده ، نام فى فراشه ، ليؤدى الودائع التى كانت عنده لقريش ، ولقد قلت من قبل أنى قرأت هذا الخبر مئة مرة فما انتبهت إلى ما فيه إلا تلك المرة ، حين فكَّرت فى قريش ، كيف تودع محمداً أموالها وذخائرها رغم كل ما كان بينه وبينها ، وهل يودع حزب أوراقه ووثائقه عند فرد من حزب آخر معاد له ، لولا أن محمداً كان فى أمانته ، وفى قوة خلقه ، أمة وحده ، وأنَّه كان طراز ليس له فى البشر ثان .

***

وهاجر مختفياً مع صفيِّه وخليله شيخ المسلمين أبى بكر ، لم يختف من ضعف ولا جبن ، ولكنه كان كالقائد المسافر ليدير المعركة الكبرى ، فهل يظهر نفسه ويقف على الطريق ، ليحارب فصيلة لحقت به ، فيظفر عليها ، ويعطل المعركة الكبرى ؟

إنها تنتظر محمداً معارك أكبر ، تنتظره بدر ، والفتح ، وهوزان ، والقادسية ، واليرموك ، وجبل طارق ، ومعارك الفتح الإسلامى ، التى امتدت من بعد . سلسلة مظفرة خيرة ، نثرت شهداء الحق فى كل أرض ، ونصبت راية العدل على كل جبل ، وأضاءت بالإسلام القلوب والبلاد فى كل مكان و تنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسوق ، وسائر الأوضار الخلقية التى جاء ليطهر المجتمع البشرى من آثارها .

ودخل المدينة لا يرفرف على رأسه علم ، ولا يمشى وراءه موكب ، ولا يقرع له طبل ، ولكن ترفرف على رأسه راية القرآن ، وتمشى وراءه العصور القوادم ، و يخفق له قلب التاريخ ما بقى فى الدنيا تاريخ .

وختمت فى تاريخ الدعوة صفحة ، وفتحت صفحة أخرى ، ومضى عهد

الضعف والأذى وبدأ عهد القوة والظفر ، وكانت الهجرة هى الحد الفاصل بين العهدين .

***

فيا أيها المسلمون .

اذكروا كلما احتفلتم بالهجرة ، أنَّها كانت هى الفصل الأول فى كتاب المكارم والمفاخر والأمجاد ، وأنَّ على المسلم كلما ضاقت به سبل النجاح فى حى أو بلد أو قطر ، أن يهاجر إلى حيث الظفر والعزَّة والحرية ، وحيث يكون ذلك كله ، وحيث تسود العدالة ويعم النور ، وحيث ينادى المنادى :

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) ـ فذلك وطن المسلم ! .

***

مُعلمة الرّجال

هذا الحديث عن السيدة التى أثبتت للدنيا منذ أربعة عشر قرناً، أن المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال ، حتى يتعلموا منها ، وأن تكون أرجل من الرجال ، حتى يقتدوا بها ، وأن تكون سياسية ، وأن تكون محاربة ، وأن تخلف فى التاريخ دوياً تتناقل أصداءه العصور . لم تتخرج فى الجامعة ، لم تكن فى أيامها الجامعات ، ولكنها كانت ، (ولا تزال كما كانت) تدرَّس آثارها فى كلية الآداب ، كما تدرس أبلغ النصوص الأدبية ، وتقرأ فتاواها فى كليات الدين ، كما تقرأ الأحاديث النبوية ، ويبحث أعمالها كل مدرس لتاريخ العرب والإسلام .

امرأة ملأت الدنيا ، وشغلت الناس ، على مر الدهور .

ذلك لأنه أتيح لها ما لم يتح لأحد ، فلقد تولاها فى طفولتها ، شيخ المسلمين وأفضلهم ، أبوها الصديق ، ورعاها فى شبابها خاتم الرسل ، وأكرم البشر زوجها رسول الله ، فجمعت من العلم والفضل والبيان ما لم تجمع مثله امرأة أخرى .

كانت امرأة ، كاملة الأنوثة ، تؤنس الزوج ، وترضى العشير . وكانت عالمة ، واسعة العلم ، تعلم العلماء ، وتفتى المفتين . وكانت بليغة ، بارعة البيان ، تبذ الخطباء ، وتُزرى باللُّسن المقاويل . وكانت لقوة شخصيتها زعيمة فى كل شيء : فى العلم ، وفى المجتمع ، وفى السياسة ، وفى الحرب . أما منزلتها فى الإسلام ، فهى أعلى منازل التقديس ، ولكن ليس فى

الإسلام تقديس لأحد يعلو به عن منزلة البشر ، أو يمنحه صفات الألوهية ، أو يعطيه العصمة المطلقة ، أو يرفعه عن أن تقال فى نقده كلمة الحق .

فهى أفضل امرأة فى الإسلام بعد خديجة وفاطمة ، أما خديجة فلأن لها مزايا قلما اجتمعت لامرأة ، لها عقل لا توازيه عقول المفكرين من الرجال ، ولها رأى ومنزلة وهى أول من رعى هذا الدين ، لما كان نبتة ضعيفة ، وماتت قبل أن تشهد كيف صارت هذه النبتة دوحة باسقة ، امتدت فى المكان ، حتى أظلت الدنيا . وامتدت فى الزمان حتى لامست فروع أغصانها حدود الخلود . أحبت محمداً وأخلصت له ، وكانت له زوجاً خير زوج ، وكانت له مثل الأم ، وكانت له درعاً من سهام الحياة . أما فاطمة فلأنها على نادر سجاياها ، وعظيم مزاياها بضعة من رسول الله ، وحسبها ذلك فضلاً على النساء .

* * *

ولقد عد الزركشى (فى الإجابة)[1] أربعين منقبة لعائشة ، لم تكن لغيرها ، تزوج الرسول نساءه كبيرات ثيبات (زواج مصلحة سياسية أو إدارية أو تعليمية ، لا كما يقول الجاهلون) ، وتزوجها بكراً ، وكانت أحبهن إليه ، وكانت آثرهن عليه . اختار الإقامة عندها لما مرض ، وتوفى بين سَحْرها ونَحْرها ودفن فى بيتها ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معها ، وكان براً بها ، قام لها لما جاء الحبشة يلعبون بحرابهم فى المسجد ، فوضعت خدها على كتفه لتنظر إليهم حتى اكتفت ، وسابقها مرتين ، فسبقته أولا ، ثم لما سمنت وركبها اللحم سبقها ، وقال لها : هذه بتلك ولما دخل عليها أبو بكر ، وهى تقول للنبى ـ ﷺ ـ شيئاً مما يقوله الزوجات عند الغضب ، هم بضربها فحماها الرسول منه ، فلما خرج قال لها مباسطاً : أرأيت كيف حميتك من الرجل ؟!

(1) نشر هذا الكتاب أخى سعيد الأفغانى .

كذلك كانت معاملته ـ ﷺ ـ لأهله : معاملة إيناس وبر وانبساط ، لا كما يظن بعض الرجال ، يحسبون من الرجولة أن يبقى الرجل فى بيته عابساً باسراً مقطباً وأن يأمر زوجته أمراً عسكرياً ، وأن يبطش بها بطش الطغاة ، كلا ، ما هكذا كان رسول الله ، ولا بهذا أمر الإسلام .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى » .

ومن بره بها أن فارسياً دعاه إلى وليمة (قبل أن يضرب الحجاب على زوجات الرسول) ، فقال الرسول : وهذه معى ؟ (يقصد عائشة) قال : لا . وعاد فدعاه فقال : وهذه معى ؟ قال : لا . فدعاه الثالثة . فقال : وهذه معى قال : نعم ، فانظروا إلى هذه السماحة من الرسول . وهذه الصراحة من الرجل ، وقيسوهما بما تعرفون من أحوال الناس اليوم ، ولما نزلت آية تخيير زوجات الرسول ، بين الحرية والإنطلاق فيطلقهن رسول الله ، وبين البقاء عنده ، بلغ من حرص الرسول عليها أن قال : لا تبادرينى بالجواب ، حتى تستأمرى أبويك ، خشية أن تسرع فتختار الدنيا ، فقالت : أفيك أستأمر ؟ واختارت رسول الله ، وتبعتها بقية أمهات المؤمنين .

أما علمها فقد بلغت فيه الغاية . حتى قال أبو موسى الأشعرى : كنا أصحاب رسول الله ، إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة .

وكانت بلاغتها تعادل علمها . قال الأحنف : سمعت خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء إلى يومى هذا ، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ، ولا أحسن فيه ، من فم عائشة .

وكانت كريمة النفس ، كريمة اليد ، صبرت مع الرسول على الفقر والجوع حتى كانت تمر عليها الأيام الطويلة ، وما يوقد فى بيت رسول الله نار لخبز أو طبخ ، وإنما كانا يعيشان على التمر والماء ، ولما أقبلت الدنيا على

المسلمين أتيت مرة بمائة ألف ، وكانت صائمة ففرقتها كلها ، وليس في بيتها شيء ، فقالت لها مولاتها : أما استطعت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ قالت : لو كنت ذكرتني لفعلت .

لم يزعجها الفقر ، ولم يبطرها الغنى ، لأنها لما عظمت نفسها ، صغرت عليها الدنيا ، فما عادت تبالى إقبالها ولا إدبارها .

وأطرف ما فى عائشة ، أنها كانت النموذج الأتم للمرأة ، للمرأة فى طبيعتها وفى طموحها ، وفى مزاياها ، وفى عيوبها .

كانت خير زوجة ، والزواج هو عمل المرأة الأول ، وإن أكبر غايات المرأة أن تكون زوجة وأن تكون أماً ، لا يغنيها عن ذلك شيء ولو حازت مالاً يملأ الأرض ، ولو نالت مجداً ينطح السماء ، ولو بلغت من العلم والرئاسة ما تتقطع دونه الأعناق ، ما أغناها ذلك كله عن الزواج ، ولا محا من نفسها الميل إليه ، ولا الرغبة فيه .

وكانت شابة جميلة ، تشعر بشبابها وجمالها ، ومحبة الرسول لها ، وتتيه بذلك على ضرَّاتها ، وتتخذ من حفصة حليفاً لها عليهن ، تصارعهن بلسانها ويدها . ولو خلا بيت من سخط المرأة حيناً ، وخلافها حيناً ، لخلا بيت رسول الله ، فليجد الأزواج فى ذلك سلوة لهم وأسوة ، فإنا طبيعة المرأة . ولكنها كانت موقرة لرسول الله ، فى رضاها وسخطها ، جاء فى الحديث أنه ـ ﷺ ـ قال لها : إنى لأعرف رضاك من سخطك . قالت : وبم ؟ قال : إن رضيت قلت : لا ورب محمد ، وإن غضبت قلت : لا ورب إبراهيم .

وكانت مدللة ، والدلال طبيعة المرأة الجميلة المحبوبة ، وهو الثمرة الأولى للجمال وللشعور بالحب ، قالت مرة لرسول الله : كيف حبك لى ؟ قال : كعقدة الحبل (أى هو متين مثلها) فكانت تسأله مرة بعد مرة ، كيف

العقدة ؟ فيقول - ﷺ - : على حالها .

وكانت تغار ، والغيرة الثمرة الثانية لذلك ، ولكنها غيرة مقبولة ، تنبِّه الحب ولا تقتله ، وتذكيه ولا تطفئه ، ورب منبه لفرسه بضربة شدّدها فقتلها ومزكٍ لناره بنفخة قواها فأطفأها .

وكانت عالمة لأن العلم لا ينافى طبيعة المرأة ، لم يمنعها كونها أنثى ، من أن تكون فيه للذكور إماماً

ولكنها لما جاوزت حدَّها وخالفت طبعها ، ودخلت غمار السياسة ، التى يطالب بعض النساء اليوم بخوض غمارها و لا أقول لكم ماذا صنعت ، ولكن سلوا رحاب البصرة ، كم حوى بطنها من جثث ؟ سلوا الجمل المشؤوم ، كم سال على جنباته من دم ؟سلوا تلك الأرواح فيم أزهقت ؟ سلوا تلك الضحايا فيم ذهبت ؟

أنا لا أتّهم السيدة بأنها هى المسؤولة قضائياً ، عن هذه الأرواح ، ومن أنا حتى أتَّهم أم المؤمنين ؟ بل أقول إنها باشتغالها بما لم يخلقها الله له ، ولا يدعوها الإسلام إليه ، جرت هذا كله . ونحن حين نكره للمرأة السياسة ، لا نريد أن نستأثر دونها بمتعها ، ولا أن ننفرد بخيراتها ، بل نريد أن ننزهها عن أوضارها ، ونبعدها عن نارها .

وموقف آخر في حياة السيدة هو التهمة الشنيعة التى اتهمت بها ، وهى أبعد عنها ، مِن الأرض عن السماء ، السماء التى نزل منها الحكم ببراءتها بآيات نقرؤها فى صلواتنا إلى يوم القيامة ، ولم تكن إلا درساً ألقاه الله علينا فى شخص أكمل امرأة وأفضلها ، ليبتعد النساء عن مواطن الشبهات ، ولو كن تقيات نقيات ، وليعرفن أنه إذا اتهمت عائشة أم المؤمنين ، فليس فى الدنيا

امرأة هي فوق التهم .

وبعد ، فلقد مر على عائشة أربعة عشر قرناً ، ولم تعرف الدنيا امرأة مثلها ، وما أظن أن كثيرات مثلها ستعرفهن هذه الدنيا .

رضى الله عنها ، وأعلى فى الجنان منازلها

* * * *

سيدة جليلة

من سيدات المجتمع الإسلامى الأول

يا أيها السيدات اسمعن قصة هذه السيدة .

سيدة أبوها عظيم ، وزوجها عظيم ، وهى عظيمة فى مواهبها ومواقفها عظيمة فى نفسها وفى أعمالها .

سيدة ذات (مبدأ) وفت له ، وثبتت عليه . وسيدة شاركت فى أجل الأحداث ، فى السلم وفى الحرب . سيدة كانت ربة بيت صبرت على مره ولم تبطر بحلوه . سيدة كان لها من نبل القلب ، وكبر العقل ، وثبات الأعصاب ، ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال

وفى قصتها بَعْدُ عبرة للنساء ، وأمل لمن ابتليت بالفقر من الزوجات ، وإثبات لمن يحتقر النساء أن المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال ، وبيان لمن لا يريد بالمرأة إلا أن تكون متعة ، لا هَمَّ لها إلا زينتها وتبرجها ، إنها قد تترفع عن زخارف (الأزياء) ، وألاعيب النساء ، حتى تكون ركناً فى بناء الأمة ، وعوناً على تحقيق مثلها العليا .

هذه السيدة يا أيها السادة :

أبوها المسلم بعد رسول الله ، شيخ الإسلام أبو بكر ، وزوجها حوارى رسول الله ، وأول من سل سيفاً فى سبيل الله ، رائد الجهاد ، البطل السمح الكريم : الزبير . وابنها الفارس البطل الشهيد ، أمير المؤمنين : عبد الله بن الزبير .

وهى أسماء ذات النطاقين ، أسماء العظيمة ، العجوز التى وقفت يوم مقتل ابنها موقفاً لا تقوى عليه صناديد الرجال .

وهى أخت عائشة الكبرى .

أسلمت بعد سبعة عشر إنساناً، فكانت فى طليعة جيش الحق والهدى ، جيش الإسلام ، الذى ملأ الأرض نوراً ، وبايعت الرسول على الوفاء لشرعة السماء ، والثبات عليها ، وبلغ من عمق الإيمان فى نفسها ، أنها لما رأت الإيمان قد تعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية ، مع حب الأم غلَّبت إيمانها على عاطفتها .

جاءت أمها تزورها ، وكانت مشركة لم تدخل بعد فى الإسلام ، فهشت للقائها بعد طول الفراق ، وتفتح لها قلبها ، وقفز ليكون بريقاً فى عينيها ، وابتساماً فى شفتيها ، وتحية حلوة على لسانها ، وضمة دافئة فى ذراعيها ، ثم ذكرت أن أمها مشركة، وأن رابطة الدين أقوى من رابطة النسب ، وأن الله يقول : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: 22] فتراخت الذراعان ، وأغضت العينان ، وجمدت التحية على اللسان ، وأرسلت إلى عائشة أن اسألى رسول الله : أأصل أمى وهى مشركة وأستقبلها ؟

فقال الرسول ـ ﷺ ـ : نعم صلى أمك واستقبليها .

وعلَّمها أن الإسلام لا يحول أبداً ، دون عواطف الخير والشر ، ولا يقتل أبدًا دوافع النبل فى النفوس

* * *

وكان إيمانها كعقلها ، وكانت متحكمة أبداً فى أعصابها .

لما كانت الهجرة حمل أبو بكر ماله كله معه ، لا ليحرم منه أسرته ، بل ليعين به محمداً على دعوته ، التى كان يراها أولى من نفسه وأسرته .

وبلغ ذلك أبا قحافة والد أبى بكر وكان مكفوف البصر فجاء متأسفاً غضبان وقال :

- ما أراه إلا قد فجعكم بماله ، كما فجعكم بنفسه .

- قالت : لا يا جدى .

وأخذت حجارة فوضعتها فى كيس كان يضع ماله فيه ، وألقته فى صندوقه ، قالت :

- تعال انظر .

ووضعت يده على الكيس .

فقال : إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن .

***

وكانت الهجرة ، وهى حادث هين فى ذاته ، رجلان خرجا من مكة إلى يثرب ، يخرج مثلهما كثير كل يوم ، من كل بلد ، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن فى خرابها ، ولكنه عظيم فى نتائجه ؛ لأنه لم يكن سفراً من بلد إلى بلد ، بل انتقال الدعوة من طور إلى طور ، من طور الإسرار والضعف، إلى طور الإعلان والقوة ، طور الظفر والعلاء .

وما كان لمحمد موكب تخفق فيه على رأسه الرايات ، وتقرع أمامه الطبول، وتمشى وراءه الجند ، وما كان فى موكبه إلا هو وصاحبه والدليل ، ولكن كانت تمشى فيه الملائكة ، وتحف به الرحمة ، ويهرب من أمامه

الماضى الأسود ، ويتبعه المستقبل المنير .

موكب ما مشى من مكة إلى يثرب فقط ، بل إلى دمشق والبصرة والكوفة ، ثم إلى بغداد والقاهرة ، ثم إلى قرطبة وسمرقند ودهلى (1) ، إلى الدنيا العريضة التى حمل إليها أتباع محمد الخير والهدى ، حين حملوا إليها الإسلام ثم مشى فى الزمان إلى العصور الآتيات إلى ساحات الخلود . . .

موكب كان فيه رجلان وامرأة ، امرأة نابت عن النساء حين مثلتهنَّ فى هذا الموقف العظيم ، امرأة لم تقطع معهما الطريق كله ، ولكن أمدتهما بالطعام والزاد ، وكذلك تصنع المرأة ، إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه ، فإن لها الفضل فى إمداده وعونه ، فلولا المرأة (المرأة أماً ، والمرأة زوجاً وسكنًا) ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات .

كانت أسماء تعدُّ الطعام وتحمله إلى الرسول وصاحبه ، وهما فى الغار ، وتمزقت مرة سفرتها (السفرة زاد المسافر أو وعاء الزاد) فشقت نطاقها (زنارها) اثنين ، فربطتها بواحد وانتطقت (أى تمنطقت) بالآخر فسميت ذات النطاقين .

وكانت تعد لهما الطعام مرَّة ، فجاءها أبو جهل وأصحابه ، فى زهوه الباطل ، وكبره السخيف ، فسألها عن أبيها .

وكانت الهجرة سراً لا يعرفه فى مكة إلا رجل وامرأة : علىٌّ وأسماء ، فأبت أن تذيع السر ، فهددها ، فلم تخف ، فرفع يده فضربها وهى حامل .

وكذلك يفعل الجبان .

عجز عن أن يضرب الرجال فضرب امرأة حاملاً .

(1) والإنكليز يسمونها دلهى ، وقد ثبت قروناً وهى عاصمة الإسلام فى الهند ، وفيها أروع آثار الملوك المسلمين .

وكذلك يفعل الجبناء فى كل عصر .

عجز اليهود عن مواجهة الأبطال فى الحومة فواجهوا العجائز والأطفال فى دير يا سين ، ولكن ضربة أبى جهل دمرت الشرك ، وذكرى دير ياسين ستدمر صهيون .

❊ ❊ ❊

ولحقت أباها ، ودخلت فى الموكب القدسى الأنور ، موكب الهجرة ، حتى إذا قطعت الصحراء المقفرة ، وأشرفت على أوائل النخيل فى قباء ، وضعت عبد الله ، فكان أول مولود فى الإسلام ، وكان عيد ميلاده هو عيد ميلاد الحضارة واليمن والخير .

❊ ❊ ❊

يا سادتى ، لما تزوج الزبير أسماء ، لم يكن له فى الدنيا شيء لا مال ولا عقار ، ليس له إلا فرسه ، فلم يكن عليها أن تصبر على الفقر فقط ، ولا أن تروض نفسها على الحرمان ، وتخدم زوجها وحده ، بل كان عليها أن تخدم هذا الفرس تمشى تجمع له نوى التمر ، ثم تدق النوى وتعلف الفرس .

وصبرت على هذا كله ، وكانت مطيعة لزوجها ، حريصة على مرضاته .

رآها رسول الله مرة وهو على ناقته ، وهى تحمل النوى ، وهى أخت زوجته ، وزوجة ابن عمته ، فقال لناقته : اخ اخ . ينيخها ليركبها معه .

قالت : فذكرت غيرة الزبير فأبيت .

أبت أن تركب مع الرسول ، الطاهر المطهر المعصوم ، خوف سخط زوجها ، وما كان زوجها ليسخط ، ولكنها المبالغة فى مرضاته .

ولما أعطاها أبوها خادماً ترعى الفرس ، رأت نفسها قد غدت ملكة .

يا أيتها القارئة ، يا من لها زوج فقير ، فهى تتألم للحرمان ، وتكاد تذم القدر . اسمعى بقية الخبر .

إنها صبرت على هذا كله ، فكانت العاقبة أنها اغتنت ، وانصبت عليها وعلى زوجها النعم ، حتى أنه لما مات كانت تركته . . .

من يحزر كم كانت تركة الزبير ؟ كم خلف زوج أسماء بعد جمعها النوى ودقه وصبرها على الفقر ؟

خمسة ملايين درهم ومائتى ألف فقط لا غير .

لم يجمعها من الحرام ، ولا من أخذ أموال الناس ، ولا لأنه قعد فى المجلس فدرس ووعظ ، وقال : أنا حوارى رسول الله ، وابن عمته ، فأعطونى ، بل تاجر مثلما تاجر عبد الرحمن بن عوف والصحابة ، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب (الملايين) .

وكذلك كان المسلمون ، كانوا رجال دنيا ودين ، ومال وتقى ، كانوا جنًا فى النهار ، ورهباناً فى الليل .

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً ، كان له هذا المال ، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه ، ولم تجب عليه زكاة ، لأنه لم يكن يدخر شيئاً .

أما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولا من فقر زوجها ، ولم تبطر بغناه ، وبقيت كما كانت امرأة خير وبر وإحسان .

* * *

وكانت في شجاعتها أخت الرجال ، مثل حماتها صفية بنت عبد المطلب . شاركت يوم اليرموك في القتال ، وفعلت فعل الأبطال .

ولما كانت الفتنة أيام سعيد بن العاص ، واضطرب حبل الأمن ، أخذت خنجراً فجعلته على جنبها ، لتدافع به عن نفسها وبيتها ، ولو أن كل فتاة تعرف كيف تدافع عن نفسها ، لا بالخنجر ، فما نحتاج الآن إلى الخناجر ، بل بأن تمشي مرفوعة الرأس ، ثابتة النظر ، شاعرة بالكرامة ، وبأن ترد كل متعرض لها ، طامع فيها ، كما ترد الكلب العقور ، لذهب من الأرض ثلاثة أرباع الفساد .

وكانت فصيحة بينة ، أديبة شاعرة ، ولها في رثاء زوجها مقطوعات .

وهاكم موقفها العظيم حقاً ، الموقف الذي لم تقفه امرأة أخرى ، وهل سمعتم أن أما تحكم على ولدها بالموت ؟

كان عبد الله قد ملك الحجاز والعراق وفارس وخراسان ، وانقادت له مصر ، وكان له في الشام حزب ، والتقت في كفه أطراف دنيا الإسلام ، ولم يبق لبني أمية إلا قليل من الشام ، ثم تقلص هذا الملك وانتقص من أطرافه ، وضاقت دنياه باتساع دنيا بني أمية ، فلم يبق من جيشه الذي خفقت راياته على المشرق والمغرب ، إلا نفر يحيطون به في الحرم ، هذا كل ما بقي له . والمنجنيق ينزل عليه والعدو يحيط به ، وعرض عليه الفرار فأباه ، ولم يرض أن يختم هذه الحياة الطويلة ، الحافلة بالبطولات والأمجاد ، بأبشع خاتمة بل آثر أن يموت ميتة أبيه ، أن يسقط في المعركة الحمراء ، وسط المعمعة ، في الحرب الشريفة ، وأن يغسل بالدم ، ويوسد تراب الحرم .

وذهب يودع أمه ويستشيرها ، وكانت عجوزاً مكفوفة ، قد قاربت المائة ، وقال لها :

ـ يا أم ، قد خذلني الناس ، حتى أهلي وولدي ، ولم يبق لي أمل ،

والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

وترددت الأم ، وذكرت في لمحة مولده في قباء ، وذكرت نشأته وقلبت حياته صفحة صفحة ، فكادت تغلبها نفسها وعاطفتها ، ثم ذكرت أن هذه الحياة التي تختارها لولدها ، حياة تسلبه مجده وكرامته ، والموت خير من حياة بلا كرامة ولا مجد . فتشددت وتثبتت وقالت :

ـ لا يتلاعبن بك صبيان بني أمية ، عشت كريماً فمت كريماً .

أعطت الأم قرارها ، وحكمت على ولدها بالموت ، وهي تنتزع مع كل حرف من هذه الجملة قطعة من روحها ، فكأنها لم تحكم عليه وحده ، بل حكمت على نفسها أيضاً بالموت .

وضمته إليها تتحسسه وتشمه ، تأخذ من هذه اللحظات ، الذخر الوحيد الذي ستعيش به بقية أيامها .

ولما انصرف أحست في قلبها بفراغ يسده شيء ، شعرت أنه لم يبق لها قلب .

* * *

أما إن هذا الموقف لو كان لامرأة فرنسية أو إنكليزية لنظمت فيه مائة قصيدة ، وألفت فيه مائة قصة ، ولكن أسماء كانت عربية مسلمة ، والعرب قد أضاعوا بيانهم وأدبهم ، مع ما أضاعوا من تراث الجدود .

هذه (أسماء) السيدة الجليلة التي يتشرف بها تاريخ الأمة الذي تكون سيرتها فيه !

* * *

الفصل الثانى

- أمير المؤمنين فى الحديث
- العالم النبيل
- الفقيه الأمير
- بانى مراكش

أميرُ المؤمنين فى الحديث

من يستطيع أن يحصى الكتب التى ألفها علماء المسلمين ؟ هذه الكتب التى أمدت المطابع فى الشرق والغرب من مائتى سنة إلى الآن ، لا تزال تطبع منها ، وما بقى مخطوطاً أكثر مما طبع ، وما ضاع من المخطوطات أكثر مما بقى ، وحسبكم أن تعلموا أن هولاكو لما دخل بغداد ألقى الكتب فى دجلة ، حتى لون حبرها ماء دجلة ، وأن الإسبان لما استرجعوا الأندلس أحرقوا الكتب حتى صارت الليالى من اللهب بيضاء ، عدا ما أضاعه التحريق والتخريق والتمزيق فكم هى إذن الكتب التى ألفها علماء المسلمين [1]؟ .

***

وبعد ، فليس فى هذه الكتب كلها ، ما هو أشهر وأفضل وأجل ، عند خاصة المسلمين وعامتهم ، من الكتاب الذى جئت اليوم أحدثكم عن صاحبه .

الكتاب الذى لا يفضل عليه المسلمون إلا كتاباً واحداً هو القرآن .

الكتاب الذى نعده ، بعد كتاب الله ، عماد ديننا ، ونجعله حجة بيننا وبين ربنا ، ونقيم عليه أمر دنيانا وآخرتنا . أما عرفتموه ؟ أى كتاب يوضع بعد القرآن مباشرة إلا صحيح البخارى . وإن كان القرآن مقطوعاً إن كل ما بين دفتيه كلام الله . وكان يكفر من أنكر منه كلمة واحدة ، وهذا على ما بذل من تحقيقه ، وما بلغ من الثقة به ، لا نقطع جزماً بأن كل ما فيه من كلام رسول الله ـ ﷺ ـ ولا نكفر من ينكر شيئاً منه كما نكفر من أنكر شيئاً من القرآن ، فإن

(1) لى بحث مفصل فى هذا الموضوع . عوانه (مع الكتب والعلماء) .

القرآن لا يعدله كتاب وإن كان حديث رسول الله فى أمور الدين لمن سمعه منه أو وصل إليه بالتواتر وحياً من عند الله كالقرآن ، ولكن القرآن وحى بلفظه ومعناه ، والحديث وحى ولفظه من عند رسول الله ـ ﷺ ـ .

* * *

وكان غنياً ، وكان صدراً فى كل شىء ، وكان مع ذلك من أعبد العباد ، وأزهد الزهاد ، وأشد المتواضعين ، إنه أحد أعاجيب الرجال فى تاريخ الإسلام العلمى .

وتاريخ المحدثين خاصة حافل بالرحلات وبالصبر على مشاقها ، وبالإحاطة وبالحفظ وبالتقوى وبالورع ، وما منهم إلا من شارك فى إقامة هذا البناء العظيم ، الذى لا تعرف مثله أمة فى الدنيا ، ولكن لم يبلغ أحد منهم ما بلغ البخارى ، حتى ولا (المحدث الأكبر) أحمد بن حنبل .

نعم ليس لأمة علم كعلم الحديث ، وأى أمة استطاعت أن تتبع كل كلمة قالها نبيها أو زعيمها ، وتبين مسراها خلال العصور ، ومن سمعها منه ، ومن نقلها عنه ، وما هو الطريق الذى مشت فيه ، من شخص إلى شخص ، لا فى يوم أو يومين بل فى القرون الطوال ، مع ما اضطرهم إليه من بحث أحوال الرجال ، أمانة وذاكرة ، وحسن معاملة ، وصلاح نفس ، وسيرهم وتواريخهم .

وإذا كنا نصدق أن نابليون خطب فى (استرلتز) كذا ، وأن بسمارك قال كذا ، ولم نعرف من سمع ذلك منه ومن رواه عنه ، ولعله أخذ من جريدة كاذبة ، أو مؤلف مبتدع ، فكيف نطعن بحديث نقل هذا النقل المضبوط ، بهذا السند المتصل ، على قرب الزمان بين الرسول وهؤلاء المحدثين الأولين .

إن علم الحديث من حيث السند (وهو طريق الرواية) ، قد بلغ فى الكمال ما لا زيادة عليه لمستزيد . وأعود الآن إلى البخارى .

لقد سمعتم فى حديث مضى قصة فتح بخارى على يد القائد الكبير قتيبة ، ولم يدخل المسلمون بخارى فقط ، ولكن بخارى دخلت فى الإسلام ، ولم تمض عليها مدة قصيرة حتى صارت معقلاً من أعظم معاقله . وحصناً من أكبر حصونه ، وبذلك يمتاز الفتح الإسلامى ، إنه ليس فتحاً للبلاد ، ولا استعماراً لها ولا حماية ولا وصاية ولا انتداباً ، كل هذه أشكال زائلة ، ولكنه فتح للقلوب وللبصائر حتى يصير أهل البلاد المفتوحة أحرص على الدين وأخلص له من الفاتحين ، وهذه أسرار الأخوة الإسلامية ، وأن المؤمن أخو المؤمن ، إنها (بوتقة) ذات حرارة عالية تذيب كل عنصر ، وكل جنس ، مهما كان معدنه شديداً قوياً ، فتجعل من ذلك كله سبيكة واحدة ، هى أثمن وأغلى وأشد تماسكاً وارتباطاً ، من كل عنصر تألفت منه ، ودخل فيها ، وقد حاولت فرنسا أن تقلد فما أحسنت التقليد ، أرادت أن تجعل الجزائريين فرنسيين ، بإعطائهم الجنسية الفرنسية ، ونسيت حقيقة ظاهرة ، وهى أن العربى لا يصير أبداً فرنسياً، ولكن الفارسي والصينى يصير مسلماً ، لأن الفرنسية (جنسية) و (قومية) والإسلام عقيدة ودين .

لقد ولد الإمام البخارى بعد فتح بخارى بمائة سنة ، وكان أبوه هو الذي دخل فى الإسلام ، ونشأ هو وأبوه من قبله ، وجده من قبلهما ، فى ظلال الإسلام ، وكان أبوه غنياً ، ترك له مالاً جزيلاً ، وأورثه تجارة واسعة فكان يضارب بها ، لا المضاربة فى (البُرْصات) باصطلاح اليوم ، بل شركة المضاربة بالعرف الإسلامى ، وهى أن يدفع الغنى ماله لمن يتاجر به ويكونا شريكين ، هذا بماله وذاك بعمله .

وأنا محدثكم عن أسلوبه في التجارة لتروا كيف كان يطبق علمه على تجارته ، ومبادئه على معاملته ، لا كمن يدعي الدين والعلم بلسانه ، ويكون من فعله . . ما نسأل الله من مثله العافية .

جاءته تجارة ، فأقبل التجار فدفع له جماعة منهم خمسة آلاف دينار ربحاً فقال لهم : انصرفوا حتى أفكر وأعطيكم الجواب ، وجاءه بعدهم من دفع عشرة آلاف ، قال : إني نويت أن أبيع أولئك ولا أحب أن أنقض نيتي ، وباع بربح خمسة آلاف وترك العشرة[1] .

وكان يكرم العلماء ويحبو السائلين ولا يرد أحداً ، ثم إنه كان يبني من ماله الرباطات والحصون والمدارس ويدعو الناس إلى العمل فيها ، وينصب لهم الموائد ، فربما تغدى على مائدته ثلاثمائة رجل .

وبلغ من الجاه والعظمة منزلة لم تبلغها الملوك ، كلما نزل بلدة (وهو في رحلة دائمة) يخرج أهل البلد عاملتهم وخاصتهم وأمراؤهم ورعيتهم إلى استقباله من مسافة أميال ، ويرتج البلد فرحاً به ، ويزدحم الكبار على بابه ، ويتسابقون إلى سماع كلامه والأخذ عنه .

وكان (مع هذا كله) زاهداً ، متقشفاً ، مرض مرة فعرضوا ماءه (أي بوله) على الطبيب لفحصه ، وكانت هذه طريقة الفحص الطبي عندهم ، نعم ! من أكثر من ألف ومائتي سنة ! فقال هذا ماء رجل لا يأتدم فسألوه فقال : صحيح إني ما ائتدمت (أي ما أكلت مع الخبز إداماً) منذ عشرين سنة [2] ، فأصر الطبيب عليه فصار يأكل مع الرغيف سُكَّرة .

أما تواضعه فكان أعجوبة ، وكان سباقاً إلى كل خير ، ألقى رجل وسخاً

(1) هذا ورع منه ، ولو أنه باع الآخر ما كان حراماً .

(2) وهو الذي يغذى على مائدته الثلاثمائة .

في المسجد فانتظر البخارى حتى إذا رأى أن الناس لا يبصرونه ، قام فحمل الوسخ ، وألقاه خارج المسجد . وأغضبته جارية مرة ، ولم تقبل أن تترضاه . فقال : إن لم ترضنى فأنا أرضى نفسي فأعتقها . وقال : الآن أرضيت نفسي .

ولدغه زنبور مرة وهو يصلى مرات كثيرة ، فلم يترك الصلاة ، حتى إذا انتهت ، قال : انظروا أى شيء آذاني في صلاتى !

وكان مع هذا جندياً محارباً ، بطلاً في الرمى ، يخرج للتدريب مع تلاميذه، فلا يخيب له هدف .

تسألون الآن عن علمه .

لقد بدأ يحفظ الحديث وهو في الكتاب ابن عشر سنين ، وكان أول أستاذ له (الداخلى) فسمعه البخارى مرة يروى عن سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم، فقال له : ما هكذا إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم . قال الداخلى : وما يدريك أنت يا غلام ، قال : ارجع إلى الكتاب ، فرجع فإذا هو كما قال البخارى ، قال له ليمتحنه : وكيف هو ؟ قال الزبير عن إبراهيم : وكان عمره إحدى عشرة سنة .

وقرأ كتب أهل الرأى مع سماعه الحديث .

ثم رحل في طلب العلم ، وإذا كان الشاب اليوم يرحل بالطيارة أو الباخرة إلى أوربا ، فإن رحلات البخارى لو جمعت لزادت عن محيط كرة الأرض مرتين . قضى حياته في رحلات دائمة ، فلم يدع محدثًا ولا عالماً ، إلا أخذ منه ما عنده ، حتى بلغ من أخذ عنه أربعة آلاف شيخ ! وكان يرحل لطلب الحديث الواحد ، حتى جمع في هذه الذاكرة العجيبة ، ما عند المحدثين جميعاً، وكان يعيش للعلم يفكر فيه نهاره كله ، ويفكر فيه ليله ، يقوم في الليل يشعل السراج ويكتب شيئاً أو يعلم على حديث ، ثم ينام قليلاً ، ثم يخطر له خاطر جديد ، فيقوم ، حتى أنه ليشعل السراج في الليلة الواحدة أكثر من

عشرين مرة ، وقد أجمع علماء عصره على أنه الأستاذ الأكبر لعلم الحديث ، وكان أساتذته يرجعون إليه ، ويعرضون عليه مؤلفاتهم وقد يفخرون بأنه نظر فيها ، وصحح لهم أخطاءها ، لم يكونوا يبالون بأن يأخذوا عمن كان تلميذهم ، لأن غايتهم العلم ، لا حظ النفس ولا نيل الدنيا .

وقد تعجبون إذا سمعتم أنه حفظ مليون حديث ، وتقولون ، وكيف تبلغ أحاديث الرسول هذا العدد ؟

يا سادة ، لقد وقع فى هذا الخطأ مؤلف من أكبر مؤلفى العصر هو أحمد أمين فى فجر الإسلام ، وسبب هذا الخطأ الجهل باصطلاح المحدثين . إن الحديث له متن هو الكلام المروى عن الرسول ـ ﷺ ـ وسند وهو طريق انتقاله إلينا ، عن فلان عن فلان ، وقد يكون للمتن الواحد عشرون سنداً ، فيعد بذلك عشرين حديثاً . فمن هنا جاء هذا العدد الضخم .

وهاكم حادثاً واحداً يدلكم (إن صح) على ذاكرة البخارى العجيبة ، وهو أنه لما قدم بغداد فى شبابه ، أحب بعض المحدثين ، أن يختبروا حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فخلطوا متونها بأسانيدها ، فوضعوا سند هذا لذاك ، وسند ذاك لهذا ، وجاؤوا بعشرة تلاميذ ، فحفظوا كل واحد ، عشراً من الأحاديث المهوشة (المشوشة) ليسألوه عنها ، فلما قعد فى الحلقة قام الأول ، فقال : أتعرف حديث كذا ، وسرد الحديث الأول ، قال : لا أعرفه ، قال : فحديث كذا . . . حتى استوفى العشرة . ثم قام الثانى . وهكذا ، حتى سردوا الأحاديث المائة ، وهو يقول : لا أعرفه ، فلما انتهوا . قال : أما الحديث الأول فروايته كذا وصوابه كذا . . . حتى أعاد المائة بخطئها وصوابها .

وهذه حادثة ثابتة وهى من أعجب حوادث الحفظ ، وليس العجيب حفظه المائة الصحيحة ، ولكن العجيب كما يقول الإمام ابن حجر حفظ المائة

المغلوطة من مرة واحدة .

عرض هذه الأحاديث كلها ثم اختار منها أصحها وأثبتها ، فوضعه فى كتابه الذى بدأه فى المسجد وبقى فى تأليفه ست عشرة سنة والذى جمع فيه 2761 حديثاً فقط .

❊ ❊ ❊

هذا هو (صحيح البخارى) الذى اتفق المسلمون على أن كل ما فيه صحيح السند ، وأنه خير كتب الحديث ، وإن فضل بعض المغاربة صحيح مسلم في حسن تبويبه ، وترتيبه ، والذى اعتنى به أجل عناية فشرح ثلاثة شروح كبار ، أجلها شرح ابن حجر العسقلانى فى (فتح البارى) ، ثم شرح العينى ، ثم شرح القسطلانى ، والذى اختصر فى مختصرات عديدة وما زال العلماء يشتغلون به . يقبلون على الاستفادة منه والعمل به ، مع العلم بأنه إذا جاء فيه أو فى غيره ما يخالف القرآن ، مخالفة يتعذر التوفيق بينها وبين القرآن أو ما يناقض الواقع المشاهد ، نحكم بأن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يقله ، ولكن الراوى ـ وإن كان عدلاً ـ قد توهم أو أخطأ روايته .

ولم ينج البخارى من (المحنة)[1] ، محنة خلق القرآن ، ولقد ناله منها أذى وضر ، وفارق من أجلها بلده . ومات فى سمرقند التى فتحها قتيبة ليلة عيد الفطر سنة 256 .

مات ولكن لم يمت اسمه ، ولم يمت كتابه ، وسيظل أبداً باقياً ما بقى على الأرض مسلمون .

جزاه الله عن حديث نبيه أفضل ما يجزى العلماء العاملين .

---

(1) المحنة والابتلاء والفتنة معناها كلها أو من معانيها الامتحان .

العَالِمُ النَبِيـــلُ

أحب قبل أن أشرع فى الحديث اليوم ، أن أقول كلمة لا أجد من مقالتها بداً ، هى أن أسألكم : هل يمكن أن يدخل معلم على صف اختلط فيه تلاميذ الابتدائية وطلاب الجامعة ، ثم يقول ما يفهمه الجميع ، ويرضى عنه الجميع ؟ تقولون : لا . فكيف إذن يا سادتى ... كيف أستطيع أن أرضيكم جميعاً ، ومنكم العالم ، ومنكم الأديب ، ومنكم الطالب ، ومنكم البياع الشراء ، ومنكم المرأة فى بيتها ، والعامل فى معمله ؟ وكيف أسوق الحديث [1] لكم جميعاً ؟وأنا إن سهلت الحديث ، وقصرته على قصص واضحة ، وحكايات مفهومة ، قال العلماء وطلاب الجامعة : إنه حديث تافه ، وإن سموت به وجعلته تحليلاً نفسياً ، وبحثاً علمياً ، قال العامة وقالت النساء : إنه حديث غامض ، لذلك عزمت أن أجعل بعض هذه الأحاديث للخاصة ، وبعضها للعامة ، أحرص مرة على إمتاع هؤلاء ، ومرة على أرضاء هؤلاء ، فمن وجد حديثاً من هذه الأحاديث على غير ما يريد ، فليرتقب غيره فلعله يجد فيه مراده .

***

وحديث اليوم عن عالم يختلف عن كل من كنت حدثتكم عنه من العلماء ، فليس فى التقى والصلاح كأحمد بن حنبل ، ولا فى الاجتهاد والفقه كأبى حنيفة ، ولا فى الزهد والورع كسعيد بن المسيب ، ولا فى الجرأة والصراحة كالحسن البصرى ، ولا فى الرواية والحفظ كالبخارى ، ولكنه يمتاز بشيء

(1) أعنى حديث الإذاعة .

غير هذا كله ، بالنبل والسيادة ، والشخصية الاجتماعية القوية ، وأنه رجل بلاط ، ورجل دين ، في وقت معاً ، سيطر على أقوى الخلفاء العباسيين ، عقلاً : المأمون ، وأقواهم جسماً : المعتصم ، وكان له عليه سلطان عجيب ، وكانت كلمته لديه هي القانون ، ولطالما سخر هذه المنزلة لرد المظالم ، ورفع الأذى ، وإقامة الحق ، ولطالما استنقذ بها أناساً من تحت سيف الجلاد ، ولكن على هذا كله كان يعمل على نصر مذهب المعتزلة وإيذاء أئمة السنة .

هو أحمد بن أبى دؤاد .

وهاكم بعضاً من مواقفه أسردها على سبيل التمثيل ، لا على قصد الاستقصاء . كانت الدولة قسمين ، تركية وعربية ، والجيش جيشين : أتراكاً وعرباً ، وكان زعيم الأتراك على عهد المعتصم ، (وهو الذى فتح هذا الباب ، وزرع هذا السم ، وجاء بالأتراك) كان زعيم الأتراك الأفشين ، فاعتد على أبى دلف (وكان من أكبر زعماء العرب) ذنوباً ، حكم عليه فيها بالقتل ، وبلغ الخبر ابن أبى دؤاد فذهب إليه ، وما كان من عادته أن يزوره ، فأرادوا إدخاله البهو الكبير حتى يفرغ الأفشين فيستقبله فأبى ودخل مجلسه ، وأبو دلف مقيد فى وسطه ، والسياف على رأسه ، والأفشين يقرّعه ويشتمه ، وأبو دلف ـ إن كنتم لا تعرفونه ـ هو بطل العرب ، الفارس الجواد الممدح الذى قال فيه العكَوّك الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف بين بادية ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

فراح ابن أبى دؤاد يستعطف الأفشين ، ويليِّن قلبه ، ليعفو عن أبى دلف ، وهو لا يزداد إلا عتواً ، فلما رأى الجد منه ، وعلم أنه إن خرج قُتل أبو دلف ،

أقدم على أمر عظيم ، لا يقدم عليه غيره فقال له : إلى متى أستعطفك وأسألك وأنت تأبى ؟! إنى رسول المعتصم إليك ، يأمرك ألا تحدث بأبى دلف حدثاً ، وإن مسه سوء أو قتل ، فإنه قاتلك به . وقال للحاضرين : اشهدوا على أنى بلَّغته رسالة أمير المؤمنين ، والقاسم (أى أبو دلف) حى معافى ، وتركه وقد صار وجهه بلون الزعفران ، وذهب من فوره إلى المعتصم ، فقال له : لقد بلغت رسالة عنك ما أرسلتنى بها ، وأخبره الخبر ، فقال له المعتصم : نعم ما فعلت ، وكف يد الأفشين عن أبى دلف [1] .

***

وغضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، الفارس العربى البطل ، ابن الفارس العربى البطل ، الذى قال الشاعر فى رثاء أبيه ، هذه القصيدة النادرة المثال ، المنسوبة لصريع الغوانى ومطلعها :

أحق أنه أودى يزيد | تبين أنه الناعى المشيد

ومنها :

أحامى الملك والإسلام أودى | فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الإسلام مالت | دعائمه وهل شاب الوليد ؟

وتشفع فيه فلم يشفعه المعتصم ، فجلس دون مجلسه المعتاد ، فقال له المعتصم : مجلسَك يا أبا محمد ! قال : ما ينبغى لى أن أجلس فيه ، لأن الناس يظنون إن جلست فيه أن لى من أمير المؤمنين ما أشفع به فأشفع ، قال :

(1) ومن كتب له أن يزور اليوم آثار (سر من رأى) ، وهى من أعظم الآثار الإسلامية لأنها مدينة طول الباقى من أنقاضها نحو خمسين كيلاً ، وفيها شارع عرضه مئة ذراع وطوله نحو عشرة أكيال ، رأى البلد قسمين ، القسم التركي وفيه المسجد الجامع ومنارته الملوية العجيبة ، القسم العربى وفيه مسجد أبى دلف ، هذا البطل الزعيم الكريم الذى أنقذه من القتل ابن أبى دؤاد واقرؤوا ما كتبته عن سر من رأى فى كتابى (بغداد) وفى(الذكريات) التى نشرتها (دار المنارة) .

عد إلى موضعك . قال : مشفعاً أو غير مشفع؟ قال : بل مشفعاً . قال : إن الناس لا يعلمون أنك عفوت عنه حتى تخلع عليه ، فأمر فخلع عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن له رواتب ستة أشهر فمر له بها تقم مقام الجائزة . فأمر له بها ، فخرج والخلع عليه والمال بين يديه ، فناداه رجل : مرحباً بك يا سيد العرب ، قال : اسكت ويحك : سيد العرب ابن أبى دؤاد .

وغضب المعتصم مرة على رجل من أهل الجزيرة ، وجاء به ليقتل على ذنب أتاه ، فتكلم فيه ابن أبى دؤاد ، ثم غلبه البول ـ ولا مؤاخذة ـ فخاف إن خرج ولم يستوف الكلام أن يقتل الرجل ، ولم يعد يطيق الصبر ، وكانت ثياب تلك الأيام كثيرة ، فجمع ثيابه تحته وبال فيها ! وأنقذ الرجل . فلما قام قال المعتصم : ما لثيابك مبتلة ، فسكت . فأعاد عليه . فأخبره الخبر . فكاد يغشى عليه من الضحك .

وكان المعتصم يرد الشيء اليسير يُسأله ، فيدخل عليه ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهل الثغور وأهل الحرمين وأهل المشرق فيجيبه . وسأله مرة صرف ألف ألف درهم (مليون درهم) لحفر نهر فى أقصى خرسان وجر الماء إلى بلاد هناك عطشى . قال المعتصم : وما على من هذا النهر ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن الله يسألك عن أقصى رعيتك كما يسألك عن أهلك ومن حولك ، ولم يزل يرفق به حتى أمر بصرفها .

وله مع المعتصم لما مرض واشتد عليه المرض خبر عجيب ، إذ جاء يعوده ، ورأى الموت بين عينيه ، فشكا إليه المعتصم ما يلقى من الألم . فقال : يا أمير المؤمنين إن فى السجون آلافا من الأبرياء ، وهم وأهلوهم يدعون عليك ، ودعوة المظلوم سهم صائب ، فلو أطلقتهم لانقلبت هذه الألسنة بالدعاء لك . فأمر بإطلاقهم . قال يا أمير المؤمنين : إنهم يعودون إلى « أهليهم صفر

الأيدى، ما معهم شيء ، فلو أمرت أن ترد عليهم أموالهم ويعطوا العطايا . فأمر بذلك .

وله أخبار كثيرة لا يتسع لها المجال ، ولو أن كل عالم يتصل بالحاكم يسير معه هذه السيرة ، ويتخذ منزلته وسيلة لرفع الظلم ، ورد الحق ، وإقرار العدل، لصلح الحاكم وصلح أمر الناس .

ولم يبلغ هذه المنزلة بوساطة أو شفاعة أو نسب ، ما بلغها إلا بنبوغه وعلمه. كان من أصحاب القاضي يحيى بن أكثم ، فأمره المأمون يوماً أن يجيئه هو ومن في مجلسه ، فدخل ابن أبي دؤاد على المأمون ، ذلك اليوم ، فرأى علمه وبيانه وعقله . فما زال يقربه حتى ولاه قضاء القضاة (وزارة العدل) بدل يحيى ، ووصى به أخاه المعتصم .

وكان عالماً من أكبر علماء المعتزلة ـ والمعتزلة طائفة ربما تكون مظلومة، قد دون التاريخ أخبارها بعد انقراضها بأيدي أعدائها ، فكذّب عليها ، ونسب إليها ، ما لم يكن منها ، ولكن إن تزيدوا عليها ، فليست مبرأة مما نسبوه إليها ، ومن ظلم وقع منها ، وبدع جاءت بها .

وكان بليغاً من أبلغ بلغاء عصره ، وكان راوية ، دخل على المأمون ، وهو يسأل عمن أسلم من الأنصار ليلة العقبة ، فعدهم جميعاً بأسمائهم وأنسابهم .

وكان شاعراً بليغاً مقل ، وقد عده دعبل في كتابه مع الشعراء وروى له . ومن نبله وعلو منزلته ، أن الخلفاء لم يكونوا يُبدؤون بالكلام ، وإنما يتكلمون فيجيبهم الناس . وهو أول من افتتح الكلام معهم ، وكان معهم بين الأدب والعزة ، ويكلمهم كلام الكفء ، قال له المأمون مرة : إذا جالس الخليفة عالماً فمثلك ، قال : وإن جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين . فانظروا إلى هذا الجواب العظيم ، وما فيه من الاعتزاز بكرامة العلم ، وما فيه من الأدب مع

الخلفاء . وكان يحسن التصرف ويجيد مخاطبة الملوك ، ومن قوله : ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ، فمن استخف بالعلماء أضاع دينه ، ومن استخف بالأمراء أضاع دنياه، ومن استخف بالإخوان أضاع مروءته .

***

وكان يقرب الشعراء والأدباء ، ويحميهم . وقد انقطع إليه اثنان : أحدهما أعظم شعراء العصر العباسى [1] وهو أبو تمام ، والثانى أعظم كتابه وهو الجاحظ .

وعادى رجلين كبيرين ، عادى الأول للدين . والثانى للدنيا . أما الذى عاداه للدين فأحمد بن حنبل [2] ، هو الذى سبب له الأذى ، وهو الذى كتب هذه الصفحة السوداء فى تاريخنا صفحة المحنة بخلق القرآن ، التى كانت سبة للمعتزلة ، محت من أذهان الناس مزاياهم وطمست ذكراهم .

وأما الذى عاداه للدنيا ، فهو الوزير الأديب الشاعر ابن الزيات ، وكان بينهما خصام ظاهر ، وهجاء طويل ، وكان العلو أولاً والظفر لابن الزيات ، ولما صدر المرسوم بأن يقوم له كل من فى المجلس إذا دخل ، كان ابن أبى دؤاد إذا رآه داخلا ، وقف للصلاة ، ولكنه ما زال به يسلط عليه عقله ، حتى نكب ابن الزيات ، وزال من الطريق .

***

وعاش ابن أبى دؤاد إلى أيام المتوكل فأصابه الفالج ، وعزل ، ولكنه بقى نبيلاً فى مرضه كما كان نبيلاً فى صحته . ولم يؤثر العزل ، ولم تؤثر النكبة فى

(1) ولست أستثنى المتنبى .

(2) وكان الحق مع أحمد بن حنبل . وهو أفضل منه ، وأجل قدراً ، وأقوم سبيلا .

نفسه ولا فى أعصابه . ولما مات رثى بمراثٍ ندر أن يرثى بمثلها أحد ، كما مدح بمدائح ندر أن يمدحَ بمثلها أحد .

فمن مدائحه قول أبى تمام :

لقد أنست مساوىء كل دهر ... محاسـن أحمد بن أبى دؤاد
وما سافرت فى الآفاق إلا ... ومن جدواك راحلتى وزادى

وقول مروان بن أبى الجنوب :

لقد حازت نزار كل مجد ... ومكرمة على رغم الأعادى
فقل للفاخـرين على نزار ... ومـنهم خندف وبنو أيـاد
رسول الله والخلفـاء منا ... ومنا أحـمـد بن أبـى دؤاد

ولما مات قام على قبره ثلاثة من الشعراء فقال الأول :

اليـوم مات نظـام الملـك واللَّسَن
ومات من كان يستعدى على الزمن
وأظلمت سبل الآداب واحتجبت
شمـس المكارم فى غيـم من الكفـن

وقال الثانى :

ترك المنابر والسرير تواضعاً ... وله منابر لو يشا وسـريـر
ولغيره يجبى الخـراج وإنمـا ... تجبى إليه محامد وأجور

وقال الثالث :

وليس فتيق المسك ريح حنوطه ... ولكنه هذا الثـنـاء المخلف
وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصـلاب قـوم تقصف

الفقيه الأميَرال[1]

نحن اليوم فى تونس ، فى تونس الخضراء ، قبل ألف ومائتى سنة بالضبط[2] .

نحن فى يوم من أيام سنة 172 للهجرة ، فى يوم مشهود ، يوم سفر طالب من طلبة العلم إلى المشرق للدرس والتحصيل .

ونحن نرى الطلاب إذا أرادوا التحصيل ، يذهبون فى أيامنا إلى الغرب ؛ لأن الغرب أرقى . أما يومئذ فكانوا يأتون من الغرب إلى الشرق ، لأن الشرق ؛ كان أرقى رقياً ، وأعظم حضارة .

ولا تعجبوا فإن الدهر دولاب ، والأيام دول ، والتاريخ شاهد ما نقول : بدأت الحضارة من الشرق ، من مصر والعراق والشام ، ثم انتقلت إلى الغرب ، إلى يونان ورومة ، ثم عادت إلى الشرق ، إلى دمشق وبغداد والقاهرة ، ثم رجعت إلى الغرب ، إلى باريس ولندن وواشنطن ، وما هى ذى بدأت تعود إلى الشرق .

ستعود بلا شك ، بفعل تلك المطامع الأشعبية ، والقنبلة الذرية ، والحرب الساحقة الماحقة التى تسعى إليها تلك الدول . . . وبفضل الذخيرة الكبرى من الخير والبطولة التى أودعها محمد ـ ﷺ ـ فى دمائنا .

(1) الأميرال : أصلها عربى (أمير الماء) . وهو لقب قائد الأسطول عند الأندلسيين ، المغاربة وقد كتبت اللفظ الأفرنجى لموضع المفارقة بين وضعى الفقيه والأميرال .

(2) لأنّ هذا الحديث أذيع سنة 1372 .

عفوكم عن هذا الاستطراد ، وأعود إلى الموضوع .

هذا الشاب الذى اجتمع أهل تونس لوداعه ، عمره ثلاثون سنة ، غريب عن تونس ، أصله من نيسابور ، وولد فى ديار بكر [1] ، وذهب أبوه إلى المغرب فى الحملة التى جردها المنصور للقضاء على ثورة البرابرة ، فنشأ فى تونس وأخذ العلم عن علمائها ، حتى إذا استوفى ما عندهم ، عزم على الرحلة ، وما كانوا يرحلون لنيل المتع ، وجلب الشهادات ، بل كانوا يرحلون للعلم وحده ، وما كان سفرهم سهلاً ، ولا مريحًا ، بل كان سفراً طويلاً شاقاً يمتد الطريق فيه أشهراً طوالاً .

هكذا رحل هذا الشاب : أسد بن الفرات . فارق تونس سنة 172 وتنقل فى البلدان ، وجاب صحارى ، وركب بحاراً ، حتى وصل المدينة ، وكان للعلم مركزان ، جامعتان كبيرتان : جامعة محافظة ـ إن صح التعبير ـ تعنى بالنقل وبدراسة النصوص ، مقرها المدينة وأستاذها الأكبر مالك ، وجامعة مجددة . تميل إلى النظر العقلى ، والبحث الحقوة ، ومقرها العراق ، وأستاذها الأكبر أبو حنيفة .

فقصد جامعة المدينة ، وكانت الجامعات هى الجوامع ، ففيها حلقات العلم كله ، علوم اللسان وعلوم الدين ، ولزم الإمام مالكاً .

وكانت لمالك هيبة فى الصدور ، فلا يجرؤ أحد عليه ، وكانت طريقة تلاميذه معه الاستماع ، والإقلال من المناقشات ، فلا يفرضون الفروض، ولا يقدرون الوقائع التى لم تقع ، ويضعون لها الأحكام ، كما يصنع علماء العراق، بل يسألون عما وقع من الأحداث ، ولا يلحون فى السؤال ، ولم تعجب هذه الطريقة الشاب التونسى ، فجعل يفرِّع من كل مسألة مسألة ، ويلح

(1) سكنت قبائل بكر بن وائل تلك الديار من قبل الإسلام فسميت بها ونسبت إليها .

فى طرح الأسئلة عليه ، ورأى منه تلاميذ مالك هذه الجرأة ، فكانوا يحملونه أسئلتهم أيضاً ليلقيها على الإمام مالك ، حتى ضجر مالك ، وقال : إن كان كذا كان كذا ، سلسلة بنت سلسلة . إن أردت هذا فعليك بالعراق !

* * *

صحب مالكاً سنتين ثم أزمع الانتقال إلى الجامعة الأخرى ، جامعة العراق ، فدخل على الإمام مودعاً شاكراً وسأله أن يوصيه .

فقال له : « أوصيك بتقوى الله ، والقرآن ، والنصيحة للناس » .

ثلاث كلمات جمعت الفضائل كلها .

أما تقوى الله فرأس الأمر وملاكه ، ومن لم يكن فى قلبه تقوى لله ، لم ينفعه علم ولا عمل ؛ لأن التقوى روح العلم ، فمن كان عالماً بلا تقوى كان علمه جسداً بلا روح : جيفة ! وكان وبالاً عليه . ومن كان عاملاً بلا تقوى كان عمله رياء ، وكان حَسَنُه بالرياء قبيحاً .

وأما القرآن فعماد الدين ، وجماع العلم ، وطريق كل خير .

وأما النصيحة فهى الخلق كله ، النصيحة هى صدق القول ، وصدق المعاملة ، وأن تريد لكل امرئ ما تريد لنفسك . .

* * *

ورحل إلى العراق . . .

وكان الإمام أبو حنيفة قد مضى إلى رحمة الله ، وولى أستاذية مدرسته تلاميذه يقدمهم [1] أبو يوسف ومحمد .

وكان الإمام أبو يوسف فقد شغل بالقضاء . وأما الإمام محمد فقد تصدر

(1) قدم القوم يقدمهم (على وزن نصر ينصر) أى تقدمهم .

للتدريس وللبحث ، وانتهت إليه رياسة العلماء ، حتى كان من تلاميذه الإمام الشافعى ، أستاذ الإمام أحمد [1] ، فلزمه هذا الشاب المغربى ، فكان يحضر دروسه العامة ، ثم أحب أن يكون له درس خاص ، يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد ليحمله إلى بلاده ، درس خاص . .

انتبهوا ـ أرجوكم ـ وتأملوا الموقف .

أستاذ كبير له آلاف التلاميذ ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتى فيها ، يقدم عليه شاب غريب مجهول ، فيسأل أن يقطع له من وقته الثمين ، حصة خاصة به ، وماذا ترونه يقول له ؟

ماذا يصنع الأستاذ الكبير فى إحدى جامعات الغرب اليوم ، إن جاءه تلميذ شرقى ، فطلب منه هذا الطلب يطرده ، أو يعتذر إليه بلطف ، وإذا كان كريماً جداً ، أعطاه ساعة فى الشهر ، أو فى الأسبوع .

أما الإمام محمد ، فقد أخذ هذا الشاب المغربى إلى بيته ، وأعطاه غرفة بجنب غرفته ، وكان يسهر معه الليل ، يضع أمام التلميذ قدح ماء ، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو .

وما طلب منه أجراً ، ولا سأله مالاً ، بل كان هو الذى يطعمه ويسقيه ؛ ذلك لأن العلم كان فى رأى أسلافنا الأولين عبادة ، وكان قربة إلى الله ، فالطالب يطلب العلم لله ، لا للشهادة ولا للدنيا ، والأستاذ يعلم العلم لله ، لا للمرتب ، ولا للمنصب .

ومن ذلك أيها السادة ـ ظهر فى تاريخنا أولئك الأئمة والأعلام ، الذين كانوا منار الهدى ، وكانوا أساتذة الأرض ، وألفوا هذه المؤلفات الكبار التى لا

(1) وليس ذلك قادحاً بالشافعى ولا أحمد فالعلماء يأخذ بعضهم عن بعض . ويطلب اللاحق ما عند السابق .

نقدر نحن اليوم على قراءتها ، فضلاً عن نسخها ، فضلاً عن تأليف مثلها[1] .

ولبث أسد بن الفرات أمداً مع الإمام محمد .

وكان أسد أول من نعرفه جمع بين مذهب مالك ومذهب أبى حنيفة ، وبين مدرسة المدينة النقلية ، ومدرسة العراق العقلية .

ثم أزمع الرحلة إلى مصر . . .

وكان يتصدر التدريس فى مصر ، عالمان من تلاميذ الإمام مالك ، أشهب وابن القاسم ، ولم يكن قد نشأ الشافعى ، وكان كلاهما مجتهداً يخالف إمامه فى بعض المسائل ، ، ولكن أشهب فيه حدَّة ، وفى لسانه طول ، وفى ابن القاسم أناة ولين .

لزم أشهب حتى سمعه يوماً يرد فى مسألة على أبى حنيفة ومالك ، بلفظة خشنة ، فغضب أسد وكان كما عهدناه صريحا جريئاً . فصرخ به على ملأ من الناس وقال له قولاً فظيعاً .

إن سمحتم رويته لكم .

قال له : ما مثلك ومثلهما [2] ، إلا كمثل رجل أتى بحرين زاخرين فبال بينهما فرغى بوله ، فقال : هذا بحر ثالث ! وفارقه إلى ابن القاسم فلزمه مدة . وجمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل ، وأفاض عليها من ذهنه الذى اختمرت فيه علوم تونس والمدينة والعراق ، وجعلها فى رسالة (مدوّنة) سماها الأسدية .

وأراد الطلاب نسخها فأبى ، وقال عملتها لنفسى ، فرفعوا عليه دعوى .

(1) كلسان العرب ، ونهاية الأرب ، وصبح **الأعشى** ، **والمبسوط والمجموع** ، وتاريخ بغداد وأمثالها ، وما أكثر أمثالها .

(2) بل هذا مثل من يتطاول فى هذه الأيام ، على العلماء الأعلام .

دعوى طريفة جداً ، حار فيها القاضى ، ثم حكم بأن الكتاب يجمع مسائل ابن القاسم ، وابن القاسم حى يستطيع المدعون أن يأخذوا منه مثل ما أخذ أسد . وحكم برد الدعوى .

رد الدعوى قضاء ؛ لأنه لم يجد نصاً ملزماً ، ولكنه توسط شخصياً . فرجا أسداً أن يعطيهم الكتاب ، ففعل وتناقلوه عنه .

وقدر الله لهذا الكتاب أن يكون أساس الفقه المالكى كله

* * *

ورجع إلى القيروان عاصمة المغرب . المدينة العربية التى أنشأها البطل الفاتح عقبة بن نافع ، وكان فى المغرب حكومة مستقلة استقلالاً داخلياً هى حكومة بنى الأغلب .

رجع بعد غيبة امتدت نحواً من عشرين سنة صرم نهاراتها ، وأحيا لياليها ، بالعلم والدرس ، ولم يضع فيها لحظة فى راحة ولا لعب . ولم يصحب فيها إلا الأئمة والعلماء . ما صحب ذا لهو ، ولا ذات جمال .

وكان عمره قد قارب الخمسين ، فجلس للتدريس والإقراء يوفى دينه . يعطى التلاميذ مثل ما أعطاه الأساتذة : لله لا لأجر أو منصب ، وصارت مدونته الكتاب الرسمى لكل مدرسة مالكية ، وأخذها عنه سحنون ، ومضى سحنون فى رحلة إلى المشرق فقرأها على ابن القاسم نفسه . وكان رأى ابن القاسم قد تبدل فى بعض المسائل ، فكتب إلى أسد ليعدل المدونة فأبى ، فأخذ الناس (مدونة) سحنون ، وصارت مرجع المذهب المالكى ، وبنيت عليها الشروح والحواشى كلها ، واشتهرت باسم مدونة سحنون ، وإن كان أصلها لأسد .

أمضى عشرين سنة فى العلم ثم جاءه المنصب ، فقلد القضاء مع أبى محرز ، وكان للمدعى الخيار فى مراجعة أحد القاضيين ، وإن كانت نظرية الإمام محمد ـ صاحب أبى حنيفة ، نابغة التشريع الإسلامى ـ أن المحكمة هى محكمة المدعى عليه ، كما هو الرأى الآن .

وكان القاضيان من قضاة الجنة إن شاء الله ، ولكن أبا محرز فيه لين ، وأسد أسد فى الحق ، ولما قام والى القيروان منصور الطبرى بثورته واستولى على القيروان ، دعاهما ليقراه على ثورته ، وبين نقائص الأمير الذى ثار عليه . أما أبو محرز فخاف ، وأما أسد فأجابه جواباً حاسماً صارماً .

* * *

هذا خبر أسد طالب العلم ، وأسد الفقيه ، وأسد القاضى ، فاسمعوا الآن خبر أسد القائد الأميرال .

حكم المسلمون أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقى إلى نصف الساحل الغربى . وكان الساحل الجنوبى كله لهم ، والشمالى تحت حمايتهم ، وفى ظلال رايتهم ، تربطهم عهود بإيطالية وصقلية ، فجاء زعيم صقلية لاجئاً إلى أمير المغرب الأمير زيادة الله ، وخبره أن حكومة صقلية نقضت العهد ، وحبست أسرى المسلمين ، وأساءت إلى الجالية الإسلامية .

وتردد الحاكم فى قبول الخبر ، وأحب أن يقف على حكم الشرع فيه ، هل يكفى هذا الإخبار لاعتبار المعاهد ة منتهية وإعلان الحرب ؟

ودعا القاضيين يستفتيهما . أما أبو محرز فلم ير ذلك كافياً ، وأما أسد فقال : إن المعاهدة إنما أبرمت على أيدى الرسل ، وإخبار الرسل كاف لنقضها .

فلما أفتاه أسد شرع يجهز الأسطول .

وطلب القاضي أسد أن يكون مع المجاهدين ، فأبى الأمير خوفاً عليه وضنًا به ، فألح وألح ، وقال : وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية ، وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة .

فلما رأى منه الجد ، ولاه إمارة الحملة .

وكان يريد أن يكون جندياً متطوعاً ، لا يريد الإمارة فلما أعطيها ، تألم ، وقال للأمير : أبعد القضاء والنظر فى الحلال والحرام ، تعزلنى وتولينى الإمارة .

ذلك لأن القضاء كان فى عرفهم فوق الإمارة .

فقال : ما عزلتك عن القضاء ، ولكن أضفت إليك الإمارة ، فأنت قاض وأمير .

وكان أول من جمع له المنصبان .

***

جهز الأسطول ، وكان مؤلفاً من ثمان وتسعين قطعة حربية ، فيه جيش من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس .

وخرج الناس للوداع فى ميناء سوسة ، وكان يوم لم ير المغرب مثله ، وتكلم الحاكم والخطباء ، وقام القاضى الأمير ليتكلم .

أحرزوا ماذا قال ؟

لا ، لم يَزْهُ ولم يتكبر ولم يملأ الجو تهديداً للعدو ، وإبراقاً وإرعاداً وفخراً عارماً ، ولكن جعل من هذا الموقف مدرسة ، وعاد مدرساً . فقال :

« والله يا معشر الناس ما ولى لى أب ولا جد ولاية قط . وما رأى أحد من

أسلافى مثل هذا قط ، وما بلغته إلاَّ بالعلم ، فعليكم بالعلم ، أتعبوا فيه أذهانكم ، وكدوا به أجسادكم ، تبلغوا به الدنيا والآخرة » .

***

كأنكم تتساءلون ، وماذا يصنع هذا الشيخ بقيادة الأسطول ؟ ومن أين له العلم بالحرب والبحر وما درس فى مدينة بحرية ، ولا مارس أمور الحرب والقتال ؟

لقد نجح يا سادة نجاحاً منقطع النظير ، وهاكم قصة تدلكم على شدة مراسه، وقوة بأسه ، وأنه ـ كاسمه ـ أسد غاب .

لما طالت أيام المعركة ، وقلت الأقوات ، تململ بعض الجند ، وتحركت عناصر الشغب والفساد ، وأحكموا أمرهم ، وعزموا على العصيان، وحفوا بالقاضى الأمير أسد بن الفرات ، وأقبل زعيمهم أسد بن قادم ، يعلن رغبة الجند فى العودة إلى ديارهم .

وهى رغبة ظاهرها الطاعة ، وباطنها الثورة ، فقابلها أسد بالحكمة أولاً وراح يبين لهم قرب النصر ، وعظم الأجر ، فما ازدادوا إلا عتواً . وتقابل الأسدان ، وتجرأ الثائر فقال : على أقل من هذا قتل الخليفة عثمان بن عفان !

ومعنى هذا إعلان الثورة ! فماذا يصنع الفقيه القاضى ؟ .

أيستخذى ويخضع ؟ ويضيع المعركة ، ويخسر النصر المرتقب ، من أجل ثورة عاصفة ، يقوم بها جند مشاغبون ؟ أم يشتد ويحزم ؟ وماذا يصنع إذا هو اختار الشدة والحزم ؟

لقد صنع أيها السادة ما لا يصنع مثله أبطال الروايات الخيالية : تناول السوط من يد أحد الحرس ، وانتصب أمام الثائر وضربه على وجهه أولاً

وثانياً . ولبسته قوة سماوية خارقة هى قوة الإيمان ، صرخ بالجند : (إلى الأمام) . وتقدمهم ، وكان الظفر ، وكان الفتح ، وكان ابتداء الدولة الإسلامية فى صقلية التى امتدت قروناً ، ولكن الثمن كان غالياً .

لقد استشهد القائد البطل الفقيه القاضى أسد بن الفرات !

هوى وهو يحمل راية النصر ، ولم يعرف له قبل .

هوى طاهر الأثواب لم تبق روضة غـادة ثوى إلا اشتهـت أنها قبـر
عـليك سـلام الله وقفاً فإننى رأيت الكريم الحر ليس له قبر [1]

* * * *

(1) البيتان لأبى تمام من قصيدته التى لم يقل شاعر قصيدة فى الرثاء مثلها .

بانى مُرَّاكِش

هذا الحديث عن عبقرى من عباقرة التاريخ الإسلامى ، وعن موقعة من أعظم المواقع الحربية فى تاريخ الشرق والغرب ، ولابد لى قبل الكلام على هذا الرجل العبقرى ، وعلى هذه الوقعة الفاصلة من شيء من التمهيد التاريخى .

* * *

أعـود بكم إلى القـرن الخـامس ، وأذهب بكم إلى صـحـارى المغـرب الأقصى .

وقد كانت هذه الصحارى يومئذ لقبائل (زناته) فزاحمتها من الجنوب قبائل جديدة ، أقوام بعدد الحصى والرمال يعرفون بالملثمين ؛ لأنهم يتلثمون أبداً فى الحرب وفى السلم ، ويذكرون فى تعليله أن العدو أغار عليهم مرة ، وكان الرجال بعيدين عن الحى ، فلبس نساؤهم لباس الرجال ، وتلثمن وركبن الخيل ، فحسبهم العدو رجالاً ، وخاف وهرب فلزموا اللثام من ذلك اليوم تبركاً به ، وكانوا جن الحرب ، ومردة المعارك ، وكانوا عجائب فى الشجاعة والإقدام .

وكانوا فى الأصل على جهالة مطبقة ، فأحب زعيمهم أن يعلمهم الإسلام وأن ينور به قلوبهم ، فاختار فقيها من القيروان اسمه الشيخ عبد الله الجزولى ، وكان هذا الشيخ وحده سبب هداية هذه الخلائق ، ونقلها من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان ، ومن الصـحـارى الإفـريقـيـة الجنوبيـة ، إلى ملك المغـرب كله

والأندلس ، وهو الذى جعل كل واحد من الملثمين ، داعية إلى الله ، ومجاهداً فى سبيله كل [1] طاغية يقف فى وجه هذه الدعوى ، ويمنعها أن تسير ، ولم يكن سبب هذا النجاح أنه كان أعلم الناس علماً ، وأنه كان أفصحهم فصاحة ، فلقد كان فى الناس من هو أعلم منه وأبلغ ، ولكن سببه الأوحد أنه كان مؤمناً حقاً ، وكان متحمساً راغباً فى الإصلاح ، وأنه لم يكن يطلب الجاه ولا المال ولا الضياع ولا اللذات ، بل يطلب الله والدار الآخرة .

وكانوا يعرفون بالملثمين فسماهم المرابطين ، وكان هذا الفقيه هو الحاكم ، وهو الذى يصرف الأمر ، ولكنه مع ذلك لم يدع الإمارة ، بل تركها ليحى اللمتونى ، ولما مات ولى مكانه أخاه أبا بكر اللمتونى ، وتوفى هذا الفقيه بعدما أسس الأسس ، وأقام الدعائم لدولة المرابطين ، التى ظللت رايتها فيما بعد المغرب كله ، من تونس إلى البحر الأطلنطى والأندلس ، وما خص نفسه يوماً بطيب مأكل أو لين ملبس ولم يكن له أرب فى النساء . ومن هنا ترون أن عالماً واحداً يدعو إلى الله بإخلاص ، يحيى به الله أمة كاملة .

***

وانفرد أبو بكر اللمتونى بعد موت الفقيه الجزولى بالأمر ، فجاء بشاب من بنى عمه اسمه يوسف بن تاشفين فولاه قيادة شطر من الجيش أبقاه فى صحراء المغرب ، ليتم العمل الذى بدأ به الشيخ الجزولى ، وعاد هو إلى الجنوب ، إلى بلاد قومه من (لمتونة) ، لأن امرأة من قومه ظلمت فنادت : لقد ضيعنا أبو بكر.

فقال لها : لبيك . وأسرع إلى بلاده يقيم الحق والعدل فيها ويصلح من أمرها ، ويجاهد الكفار من حولها ، وبقى ابن تاشفين فى الشمال .

ولا نعرف من أين جاء ابن تاشفين ، ولا ندرى كيف نشأ ، ولا يحدثنا

(1) كلمة (كل) مفعول به لاسم الفاعل : مجاهد

التاريخ عن ذلك شيئاً ، ولا نعرفه إلا يوم ولى هذه القيادة . . ولى القيادة ، ولم يكن للمرابطين إلا الصحراء يعيشون فيها بدواً رحَّلاً ، ويسيطرون على قبائلها ، فسار بهم ابن تاشفين إلى المدن ، إلى فاس ، حاضرة المغرب ، وكبرى مدنه ، فافتتحها ، وأقام عليها أميراً يحكم بكتاب الله وسنة رسوله . ثم توجه إلى طنجة ، فى طريق ما سلكها قبله جيش ، فافتتحها وأقام عليها أميراً . وما زال يفتح المدن ، مدينة بعد مدينة ، حتى فتح مدن المغرب الأقصى كلها ، ثم ملك الجزائر ، ثم توجه إلى تونس فغلب عليها . وكان فى كل بلدة أمير يظلم الناس ، وحكومة تعيث فى الأرض فساداً ، فجعلها كلها حكومة واحدة ، من تونس إلى البحر . . البحر الذى بلغه من قبل الفاتح الإسلامى عقبة بن نافع فخاضه بفرسه وقال : اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً فى سبيلك ، حتى أفتح الأرض كلها أو أموت .

وعاد ابن تاشفين ، فاختار موضعاً نزهاً ، حوله جبال تطيف به من بعيد ، اسمه مراكش ، ومعناها بلغة البربر : (مرّ مسرعاً) لأنه كان مأوى للصوص وقطاع الطرق فبنى فيه مدينة مراكش ، سنة 465 هـ ؛ وعاد أبو بكر فاستقبله ابن تاشفين وأظهر له الخضوع ، ولكنه لما رأى ما بلغه من القوة والأيد ، ترك الأمر له وعاد من حيث جاء ، يجاهد فى الصحارى الجنوبية حتى مات شهيداً ، وانفرد ابن تاشفين بالأمر .

***

وكان ابن تاشفين هذا نحيف الجسم ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، دقيق الصوت ، يحسبه من يراه ويسمعه رجلا ضعيفاً مسكيناً ، فإذا خبره وجده الأسد قوة ومضاء ، والصقر حدة بصر ، وسرعة انقضاض ؛ وكان محارباً ليس له نظير ؛ وقائداً من الطبقة الأولى من القواد ، وكان خيراً عادلاً يميل إلى

أهل العلم والدين ، ويكرمهم ويجعلهم أصحابه وبطانته ، ويحكمهم فى نفسه وفى بلاده ، ويتبع حكمهم ما داموا يتكلمون بلسان الشرع ، ويحكمون بحكم الله ، وكان يحب الصفح ، ويميل إلى العفو ، مهما عظم الذنب وجلت الخطيئة ، وكان زاهداً متقشفا لم يستأثر بمطعم ولا مشرب ، ولم يرتفع فى عيشه عن عيش أفقر رعاياه ، فعاش حياته كلها لم يعرف القصور الفخمة ، ولا الموائد الحافلة ، ولا حياة السرف والترف ، لم يأكل إلا خبز الشعير ولحم الإبل ، ولم يشرب إلا لبن النياق ، وكان قوى الجسم مشدوداً شد الوتر ، وبقى على ذلك حتى قارب المائة . وكانت الألقاب فاشية فى الأندلس ، فكل من حكم فيها بلدة ، أو سيطر على ناحية من الأرض ، اتخذ أبهة الملك ، وألقاب السيادة ، وهو قد أسس دولة من أكبر دول الإسلام وبنى مدينة من أجل المدائن ، ورضي بأن يكون تابعاً للإمامة العظمى ، لأنه كان يرى رأى الإسلام ، وهو أنه لا يجوز أن يكون المسلمون إلا دولة واحدة ، وكتب إلى الخليفة العباسى يستمد منه الإمارة ، فأرسل إليه بمرسوم الولاية على المغرب ، وسمى نفسه (أمير المسلمين) ، وأعلن أنه تابع للخليفة فى بغداد .

***

فى هذا الوقت الذى انتقل فيه المغرب الإسلامى من الفرقة والانقسام والضعف إلى الوحدة والقوة ، وزالت على يد الفقيه الجزولى ، والقائد ابن تاشفين ، هاتيك الدويلات الصغار ، وقامت الدولة الكبيرة ، كانت الحال فى الأندلس على العكس ، فقد زالت دولة الناصر ، ودولة المنصور من بعده ، وقامت هذه الحكومات الصغيرة المتنافرة المتناحرة ، التى لا يفتأ كبيرها يغير على صغيرها ، وكل جارة منها تعتدى على جاراتها . وبلغ الأمر إلى ما هو شر من ذلكم ، إلى أن صارت كل دولة منها تستعين على أختها بالإسبان ، بالعدو المشترك ، الذى يتربص بالجميع ، ويكيد للجميع ، ولم يسلم من هذا الخزى

أحد منهم !

وأخذ الإسبان يستفيدون من هذا الخلاف ، ويأخذون من أطراف البلاد الإسلامية ، وكلما فتحوا طريقاً للعداوة بين دولتين من هذه الدول الهزيلة ، دخلوا منه يوغلون فى بلاد الإسلام ، ويتقدمون أبداً إلى الأمام [1] . وجعلت المدن تساقط فى أيديهم واحدة بعد واحدة ، فلا ينتبه المسلمون ، حتى سقطت طليطلة ، وهى قلعة الإسلام ، فكانت سقطة لها دوى رج الأندلس ، فأفاق هؤلاء الأمراء وأيقنوا أن الهوة قد تفتحت تحت أقدامهم ، وأنهم جميعاً ساقطون فيها ، إذا لم يتحدوا ويتجمعوا ، وكانوا جميعاً يدفعون الجزية للأذفونش (الفونسو ملك قشتالة) حتى كبيرهم المعتمد بن عباد الملك الشاعر ، فلما أخذ طليطلة لم يعد يرضى بالجزية ، وعزم على أخذ البلاد . فتوجهوا جميعاً تلقاء المغرب ، ورأوا أنه لا نجاة لهم إلا إذا استنجدوا بأمير المسلمين : ابن تاشفين . وكان القائم بهذا ابن عباد ، فخوفوه من طمع ابن تاشفين فى الأندلس ، واستيلائه عليها ، فقال كلمته المشهورة : أنا أعرف هذا ، ولكنى أفضل أن أرعى جمال أمير المسلمين عن أن أرعى خنازير ملك الإسبان !

وكان مرجع أمراء الأندلس لابن عباد ، فلما رأى هذا أخذوا برأيه ، وكتبوا كتاباً واحداً بلسانهم جميعاً يستقدمون به ابن تاشفين ، ولبى الطلب ، وحشد جيشاً ضخماً وجاز به البحر إلى الأندلس ، وكان الأذفونش فى حرب ابن هود أمير سرقسطة ، فلما بلغه عبور ابن تاشفين ، ترك حربه وجمع أمراء النصارى فى جيش واحد ، وتوجه ليلقى به ابن تاشفين الذى انضم إليه أمراء المسلمين جميعاً ، ومشى الجيشان إلى المعركة الفاصلة ، التى اجتمعت فيها جيوش النصرانية كلها فى جانب ، وجيوش الإسلام فى جانب ، ولم يكن الفريقان قد اجتمعا من قبل أبداً فى جيش موحد . وكان اللقاء فى سهل أفيح

(1) كما يصنع اليهود الآن فى لبنان (1985) .

بالقرب من مدينة بطليوس سمى (سهل الزلاقة) ، وكانت الوقعة يوم الجمعة فى الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، أى قبل تسعة قرون[1] .

اصطف الفريقان ، حتى لقد نقل ابن خلكان أنه لم يكن فى ذلك السهل الواسع موضع قدم لم يكن فيه جندى مستعد ، ، ولا تزال الأمداد تتوالى من الجانبين ، حتى لم يبق محارب من هؤلاء وأولئك إلا حضر المعركة .

وأخطأ ابن عباد خطيئة كادت تودى بجيوش المسلمين كلها ، خطيئة دفعته إليها شجاعته ، ونسى أن الرأى قبل شجاعة الشجعان ، ذلك أنه باشر القتال قبل أن يصل ابن تاشفين إلى الميدان واضطرب أمر الجند الإسلامى ، وأخذ الناس على غير تعبئة وغير استعداد ، فصار أمرهم فوضى ، ودهمهم فرسان النصارى ، فحطموا كل مقاومة إسلامية ، وسحقوا كل ما كان أمامهم، وسقط ابن عباد صريعاً ، قد أصابه جرح غائر ، وفر رؤساء الأندلس يائسين وظن الأذفونش أن ابن تاشفين مع المنهزمين لما رأى ذلك ابن تاشفين ، هجم بنفسه يتلقى بصدره صدمة فرسان الإسبان يحف به أبطال المغرب ، وضرب الطبول الضخمة فارتجت الأرض ، وطويت تحت أقدامهم ، ووقف الهجوم الإسبانى ، ثم شق جيش الإسبان واخترقه حتى احتل قيادة الأذفونش، فلما صار فيها عاود الإسبان الهجوم أشد وأقوى من الهجوم الأول، فانخرقت جبهة المسلمين ، ولكنهم عاودوا الهجوم واحتلوا القيادة مرة ثانية ، فهجم الإسبان ثالث مرة هجوم المستميت اليائس فترجل أمير المسلمين ابن تاشفين وهو يومئذ شيخ فى نحو الثمانين ، وترجل معه نحو أربعة آلاف من حشمه السودان ، ووقفوا كأنهم جدران الصخر ، وبأيديهم الأتراس والسيوف، وقفز واحد منهم على فرس الأذفونش ، فقبض على عنقه بيد ، وطعنه بالثانية

(1) من يوم إذاعة هذا الحديث من (إذاعة دمشق) .

بخنجره فى فخذه فاخترق الخنجر الدرع والعظم ودخل فى سرج الفرس وفرّ وفخذه معلقة بالسرج ، ووقعت الهزيمة الكبرى فى جيش الإسبان وكان النصر .

وكانت معركة من أعظم المعارك الفاصلة فى تاريخ البشر ؛ فقد اجتمعت فيها لأول مرة قوى الإسلام كلها فى الأندلس والمغرب فى وجه قوى النصرانية كلها فى إسبانيا ، وكانت معركة شديدة أظهر فيها الفريقان من البراعة والشجاعة ، ما يجرى من غرابته مجرى الأمثال ، وظهرت فيها مزايا التربية الصحراوية ، فانهزم أبطال الأندلس حتى المعتمد بن عباد فارس العصر ؛ ولم يثبت إلا بنو الصحراء ، الذين لم يفسدهم ترف الحضارة ، ولا نعيم القصور ، وبدلت مسير التاريخ ، فقضت على هاتيكم الدويلات الهزيلة المتنافرة المتناحرة التى كانت تدفع الجزية للإسبان عن يد وهى صاغرة وتستعين بهم على حرب أخواتها فى اللسان والدين ، وعادت للأندلس وحدتها تحت الراية الإسلامية الكبرى ، وكانت على وشك السقوط فأخرت هذه المعركة سقوطها أربعمائة سنة ، كل ذلك بعمل هذا الرجل النحيف الضامر الخافت الصوت ، الذى كان يومئذ شيخاً فى نحو الثمانين من عمره . هذا الشيخ البدوى البربرى الذى لم ينشأ فى المدن الكبار ، ولم يرها فى صدر حياته ، ولم يتعلم فى المدارس ولم يدخلها ، ولم يكن ينطق بالعربية ولا يكاد يفهمها ، ولم يعرف فى عمره لذة النعيم ومتع العيش ؛ ولكنه مع ذلك أقام دولة من العدم ، دولة تقيم حكم الله ، وتتبع شريعة الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ دولة امتدت من تونس إلى الأطلنطى إلى آخر الأندلس ، ولم يدّع الاستقلال فيها ، ولا اتخذ ألقاب السلطان ، ولكنه قنع بأن يكون أميراً تابعاً اسماً للخليفة العباسى فى بغداد .

يا سادتى ويا سيداتى :

إن تاريخكم فياض بالبطولات والمفاخر والمكارم ، ولكنكم لا تكادون تعرفون تاريخكم .

* * *

الفصل الثالث

- الصقر الأموى
- قراقوش المفترى عليه
- فاتح المشرق
- من ورثة الأنبياء
- الإمام الأعظم

الصَّقرُ الأموى

هل قرأتم قصص المغامرات الكبرى ،أو رأيتم أفلامها ؟ تصوروا أغرب قصة ابتكرها خيال أديب لتروا ، أن أعجب قصص الخيال لا تبلغ حقيقة هذه القصة التاريخية الواقعة التى جئت أحدثكم الليلة عنها .

قصة رجل رمته الحياة بأدهى الدواهى ، ونزلت به إلى الحضيض الذى يدعو أشد الناس أعصاباً إلى الجنون أو الانتحار ، فقفز قفزة واحدة من حضيض الإخفاق إلى ذروة الفلاح والنجاح .

* * *

وكانت دمشق فى عهد مظلم من عهودها السود ، يحكمها حكام صغار النفوس ، كبار المطامع والأهواء ، جبنوا عن المكارم والفتوح ، وجرؤوا على المعاصى والفسوق ، جمعوا بين الطغيان على الناس والعبودية للشيطان ، همهم حفلات اللهو ومجالس الطرب ، يبذرون الأموال على الشعراء للدعاية ، وعلى المغنين للذة ، وعلى النساء والخمور ، ناموا على ملذاتهم وسهر أعداؤهم ، وسكروا بنشوة السلطان ، وخمرة الهوى ، وصحا خصومهم ، واضطجعوا على فراش الملذات ، وقام مناوئوهم يستعدون ليوم النزال . . .

غفلوا عن ساهر حول الحمى   باسط من ساعدى مفترسى

حام حول الملك ثم اقتحما   ومشى فى الدم مشى الضرس [1]

أولئك هم بعض ولاة بنى أمية فى أواخر العهد بأمية ،نسى الأحفاد منهم

(1) من موشحة شوقي .

سيرة الأجداد، ونزعت أمية ثوب الجهاد ، وطوت أمية راية الفتوح ، واستكانت أمية إلى اللهو والدعة . واختفت من أفق الدولة تلك الكواكب النيرة ، وغابت من سجلاتها تلك الأسماء الكبيرة ، فلم يعد فيهم مثل معاوية ولا عبد الملك ولا الوليد ولا عمر بن عبد العزيز ، ولم يعد فى ولاتها مثل زياد والحجاج ، ولا فى قوادها قتيبة وابن القاسم ، والمهلب وطارق . واعتلى سرير الخلافة خلفاء صغار ضعاف .

ظلمت أمية وفجرت ، والظلم والفجور توأمان ، ما كان الحاكم قوياً قديراً إلا كان عادلاً ، ولا كان عاجزاً قاصراً إلا كان ظالماً يستر ضعفه عن الفضيلة بظلم الرعية .

وذاقت أمية عاقبة ظلمها :

أعد الحطب فى الخفاء ، وهيئ البارود ، ولم يبق على انبعاث النار إلا أن تقدح الشرارة الأولى . وطارت الشرارة من أقصى الأرض ، من خراسان[1]، واندلعت النار ، ولم يعد ينفع نذير الوالى البصير نصر بن سيار .

وفتشت أمية عن الرجل الذى يعيد سيرة أخلافها الأول : معاوية وعبدالملك ، ووجودته وكان مروان . . . وكان مروان كاسمه صخراً صلداً ، وكان رجلاً حقاً ، ولكنه جاء مع الأسف والدنيا مولية ، والنهار آفل ، والنار قد اندلعت وامتدت حتى وصلت ما بين المشرقين وضاعت أمية إلى الأبد .

وضاع العرب ، وما أضاعهم إلا الانقسام ، والعصبية الجاهلية ما بين قيسية ويمانية ، وتلكم مصيبة العرب أبداً ، ولو كان العرب متحدين ولو كانوا صفاً واحداً ما حكمهم أمس عبيد المعتصم من الأتراك ولا مماليك المماليك من كل أمة ، ولا غلبهم اليوم على فلسطين كلاب البشر وجراثيم الإنسانية

(1) خراسان هى الجزء الجنوبى من أفغانستان .

اليهود . . .

وحكم الفرس دولة الإسلام باسم بنى العباس .

فخلت من أمية القصور ، وامتلأت بأمية القبور ، وجفتهم أعواد المنابر ، وعانقت أجسادهم الجذوع ، وتتبعت الدولة الجديدة بنى أمية قتلاً وحرقاً وإهلاكاً ، لم يفلت منهم إلا شاب واحد ، هو البطل الذى أحدثكم عنه : عبدالرحمن بن معاوية بن هشام وأخوه الطفل الصغير ، ابن ثمانى سنين ، وخادمه بدر .

هؤلاء بقية الأسرة التى حكمت ثلث المعمور من سطح هذه الأرض ، ورفعت راية الإسلام على أقطار لم تكن تدرى ما الإسلام . كان الإسلام ممتداً من آخر حدود فارس إلى آخر حدود مصر ، فوصلته من هنا إلى الهند وتخوم الصين ، ومن هناك إلى وسط فرنسا ، ووصلت جيوشها إلى أسوار القسطنطينية وإلى جبال الحبشة .

هؤلاء الثلاثة هم بقية الشم الأماجيد من عبد الشمس ، فإن يذهبوا لا يبق فى الأرض أثر من عبد شمس ، وكانت الدنيا كلها عليهم : الدولة والجيش والناس ، كان الناس لما ذاقوا من أواخر خلفاء أمية حرباً على الأمويين جميعاً . تألبت الدنيا كلها على أمية ، ونسيت فتوح أمية ، ولكن أمية هى التى زرعت الظلم فحصدت الهلاك ، والناس ينسون فضل الأسلاف إن عم ظلم الأخلاف ، والناس يغفرون كل شيء إلا أن يتخم الحاكم بجوع الشعب ، ويشترى لذاته بألم الشعب ، ويحرم الشعب ليعطى مغنية أو شاعراً ، ثم إن الناس مع كل قائم ، فإلى أين يفر ، وماذا يصنع ؟ أين يذهب والبلدان كلها قد خضعت للسفاح من بنى العباس ، وأين يختفى والناس كلهم يدلون عليه إن عرفوه . وليس معه معين إلا غلامه بدر ، ولا مال إلا جوهرة وصلت إلى ابن

أخته ، لو أخرجها ليبيعها لعرفوه بها فقتلوه .

إنه موقف مقطوع فيه الأمل ، ولكن عبد الرحمن لم ييأس . كانت لعبدالرحمن أعصاب قدت من الفولاذ ، وبصر كأنه ينظر من وراء الغيب ، وعقل لا تدنو إلى إدراك تفكيره العقول ، رمى ببصره إلى البلدان ، فوجدها كلها مغلقة دونه ، وعرضها بذهنه حتى ألم بها كلها ، فلم يجد إلا الأندلس ، ولكنه كان فى العراق ، وأين أنت يا أندلس من العراق ؟

ولم ييأس ومشى إلى الأندلس ، ودون الأندلس صحارى وجبال ومهالك ، ودون الأندلس سدس محيط الأرض .

واعترضه الفرات فألقى بنفسه يسبح فى الفرات ومعه أخوه ، وكلت قوى الطفل ونادوه بالأمان ، فاغتر ورجع ، ولم يسمع نصح أخيه ، فذبحوه أمامه وهو يبصر ويرى ، ولم يبق معه إلا غلامه بدر .

وانطلق يمشى ، يمشى فى الليل ويختبئ فى النهار ، من قرية إلى قرية ، ومن ركن إلى ركن والطريق لا ينتهى ، وأى طريق ، طريق الأندلس يا أيها الناس . . تصوروا أن عليكم أن تمشوا من دمشق إلى بيروت بلا زاد ولا راحلة . . ! أتصورتموها ؟ فكيف بعبد الرحمن وعليه أن يمشى من أطراف العراق إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى طرابلس ، ومن طرابلس إلى تونس ، ومن تونس إلى الجزائر ، ومن الجزائر إلى أقصى المغرب ثم يعبر البحر وهو فقير ضعيف مطارد منفرد ما معه إلا غلامه بدر .

ويا ليت أن لدىّ مذكرات له فيما رأى فى طريقه وما شاهد ، إذن لكانت أعجوبة العجا . . نى فص . ں المغامرات ولكنها لم تكتب .

ووصل الأندلس ، وكانت الأندلس فى معزل عن الدولة ، لم تدر بما جد من أحداث وما كان من انقلاب ، ولم يشغل العرب فيها أنهم مهددون من هنا

بالإسبـان ، ومن هنا بالبربر ، ومن بعيد بالفرس من أنصار العباسيين ، لم يشغلهم هذا كله عن شنشنتهم الأولى ، عن الخلاف ، عن العصبية بين القيسية واليمانية ، هذا الخلاف الذى أفسد تاريخنا كله وبقى فينا ، بقيت آثاره فى لبنان إلى ما قبل قرن واحد إلى مذبحة (عين دارة) .

واستطاع هذا الطريد الشريد أن يرمى نفسه فى المعمعة وأن يكون سياسياً كأبرع سياسى فى الدنيا ، فيفرض نفسه على الناس فرضاً ، حتى انقادوا له ، وكذلك ينقاد الناس للعبقرية وللبيان ، وأن يكون قائداً كأبرع قائد فى التاريخ ، يخوض المعارك ، ويدير الحروب حتى صار سيد الأندلس .

إن سيرة عبد الرحمن الداخل ، أروع سيرة فى تواريخ الأمم للأمل الذى يذيب الصعاب كما تذيب الشمس جبلاً من الثلج ، والهمة التى تضم المشرق إلى المغرب ، والعبقرية التى تنشئ وتشيد من العدم وجوداً ضخماً . الرجل الطريد الذى استلم إرث أمية ملطخاً بالوحل ، مغموساً بالدم ، فجعله أسمى من النجم ، وأبهى من سنا الشمس [1] . الرجل الذى أنشأ دولة عاشت قرنين ونصف ، وأخرجت مثل الناصر والحكم ، وسجد على أعتابها ملوك الإفرنج والروم .

يا شباب العرب ، إن فى تاريخكم أروع أمثلة البطولة والسمو الإنسانى ، فلا تكتفوا بقراءة التاريخ ، ولكن اعملوا على أن تكتبوه بأعمالكم ، وأنا لم أحدثكم اليوم حديث عبد الرحمن الداخل ، ولكن ذكرتكم به لترجعوا فتقرؤوا تاريخه .

---

(1) وقد صنع مثل ذلك عبد العزيز . حين جاء الرياض وهى فى يد عدوه وما معه إلا رجال لا يبلغون المائة ، وتركها وهى عاصمة الجزيرة العربية التى وحدها بعد الفرقة ، وقواها بعد الضعف . وجعل منها دولة لها بين الدول مكان ، وذكرها على كل لسان .

قراقوش المفترى عليه

حدثتكم من شهور حديثاً ، صححت فيه خطأ شائعاً ، وبرأت فيه متهماً مظلوماً ، حين رددت باطل المتنبى ، وبينت حق المؤرخين فى كافور الملك العادل الذى صغره المتنبى وهو عظيم ، وسيف الدولة الذى جعله المتنبى أعدل الملوك ، وكان على براعته فى الحرب من ظَلَمة الحكام .

ولقد جئت أحدثكم اليوم عن رجل راح ضحية الأدب المفترى ، كما راح كافور بعده ضحية الشعر الظالم . هو قراقوش .

وقراقوش المسكين ، الذى صار على ألسنة الناس ، فى كل زمان وكل بلد المثل المضروب لكل حاكم فاسد الحكم ، فكلما أراد الناس أن يصفوا حكماً بالجور والفساد ، قالوا : هذا حكم قراقوش .

وهم يحرفون اسمه ، فوق تحريف تاريخه ، فيقولون : قراقاش بدل قراقوش ، وقراقوش معناها بالتركية : و النسر الأسود ـ (قوش : نسر ، قرا : أسود) .

إن قراقوش يا أيها السامعون له صورتان : صورة تاريخية صادقة ، وصورة روائية صورها عدو له من منافسيه .

والعجيب أن الصورة التاريخية الحقيقية طمست ونسيت ، والصورة الخيالية الباطلة بقيت وخلدت ، فلا يذكر قراقوش إلا ذكر الناس هذه الحكايات العجيبة ، وهذه الأحكام الغريبة ، التى نسبت إليه ، وافتريت عليه .

فمن هو قراقوش ؟ .

هو أحد قواد بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبى ، كان من أخلص أعوانه ومن أقربهم إليه ، ، كان قائداً مظفراً ، وكان جنديًا أمينًا وكان مهندساً حربياً منقطع النظير .

وكان مثالاً كاملاً للرجل العسكرى ، إذا تلقى أمراً أطاع بلا معارضة ولا نظر ولا تأخير ، وإن أمر أمراً لم يرض من جنوده بغير الطاعة الكاملة ، بلا اعتراض ولا نظر ولا تأخير .

وكان أعجوبة فى أمانته ، لما أحس الفاطميون بقرب زوال ملكهم شرعوا يعبثون بنفائس القصر ، ويحملون منها ما يخف حمله ويغلو ثمنه ، وكان القصر مدينة صغيرة ، كدس فيها الخلفاء الفاطميون [1] خلال قرون ، من التحف والكنوز والنفائس ، ما لا يحصيه العد ، ولو أن عشرة لصوص أخذوا منه ما تخفى الثياب ، لخرج كل منهم بغنى الدهر ولم يحس به أحد .

فوكل صلاح الدين قراقوش بحفظ القصر ، فنظر فإذا أمامه من عقود الجواهر والحلى النادرة ، والكؤوس والثريات ، والبسط المنسوجة بخيوط الذهب ، ما لا مثيل له فى الدنيا ، هذا فضلاً عن العرش الفاطمى ، الذى كان فيه من أرطال الذهب ، ومن نوادر اليواقيت والجواهر ، ومن الصنعة العجيبة ما لا يقوّم بثمن [2] .

وكان فى القصر فوق ذلك من ألوان الجمال فى المئات والمئات من الجوارى المتحدرات من كل أمم الأرض ، ما يفتن العابد .

فلا فتنه الجمال ، ولا أغواه المال ، ووفى الأمانة حقها ، ولم يأخذ لنفسه شيئاً ، ولا ترك أحداً يأخذ منها شيئاً .

(1) كذا يدعونهم الناس وليسوا على التحقيق من الفاطميين .

(2) ومثله عرش الطاووس الذى تعتز به اليوم إيران وما هو لها ، إنما هو لشاهجهان بانى (تاج محل) أجمل بناء على هذه الأرض .

وهو الذى أقام أعظم المنشآت الحربية ، التى تمت فى عهد صلاح الدين ، وإذا ذهبتم إلى مصر ، وزرتم القلعة المتربعة على المقطم ، المطلة على المدينة ، فاعلموا أن هذه القلعة ، بل هذه المدينة العسكرية ، أثر من آثار قراقوش .

وإذا رأيتم سور القاهرة ، الذى بقى من آثاره إلى اليوم ما يدهش الناظر ، فاعلموا أن الذى بنى السور ، وأقام فيه الجامع ، وحفر البئر العجيبة فى القلعة هو قراقوش .

ولما وقع الخلاف بين ورثة صلاح الدين ، وكادت تقع بينهم الحروب ، ما كفهم ولا أصلح بينهم إلا قراقوش .

ولما مات العزيز الأيوبى ، وأوصى بالملك لابنه المنصور ، وكان صبياً فى التاسعة من عمره ، جعل الوصى عليه والمدبر لأمره قراقوش ، فكان الحاكم العادل ، والأمير الحازم ، أصلح البلاد ، وأرضى العباد .

هذا قراقوش ، فمن أين جاءت تلك الوصمةالتى وصم بها ؟ ومن الذى شوه هذه الصورة السوية ؟ .

إنها جريمة الأدب يا سادة .

لقد أساء المتنبى إلى كافور ، فألبسه وجهاً غير وجهه الحقيقى ، وأساء ابن مماتى إلى قراقوش فألبسه وجهاً غير وجهه الحقيقى .

ولم يعرف الناس من الاثنين إلا هذا الوجه المعار كوجوه الورق التى يلبسها الصبيان أيام العيد .

وابن مماتى هذا كاتب بارع ، وأديب طويل اللسان ، كان موظفاً فى ديوان صلاح الدين ، وكان الرؤساء يخشونه ويتحامونه ، ويتملقونه بالود حيناً وبالعطاء أحياناً ، ولكن قراقوش وهو الرجل العسكرى الذى لا يعرف الملق

ولا المداراة لم يعبأ به ، ولم يخش شره ، ولم يدر أن سن القلم أقوى من سنان الرمح ، وأن طعنة الرمح تجرح الجرح فيشفى ، أو تقتل المجروح فيموت ، أما طعنة القلم فتجرح جرحاً لا يشفى ولا يريح من ألمه الموت .

فألف ابن مماتى رسالة صغيرة ، سماها « الفافوش فى أحكام قراقوش » ووضع هذه الحكايات ونسبها إليه .

وصدقها الناس ، ونسوا التاريخ .

ومات قراقوش الحقيقى وعاش قراقوش الفافوش كما مات كافور التاريخ وعاش كافور المتنبى ، وكما نسى عنترة الواقع وعرف عنتر القصة .

وهذا يا سادة سلطان الأدب ، فيا أيها الأدباء ، اتقوا الله فى هذا السلطان ، ويا أيها الناس لا تخدعوا بتزييف الأدباء .

***

فاتح المشرق

إنَّكم لا تفهمون هذا الحديث إلا إذا وضعتم تحت أعينكم مصور العالم الإسلامى . أترون إلى هذه البلاد التى تمتد من ساحل المحيط الأطلنطى ، حتى لتكاد تتصل بساحل المحيط الهادى ، من فارس إلى الصين . إننا لم نفتح هذه البلاد لهواً ولا لعباً ، ولكن أرقنا فيها أنهاراً ، (أنهاراً حقاً) من دمائنا . وضحَّينا فيها بجبال ، (جبال حقاً) من أجسادنا . وسخَّرنا لها عبقرياتنا ، ووقفنا عليها بطولاتنا ، التى لم يعرف التاريخ إلا الأقل منها ، وبقى سائرها سراً فى ضمير الغيب ، واحتساباً عند الله .

ولكل منطقة قصة رائعة ، تقرؤها فتقول : هذه أروع قصص الفتوح ، فإذا قرأت الثانية ، رأيتها أجلُّ وأكبر . ولكل معركة قواد عباقرة تسمع أخبارهم ، فتقول : هؤلاء أعظم قواد الزمان ، فإذا سمعت أخبار قادة المعركة الأخرى قلت : هؤلاء أعظم وأقدر . وإذا أنت أمام سلسلة ذهبية لا تدرى أى حلقة فيها أثمن من الأخرى ، وأى مرحلة من مراحل الفتوح كانت أطول وأروع ؛ فتوح الشام ؟ أم العراق ؟ أم المغرب ؟ أم المشرق ؟ أم الروم والأناضول ؟ أم الأندلس وجزائر البحر ؟ .

لقد تعاقب على هذه الراية الإسلامية حتى بلغ بها الأفقين . وركزها فى المشرق والمغرب مئات من القواد ، منهم من وقف يدافع عنها ألا تتراجع ، ومنهم من رفعها بعدما كادت تميل ، وأعلاها وأعاد لها مجدها . ومنهم من مشى بها خطوات فى الطريق الوعر ، ومنهم من جزع [1] بها أقطار الأرض

(1) أى قطع .

وفتح بها الفتوح . وهذا الحديث عن قائد من هؤلاء القواد الكبار ، واحد من سادة المعارك ، وعباقرة الحروب فى التاريخ العالمى ، نابغة عبقرى من طبقة أنيبال والإسكندر ، وخالد وسعد ، وعقبة والمهلب وطارق ، ومحمد بن القاسم وصلاح الدين ونابليون .

عن الرجل الذى ضمَّ بسيفه إلى الوطن الإسلامى ، بلاداً أوسع من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنكلترا معاً ، بلاداً يسكنها أقوى شعوب العالم القديم على الحرب ، وأشدها تمرساً به ، وبراعة فيه ، وقدرة عليه .

رجل ما رفعه نسبه فقد كان من أخس قبائل العرب ، وأحطها منزلة ، من قبيلة كان يستحيى أبناؤها من الانتساب إليها ، ويضرب المثل عند ذكر الضَعَة بها ، ويرتفع العرب عن ذكرها . . من باهلة .

هو الشاب الذى اختاره الحجاج ، دون الكهول المجربين ؛ والقواد المشهورين ،ليتولى القيادة العامة لجيش المشرق ، ليكون خلفاً للقائد العظيم الذى لا أجد أحداً من قوادنا أشبه بخالد فى براعته وعبقريته منه ، المهلب[1] ، والذى عجب الناس من انتخابه لها ، و أنكروه ، ولولا خوفهم من الحجاج لعابوه وأبوه ، فلم تمض إلا مدة من الزمان حتى أثبت أنه من أقدر القواد ، وأن الحجاج كان ثاقب النظر ، صادق الفراسة ، عظيم الخبرة بالرجال .

الرجل الذى فتح من حدود إيران اليوم إلى أواخر تركستان ، والذى دخل الصين ، ولولا ما كان من الفواجع التى أودت به شاباً لفتح الهند والصين .

ألم تعرفوا بعد من هو ؟ إنه قتيبة ، قتيبة بن مسلم الباهلى .

كان مركز جيش المشرق مرو ، وكانت الفتن قد عصفت بذلك الجيش

(1) المهلب من أعاظم قواد الزمان ولكن أكثرنا يجهل أخباره .

الضخم الذى كان يقوده المهلب وابنه يزيد ، فلما عرضه قتيبة لم يجد فيه إلا ثلاثمائة وخمسين درعاً فالتجأ إلى آخر حمى يلتجئ إليه كل جيش فى الدنيا إلى الحمى الذى لا ينال من احتمى به ، إلى الحصن الذى لا يؤخذ من تحصن به وهو الإيمان ، فقام يخطب فى هذه البقية من جيش يزيد بن المهلب ، ويذكرهم الله ، ويرغبهم ثوابه ، ويحضهم على الجهاد ، الجهاد لإعلاء كلمة الله لا الجهاد للمال ولا للبطولة ولا للمجد ، الجهاد الذى لا يثمر إلا إحدى الحسنيين: الظفر أو الجنة .

هزَّ نفوسهم ، فطرح عنها أثقال الأحقاد والشهوات والأهواء ، فلما تخففت منها سمت بجناحين من الإيمان والإقدام ، إلى آفاق لم تكن تظن أنها تبلغها . فكانت هذه الكلمات حين مست جوانب الإيمان فى النفوس ، قد زادت الجيش عدداً إلى عدده ، وعُدداً إلى عُدده ، فإذا هو جيش جديد ، قوى، لو رمى به المرامى لاستجاب له ، ولو قَحَمَ به البحر لاقتحمه ، ولو رام به الجبال لدكَّها . . . وكذلك تُجدَّد الجيوش تُعد للظفر .

وتوجه الجيش المؤمن على اسم الله ، لينشر الإيمان فى أرض لم ينتشر فيها . ويفيض النور على أمم لم تر بعدُ النور ، سار يصل الحلقات القديمة من سلسلة الفتوح الذهبية بحلقات جديدة ، سار ليتمم الرسالة ، ويحقق المعجزة، ويحمل راية الإسلام مرحلة أخرى فى طريقها المرسوم ، حتى تتم رحمة الله للعالمين ، فتظلل الأرض كلها . وما هى إلا جولات حتى عجم الأعداء عوده، وعرفوا أى سهم ماض رماهم به الحجاج ، فأقبلوا يتسابقون إلى الطاعة ، وجعلت تتساقط على قدميه التيجان ، وجاء ملك الطالقان ، وملك الصغانيان، من ملوك الترك ، فقدَّما إليه مفاتيح من الذهب على وسائد من الحرير ، رمزاً للاستسلام بلا قيد ولا شرط ، وتبعهما الملك الكبير الداهية نيزك طرخان ،

ملك باذغيس (فى طرف الأفغان اليوم) فخضع له ، وتقدَّمت جيوشه ، فلم تلق معارضة تذكر ، حتى وقفت للمعركة الكبرى فى بيكند على أبواب بخارى، وقد تحالفت أمم الترك كلها على قتيبة ، وحصرته فانقطعت أخبار الجيش عن الحجاج ، شهرين كاملين ، حتى يئس ولم يبق لديه إلا اللجوء إلى الله ، وكذلك يا أيها السامعون يرفع الناس وجوههم إلى السماء ، كلما ضاقت عليهم سبل الأرض ، فيرون باب السماء مفتوحاً أبداً ، وإن غلقت عليهم أبواب الأرض كلها ، فأمر الخطباء بالدعاء لهم على المنابر .

وكان لقتيبة جواسيس فى جيش العدو ، فأغروا كبيرهم بأن يكون معهم على قتيبة ، وشروه على أن يغشه فجاءه وقال : أخلنى . فاختلى به ، وما معهما إلا واحد من القواد . فقال الجاسوس : إنَّ العدو كثير ، وإنَّ الحجاج قد عزلك وبعث آخر فى مكانك ، وأنا أرى أن تنسحب بالجيش . قال : أما كثرة العدو ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وأما عزلى فأنا أقاتل لله لا للحجاج ، وأما أنت فقد خنت . وقرره فأقر فضرب عنقه ، وقال للقائد : لم يسمع هذا إلا أنا وأنت، وإن فهت به لألحقنك بالخائن.

وكانت المعركة ، واشتدت ، وصدقوا الحملة ، حتى زلزلت المدينة ، واضطرب جيش الأعداء ، فطلبوا الصلح ، وكانت المعاهدة . ولكنه لم يكد يرجع عنهم حتى نقضوا المعاهدة ، فعاد إليهم وصدمهم صدمة صدعت قلوبهم، وكانت الهزيمة وفتحت بيكند ، وأصابوا فيها من الأسلحة والعدد والأموال والكنوز ، ما لا يعلم عدده إلا الله ، وتولى قسمتها ابن وألان العدوى وكان يسميه الأمين ابن الأمين .

واسمعوا هذا الخبر عن أخلاق أولئكم الجند ، لتعلموا أنهم إنما غلبوا الأمم

وفتحوا الأرض بهذه الأخلاق .

طلب أحد القواد من ابن وألان أن يحفظ له نصيبه من الغنائم . قال : ابعث به إلى مكان كذا فترى رجلاً فادفعه إليه ، وأنا أضمنه ، وانتظره ابن وألان ، فتأخر ، فظن أنه عدل عن إيداعه فانصرف ، وجاء جندى من تغلب ، فلما وصل الرسول رآه فوضع المال وانصرف ، فلما لم ير الجندى أحداً ، أخذ المال إلى منزله ، واحتاج القائد إلى شيء من المال فطلبه من ابن وألان ، فقال : لم آخذ منك شيئاً ، قال : بل أخذته ، واختصما وشاع الخبر حتى بلغ الجندى فجاء يسأل القائد : وما مالك ؟ وما علامته ؟ قال : علامته كذا ، قال : هو عندى . وجاء به فدفعه إليه لم تحل عقدة حزمه ، وأبى أن يأخذ منه شيئاً .

وكان الجندى فقيراً والمال خمسمائة ألف درهم أى نصف مليون .

* * * * *

وتوجه الجيش إلى بخارى ، إلى البلد الذى استعصى من قبل على الفاتحين، فلم يُقدر عليه . فكتب إلى الحجاج ، فكتب إليه الحجاج : صور لى صورة البلد ، فأرسل له مصورها . فقال : ائتها من جهة كذا ، ورسم له الخطة وهو فى العراق !

واجتمعت الترك من أقطارها ، وهجموا على جيش المسلمين حتى أزالوا الجناحين وصدموا القلب ، وبلغوا مصاف النساء وقتيبة ثابت ، يسأل : أين محمد بن واسع ؟ وكان رجلاً صالحاً يصحبه فى غزواته . قالوا هو هناك يدعو الله ويشير بإصبعه إلى السماء ، قال : لهذه الإصبع أحب إلى من مائة ألف سيف شهير، جاء النصر . من يبايع على الموت ؟ من يبيع نفسه من الله ؟ فتقدم كثيرون ، فاختار منهم ثمانمائة فدائى مؤمن ، كل واحد منهم بجيش ؛ لأن من أراد الموت لا يموت ، ومن استعان الله لا يغلبه بشر ، ومن نادى من قلبه (الله أكبر) لا يقوى عليه قوى ، ولا يكبر كبير ، وحملوا فكان الفتح .

وغدر نيزك ومن كان أطاع من الملوك وثاروا ، وجمعوا الجيوش ، ولكن قتيبة ضربهم ضربة قاصمة ، أطاحت برؤوسهم وأعادت البلاد إلى ظل راية محمد . ومشى ، مشى إلى الإمام حتى بلغ ما لم يبلغه قائد من قبل ، ولم يصل إليه فاتح، مشى حتى فتح فى عام واحد قطرين عظيمين : خجندة (خوارزم) وسمرقند، بعد معارك يشيب لها الولدان ، ثم مشى حتى دخل كأشغر أول بلاد الصين .

* * *

ولا أريد أن أصف الخاتمة المروعة التى ختم بها جهاد هذا المجاهد ، والميتة الفاجعة التى ماتها هذا البطل ، والتى كانت إحدى الثمرات المريرة ، لهذه الغرسة الملعونة التى غرسها فى تاريخنا معاوية ـ رحمه الله ـ. فمن شاء فليقرأ الخبر فى تاريخ الطبرى ، والبلاذرى وفى كل تاريخ . وإنى لأختمه بأغرب قصة فى تاريخ الحروب فى العالم . قصة لم يقع لأمة مثلها ولا أظن أنها ستقع لأمة .

لقد كان من قتيبة فى فتح سمرقند المدينة العظيمة شيء من الغدر . كما قال الناس ، فلما كانت خلافة الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، رفع إليه أهل سمرقند دعوى على الجيش الإسلامى ، يدعون فيها أن بلدهم فتح غدراً . فأمر عمر بتأليف محكمة خاصة من قاض واحد لرؤية هذه الدعوى .

وجلس القاضى إلى سارية المسجد [1] ، وأحضر المدَّعين والمدعى عليه ، القائد العام للجيش الإسلامى ، وسمع أقوالهما ثم أصدر حكماً يستطيع القضاء الإسلامى أن يفخر به على كل قضاء فى الدنيا ، حكم ببطلان الفتح لأنه كان غدراً ، ولأنه خالف قواعد الإسلام فى الحروب ، وبخروج الجيش

---

(1) هى فى كتابى (قصص من التاريخ) مكتوبة بقلم الأديب ، لا مروية بلسان المؤرخ .

الإسلامى منها . وإعطائها مهلة للإستعداد . ثم إعلان الحرب من جديد ، ونفذ هذا الحكم الغريب وشرع الجيش بالإنسحاب ، ولكن أهل البلد ، المدعين ، الذين شدهتهم هذه العدالة الإسلامية ، والذين ذاقوا نعمة الحكم الإسلامى فى هذه السنين الطويلة ، عادوا يطلبون طوعاً واختياراً أن يبقوا تحت راية الإسلام .

بهذا الإيمان وهذه الأخلاق ، لا بسيوفنا ورماحنا فتحنا العالم ، وأفضنا عليه نور الإسلام . وبمثل هذا الإيمان وهذه الأخلاق نستعيد فلسطين ، ونحرر من الاستعمار كل بلد إسلامى ، ونكتب صفحة أمجادنا فى التاريخ مرة أخرى إن شاء الله .

❋ ❋ ❋

مِن وَرَثـَـةِ الأنبيـــاءِ

هذه قصة عالم . عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته . . وغاية حياته ، وكان ـ كما قال عن نفسه ـ يمشى الأيام فى طلب الحديث الواحد . وبلغ فيه منزلة شهد مكحول الدمشقى العلامة بأنه طاف الأرض كلها فى طلب العلم ، فلم يجد أعلم منه . وكان أحد بناة هذا الصرح العلمى الذى شاده العلماء من تلاميذ محمد ـ ﷺ ـ .

وكان فى هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده .

وله مواقف مع عبد الملك والوليد والحجاج تقرؤها فتحسبها من أحاديث الخيال .

رفض عطاء السلطان . فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفاً فلم يأخذ منها درهما وكان له (400) درهم يتجر بها الزيت ويعيش منها .

وكان فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان أديباً ، وكان شاعراً . وبقى أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو فى المسجد ، ولم يبدل مكانه من الصف الأول .

طلبه عبد الملك مرة فأرسل مدير شرطته فوقف عليه فى الحلقة وأشار بإصبعه، أن تعال ، وأدار ظهره يحسبه قد مشى خلفه ، فلما لم يره ، ظن أنه لم يبصر الإشارة ، فرجع فأشار إليه . فلما لم يرد ، قال : هيه . . أنت . . قم أجب أمير المؤمنين . قال : ما لى إليه من حاجة . قال : لو كان الأمر إلىّ

لضربت عنقك . . يدعوك أمير المؤمنين ولا تجيب ؟ . . قال : إن كان يدعونى ليعطينى شيئاً فهو لك، وإن كان لشرّ ، فإني والله لا أحل حبوتى حتى يقضى الله ما يشاء .

ورأى الحجاج مرة يسىء الصلاة فنبهه فلم يسمع ، فرماه بكف من حصى المسجد .

وأنا محدثكم عن منقبتين فقط من مناقبه الكثيرة .

أما الأولى ، فلتروا ما كان يلقى العلماء فى سبيل عقيدتهم . كانوا يضربون ويحبسون ، ويؤذون فى أجسادهم وأموالهم ، ولا يبدلون رأياً ولا مذهباً ، ولا يبالون فى الحق أميراً ولا ملكاً .

وأما الثانية ، فلتعلموا أنهم كانوا إذا دعوا إلى خير بدؤوا فيه بأنفسهم . لم يكن العلم عندهم بضاعة للتصدير فقط ، كما هى الحال عند قوم يعظون ولا يتعظون ، ويعلمون ولا يعملون .

كان سعيد يفتى بأن الرسول ـ ﷺ ـ نهى عن بيعتين ، فلما أراد عبد الملك ابن مروان ، أن يبايع لولديه : الوليد وسليمان من بعده ، وتبعه الناس وبايعوا لم ينس سعيد فتواه ، ولم يتناسها ، ولم يجد لنفسه مخلصاً بفتوى جديدة ، ولم يقل : إني واحد من الناس ، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم . ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول : إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتى وحقرونى ، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين . ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة .

وبذل له أمير المدينة أنواع الترغيب والترهيب فأبى ، فهدّده بالجلد علنا ، وضج العلماء ، وتوسطوا الخلاف ، ففوضهم الأمير أن يفعلوا ما يريدون

فذهب وفد من كبار العلماء ، سليمان بن يسار ، وعروة بن الزبير ، وسالم بن عبد الله بن عمر . فعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم . قال : أنا أسكت عن الحق ؟ لا . وكانوا يعلمون أنه إذا قال : « لا » فليس في الأرض قوة تجعله يقول : « نعم » .

قالوا : فاعتزل في بيتك أياماً حتى تمر العاصفة . قال : : أبقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة ، وأنا أسمع ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد ؟ لا .

قالوا : فبدل مكانك من المسجد ، حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه فقال له : لم أجده ، قال : أخوفاً من مخلوق ؟ لا . لا أتقدم عن مكاني شبراً ولا أتأخر شبراً . ودعاه الأمير فهدده بالقتل ، فقال : نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن بيعتين . . يقرر الحكم كأنه في حلقة الدرس ، وكأن السيف ليس على عنقه . لا يسكت خوفاً من السيف ، ولا يكتم العلم ، ولا يبدل الحكم .

فأمر بأن يساق إلى ساحة العقوبات ، وجرد من ثيابه ، إلا تباناً قصيراً [1] وضرب خمسين وأخذ إلى الحبس .

وهنا حادثان طريفان جداً :

الأول : أن قتادة (العالم المشهور) أقبل عليه وهو يضرب ، فقال : إني أخاف أن يموت ، ويذهب علمه ، وإني أحب أن أسأله عن مسائل . فتركوه يسأله وراح سعيد يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره .

فما دريت لما قرأت الخبر . أأعجب من حرص قتادة على العلم ، وأنه لم

(1) التبان : ثوب المصارع ونحوه ، أو هو شيء كالمايوه ! .

يبال فى سبيله بهذه المجاملات ؟ أم من وقار سعيد للعلم ، وأنه لم يحفل بالأذى فى سبيله ؟ أم من هؤلاء الجلادين الذين يتركون ما هم فيه ، ويصغون إلى هذه المناقشة العلمية الغريبة ؟ .

تصوروا لو أن أعلم العلماء . وأوسعهم صدراً ، كان فى هذا المقام ، وجاء من يسأله . . .

***

والثانى : أن بنته صنعت له لما سجن طعاماً كثيراً ، وجاءت به . فقال لها : هذا ما يريده هشام (الأمير) أن أفتقر ويذهب مالى ، فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدونى بها ، ولا أدرى إلى متى يمتد سجنى ، فانظرى ما كنت آكله كل يوم فى بيتى فأتينى به ، فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك[1] .

ولما بلغ عبد الملك ضربه ، كرهه ولام الأمير ثم أمر بعد بعقابه . فأوقف للناس وولى مكانه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ، فقال سعيد لأولاده وأهله : إياكم والتعرض له بعد عزله أو الشماتة به لما ناله . إنى أدعه حتى

(1) هذه كلمة الحق ، وما ذل العلماء إلا يوم اتكلوا على الرواتب ، وعلى أموال الأوقاف ، وهدايا الناس ، ولقد عهدنا فى دمشق طبقة من العلماء التجار ، أحيوا فى ذلك سنة أبى حنيفة والليث وابن المبارك ، وآخرهم فقيه الشافعية فى دمشق الشيخ صالح العقاد ـ مد الله فى عمره ، ووجدت رجالاً من هذه الطبقة فى الموصل ، ومن أعجب ما وجدت إنى كنت ألقى محاضرة فى دار الإخوان فى سنة 1954 ولقيت رئيس الجماعة وهو شيخ فاضل ، ومررت فى اليوم الثانى بالسوق ، فقال لى أخى الأستاذ الصواف ، أتأكل لحماً مشوياً عند هذا اللحام ؟ وأشار إليه وقال : أتعرفه ؟ فنظرت فلم أعرفه ، فأمعنت النظر فإذا هو رئيس الجماعة ، يشتغل ويعيش من كدّه وعمله ، فأكبرته وجعلته مثلاً أضربه للناس .

ولو أنَّ العلماء استغنوا بمالهم عن أموال الناس ، وعن رواتب الدولة ، لرأيتم ما عزة العلم ، وما هيبة العلماء .

يحكم الله بيننا .

* * * *

أما المنقبة الثانية للعلماء والناس ، وهى درس اجتماعى لو حفظه الآباء لما بقى فى البيوت بنت كاسدة ، ولما بقى فى البلد شاب فاسق .

واسمعوا القصة :

نحن فى المدينة ، وفى المدينة شىء لا ندرى ما هو ؟ إن الناس قد خرجوا إلى الطريق ، والنساء قد أطللن من شقوق النوافذ ، إنهم يرقبون شيئاً ، تعالوا نسأل ماذا هنا ؟

إن الناس يرتقبون موكب رسول الخليفة ، المندوب الخاص لعبد الملك ، قادماً بمهمة لا يعرف الناس ما هى ، فهم يتخرصون ويحزرون .

لقد وصل الموكب ، وأسرع إلى المسجد ، والمسجد هو مجمع كل أمر جلل ، فيه تكون البيعة ، وفيه يستقبل الأمير ، وفيه تلتقى الوفود ، وفيه يكون القاضى وتجرى المحاكمات ، وفيه تلقى الدروس ويؤخذ العلم ، فهو البرلمان وهو القصر وهو المحكمة وهو الجامعة .

وأقبل الرسول حتى وقف على حلقة سعيد ، فأبلغه سلام أمير المؤمنين ، وأنه قادم يخطب إليه ابنته ، للوليد ولى عهد المسلمين ، وغبط الناس سعيداً على هذه النعمة ، التى نزلت عليه وعلى هذا التشريف الذى ناله ، وعلى الدنيا التى سيقت إليه ، بنته زوجة الوليد ولى عهد المسلمين اليوم ، وأمير المؤمنين غداً، وسيد البلاد الإسلامية كلها .

وارتقبوا أن يهش سعيد ويبش ، ويطير فرحاً بهذه النعمة ، ولكن موازين الناس غير ميزان سعيد ، ميزانه ميزان الشرع ، الناس يفتشون عن المال

والجاه، ولكن سعيداً يفتش لابنته عن السعادة الزوجية ، عن الخلق والدين ، عن الطهر والفضيلة ، وماذا تفيده دنيا الوليد ، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟ .

إن الرجل الديِّن الحسن الخُلق الفقير ، خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين ؛ لأن هذا يكون لها وحدها وذاك تشركها فيه الزوجات والجوارى ومن تدرى ومن لا تدرى . . .

وإذا كان لك عبد مخلص ، يحبك ويشكر فضلك ، ويطيع أمرك ، وأرسلته بأمانة ليدفعها إلى زيد فأعطاها عمراً ، هل تكون عنه راضياً ؟

كذلك أنت أيها الأب .

إنك عبد الله ، والبنت أمانة عندك ، وقد أمرك أن تعطيها لمن يماثلك فى مسلكه ومشربه ، ويرضيك دينه وخلقه ، فإن رفضته وبحثت عن الغنى . أو جعلت بنتك سلعة تباع ، فقد أسخطت ربك وآذيت بنتك .

وهل البنت فرس أو نعجة حتى تباع لمن يدفع فيها الثمن الأكبر ؟ وماذا يفيدك كثرة المهر . والزواج إذا كان موفقاً كان لها ماله وله مالها . وإن لم يكن موفقاً لم ينفع البنت ما أخذت من مال .

فكر سعيد فى هذا كله فى لحظات . والرسول واقف ينتظر جوابه ، ولا يشك فى أنه جواب الموافقة ولا يشك الناس .

وإذا بسعيد يقول : لا .

لا ! إنه رفض أن يعطى ابنته لأمير المؤمنين .

ومرت أيام ، وكان له تلميذ اسمه أبو وداعة متين الدين ، رضى الخلق ، انقطع عن الدرس ، ثم جاء فسأله فقال : مرضت زوجتى فمرضتها وعنيت

بها ، ثم توفيت فدفنتها .

فقال : هل تزوجت غيرها .

قال : ومن يزوجنى ولا أملك إلا أربعة دراهم ؟ فمن يزوجنى بأربعة دراهم ؟ قال سعيد : أنا .

هل سمعتم يا أيها السادة ، سعيد الذى رفض ابن أمير المؤمنين ، الذى يملك ما بين البحر الأطلنطى وجبال الصين ، يزوج أبا وداعة الذى لا يملك إلا أربعة دراهم .

وشُده الرجل وكذب أذنه وعقدت المفاجأة لسانه . . . وحسب نفسه فى منام ولكن سعيداً دعا بالشهود وعقد العقد . وذهب الرجل إلى داره وهو لا يزال فى حمى الدهشة ، وقدم عشاءه خبزاً وزيتاً و إذا بالباب يقرع .

قال : من ؟ . . قال : سعيد .

قال أبو وداعة : ومرَّ على بالى كل سعيد فى الدنيا إلا سعيد بن المسيب ؛ لأنه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة ، ولا رُئى إلا بين بيته والمسجد .

ففتح له فقال : كرهت أن يسألنى الله عن وحدتك ولك زوجة ، فجئت بها ، ودفع العروس .

هكذا ! بلا حفلات ولا عرس ولا جهاز !

قال : رحمك الله ، ألا انتظرت حتى أحصل مالاً وأعد للعرس عدَّة .
قال : أما قلت : إن معك أربعة دراهم !

أربعة دراهم ! فعلام الحفلات ؟ وهل الزواج رباط بين روحين ، وصلة بين قلبين وبيت يضم اثنين أو هو معرض أثاث وثياب ، ومنافرة كرم واكتساب شهرة ؟ إنَّ هذه الحفلات يا ناس ، لا تخرب بيت الزوج والأب فقط ، بل تخرب

عشرين بيتاً ، تتزوج بنت عم خال امرأتك فتكلفك ثوباً يعجز عنه موردك ، فإن شريته اضطربت موازنتك ، وإن أبيت تنغص عيشك .

قال أبو وداعة :

ورأيتها أجمل امرأة وأكملها ، ولما أصبحت غدوت لأذهب ، قالت : إلى أين ؟ قلت : إلى مجلس سعيد ، فقالت : اقعد أعلمك علم سعيد .

وإذا هى عالمة محدِّثة ، و لقد كنا بَعْدُ إذا أعيت العلماء مسألة ، رجعنا إليها .

يا سادة ! إنى لا أستطيع أن أحدثكم بمناقبه كلها . فلنقف عند هاتين المنقبتين ، ولنأخذ منهما دروساً . . درساً للعلماء ودرساً للآباء . ورحم الله من يسمع فيعى . . ويعلم فيعمل .

* * *

الإمَامُ الأعْظَمُ

نحن ـ المسلمين ـ قانوننا هو القرآن ، وشرحه الرسمى الحديث ، ومذكرته الإيضاحية أسباب النزول والتفسير ، فمن الناس من لم يشتغل بالعلم، فهو لا يستطيع أن يفهم الحكم من القرآن والحديث ، فيرجع إلى المختصين ، كما يرجع عند إقامة الدعوى إلى المحامى ، والمختصون (وهم العلماء المجتهدون) يختلفون فى الفهم والتفسير ، وهذا شيء طبيعى ، كما أنَّ التقليد طبيعى ، إذ إنَّ من الناس من ينقطع إلى علم من العلوم فيجتهد فيه، ويقلد فى غيره ، فنحن نقلد الأطباء والمهندسين ونأخذ بأقوالهم ، بلا وقوف على دليلها ، حتى أن الصحابة أنفسهم ، كان أكثرهم مقلدين [1] ، ولم يكن يفتى فيهم إلا عدد قليل، ولكنها لم تجمع فتاواهم ،ولا فتاوى التابعين لهم ، وأول من انقطع للفتوى والاستنباط ، وجمعت أقواله وتعدد أصحابه حتى صارت له مدرسة أو مذهب هو أبو حنيفة .

فمن هو أبو حنيفة ؟

يا سادة : كان فى العراق شاب جميل غنى ، اسمه ثابت بن النعمان ، فارسى الأصل ، تقى ورع ، كان يتوضأ يوماً من النهر ، فرأى تفاحة فأكلها ، ثم خاف أن يكون أكلها حراماً [2]، فبحث عن شجرتها حتى وصل إلى صاحبها ،

(1) لى بحث فى الاجتهاد والتقليد والمذاهب موجود فى كتابى (فتاوى) الذى طبعته (دار المنارة) فيه تفصيل لما أجملته هنا .

(2) ولو كان فقيهاً لعلم أنها ليست حراماً .

فقال له : سامحنى، فعرفه الرجل ، وقال : لا أسامحك إلا بشرط ، هو أن عندى بنتاً صماء (طرشاء) خرساء عمياء ولا أسامحك حتى تتزوجها ، ففكر فرأى أن الدنيا موقوتة وأن عذابها بهذا الزواج أيسر من عذاب الآخرة فقال : إن لله وإنا إليه راجعون . لقد قبلت .

فزوَّجه بها ، فلما دخل عليها ، وجد فتاة كأنها القمر ، ذات فهم ودين ، فقال لأبيها : لم قلت أنها عمياء صماء خرساء ، قال : لأنها لم تر الرجال ولم تسمعهم ولم تكلمهم .

ومن هذين الزوجين الصالحين الجميلين الغنيين ، ولد صبى قدِّر له أن يكون له جمالهما وتقاهما ، وأن يكون آية الآيات ، وأعجوبة الدنيا فى الذكاء والعلم، وهو النعمان بن ثابت . هذا اسمه ، أما أبو حنيفة فكنيته ، ولم يكن له بنت اسمها حنيفة ، ولكن الحنيفة : الدواة بلغة العراق (العامية) ، كنّوه بذلك لحمله الدواة من صغره ، ودورانه على العلماء ، كذا قالوا والله أعلم .

ونشأ مرفهاً مدللاً ، أنيق الثوب ، عطر الأردان ، وكان تاجراً كبيراً ، يبيع الخز، وكان ورعاً متعبداً بقى عشرين سنة ـ كما رووا ـ يصلى الصبح بوضوء العشاء ، ويبكى من خشية الله ، وكان كريماً : سامح مرة بعشرة آلاف ، وسألوه مرة عوناً لعالم مدين بأربعة آلاف ، فأداها كلها . وكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وكان يجرى رواتب على كثير من العلماء . فهو رجل قد أوتى الدنيا والآخرة ، والعلم والعمل ، والغنى والكرم ، مثله فى ذلك مثل الليث بن سعد ، كان كثير الاجتماع بالعلماء ، والأخذ عنهم ، أدرك أربعة من الصحابة ، وآلافاً من التابعين ، واشتغل أوَّل أمره بعلم الكلام حتى صار المقدم فيه ، لا يقوم له أحد فى المناظرة ، حتى وقعت له واقعة صرفته إلى الفقه وهو أشرف العلوم ، وهو لب الدين ، وما التوحيد والحديث والتفسير إلا مقدمات

له ، كشرح القانون ، أما الدين فهو التوحيد والفقه . وهذه الواقعة أن امرأة سألته عن مسألة فى الطلاق فلم يعرفها ، فدلَّها على حمَّاد بن أبى سليمان فقيه عصره ، وقال لها : سليه وأخبرينى . فلما أخبرته ، لزمه ولم يعد يفارقه . لزمه عشر سنين ، ثم نازعته نفسه الرياسة ، وأن تكون له مدرسة (حلقة) مستقلة ، ولكنه أبى إجلالاً لحماد ، وغاب حماد غيبة ، فقعد مكانه فأفتى فى شهرين فى ستين مسألة ، فلما رجع أقره على أربعين وخالفه فى عشرين ، فلزمه حتى مات ، ولما مات فتشوا عمن يلى مكانه فقدموا ابنه ولكن الأدب كان أغلب عليه ، فلم يقم به ، فقدموا شيخاً من أصحابه يقال له : موسى بن أبى كثير ، فلم يقم به ، وخافوا أن تنحل حلقة حماد ، فقالوا : لو قدمتم هذا الفتى الخزاز (تاجر الخز) . فقدموا أبا حنيفة فنهض بها حتى جعل هذه الحلقة مدرسة باقية ومذهباً خالداً أبدَ الدهر .

❊ ❊ ❊ ❊

اجتمع حوله طائفة من التلاميذ صاروا بعد أعلام الدنيا ، وكان كل واحد منهم (مُخْصياً)[1] بناحية فإذا وردت مسألة بحثوا فيها وتناقشوا . وقد يبحثون المسألة شهراً حتى يتجه لهم الحكم فيها . فكان مجلسه (برلماناً) ولكن أعضاءه من نوابغ الدهر .

سئل وكيع بن الجراح ـ وهو شيخ الشافعى : هل أخطأ أبو حنيفة ؟ قال : كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطئ وعنده مثل أبى يوسف وزفر ومحمد فى قياسهم واجتهادهم ، ومثل يحيى بن زكريا وحفص بن غياث وحبان ومندل فى حفظهم للحديث ومعرفتهم به ، والقاسم بن معن (ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود) فى معرفته باللغة العربية ، وداود الطائى والفضيل بن عياض

(1) أى مختصاً أو إخصائياً .

فى زهدهما وورعهما ، هؤلاء وأمثالهم هم أعضاء (البرلمان)الحنفى ، وهذا ما يمتاز به مذهب الحنفية عن المذاهب الأخرى . وهو أول من رتب الفقه فى أبواب ، ومالك إنما سار على غراره فى الموطأ .

***

وكان لأبى حنيفة (ذهنية) فقهية عجيبة ، وطريق دقيق فى استنباط الأحكام ، وبيان عللها ، بينما الذى يغلب على مالك أنه كان حافظاً للحديث يرتبه ، ويأخذ منه الحكم ، وأحمد كان محدثاً . ولم يعده المتقدمون مع أصحاب المذاهب ، والشافعى وسط بين طريقة مالك وطريقة أبى حنيفة ؛ لأنه أخذ عن مالك ، وعن الإمام محمد ، فهو تلميذ تلميذ أبى حنيفة .

وكان أبو حنيفة إذا أشكلت عليه مسألة ، قال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثته . فيستغفر الله ويصلى حتى تتفتح له . فكان يصدر فى تفكيره عن خشية الله .

ومن الأمثلة على ذكائه وأسلوب تفكيره التشريعى ، أنَّ الضحاك لم يكن يرى التحكيم ، وكان أبو حنيفة يراه ، فدعاه إلى المناظرة فقال أبو حنيفة : إن اختلفنا فمن يحكم بيننا؟ قال : اختر ، قال : اخترت فلاناً من أصحابك ، قال : فناظرنى ، قال : لقد ناظرتك وغلبتك ، أنت جوزت التحكيم (أى بقبوله الحكم) .

وشهد الأئمة الكبار : مالك والليث والأوزاعى والشافعى ـ الشافعى لم ير أبا حنيفة ـ وسفيان وابن المبارك بأنهم لم يروا مثله أبداً .

عاش حياته كلها من كسبه يوزع المال والعلم ، ويعلم الناس الفقه والتقى والكرم ، أرادوه على الولاية مرتين : مرة أيام بنى أمية ومرة أيام بنى العباس ،

وضرب فى المرتين فرفض ، فكانت الأخيرة سبب وفاته .

* * * * *

والمذهب الحنفى اليوم ، أوسع المذاهب انتشاراً ، وأوسعها فروعاً وأقوالاً ، وهو أنفع المذاهب فى استنباط القوانين الجديدة ، والاجتهادات القضائية ، يليه فى كثرة الفروع المذهب المالكى ، وقد عرفت ذلك فى السنين التى اشتغلت فيها بوضع مشروع قانون الأحوال الشخصية ، وسبب ذلك أن المذهب الحنفى صار مذهب دولة طول مدَّة العباسيين والعثمانيين ، وهى ثلاثة أرباع التاريخ الإسلامى ، والمالكى مذهب المغرب طول هذه المدة ، فكثرت فيهما الفروع والمناقشات ، أما المذهب الشافعى فلم يكن مذهباً رسمياً إلا حقبة قصيرة أيام الأيوبيين ، بينما اقتصر المذهب الحنبلى على نجد والحجاز اليوم .

رحم الله الأئمة ومن كان قبلهم وبعدهم ممن لم يدون مذهبه ، ولم يكن أقل منهم : الليث والأوزاعى وسفيان وحماد ، ورحم أبا حنيفة ، من كان أقدمهم ، وكان أقدرهم ، ومن دعى بحق (الإمام الأعظم) .

* * * * *

الفصل الرابع

- أكبر ملوك الأرض
- جمع الدين والدنيا
- ناصر السنة

أكبر ملوك الأرض

أنتقل بكم فى هذا الحديث إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية ، إلى أعلى ذروة فى سلسلة أمجاد العرب ، إلى الدور الذهبى ، إلى الأيام التى كانت كلها أعراساً (1) .

إلى المدينة التى شهدت من الترف والبذخ ، والعظمة والجلال ، ما لم تشهد مثله مدينة ، لا روما فى الماضى ولا باريس الآن ، إلا المدينة التى كان فيها مليونان من البشر منذ ألف ومائتى سنة . حين كانت باريز قرية أصغر من دوما ، وكانت أميركا صحراء ما فيها إلا الوحوش . . . وكانت فيها القصور التى تفتن بصحونها وأبهائها، وزخارفها ونقوشها ، وشرفاتها وقبابها ، وفيها البساتين التى جلبت إليها غرائب الأشجار ، ونوادرالأزهار ، من كل مكان . وفيها ستة آلاف حمام ، وفيها عشرون ألف مسجد ، وفى نهرها ثلاثون ألف زورق ، تميس على صفحة الماء كل عشية فيكون منها مدارس علم ، ويكون منها مجالس طرب ، ويكون منها مخادع غرام ، ويكون منها خلوات تأمل، وكان فيها ـ فى تلك الأيام ـ معامل تصنع الزجاج والورق، وتضرب النقود ، وتنسج أنواع النسيج وتطرز وتنقش . وفيها الاختراعات التى أدهشت أهل أوربا لما حملها وفود الرشيد إلى شارلمان ، حتى حسبوا أن فى الساعة جنباً يقرع أجراسها .

(1) كذلك قالوا ، وما جاء ذلك إلا من أكاذيب **قصة ألف ليلة** ، **والحق أن** أزهر عهود التاريخ ، عهد أبى بكر وعمر ، وكل خليفة قوى عادل ، عامل بكتاب الله قائم بحقوق الرعية ، لا طاغ ولا ظالم ، ولا عاص ولا آثم .

مدينة كانت دنيا كاملة ، فيها الخير والشر . العلم فيها ، وفيها الفسوق . والدين فيها ، وفيها اللهو والمجون ، وفيها المحدثون وفيها الصالحون ، وفيها الشعراء وفيها المغنون ، وفيها العفيفات المحصنات ، وفيها الجوارى المسافحات ، وفيها أفحش الغنى ، وفيها أفظع الفقر ، وفيها التجار وفيها الشطار ، وفيها اللصوص ، وفيها الشحاذون ، ولكل عالم لا تدرى به عوالمها الأخرى .

مدينة كانت القوافل لا تنقطع عنها لحظة من ليل أو نهار ، تحمل إليها كل ذى علم وفن ونبوغ ، وكل ذات جمال وسحر وفتون ، ويستقر فيها أحسن وأجمل ما تخرج الأرض ، من ثمرات الطبيعة ، ونتاج العقول . اختصرت فيها الدنيا فكان فيها أمم من كل جنس ولسان فى الدنيا .

تلك هى بغداد . . بغداد هارون الرشيد ، بغداد ألف ليلة وليلة ، بغداد التى صارت حلماً من الأحلام ، ووحياً لكل أديب وشاعر ، وواضع قصة أو فلم ، من تلك الأيام إلى الآن ، ومن أقصى المشرق إلى هوليود . لقد كانت بغداد سرة الدنيا وكانت قصبة الأرض ، وكانت أمل كل طامع فى المجد ، راغب فى العلم ، آمل بالغنى ، هائم بالجمال .

* * * *

لقد أشرفنا على بغداد ، فماذا فيها ؟ ماذا فى بغداد ؟ ما هذه الحشود ؟ ما هذه الجنود ؟ ما هذه الأعلام والبنود ؟ لماذا يفرش السجاد على الأرض ؟ لماذا يقوم الجند على الجوانب ؟

تعالوا نسأل :

ـ ما هذا يا عم ؟

ـ ألا تدرى ؟ إنه وفد ملك الروم . . لقد صف أمير المؤمنين على طريقه مائة وثمانين ألفاً بثياب واحدة وهيئة واحدة ، سيوفهم مشهرة ، وهم متسربلون بالحديد ، وفرش لهم ثمانية وعشرين ألف سجادة ، وأقام لهم أربعين ألف ستارة من الديباج والحرير ، وترى إذا حل الليل سلسلة من المصابيح العجيبة ، طولها أربعة فراسخ . وصف لهم فى مدخل القصر ، الوحوش المدربة من السباع والفهود لتحييهم . أما داخل القصر ، قصر الخلد ، ففيه ما لا يستطيع أن يصفه لسان .

يا سادة :

هذا هو هارون الرشيد .

الرشيد الذى كان يحكم وحده حكماً استبدادياً مطلقاً عشرين حكومة من حكومات اليوم .

الرشيد ، الذى قال للسحابة أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك .

الرشيد ، الذى كان دَخَل خزانته الخاصة 411 مليون دينار من الذهب كل سنة .

الرشيد ، الذى كان صورة من عصره ، صورة من بغداد ، التى فيها كل شىء .

هذا هو الرشيد ، الذى جعله الحظ أشهر ملوك الإسلام . انظروا إلى عمل الحظوظ ! الحظ هو الذى جعله أكبر ملوك الإسلام اسماً ، وأوسعهم ذكراً ، وأعظمهم ملكاً ، وما كان له دهاء معاوية ، ولا مضاء عبد الملك ، ولا صلاح عمر بن عبد العزيز ، ولا إصلاح الوليد ، ولا أعصاب المنصور . لا ، ولم يكن فى مواهبه ، وعظم شخصه ، من الوزن الراجح . ولقد كان مروان الثانى ،

وكان الخلفاء الذين جاؤوا قبيل انهيار الدولة العباسية ، أرجح منه وزناً، وأقوى شخصية كما يقولون ، ولكنهم جاؤوا والزمان مدبر ، وجاء هو فى إقبال الزمان .

إن أعظم حكام الإسلام حقيقة هم الذين جمعوا صلاح النفس ؛ وإصلاح الدولة ، وكانوا أهل تقى وأهل بصر ، وجمعوا التوفيق فى الدنيا والدين ، أمثال الستة الكبار : أبى بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين وأورانك زيب ملك الهند .

وليس الحديث عن حياة الرشيد عامة ، ولا أستطيع أن أوفى الحديث عنه فى ربع ساعة ولو كنت من السحرة أو من أرباب الكرامات . ولكن حديثى عن ناحية منه واحدة هى (الرشيد والعلماء) .

* * * *

وأنا مولع بتحليل النفوس ، نفوس الأحياء من الأصدقاء ، والأموات من رجال التاريخ ، وكشف خفاياها ، ورد مظاهرها المعقدة إلى عناصرها الأولى ، والذى استخلصته من تحليل نفسية الرشيد ، أن هذا التناقض الظاهر فى شخصيته ، من لهوه المفرط ، وعبادته المفرطة ، وقتله الأبرياء ، وبطشه البطشة الكبرى بالبرامكة ، إلى بكائه وسماعه المواعظ ، وحجه ماشياً من بغداد إلى عرفات ، وحرصه على الوحدة الإسلامية ، وتحالفه مع شارلمان الأجنبى ، ضد ابن عمه الأموى صاحب الأندلس ، وعزمه على الأمر العظيم كما عزم على فتح قناة السويس قبل دليسبس بأكثر من ألف سنة ، ثم رجوعه عنه لأيسر اعتراض .

الذى استخلصته أن مرجع ذلك كله إلى عقدة نفسية فيه ، هى أنه كان مؤمناً محباً فى قرارة نفسه للتقى والصلاح ، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين

أعماله ، وبين هذه الرغبة فى الصلاح . وكانت تغريه مغريات الملك ، فيوغل فى اللذة وفى البطش ، ثم يتنبه إيمانه فيمضى أكثر أيامه تحت ثقل تأنيب الضمير ، وهذا تعليل منعه الناس أن يذكروا البرامكة أبداً بعد بطشه بهم ، فيحسب من يقرأ الخبر أنه نسيهم ، مع أنه لم ينس الحادث لحظة ، وهو يمنع الناس من الخوض فيه ليفر من نفسه . وهذا تعليل قيامه من مجلس الغناء والشراب إلى الصلاة والتهجد ، حتى ليصلى مائة ركعة كل ليلة ، فتخدع صلاته المؤرخ الثقة حتى يكذب أخبار لهوه ، كما فعل ابن خلدون .

* * * *

ومن هنا جاءت محبته لمجالسة العلماء والصالحين ، وسماعه المواعظ وبكاؤه لها ، كان يبكى بإخلاص وكان عند سماعها مستغرقاً فى الجو الدينى ، كما أنه كان عند سماع الغناء يستغرق فى الجو الدنيوى ، ولم يكن منافقاً ، ولكنه نوع كما يسميه علماء النفس ازدواج الشخصية ، موجود عند كثير من الناس ، ولكن يختلف مقداره وتختلف درجة إحساسهم به .

وكان أحياناً يشعر بحاجة إلى هذه المواعظ ، ويطلب المشايخ كما يطلب المريض الطبيب ، وأنتم تعرفون قصته ، لما اعترته إحدى هذه الحالات ، فقال لحاجبه : دلنى على عالم أسمع منه ، فأخذه إلى عالمين عظيمين فتلقياه ، كما يتلقى الرجل العادى خليفة العصر ، وتواضعا له وعظماه ، فأعطاهما الجائزة ، ولكنه لم يجد عندهما الدواء ، حتى مشى إلى الفضيل بن عياض فتلقاه كما يتلقى رجل الآخرة أحد أبناء الدنيا ، ونظر إليه بعين الشرع ، فما رأى فيه أكثر من فرد غلبته نفسه ، وعصى ربه ، فوعظه وعظاً صريحاً شديداً وأبكاه ، ورفض هديته ، وأخرجه من داره شبه مطرود ، ومع ذلك فقد سر الرشيد ووجد عنده السكينة والشفاء .

* * *

وكان العلماء معه ثلاثة أصناف : صنف يسايره ليرضيه ويأخذ من دنياه، وهؤلاء هم الأقل ولم ينالوا منه خيراً كثيراً، لأن المنافقين من العلماء وإن نجحوا حيناً، لا تكون عاقبتهم إلا الخيبة وخسران الدين والدنيا .

وصنف يغلظ له القول، ويشدد عليه الموعظة، ويقوم بحق الله بلا مجاملة ولا رعاية لمقامه الدنيوى، ولا يتعمدون ذلك بل يرونه الشيء الطبيعى[1] لأنهم مع الله دائماً، قد حقروا الدنيا وكل ما فيها من جاه ومال، فلم يعد يروعهم مُلْك مَلك ولا عظمة أمير . وهؤلاء أيضاً قلة، ردوا عطاياه وجوائزه، ولكن حازوا احترامه وإكباره .

والكثرة من العلماء كانوا يقولون الحق، ولكنهم يصوغونه الصياغة المقبولة، ويعطونه الدواء ولكن (ببرشامة)، ويسايرونه ولكن فيما لا يضرهم فى دينهم، ومن هؤلاء أعلام الملة:أبو يوسف والليث وهذه هى الطريقة المثلى لمعاشرة الملوك .

اختصم الرشيد وزبيدة، ولعلها كانت تلومه على لهوه ومقارفته لذاته، وتخوفه النار فقال لها : إنها طالق ثلاثاً إن لم يكن من أهل الجنة . ووقع فى مشكلة، واستحضر العلماء، فلم يجرؤ واحد على فتياه حتى جاءه الإمام الهمام : الليث بن سعد المصرى، فوقف منه موقفاً غريباً كاد يؤدى إلى غضبه والرشيد إذا غضب لا يبصر من أمامه . سأله : هل يخاف مقام ربه ؟ قال : نعم . فأتى بالمصحف وحلفه بأوثق الأيمان : بالطلاق والعتاق والخروج من الخلافة، أنه لم يقل إلا الحق . فلما حلف قال : أبشر يا أمير المؤمنين، إن الطلاق لم يقع، إن لك جنتين لا جنة واحدة، قال تعالى : ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن : 46] .

ولأبى يوسف موقف مثل هذا .

---

(1) الطبيعى لا الطبعى كما يقول المتحذلقون، وإن كان القياس ما يقولون .

ولم يعرف عنه أنه بطش بعالم ، وإن كاد مرة يبطش بعمر بن حبيب القاضى لما ذكر الرشيد أبا هريرة واتهمه بالكذب ، فرد عليه عمر بشدة ، فدعاه والسيف أمامه ، ليضرب عنقه ، فقال عمر : يا رب إنى دافعت عن صاحب نبيك فدافع عنى . وقال للرشيد : إذا كان الصحابة كذابين كان الدين كذباً ؛ لأنه مروى عنهم فعاد الرشيد إلى نفسه ، وعفا عنه ، وأجازه .

وله حوادث هائلة مع القاضى حفص بن غياث لما حبس وكيل السيدة زبيدة ، ومع عبد الله بن إدريس وابن المبارك وغيرهم لا يتسع المجال مع الأسف ولا للإشارة إليها .

****

وبلغ من حبه العلم أن رحل هو وو لداه الأمين والمأمون لطلب العلم وقراءة الموطأ على مالك من بغداد إلى المدينة ، كما يرحل الطلاب الموفودون اليوم ، وهذا لم يسمع عن ملك فى الشرق والغرب إلا عن صلاح الدين الأيوبى لما رحل إلى الإسكندرية لسماع الحديث . قال السيوطى : ولا أعرف لهما ثالثا .

وجعل لطلاب العلم رواتب يبلغ أعلاها أربعة آلاف دينار فى السنة ، فما عرف زمان كثر فيه العلماء كثرتهم فى زمان الرشيد ، حتى كان الولد يحفظ القرآن وهو ابن ثمانى سنين ، ويحفظ الحديث ودواوين الشعر فى الحادية عشرة ، ويناظر العلماء وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان للعلماء أسمى المنازل فى مجلسه وكان يدعوهم إلى مائدته الخاصة ، وصب الماء مرة بنفسه للمحدث أبى معاوية الضرير وهو يغسل يديه بعد الأكل وقال له : أتدرى من يصب عليك الماء ؟ .

قال : لا !

قال : أنا .

الرشيد ، أعظم ملوك التاريخ ، وسيد ربع العالم ، وحاكم عشرين دولة من دول اليوم . أتدرون ماذا قال العالم ؟

لم يتحرك ولم يهتز ولم ير فى ذلك إلا شيئاً عادياً فقال هادئاً : إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين ، واستمر فى غسل يديه .

رحم الله أولئك الرجال .

* * *

يا سادة لم ينته الكلام فى الموضوع . ولكن انتهى الوقت فدعونى أختم حديثى بتلاوة فقرات من مقدمة كتاب الخراج الذى ألفه الإمام أبو يوسف للرشيد ، لتروا كيف كان يخاطب العلماء أعظم ملوك الأرض هارون الرشيد

قال :

يا أمير المؤمنين ، لقد قلدك الله أمرًا عظيماً ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة . . . إلى أن قال : فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إن فعلت ذلك أضعت ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب ، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدينا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك سواء ، القريب والبعيد ، واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان . . . إلى أن قال : واعمل للموقف الأعظم الذى تنخلع فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق داخرون بين يديه ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان ، فأعد للمسألة جوابها ، فإن ما عملت قد أثبت فهو غداً عليك يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله فى

مجمع الأشهاد .

. . . إلى أن قال : إنك راع وإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقها منك ، ويضيعك بما أضعت أمانتك ، وإن صلاح الناس بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم .

***

يا سادة : هل يستطيع أكبر عالم أن يقول مثله اليوم لأصغر أمير .

وهل يقبله الأمراء ، إن استطاعه العلماء ؟ .

رحمة الله على أولئك العلماء ، وجزاهم خيراً ، وأرانا أمثالهم .

***

جَمعَ الدّينَ والدُّنيا

علم شامخ من أعلام الإسلام ، وإمام من أئمة الفقه الكبار ، أصحاب المذاهب المتبعة ، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاء ، ونبلا ورفعة ، وسخاء وكرماً، أجمعوا على أنه نظير الإمام مالك فى الفقه ، وعديله فى الاجتهاد ، وأنه كان لمصر مثل مالك للمدينة ، لا يفتى ومالك فى المدينة ،ولا يفتى وهو فى مصر ، وهو أعظم جاهاً من مالك ، وأكثر مالاً وأوسع دنيا ، بيد أن الله قيض لمالك من دون علمه ، وكتب مسائله ، وحرر مذهبه ، فصار أحد المذاهب الأربعة الباقية . وذهب مذهبه هو فيما ذهب من المذاهب التى كانت يوماً معروفة متبعة مقلدة ، وكاد ينسى اسمه فلا يعرفه إلا العلماء ، على حين يعرف أبا حنيفة ومالكًا والشافعى وأحمد كلُّ مسلم .

فهل عرفتم الآن من هو ؟

هو الذى جمع الله له الدنيا والدين ، والجاه والتقى ، وكان سيد مصر ، أمْرُه قبل أمر الولاة ، وحكمه فوق حكم القضاة ، وكان دخله من أملاكه ما بين عشرين وثمانين ألف دينار فى العام ، (ثمانين ألف ليرة ذهبية) ، ولم تجب عليه زكاة قط ؛ لأنه لم يكن يحول عليه الحول ، وعنده منها شيء .

وهو الإمام العالم الليث بن سعد .

ولد فى قرية مصريةسنة 94 للهجرة ، أى قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة[1] ، ولم يشغله غنى أهله عن طلب العلم ، والرحلة به ، لا كما يرحل أكثر الطلاب الآن فى أوربا وأميركا ، بل كما يرحل السلف ، يرحلون ليتلقوا العلم

(1) من يوم أذيع هذا الحديث من إذاعة دمشق .

ويتلقوا قبله الدين والتقى والسلوك الإسلامى ، ويجتمعوا بالعلماء العاملين ، الصالحين المصلحين ، وقد أخذ عن علماء مصر ، ثمَّ حجَّ ولقى أئمة الحجاز: عطاء بن أبى رباح ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقتادة وأمثالهم ، ثم رحل إلى العراق فأخذ عن علمائه .

وهاكم قصة طريفة من قصص دراسته :

حج هو وابن لهيعة ، قاضى مصر ومحدثها ، ولقيا العلماء معاً ، وكان من علماء الحجاز نافع مولى ابن عمر ، رآه الليث فعرفه ، ولم يكن يعرفه ابن لهيعة فتبعه حتى دخل دكان علاف ، فسلم عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : من قيس ؟ قال : ابن كم ؟ قال : ابن عشرين . قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين ، ثم قعد معه فحدثه أحاديث وأذن له أن يروى هذه الأحاديث عنه .

فرآه ابن لهيعة ، قال : من هذا ؟ قال : مولي لنا . وتعرفون أن المولى فى اللغة من أسماء الأضداد ، فالسيد مولى ، والتابع مولى ، فأوهم ابن لهيعة لئلا يشاركه الرواية عنه .

فلما رجعا إلى مصر ، صار الليث يقول : حدثنا نافع عن ابن عمر ، فأنكر عليه ذلك ابن لهيعة ، وقال : أين لقيته ؟ فضحك وقال : أما رأيت العبد الأسود الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك !

***

وبلغ منزلة فى الحديث والفقه شهد له فيها أكابر العلماء .

قال الشافعى : الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه لم يقوموا به . أى لم يدونوا علمه فضاع مذهبه واندثر .

وقال أحمد بن حنبل : ما فى المصريين أثبت من الليث ، وكان يقول : الليث بن سعد ، ما أصح حديثه !

وروى عنه مالك ولم يصرح ، وكل ما كان فى الموطأ من قوله (وأخبرنى من أرضى من أهل العلم) فإنما يعنى به الليث بن سعد .

وكان الشافعى يقرأ فى درسه مسائل الليث ، فمرت مسألة فقال أحد الحاضرين : أحسن والله كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهيب : بل كأن مالكاً يسمع الليث يجيب فيجيب هو . والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث .

وعرض عليه المنصور ولاية مصر فأبى وأصر على الإباء ، فقال : دلنى علىَ رجل صالح ، فقال : عثمان بن الحكم الجذامى .

أفتدرون بم كافأه عثمان ؟ لما جاءته الولاية كرهها وتألم منها ، وسأل من دل أمير المؤمنين علىّ ؟ قالوا : الليث . . فحلف ألا يكلمه أبداً ، لأنه سبب له هذا الأذى ، يعنى ولاية مصر يا أيها السامعون .

هكذا كانت أخلاق علمائنا وصلحائنا .

***

وقال يعقوب وزير المهدى : قال لى أمير المؤمنين لما قدم الليث بغداد : الزم هذا الشيخ فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه .

ومعنى ذلك بعرف العصر ، أن الخليفة أمر وزيره الأكبر بمرافقته بنفسه ، أيام زيارته (العاصمة) .

وكان له مع الخلفاء حوادث طريفة ، منها أنه جرى بين هارون الرشيد وبين بنت عمه (زوجته) زبيدة كلام ، فقال لها : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة .

ثم ندم ، فكتب إلى البلدان ، فجمع علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا . وبقى الليث لم يتكلم ، فسأله ، فقال : إذا أخلى

أمير المؤمنين مجلسه . فصرفهم ، فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم ، فأمر بإحضار مصحف فأحضر ، قال اقرأ يا أمير المؤمنين سورة الرحمن فقرأها حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] .

قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله . .

فصعب على الرشيد أن يحلفه ، فقال : الشرط يا أمير المؤمنين . فحلفه بأشد الأيمان أنه يخاف مقام ربه . فلما حلف ، قال : هما جنتان يا أمير المؤمنين لا جنة واحدة .

فسمع التصفيق وصياح الفرح من وراء الستر .

وسأله ماذا تطلب ، قال : يا أمير المؤمنين ، أما لنفسى فقد أغنانى الله بفضله ، ولكن أطلب صلاح بلدنا ، وصلاحه بإجراء النيل وصلاح أميره .

فأمر أن يكون والى مصر وقاضيها تحت أمره ، وكان إذا رابه من أحد شيء كتب فيه فعزل :

من ذلك أن قاضى مصر إسماعيل بن اليسع لا يرى لزوم الوقف (1) ، فكتب فيه : « إنا لم ننكر عليه شيئاً ولكن له رأياً فى الوقف لا نرضاه » فورد كتاب الخليفة بعزله .

فلما جاءه العزل ، قال له : يا أبا الحارث ، لقد أتعبت نفسك ، والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت

وكان له كل يوم أربع مجالس : مجلس يأتيه فيه الوالى ونوابه يسألونه ويسترشدون برأيه ، ومجلس لأصحاب الحديث ، ومجلس للفقه ، ومجلس لأصحاب الحاجات .

---

(1) أى أنَّه يرى جواز رجوع الواقف إن شاء وذلك مذهب أبى حنيفة لأنه عقد تبرع لا عقد معارضة ولذلك كانوا يقيمون دعوى صورية على ناظر الوقف ومتوليه ليثبتوه بحكم القاضى .

وكان يعيش معيشة الملوك ، وقد قومت ثيابه مرة ودابته بثمانية عشر ألف درهم أى بألف دينار ذهبى ، وكان لباساً [1] .

وكان إذا رحل ، رحل بثلاث سفائن : سفينة له ولأضيافه وتلاميذه ، وسفينة لعياله ، وسفينة لمطبخه وخدمه .

وقال كاتبه (سكرتيره) عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سنة ، فكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس ، ولا يأكل إلا الألوان الكثيرة باللحم الوافر ، وكان كل من جاءه من التلاميذ يأكل وينام وينفق على حسابه ، لا يكلفه من ماله شيئاً ، وإذا أراد السفر أعطاه نفقته وزاده [2] ! .

وكان يتخذ الفالوذج والحلوى لأصحابه ، ويضع فيها الدنانير ، ليرغبهم بذلك فى الأكل ويغنيهم !

وكانت له موائد عامة للناس ، يطعمهم فيها الهرايس بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء ، وباللوز والسكر فى الصيف .

وكان يعطى العلماء رواتب دائمة ، منها مائة دينار للإمام مالك ، وكتب إليه مرة أن عليه ديناً فبعث إليه بخمسمائة دينار ، وكتب إليه مرة أخرى : « إنى أريد أن أزوج بنتى فابعث لى بشىء من عصفر » . وكان يومئذ غالياً ، وكانوا يصبغون به الثياب ويسمونها المعصفرات . . . فبعث إليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته وباع منه بخمسمائة دينار ، وبقيت عنده فضلة .

ولما حج أهدى إليه مالك طبقاً فيه رطب ، فأخذه ورد الطبق وفيه ألف

(1) وكذلك كان أبو حنيفة ، وكثير من العلماء الموسرين من الحلال ، والله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده .

(2) وقد عرفت فى جدة رجلاً كان على هذه الصفة وكان له اطلاع على العلم ، وكانت له خزانة كتب كبيرة ، وكان بابه مفتوحاً ومائدته منصوبة ، صحبته أكثر من خمسين مرة فما وجدته حاد عن هذا هو الشيخ محمد نصيف .

دينار !

ولما احترقت دار ابن لهيعة أعطاه ألف دينار ، ووصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار .

وأتاه مرة سائل فأمر له بدينار ، فأبطأ الغلام فجاء سائل آخر ، فقال له الأول : اسكت . فسمعه الليث ، فقال : مالك وله ؟ دعه يرزقه الله . وأمر له بدينار آخر .

قال منصور بن عمار (القاضي) : كنت يوماً عند الليث فأتته امرأة ومعها قدح فقالت : يا أبا الحارث زوجي مريض وقد وصف له العسل ، قال : اذهبي إلى الوكيل فقولي له يعطيك . فجاء الوكيل يسارّه ، فقال : اذهب فاعطها مطرا (أي مائة وعشرين رطلاً) إنها سألت بقدرها ، فأعطيناها بقدرنا .

واشترى منه قوم ثمرة بستان له ثم ندموا واستقالوه (طلبوا الرجوع عن البيع) فأقالهم ، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً ، وقال : إنهم كانوا أمّلوا ربحاً ، فأحببت أن أعوضهم .

***

لقد كان الليث بن سعد ، يا أيها السامعون والسامعات ، نموذجاً لطراز من العلماء ، نتمنى أن نعود فنرى أمثاله في هذا العصر .

أن نرى علماء يكون لهم مثل هذا العلم ، وهذه الأمانة في نقله ، وهذا العقل الكبير ، وهذه الكياسة في معاشرة الملوك ، وهذه المنزلة وهذا الجاه ، وأن يكون لهم (خاصة) مثل هذا المال الذي يستغنون به [1] ، المال الذي يحصلونه بجدهم وكدهم ، لا الذي يجمعونه بمد أيديهم إلى الناس ، وأن يكون لهم مثل هذا الكرم

***

(1) والإسلام لا يحارب الغنى إن كان من حلال ، **ولا يحرم جمع المال** ، والغنى إن أدّى زكاة ماله لم يكن ممن يكنز الذهب والفضة ، ولم يكن عليه عقاب .

وتوفى الليث يوم الجمعة 14 شعبان سنة 175 وعمره إحدى وثمانون سنة على التمام .

قال خالد بن عبد السلام الصدفى : شهدت جنازة الليث مع أبى ، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها ، ولا أظن أنه سيكون أعظم منها أو أكثر من أهلها، ورأيت الناس كلهمفى جنازته ، سواء فى الحزن ، يعزى بعضهم بعضاً ويبكون.

قلت : يا أبت ، كأن كل واحد من هؤلاء هو صاحب الجنازة !

فقال : يا بنى ، كان عالماً كريماً ، كبير العقل ، كثير الأفضال .

يا بنى ، لن ترى مثله أبداً .

❊❊❊

ناصر السنة

هذه قصة رائعة من قصص الثبات على المبدأ ، وحمل الأذى فى سبيله ، والتضحية بالنفس والمال من أجله ، قصة رائعة حقاً ، لا أكاد أعرف بعد قصص شهداء الإسلام الأولين أروع منها .

ولست أستطيع أن أجلوها لكم حتى أمهد لها تمهيداً سريعاً .

إن تاريخنا المكتوب يا سادتى ، هو تاريخ الملوك فقط ، أما تاريخ الشعب بعاداته وأوضاعه ، وطعامه وشرابه ، وأفراحه ومآتمه . . . أما تاريخ الفكر باتجاهاته ومقوماته ، فلم يكتب . ولو كان تاريخ الفكر مكتوباً ، لقرأنا فيه أنه كان للفكر فى هذه الفترة التى أؤرخها فى هذا الحديث ، فى العصر العباسى الذهبى ، وجهتان مختلفتان : وجهة التمسك بالأثر ، والوقوف عند ظواهر الأحاديث ، وترك القياس ، إلا عند الاضطرار ، ووجهة إطلاق العقل فى البحث والقياس والنظر . وكان يمثل الوجهة الأولى المحدثون ، ومن ورائهم جمهرة الناس ، وكان يمثل الوجهة الثانية المعتزلة يؤيدهم أرباب العلوم الجديدة ، وكان النزاع بين المعسكرين نزاعاً فكرياً ، ميدانه المساجد ، وحلقات الدرس ، وسلاحه الحجج والبراهين ، حتى جاء المأمون فقرب إليه زعيم الوجهة الثانية ، وتبع مذهبه وسخر قوى الدولة لإكراه الناس عليه ، وبذلك بدأت هذه المأساة التى عرفت فى تاريخنا ، باسم (المحنة) وهى فى اللغة بمعنى الامتحان .

***

وأنا كلما قرأت خبر المحنة أقف عند أمور ثلاثة وأعجب منها أشد العجب.

أولها : أن المعتزلة هم أصحاب المذهب العقلي في الإسلام (راسيوناليست) وفيهم اللَسَن والبلاغة وبعد النظر وسعة المعرفة ، وإمامهم ابن أبي دؤاد من أجل رجال الإسلام فضلاً ونبلاً ، وبياناً وعقلاً ، فكيف سوغ لهم هذا العقل أن يكرهوا الناس بالقوة على قبول آرائهم على ما فيها .

وثانيها : أن المأمون وهو أعظم ملوك بني العباس في عقله وخلقه وحلمه، وفي سعة مداركه وعمق تفكيره ، وإحاطته بعلوم عصره المنقولة والمترجمة، كيف رضي لنفسه أن يوصم بالعدوان على حرية الفكر ، وكيف تصور أن الأفكار تنشر بالقوة؟ إن السلطان يستطيع أن يكره الناس على أن يخرجوا من دورهم ، ويبدلوا ثيابهم ، ولكنه لا يستطيع أن يكرههم على الخروج عن مبادئهم ، وتبديل أفكارهم .

وثالثها : المسألة التي صارت مدار الخلاف وهي مسألة لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين ولا أمرنا الله بها ، ولا يسألنا يوم القيامة عنها وهي : هل القرآن مخلوق أم لا ؟ .

***

بدأت المحنة بورود كتاب المأمون ، وكان بخراسان ، على عامله في بغداد، أن يجمع العلماء الرسميين ، من قضاة وخطباء ، ويسألهم عن القرآن، فمن لم يقل أنه مخلوق عزله ، وكانوا جميعاً لا يقولون بذلك ولكن الضعف البشري ، والخوف على المنصب ، دفعهم إلى التظاهر بالموافقة ، فتركهم ، وعمد إلى جماعة ممن كان الناس يعدونهم أكابر المحدثين ، فامتحنهم فأبوا الموافقة ، فلم يستعمل المأمون القوة، ولكنه هاجمهم من نقطة الضعف فيهم وفي أكثر العلماء في عصرنا ، وهي التعارض بين أفعالهم

وأقوالهم ، وذكر ما أخذوا من أموال لا يستحقونها ، وما كانوا يعملون فى سيرهم الخاصة ، وهدد بنشر هذه الفضائح ، فخافوا فوافقوا إلا أربعة منهم ، لم يجد عليهم مطعناً فى سيرهم وأخلاقهم ، فلجأ إلى الشدة ، وأمر بوضعهم فى الحبس وإثقالهم بقيود الحديد ، فوافق اثنان ، وبقى أحمد بن حنبل ومحمد ابن نوح ، فأمر بحملهم إليه وكان فى خراسان (عند بلاد الأفغان) .

* * *

وتوفى المأمون قبل أن يصلوا كما توفى ابن نوح على الطريق فبقى أحمد وحده .

وكان جمهور العلماء وسواد الناس فى جبهة المحدثين ، ولكن لم يكد المأمون (أى الحكومة) يعلن انحيازه إلى المعسكر الآخر ومعه الأموال والمناصب والدنيا ، حتى تبعه العلماء ، رغبة أو رهبة ، ولم يثبت إلا الإمام أحمد . اختصرت فيه وحده هذه الجبهة الضخمة ، وقام وحده على المسرح ، وانصبت الأضواء كلها عليه ، وتعلقت الأنظار به ، ووقف ضده الخليفة ، وقواده ، وخزائنه ، وسلطانه ، وتعلق نصر الجبهة بثباته ، فإن هو انهزم انهارت جبهة المحدثين وتمت الغلبة للمعتزلة .

أما العامة فكانوا كما يكونون فى كل عصر : قلوبهم مع علماء الحق ولكن سيوفهم مع أمراء الباطل .

* * *

وولى المعتصم وكان رجلا قوى الجسم يستطيع أن يصارع أسداً ، ولكنه كان ضعيف العلم لا يستطيع أن يناظر أحداً ، وكان يجل أخاه المأمون ويراه مثله الأعلى فسار على طريقته ولكنه غلا حتى جاوز الحدود .

ولبث أحمد فى السجن ، وبلغ كل مبلغ من الضعف ، ومع ذلك فقد كان دائم العبادة ، حاضراً مع الله ، يصلى بأهل السجن وهو مقيد بقيود الحديد . وبعث المعتصم علماءه وقواده يناظرونه فكان يرفض الدخول فى المناظرة ويأبى الموافقة إلا بدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله . وحمل إلى حضرة المعتصم وجرت المناقشة أمامه ، فكان يصر على هذا الرد ، وجربوا أنواع الترغيب بالعطايا والمناصب ، وأنواع الترهيب بالتعذيب الشديد ، فلم يؤثر ذلك فيه أثراً .

وبعثوا إليه بعلماء السوء يأتونه من باب التقية ، فكان يقول : إن من قبلنا كانوا ينشرون بالمنشار فلا يرجعون . وأظهر مرة أنه لا يخاف السجن فإن داره ليست أحسن منه ، ولا الموت فإنه يتمنى الشهادة ، ولكن يخاف الضرب ، يخشى ألا يحتمل فتهزم فكرته . ما على نفسه خشى ، ولكن على المبدأ ، فقال له أحد اللصوص وكان معه فى السجن : أنا ضربت عشرين مرة ، يبلغ مجموعها آلاف الأسواط فاحتملتها فى سبيل الدنيا ، وأنت تخاف أسواطاً فى سبيل الله ، إنما هما سوطان أوثلاثة ثم لا تحس شيئاً فهون ذلك عليه .

***

ولما عجز المعتصم نصب آلة التعذيب ومدوه عليها وضربوه ، فانخلعت كتفه من الضربة الأولى ، وانبثق من ظهره الدم فقام إليه المعتصم يقول : يا أحمد قل هذه الكلمة ، وأنا أفك عنك بيدى وأعطيك وأعطيك ، وهو يقول : هاتوا آية أو حديثاً .

فقال المعتصم سجلاد : شُدَّ ـ قطع الله يدك ـ فضربه أخرى . فتناثر لحمه .

وقال له المعتصم : لماذا تقتل نفسك ، مَنْ مِنْ أصحابك فعل هذا ؟

وقال له عالم من جماعة الخليفة اسمه المروزى : ألم يقل الله تعالى : ﴿ولا

تقتلوا أنفسكم ﴾ . قال أحمد : يا مروزى ، اخرج فانظر أى شىء وراء الباب فخرج إلى صحن القصر . فإذا جمع لا يحصيهم إلا الله معهم الدفاتر والأقلام. قال : أى شىء تعملون ؟ قالوا : ننظر ما يجيب به أحمد فنكتبه .

فرجع . قال : يا مروزى أنا أضل هؤلاء كلهم ؟ أقتل نفسى ولا أضل هؤلاء كلهم !

إنه لم ينس أمانة العلم وهو علي هذه الحال ، واحتمل هذا الأذى كله لأداء أمانة العلم .

وقال بعض المنافقين للمعتصم وهو قائم يكلمه : يا أمير المؤمنين أنت قائم فى الشمس وأنت صائم ؟ خافوا عليه من الشمس وهو الشديد القوى الذى يصرع أسداً ، ولم يخافوا على هذا الشيخ الضعيف وهو صائم ولحمه يتناثر من الضرب .

وجاء القائد التركى عجيف فنخسه بالسيف وقال : ويلك أنت تقدر على هؤلاء كلهم ؟

ولما عجز المعتصم قال للجلادين : اضربوا وشدوا . فكان يجىء الواحد فيضربه سوطين ، ثم يتنحى ويأتى الآخر ، حتى خلعت كتفاه ، وانفزر ظهره كله ، وغطاه الدم .

وانقطعت تكة لباسه (سراويلاته) فكاد يسقط وينكشف . ورآه الناس يحرك شفتيه ، فيقف اللباس مكانه وسألوه بعد . فقال : قلت : يا رب إن كنت تعلم أنى على الحق فلا تهتك لى سترا [1] .

---

(1) خاف أن تكشف عورته وهو على هذه الحال . واستسهل ما هو فيه على كشفها ، فماذا يقول من يكشفها فى الملعب للرياضة وعلى الشط للسباحة ، والمرأة التى تكشفها للرجل الأجنبى باسم الفحص الطبى بلا ضرورة ظاهرة ، ولا حاجة قاهرة .

حتى أشرف على الموت . وخاف المعتصم أن يثور الناس إن مات ، فرفع عنه الضرب وسلمه لأهله ، بعد ما لبث فى السجن والقيود ثمانية وعشرين شهراً . وأرادوا أن يسقوه شيئاً فأبى أن يفطر ، ولم يخرج حتى أعلن أنه سامح المعتصم وكل من حضر ضربه . وبقى أثر الضرب فيه وبقيت كتفه مخلوعة حتى مات

على أن المحنة لم ترفع تماماً إلاَّ أيام المتوكل ، وكانت محنة حقاً ، امتحاناً لأخلاق الرجال ولإيمانهم ولرجولتهم ، وكان الناجح فيها، وكان الأول فى هذا الامتحان العالمى التاريخى ، الإمام أحمد بن حنبل . وليت المعتزلة كانوا قد تركوا الغلو فى تحكيم العقل فيما لا يقدر على الحكم عليه ، وأصلحوا ما كان منهم من خطأ . فكانوا هم الناجحين ، فلم تكن هذه النكسة للفكر الإسلامى التى طالما أكلنا المر من ثمارها .

وثواب أحمد فى الآخرة أكبر ، ومنزلته أعلى . رحمة الله عليه .

* * *

الفصل الخامس

- مفتى السلطان سليم
- الاحتفال بالمولد
- شارح القاموس
- أبو دلامة
- عائشة التيمورية

مُفتى السُّلطان سَليم

نحن الآن فى بلاط الملك العظيم الجبار ، فاتح الشام ومصر ، وناقل الخلافة إلى الترك ، الذى هدم دولاً صغيرة ، فأقام فى مكانها دولة كبيرة ، دولة قامت على السيف وحده [1] فلما صدئ السيف والتوى ، هوت وتصدعت، وصارت أحاديث .

الملك الذى لقب بـ (ياوز) وكان ياوزًا حقاً : (صاعقة) منقضة لا يقف فى وجهها شىء ، السلطان سليم ؛ ياوز سليم ، تاسع ملوك آل عثمان ، الملك القاهر البطاش ، سفاح الدماء ، وسلاب الأرواح ، والذى أمن أهل حلب على دمائهم وأموالهم ، ثم فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان) ، كادت تستغرق عامة أموالهم ، وأرسل إلى السلطان الغورى يطلب منه الدعاء، ثم أمر بقتله ، ثم قتل الجاويش الذى تجرأ فنفذ الأمر بقتله ، والذى أباد أهل الرملة كلهم لوشاية واش خبره بأنهم قتلوا جنداً من جنده .

وكان القتل أهون شىء عليه ، خنق أخوته لما خشى أن يزاحموه على الملك، وقتل سبعة عشر من أهل بيته ، وسبعة من وزرائه ، رد عليه الصدر الأعظم يونس باشا (رئيس وزرائه) كلمة ، كان الحق فيها مع الوزير ، فأمر بضرب عنقه فضربت عنقه قبل أن يتم جملته ، ودفن فى موضع مصرعه ، فى خان يونس ، بالقرب من غزة الذى بناه سميُّه يونس الدوادار .

(1) ولكنها أعزت الإسلام دهراً طويلاً ، وفتحت فتوحات عظاماً ، وكان منها ملوك كبار منهم الملك العظيم الصالح العبقرى محمد الفاتح ، الذى فتح القسطنطينية ، ثم جاء المتأخرون من ملوكها فساؤوا، ثم جاء الاتحاديون ففسقوا وأفسدوا ، ثم جاء أتاتورك فكفر وفجر ، ولم يبق ولم يذر .

ولما ترك للشراكسة فى مصر أوقافهم ، قال له رئيس وزرائه برى باشا ؛ يا مولانا ، فنى مالنا وعساكرنا فى حربهم ، وتُبْقى لهم أوقافهم يستعينون بها علينا ؟ وكانت رجل السلطان فى الركاب فأَشار إلى الجلاد ، فقطع عنق الوزير ، فصار رأسه على الأرض ، قبل أن يصير السلطان على ظهر الفرس ، حتى صار من أمثال الناس السائرة : من أراد الموت فليصر وزيرًا للسلطان سليم .

وكان الرجل إذا سمى للوزارة ، كتب وصيته ، وأعد كفنه وودع أهله ، فلا يدرى كلما ذهب ليقابل السلطان أيعود ماشياً على رجليه ، أم محمولاً على قفاه .

***

نحن الآن ـ يا أيها السادة ـ فى بلاط السلطان سليم ، وأهل الديوان الملكى فى أماكنهم ، وقلوبهم من خوف السلطان فى وجل ، لا يدرون ، أيدعو بأحدهم فيسعده ، أو يناديه فيبعده ، أو تحل به نزوة من نزواته فتقعده فلا يقوم أبداً .

فلم يرع الوزراء وأهل الديوان ، إلا دخول الشيخ المفتى عليهم ، وما كان من عادة المفتى أن يدخل الديوان وليس له فيه حاجة ، فوثبوا إليه يستقبلونه حتى أقعدوه فى صدر المجلس وقالوا له : أى شىء دعا المولى إلى المجىءإلى الديوان العالى ؟ قال : أريد أن أدخل على السلطان ، ولى معه كلام . فاستأذنوا له على السلطان فأذن له وحده ، فدخل وسلم عليه وجلس ، والسلطان ينظر إليه وقد بدت بوادر الغضب على محياه ، وسكت محنقاً يرقب ما يأتى به الشيخ الذى دخل عليه بلا دعوة ، وجلس أمامه بلا إذن ، فقال الشيخ : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد أمرت بقتل مائة وخمسين من العمال لا يجوز قتلهم شرعاً ، فعليك بالعفو عنهم .

فطار الغضب بعقل السلطان من هذه الجرأة عليه ، ولم يعد يبصر من أمامه ، وكاد يأمر بضرب عنق الشيخ ـ والأمر بالقتل على طرف لسانه دائماً ـ ثم ضبط نفسه وأراد ردعه ، من غير قتله ، وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك . وأعرض عنه ، وارتقب أن يكف الشيخ وينصرف . ولكن الشيخ قال له : بل أتعرض لأمر آخرتك وإنه من وظيفتى ، ومهما عشت فإنك ميت ، ومعروض على الله ، وواقف بين يديه للحساب ، فإن عفوت فلك النجاة ، وإلا فإن أمامك جهنم ، لا يعصمك منها ملكك ، ولا ينجيك سلطانك .

أتدرون ماذا كان ؟ لقد ذل السلطان الجبار أمام الشيخ الضعيف ، وهانت القوة أمام الحق ، وخضع ملك الزمان أمام سطوة الشرع ، ولم يعد الشيخ هو الذى يتكلم ، بل أعظم موجود عرفته هذه الدنيا : الإسلام .

وكذلك يذل أكبر جبار أمام العالم الصادع بالحق ، الذى لا يبالى إلا الله ... وعفا السلطان عنهم جميعاً . وجالس المفتى ساعة يحدثه ويكرمه ، فلما قام ليخرج قال الشيخ : تكلمت فى أمر آخرتك ، وبقى لى كلام متعلق بالمروءة . قال السلطان : ما هو ؟

قال : هؤلاء من خدم السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟

قال : لا .

قال : فأعدهم إلى مناصبهم .

قال السلطان : نعم ، إلا أنى أعاقبهم لتقصيرهم فى خدمتهم .

قال : هذا جائز ؛ لأن التعزير مفوض شرعاً إلى رأى السلطان ، ثم سلم عليه وانصرف .

* * *

هذا المفتي هو المولى علاء الدين على بن أحمد الجمالى ، الذى تولى التدريس والفتوى (مشيخة الإسلام) ستاً وعشرين سنة ، على عهد السلطان بايزيد والسلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانونى ـ بانى التكية الكبرى فى دمشق ، أما الصغرى القديمة فهى من بناء أبية سليم هذا ـ كان عالماً عاملاً ، يمضى وقته كله فى التلاوة والعبادة والدرس والفتوى ، ويصلى الصلوات الخمس مع الجماعة . وكان كريم النفس، طيب الأخلاق ، عظيم المهابة ، صداعاً بالحق ، متخشعاً متواضعاً عفيف اللسان ؛ ما ذكر أحداً بسوء ، ولا جرت على لسانه قولة الخنا ، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على جبينه ، وكان يحب العزلة فجعل مجلسه فى غرفة مطلة على الطريق وأدلى منها زنبيلاً (سلة) ربطه بحبل ، فمن كان له سؤال واستفتاء ، ألقى سؤاله فى الزنبيل وحرك الحبل فأخذه وأجاب عليه ، وأدلى بالجواب . فعرف بلقب (زنبيلى زاده على أفندى) .

وألقى الله هيبته فى قلب السلطان سليم ، فكان يمتثل أمره ، ويجيب طلبه . ذلك حين أفهمه أن وظيفة المفتى هى المحافظة على آخرة السلطان ، كما أن وظيفة الطبيب المحافظة على صحته . أفيسكت الطبيب إن رأى الملك يتناول السم ؟ ألا ينهاه ، فإن لم ينته أمسك بيده قسراً ، وأراق الكاس جبراً ؟ فلماذا يسكت المفتى إن رأى الملك يورد نفسه جهنم ؟

وكانت له معه مواقف كثيرة ، أختتم هذا الحديث بذكر واحد منها :

لما خرج السلطان سليم إلى إدرنه خرج المفتى لوداعه وتشييعه ، فرأى فى الطريق أربعمائة رجل مشدودين بالحبال ، يسوقهم الجند ، فسأل عن حالهم ، فقالوا : إنهم خالفوا أمر السلطان ، فحكم عليهم بالقتل .

فذهب المفتى إلى السلطان فلقيه وهو راكب ، فقال له على ملأ من الناس :

ـ هؤلاء لا يحل قتلهم .

فقال السلطان : أيها الشيخ إلى متى تتدخل فى أمور السلطنة ؟ الزم حدك ، واشتغل بوظيفتك ! أما لك وظيفة تقتصر عليها ؟ أما لك عمل تعمله ؟

قال الشيخ : هذه وظيفتى وهذا عملى ، فإن سمعت نجوت ، وإلا لقيت ملكاً هو أقدر عليك منك عليهم . وأدار عنق دابته ومشى بلا تسليم ، فاحمر وجه السلطان ، وكاد يتفجر منه الدم ، ووقف على فرسه صامتاً مدة طويلة ، وهو فى غضب لم يغضب مثله ، والناس كلهم خائفون ، سكوت ، لو ألقيت إبرة على التراب لسمع صوتها .

ثم مشى فى طريقه وأمر بالعفو عن القوم .

***

هذا لتعلموا أن العظمة فى تاريخنا ، هى عظمة هؤلاء الرجال . هؤلاء العلماء الذين علموا ليعملوا ، وآمنوا فظهر إيمانهم على أقوالهم وأفعالهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، فكانوا مع الناس فى معاشهم ، ومع الملوك فى مناصبهم ، ولكن قلوبهم كانت أبداً مع الله ، لا تعمل إلا له ولا ترجو إلا إياه ، وترى الدنيا ومن عليها فى جانب الله أهون من ذرة فى الفضاء ، فلا تحفل منها بطعام ولا شراب ، ولا شهوة نفس ، ولا نشوة سلطان ، ولا تخاف فيها ملكاً ولا جباراً ؛ لأنها كانت مع الله ، فكان الله معها ، وهو ملك الملوك وقاصم الجبارين .

ولو أن عصراً خلا من أمثال هؤلاء لخلا منهم هذا العصر الذى صورت لكم اليوم صورته ، ولكنهم موجودون أبداً معجزة حية باقية لخاتم الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ وتصديقاً لقوله : « **لا تزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة** » .

الاحتفالُ بالمولِد

قلت فى الكلمة التى أذعتها يوم المولد : إن أول من ابتدع الاحتفاء به ، هو الملك المظفر ، صاحب أربل ، فكتب إلىّ كثيرون يسألوننى ، من هو الملك المظفر ؟ وما خبره ؟ فجعلت جوابى لهم هذا الحديث .

***

كان الملك المظفر قائداً من قواد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وعاملاً من عماله ، أما لقب الملك فكان فى اصطلاح تلك الأيام يطلق على كل وال أو حاكم، ولو كان والى مدينة ، أو حاكم قرية ، بل لقد جرت عادة الأيوبيين - وهذا من قبيح عادتهم ، التى أدت إلى الانقسام المستمر - أن يطلقوه على الولد من أولادهم ، وهو صبى ، كما يطلق ملوك أوروبة على أبنائهم لقب (البرنس) .

وكان أبوه من شجعان التركمان ، وكان يلقب بـ (كجك) ومعنى كشك فى التركية : الصغير ، لأنه كان قصير القامة ، صغير الجسم ولكنه كان قوياً مفرط القوة جريئاً بالغ الجراءة وكان من قواد آل زنكى ، حضر الوقائع العظيمة ، وفتح الفتوح الجليلة وولى أعالى العراق والجزيرة ، فسار فيها السيرة الحميدة، ووقف فيها الأوقاف ، ولما شاخ وقارب المائة ، نزل عما كان يليه، ولم يبق لنفسه إلا مدينة أربل (1) .

وكان ابنه الملك المظفر (هذا) ، يدعى كوكبورى ، ومعناه فى لسانهم (الذئب الأزرق) ، وكان منقطعاً إلى صلاح الدين - رحمة الله على روحه -

(1) ويسمونها اليوم أربيل ، وهى ولاية إلى جنب الموصل .

شهد معه المشاهد كلها ، وكان أحد قواده الكبار ، وكان من أثبتهم في المعارك قدماً ، وأجرئهم قلباً ، وأعرفهم بفنون القتال ، ما عرف الهزيمة قط .

ولما تضعضع الجيش الإسلامي غداة معركة حطين ، وكاد ينكسر ويتمزق، بقي ثابتاً في الميدان مع السلطان صلاح الدين ، والملك تقي الدين صاحب حماة [1] في قطعة صغيرة من الجيش ، وتلقوا بصدورهم هجمة الإفرنج ، ثم ردوها ، كما تتلقى صخرة الشاطئ الموجة العالية العاتية ، ثم تردها ، وعاد بذلك الجيش الإسلامي إلى مواقعه ، وكان الظفر الأبلج ، الذي لا تزال تتحدث حديثه العصور .

وفي حصار عكا ، كان له مع السلطان أشرف موقف ، يعرفه ويعرف أمثاله ، من عاد يقرأ هذه الصفحات الغر المحجلات من تاريخنا ، صفحات البطولة المعجزة التي احتواها تاريخ (الأبطال الثلاثة) : نور الدين ، وصلاح الدين ، والظاهر وأنا أوجب على كل مسلم اليوم أن يقرأها مرة ثانية ، ليجدد إيمانه بالله ، وبأن فلسطين ستعود إلينا وليعرف من أين الطريق إلى استرجاع فلسطين .

***

أما سيرة الملك المظفر في السلم فلم تكن دون سيرته في الحرب ، هنالك النجدة والثبات والظفر ، وهنا العدل والإحسان والكرم ، وليس ذلك عجباً ولا نادراً في ذلك العصر ، فإن الناس ـ كما قال القائلون ـ على دين ملوكهم ، ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح ، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين ، كان الأمراء مثل الملك المظفر .

لقد قرأت سيرته ، وسمعت خبره من شاهد عيان ، وعصري [2] صادق ،

(1) أي والي حماة .
(2) عصرية أي معاصرة ، ومعاصر ، ومثلها مواطن ، لم تسمع عن العرب الأولين .

هو القاضى ابن خلكان ، فما دريت أأقرأ سيرة ملك من الملوك ، أم رئيس جمعية خيرية للمواساة والصدقات والترفيه والإحسان ، هذا هو عمله الذى يعيش له ، ويعيش منه ، ولا هم له غيره ، ولا عمل له سواه .

ولقد عرفت سير كرماء ضربوا بكرمهم الأمثلة ، ولكنهم كانوا يعطون الشعراء والمغنين والسائلين ، ويبذرون ويضعون الأموال فى غير مواضعها ، أما الملك المظفر ، فكان كرمه للناس جميعًا ، ولولا ما سن من سنن سيئة فى يوم المولد ، من اللهو والسماع ، لشهدت بأنه لم يكن له نظير .

* * *

لم يكن فى الدنيا شىء أحب إليه من الصدقة والبذل ، لا للشعراء فما كان للشعراء منه حظ ، ولكن للفقهاء والفقراء ، والوعاظ والمحتاجين ، وكان يجل العلماء ، ويدنى مجالسهم ، ويستسلم لهم ، ويهش للوعظ ، ويصغى للفوائد .

وكان له كل يوم قناطير من الخبز توزع توزيعاً عاماً على الفقراء ، فى أماكن خصصها لذلك فى نواحى البلدة ، فلا يطلب أحد شيئاً منه إلا أعطيه ، فكان العامة يأكلون خبزهم من ماله ، ولا يتكلفون له ، ولا يفكرون فيه .

وكان يرى الخبز حقاً لكل إنسان يأخذه مجاناً ، كالماء الهواء ، وهذه الثلاثة هى ضرورات الحياة وهى على درجات ، أما الهواء الذى لا يصبر عنه الحى لحظة ، فهو ميسور فى كل مكان ، أما الماء فيصبر عنه قليلاً ، لذلك كان كثيراً موفوراً ، وإن خلت منه مواضع ، أما الخبز فيصبر عنه أمداً أطول ، لذلك كان أقل .

وكان إذا عاد من الديوان ، وجد على بابه كل يوم طوائف من المحتاجين فيوزع عليهم الثياب الرخيصة النافعة ، التى اتخذت لدفع البرد ورد المرض ،

لا للفخفخة والفخر ، ويعطى كلا عطية صغيرة : دينارين أو ثلاثة .

ورأى المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء (الزمنى) والعميان ، فبنى لهم أربعة مستشفيات ، وتلك هى سنة الإسلام ، شرع بها من الملوك الوليد بن عبد الملك ، ثم صارت شعار الملوك الصالحين من المسلمين ، وقرر لهم كل ما يحتاجون إليه من الفرش والحمامات والمراحيض ، والخدم والممرضين [1] ورتب لهم المطابخ تقدم لهم الطعام والشراب ، وعين لهم وعاظاً يعظونهم ويعلمونهم ، ومحدثين يقرؤون لهم ويسلونهم ، وكان يزورهم زيارات مفاجئة ، ويقف عليهم واحداً واحداً ، يسأل كلا عن طعامه وشرابه ، وما يشكو منه ، وما يشتهيه ، ويبرهم بالمال والفاكهة والطرف .

وأنشأ داراً للضيافة ، ينزل فيها كل مسافر ثلاثة أيام ، يتغدى فيها ويتعشى وإذا أراد السفر أعطوه نفقة ومعونة .

وفتح مدرسة عظيمة ، جعلها قسمين : قسماً للحنفية وقسماً للشافعية وأقام لها المدرسين ، وجعل لهم وللطلبة المرتبات والعطايا . وفتح مدرستين للصوفية !

وكان له عمال يسافرون مرتين فى السنة ، إلى البلاد الساحلية التى كانت بيد الإفرنج ، يفكون أسرى المسلمين ، ويعينوهم على العودة إلى ديارهم .

وجعل للحج بعثة رسمية ، تذهب كل سنة مع الحجاج ، تخدمهم وتتعهدهم وتعين الفقير والمنقطع منهم ، وأرسل معهم ستة آلاف دينار لفقراء الحرمين .

وكان له بمكة المآثر الجليلة ، منها أنه كان أول من أجرى الماء إلى عرفات

---

(1) أما الممرضات فلا يجوز اختلاطهن بالرجال ، والكشف على عوراتهم إلا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة التى لها هنا حكم الضرورة .

ليلة الموقف ، وكان الحجاج يشكون قلة الماء ، وأنفق فيه النفقات الطائلة .

***

وكان يؤخذ عليه ، أنه كان على طريقة مبتدعة المتصوفة ، الذين يقيمون حفلات السماع ، ويتواجدون ويرقصون ، ويأتون أعمالاً ليست من الدين ، ولا يعرفها السلف ولا أوائل الصوفيين ، وكلن مولعاً بها ، يزور مدارس الصوفية التى أنشأها لهم فيُجمع له المغنون (المنشدون) فيسمع منهم ، مثل الذى تسميه إذاعة دمشق : الأناشيد الدينية ، والدين برىء منه ، ولم يسمع مثله الرسول ـ ﷺ ـ ولا الصحابة ولا التابعون ، ولا عرفوه ، ومن هذه (الأناشيد) ما لا يخلو من كفر صريح ، وسؤال الرسول ما لا يقدر عليه إلا الله ، ووصفه بما لا يوصف به إلا الله . ومنها ما هو وقاحة وسوء أدب وغزل بالرسول ووصف جماله ، وذكر للهجر والوصال (1) . . .

والدين ما كان عليه الرسول وصحبه ، ومن زعم أن فى المحدثات ما هو من الدين ، فقد نسب النقص إلى الشريعة ، وادعى بأنه زاد فى القربة والطاعة على الرسول ـ ﷺ ـ وسيصدم هذا الكلام كثيراً من السامعين ، ويرون فيه غير ما عرفوا وألفوا ، ولكنه هو الحق ، والحق أحق أن يتبع .

أعود إلى الموضوع .

قد قلت لكم : إن الملك المظفر كان أول من أظهر الاحتفاء بالمولد ، وأحيا لذلك بدعة العبيديين المدعون بالفاطميين ، فى مصر ، لما حكموها ، وأنا أنقل إليكم وصفا لذلك الاحتفاء ، نقلاً عن المؤرخ الثقة القاضى ابن خلكان ، وهو شاهد عيان ، لتروا أنه لم يكن احتفالاً دينياً ، ولم يكن مجلس عبادة وذكر ،

(1) منعت الإذاعة على أثر هذا الكلام ما يسمى (الأناشيد النبوية) فأخرج طائفة منشوراً يردون فيه علىّ ، ويحتجون عليها ، واستدلوا بأن الرسول ـ ﷺ ـ سمع قصيدة كعب بن زهير وفيها غزل ! ! .

ولا مقام طاعة وتبتل ، وإنما كان (معر ضاً) كهذه المعارض التى تقيمها دول أوربة فى هذه الأزمان ، فيه اللهو وفيه الغناء وفيه كل شىء .

كان الناس يتوافدون إلى (إربل) حتى تصير مثل أرض المحشر ، ويصحب كل منهم أهله ويحمل تجارته إن كان تاجراً ، وبدائع مصنوعاته إن كان صانعاً مبتكراً ، ويعد خطبه ومواعظه إن كان خطيباً أو واعظاً محترفاً ، وقصائده إن كان شاعراً .

ويقيم المظفر أبنية مؤقتة من الخشب ، كل واحدة بطبقات أربع أو خمس يؤجرها لمن شاء ، فإذا كان شهر صفر زينوها بأنواع الأصباغ والستائر والأوراد والصور والأعلام والأضواء ، حتى تكون أعجوبة [1] ، ويدع لنفسه وحشمه عشرين منها ، ينتقل إليها وكذلك يفعل القواد وكبار رجال الدولة .

ويكون فى الباقى جوقات[2] المغنين ، والممثلين وأصحاب الخيال (شىء مثل كراكوز) وتبطل معايش الناس ، وتتعطل المدارس إلى يوم المولد .

والملك يدور كل ليلة فيقف على المغنين وأصحاب الخيال وعلى كل بناء وقبة يتفرج ويعطى العطايا . وكان يجعل المولد سنة فى التاسع من ربيع الأول وسنة فى الثانى عشر للخلاف الوارد فى تعيين يوم مولده ـ ﷺ ـ .

* * *

تبدأ الاحتفالات ليلة المولد بسَوْق عدد هائل من الإبل والبقر والغنم بالطبول والأناشيد والناس وراءها بالأعلام والمزامير والصياح حتى تذبح ويعد لحمها للولائم ، فتقام القدور ، ويعد الطعام الكثير ثم يذهب إلى المسجد فيخرج من صلاة العشاء ، بين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس وراءه ،

(1) كما يكون فى المعارض تماماً

(2) جوقة كلمة عربية .

حتى ينتهى إلى (الخانقاه) فيقيم تلك الليلة سماعاً عظيماً - أى ما يسمونه اليوم ذكراً ، وما هو بالذكر - ويأتى الصوفية بعجائب الإنشاد والرقص والتواجد ، فإذا كان يوم المولد ، نصب له برج كبير فيجلس عليه مع رؤساء دولته ، وبرج أوطأ منه للصوفية والعلماء ، ويمر الجيش بين يديه فى عرض عظيم ، بفرسانه ورجَّالته وأعلامه وراياته وطبوله ، وجماعات الصوفية والمنشدين ، وطلبة المدارس ، وعامة الناس ثم يقوم الخطباء والوعاظ ، وينشد المنشدون ، ويخلع على الجميع ويعطيهم ، ثم يدعى كل من حضر ، وهم آلاف مؤلفة ، إلى الموائد فيأكلون جميعاً .

وقد ألف له الحافظ ابن دحية رسالة فى المولد ، كانت أول مولد أُلِّف .

***

هذه سيرة رجل كان من أنفع الناس للناس ، ومن أعدل الملوك فى الرعية ، ومن نماذج الحكم الصالح ، وكان ذلك طبعاً فيه لا تطبعاً ، وكان يقدم إليه الطعام فيأكل منه لقمة فيستطيبه ، فيقول : ارفعوه ، وخذوه إلى فلان الفقيه أو فلان الفقير . وكان يستحسن الثوب فيخلعه ويقول : خذوه إلى فلان الصالح أو فلان المحتاج . وكان قائداً من أبرع القواد ، ومحارباً من عباقرة المحاربين ، وأسأل الله أن يغفر له إن كان من أنصار البدع فى الدين ، ومن أعوان المتصوفين المبتدعين ، توفى ليلة الأربعاء 18 رمضان سنة 630 هـ .

***

شارح القاموس

لو سئلت : ما هو أشهر كتاب عربى ؟ لقلت : إنه القاموس ، للفيروز آبادى فقد بلغ من شهرته أن سُمِّى كل معجم قاموساً ، مع أن القاموس اسم لهذا الكتاب وحده ، وإلى جنب القاموس فى كل خزانة كتاب شرح القاموس ، الكتاب الجليل الذى يزيد فى إحاطته وشموله ، على المعجم العظيم لسان العرب .

وحديثى اليوم عن الزَّبيدى شارح القاموس ، عن الرجل الذى كان طرازاً نادراً فى العلماء . والذى كان نموذجاً للشيخ الذى جعل (المشيخة) تجارة ، وصورة للعالم المترف الثرى ، والذى بلغ من قدره أنه كان أشهر علماء الأرض فى زمانه ، ونال من الحظوة عند العامة والخاصة ، وعند الملوك والأمراء ، ما لم ينله إلا الأقل الأقل من العلماء ، والذى كان مشاركاً فى كل علم ، ملما بكل فن ، إماماً فى اللغة وفي الحديث وفى التاريخ ، وكان أديبا شاعراً ، وكان مع ذلك وقوراً مهيباً ، بشوشاً بساماً وكان مع هيبته ووقاره ، خفيف الروح ، عذب النكتة ، مستحضراً للنوادر العجيبة ، متحدثاً قليل النظير .

* * *

ولد فى الهند سنة 1145هـ قبل مائتين وثلاثين سنة [1] ونشأ بها ، ثم رحل فى طلب العلم كما كان يرحل العلماء فى ذلك الزمان ، وحج مراراً ، ونزل االطائف سنة 1166 فأقام بها زمناً وورد مصر سنة 1167 .

---

(1) أذيع هذا الحديث سنة 1375 هـ

وفي مصر لمع نجمه وسار اسمه ، ونال المنزلة التي وصفت لكم ، وقد اتصل أول أمره بالأمير إسماعيل كتخدا ، وألقى الله محبته وإكباره في قلبه ، فأولاه جانبا من دنياه ، ونبه إكرام الأمير الناس إليه ، فأقبلوا عليه ، وتسابقوا إلى سماع درسه ، وحضور مجلسه ، وأهدوا إليه الهدايا الفاخرة ، فحسنت حالة ، ولبس الملابس الفاخرة ، واشترى الخيل المسوَّمة ،وكان نحيفاً ربعة مورّد الوجه ، متناسب الأعضاء ، يتخذ الزى الحجازى خلفاً لزى علماء الأزهر ، ويلبس العمامة الحجازية على القلنسوة المزركشة[1] ، ويترك لها عذبة ، فكانت غرابة زيه من أسباب زيادة الإقبال عليه ، فانتقل إلى (سويقة اللالا) وكانت يومئذ حى الأعيان والكبراء ، وفتح بيته للناس . وكان يقيم الولائم ، ويهدى إلى من يهدى إليه ، وجعل ينقل درسه من مسجد إلى مسجد، ومن حى إلى حى ، وزار بلاد الصعيد ثلاث مرات . وكان حيثما حل ، احتشد له الناس وازدحم عليه طلبة العلم والعلماء ، وتسابق إلى إكرامه ودعوته الأمراء والكبراء ، وعنى به شيخ العرب همام ، وهو كبير أعيان تلك البلاد ، ورحل إلى مدن الوجه البحرى كدمياط ورشيد والمنصورة وغيرها مراراً ، ثم تزوج وأحب زوجته حباً ما أحب مثله قيس ليلاه ، ولا العباس فَوْزَه، وعاش معها في مثل نعيم الجنات . وشرع بشرح القاموس ، وكان كلما أتم كراريس أرسل منها إلى علماء الأقطار الإسلامية . فاشتهر قبل إكماله، فلما أكمله أولم الولائم العظيمة ، وجمع العلماء والوجهاء ، وكان احتفالاً ضخما ، لبث عمراً وهو حديث الناس .

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعرف بالقرب من الأزهر ، أقام فيه خزانة كتب كان يشترى لها الكتب النادرة بأغلى الأثمان ، وقد اشترى أول نسخة من شرح القاموس بمائة ألف درهم فضة ! .

(1) لم يبق الآن من يلبسها فى الحجاز إلا الشيخ الشنقيطى سفير الأردن فى السعودية .

ولم يمنع الزبيدى ما نال من دنيا عريضة ، من الاشتغال بالعلم ، والعكوف على التصنيف ، والولع بإقراء الطلبة ، وإحياء العلوم التى اندثرت ونسيت كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الحديث ، وألف فى ذلك كله كتباً جليلة .

وكان مع هذا الجاه وهذا العلم يشتغل بالوعظ وبالرقى والتمائم (الحجب) ويجيز بالأوراد والأحزاب الصوفية الطرقية ، ويوهم أنه المهدى ! .

وكان هذا إلى غريب زيه وهيئته ، إلى معرفته باللغة التركية واللغة الفارسية والكرجية ، وإتقانه أساليب معاشرة الملوك والكبراء ، وأساليب التأثير على العامة ، كان هذا من أسباب ما نال من شهرة ، وما كان له من مكانة نال بعضها بالعلم الحق ، وبعضها بهذه الأساليب !! .

***

وكانت مجالس الأمالى قد مضت وانقطعت من عهد السيوطى . الأمالى من مفاخر تاريخ العلم الإسلامى ، فأعادها ووصلها ، وشرع يملى من حفظه على طريقة السلف مجالس فى الحديث ، مبتدئاً بذكر الأسانيد والرواة والمخرجين .

وكان كلما قدم عليه قادم أملى عليه الحديث المسلسل بالأولوية ، وهو حديث الرحمة ، برواته ومخرجيه ، ويكتب له سنداً بذلك ويخبره به ، ويكتب سماع الحاضرين ، فكان الناس يعجبون من ذلك .

وكان ينظم (مسرحيات) أخرى ، أعجب تأليفاً وإخراجاً ؛ وذلك أنه كلما دعاه أحد أقام له الموائد الفاخرة ، وجمع الأهل والإخوان ، فيقبل معه خواص الطلبة ، ومعه القارئ والمستملى وكاتب الأسماء ، فيقعد على كرسى عال فيتلو القارئ ما تيسر من آيات الكتاب ثم يقرأ المستملى ، أى المعيد ، ثم

يقرأ لهم الشيخ شيئاً من الأجزاء الحديثية ، كثلاثيات البخارى أو الدارمى أو بعض المسلسلات ، وصاحب المنزل وأصحابه وأقرباؤه ، والنساء والبنات من خلف الستائر يسمعون ولا يفهمون شيئاً بالطبع ! وخلال ذلك يدار على الحاضرين بالبخور والعنبر ، وماء الورد ، ثم يختم الدرس بالصلاة على الرسول ، على النسق المعتاد وبالنغمة المعروفة ، ثم يكتب الكاتب أسماء الحاضرين حتى النساء والصبيان ويكتب الشيخ تحت ذلك (صحيح) ويمضى . . .

فكان الناس يرون رواية مسرحية عجيبة ، يتحدثون بها فتزيد من شهرة الشيخ[1] .

وطلب منه بعض شيوخ الأزهر إجازة ، فقال : لا بد من قراءة أوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع في جامع شيخون ، وحضر الاجتماع أهل تلك الناحية وطلبة العلم فيها ، فالتمسوا منه بيان المعانى فانتقل من الرواية إلى الدراية ، وكان درسًا عظيما ، استمر مدة طويلة . وكان يمزج الحديث بالفقه بالعربية بالرواية ، ولم يكن ذلك معروفاً من مشايخ الأزهر فى تلك الأيام .

وأحبه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفى بك الإسكندرانى ، وأيوب بك الدفتردار ، وسعوا إلى منزله ، وأهدوا إليه الهدايا الجزيلة ، واشترى الجوارى وعمل الأطعمة للضيوف ، وأكرم الواردين من الآفاق .

وانتقلت شهرته إلى تركيا ، فطلب إلى العاصمة (إسطنبول) فامتنع ، فرتبت له المرتبات الكبار ، وكاتبه أمراء المسلمين من الترك والحجاز واليمن والهند والشام والعراق والمغرب والسودان والجزائر ، وكثرت عليه الوفود والهدايا العجيبة منها أغنام فزان ، وهى عجيبة الخلقة يشبه رأسها رأس

(1) وكل ذلك من البدع المحدثات ، التى لم يعرفها علماء السلف ، ولا صنعها أحد من المحدثين .

العجل، فأرسلها إلى أولاد السلطان ، فكان لها وقع عظيم ، وكذلك الببغاء والجوارى والعبيد ، فكان يرسل ذلك إلى الجهات المستغرب فيها ، ويأتيه فى مقابلها أضعافها ، وأتاه من طرائف الهند واليمن أشياء نفيسة ، منها العود والعنبر بالأرطال .

وصارت له شهرة عظيمة عند أهل المغرب ، حتى أن من يحج ولا يزوره لا يرون حجه كاملا ، وكلما ورد عليه وارد سأله عن اسمه ونسبه وبلده وأصحابه وجيرانه ، ويكتب ذلك فإذا جاءه بعدُ أحد هؤلاء الأصحاب يقول له : جارك فلان حى ؟ وأخوك فلان هل ربحت تجارته ؟ وأين عمك ، هل أكمل بناء بيته؟ .

فيقوم المغربى ويقبل يديه ورجليه ، ويرى ذلك من الكشف ![1] .

فتراهم فى أيام الحج طالعين إلى داره ، نازلين منها ، وما منهم إلا ومعه هدية أو طرفة ، ويسأله العلماء فمن ظفر منه بجواب ، ولو على ورقة بقدر الإصبع ، فكأنما ظفر بحسن الخاتمة!

وكان يعرف كيف يحمل الكبراء على احترامه ، ولما جاء حسن باشا مصر ، وذهب إليه كل كبير فيها مسلِّمًا ، لم يذهب الشيخ ، وبعث من حمل الباشا على زيارته فزاره فى داره ، وخلع عليه الشيخ فروة ثمينة لا تقدر بمال ، وقدم له حصاناً سابقاً على سرج مذهب ، وعباءة ثمنها ألف دينار ، وكان قد أعد ذلك قبل هذه الزيادة ، فكان ذلك سبباً فى علو مكانته عنده حتى صارت شفاعته لديه لا ترد ، وإن أرسل إليه كتاباً أو ورقة قبَّلها قبل أن يقرأها وأمر بإنفاذ ما فيها [2] ، وأرسل مرة إلى أحمد بك الجزار كتابا ذكر له فيه أنه المهدى المنتظر ، وسيكون له شأن عظيم ، فوقع عنده موقع الصدق لميل النفوس إلى الأمانى ، ووضع ذلك الكتاب فى عنقه مع الحجب والإحراز والتمائم ! وكان

(1) ويراه العقل والشرع من الحيل التى لا تليق بالعالم .

(2) فكانت تلك الهدية من الشيخ رشوة ظاهرة .

يسر ذلك إلى بعض من يقدم عليه ممن يدعى المعرفة بالجفر والزايرجة وهاتيك الحماقات التى كانت رائجة فى تلك الأيام ، ومن قدم عليه من جهة مصر سأله عن الشيخ الزبيدى ، فإن خبره أنه قد عرفه واجتمع به وأثنى عليه تقبله قبولاً حسناً ، وأجزل صلته ، وإن لم يكن يعرفه أو لم يمدحه رده وجفاه مهما كانت منزلته [1] .

ولما شرع بشرح الإحياء للغزالى ، بيض منه أجزاء وأرسلها إلى الروم والشام والمغرب ليشتهر كما اشتهر شرح القاموس .

***

ووقع له حادث ، قلب حياته قلباً ، وحوله من هذه الحياة الاجتماعية ـ التى كان مضرب المثل فيها ـ إلى عزلة وانطواء على نفسه ، ذلك هو وفاة زوجته التى أحبها الحب العظيم ، وأعطاها قلبه كله ، وقد روعه موتها وأنساه وهو العالم الجليل ، ما قد رواه وحدث من كراهية تجصيص القبور ، وإقامة القباب عليها ، فدفنها عند القبر المنسوب للسيدة رقية فى ظاهر القاهرة ، وعمل لها مقاماً عليه قبة ، ومقصورة أقام عليها الستور والقناديل ، ولازم قبرها مدة حتى كاد يجن، وبنى بيتاً بجنب القبر أسكن فيه أمها [2] ، وأخرج الأموال الطائلة فجعلها جوائز كباراً ، يمنحها لمن يرثيها أو ينظم فيها .

وأغلق عليه بابه ، واحتجب على الناس ، وأبى أن يدخل عليه أحداً أو أن يقرأ درساً . ورد الهدايا التى كانت تجيئه ، ومنها هدية أيوب بك الدفتردار ، وهدية عظيمة بالغة القيمة من سلطان المغرب .

وقال فيها روائع الشعر ، وإذا ألهم الله طالباً من طلاب الأدب فجعل

(1) وبمثل عقلية هذا الباشا (انتصرت . . .) الدولة العثمانية ! .

(2) وذلك كله ممنوع شرعاً .

موضوع أطروحة يقدمها إلى جامعته رثاء الشعراء زوجاتهم ، فعدَّ من المتقدمين جريراً ، ومن المتأخرين أباظة وصدقى ، فلا ينسى الزبيدى شارح القاموس .

ومن قوله فيها القصيدة البائية البارعة ومطلعها :

أعاذل من يُرزأ كرزئىَ لم يزل ... كئيباً ويزهد بعده فى العواقب

وقوله فى قصيدة أخرى :

ما خلفت من بعدها فى أهلها ... غير البكا والحزن والأيتام

وقوله فى غيرها :

مضت فمضت عنى بها كل لذة ... تقر بها عيناى فانقطعا معا

وقوله :

زبيدة شدت للرحيل مطيها ... غداة الثلاثا ، فى غلائلها الخضر
تميس كما ماست عروس بدلها ... وتخطر تيهاً فى البرانس والأزر
سأبكى عليها ما حييت وإن أمت ... ستبكى عظامى والأضالع فى القبر
ولست بها مستبقياً فيض عبرة ... ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

ولما جاء الطاعون سنة 1250 وكان خارجًا من صلاة الجمعة ، طعن فحمل إلى داره .

وذكر المصنف الذى نقل عنه الشيخ عبد الرزاق البيطار [1] فى تاريخه المخطوط :

---

(1) العالم المتفنن ، جد الأستاذ الجليل الشيخ بهجة البيطار ، وتلميذ جدنا الذى قدم مصر سنة 1250 الشيخ محمد الطندآنى أى الطنطاوى ، وعنه نقلت أكثر أخبار الزبيدى ، وقد طبع هذا الكتاب الآن .

إنه زاره فرأى أهل زوجته قد فتحوا صناديقه وخزائنه وفيها ما كان يهدى إليه ، من الغرائب العجيبة ، والتحف الثمينة ، فتناهبوها وهربوها ، من نفائس القماش ، وأنواع الشال الكشميرى ، والفراء والعباءات والطرائف النادرة ، ومما رآه كومة من ساعات الجيب الغالية لا تزال بأغلفة بلادها ما أخرجت ولا استعملت .

وفتح الشيخ عينيه فرأى ذلك فأشار مستفهمًا ، أن ما هذا ؟ ثمَّ أغمضها وقبضه اللّه إليه ، فمات .

مضى ، ولكنه خلَّف أكثر من خمسين مصنفاً ، حسبه أن يكون منها شرح إحياء علوم الدين ، وأن يكون منها تاج العروس فى شرح القاموس .

* * *

أبـــو دلامـــة

لقد أبكيتكم يوم حدثتكم حديث الشاعرة المفجوعة [1] ، والأم الثكلى عائشة ، واستدررت الدمع من أبخل العيون بالدموع ، فدعونى اليوم أضحككم كما أبكيتكم ، دعونى أحدثكم عن شاعر خفيف الروح ، طالما أضحك الخلفاء والقواد ، هو الشاعر المشهور : أبو دلامة . ولا تقولوا ـ أعنى لا يقل بعض المتنطعين منكم : وما أبو دلامة والحديث عن أعلام الإسلام[2] . فإن أعلام الإسلام كل رجل كان له فى التاريخ ذكر ، وكل امرأة كان لها فى الحياة الإسلامية أثر ، أتحدث عن الأخيار لتقتدوا بهديهم ، وربما تحدثت عن الأشرار لتعتبروا بهم ، ثم إنى أحب أن أنبه أن كل هذه الأخبار التى أحدثكم بها اليوم قد رواها المحدث الكبير الخطيب البغدادى ، والقاضى الجليل ابن خلكان ، وعنهما نقلتها إليكم ، فلا يثر على السادة العقلاء جداً ، كما ثاروا يوم حدثتكم عن الحب عند الشريف الرضى ، وأنا هنا لأتحدث عن الزاهد العابد والشاعر البليغ ، والقائد البارع ، والعالم العامل ، عن الرجال ، وعن النساء ، من كل لون وكل باب ، ولو اقتصرت على طائفة لا أتعداها لصار الحديث مملولاً ، وأنا لا أبالى أن تسبونى ، ولكى لا أحب أن تملونى .

وبعد فمن هو أبو دلامة الذى قدمت للحديث عنه هذه المقدمة الطويلة ؟

كان كما يقول الخطيب ـ وهذا الوصف له ـ : شاعراً مطبوعًا ، كثير النوادر فى الشعر ، وكان صاحب بديهة يداخل الشعراء ويزاحمهم فى جميع فنونهم ، وينفرد فى وصف الشراب والرياض .

---

(1) هى الشاعرة عائشة التيمورية وسيأتى الحديث عنها .
(2) كان عنوان هذه السلسلة فى إذاعة دمشق (أعلام الإسلام) .

وزاد أبو الفرج أنه كان فاسد الدين رديء المذهب ، ولكن الذى روج له عند الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى ، وجعله يتمكن عندهم ولاسيما المنصور ، ويأخذ منه على بخله جزيل العطايا ، هو صراحته وخفة روحه ، وحضور بديهته ، وسرعة جوابه على بلاغته ومتانة شعره .

وكان يضحك الخلفاء حتى فى المواطن التى لا يسوغ فى مثلها الضحك ، ماتت حمادة بنت عيسى زوجة المنصور ، وخرج الخليفة ووجوه القواد وكبار الرجال فى جنازتها ، فلما وقفوا على القبر قال المنصور لأبى دلامة يعظه ويذكره : ماذا أعددت ويحك لهذه الحفرة ـ وأشار إلى القبر ـ ؟ .

قال : حمادة بنت عيسى زوجة أمير المؤمنين .

فضحك المنصور وكل من حضر وقال له : فضحتنا ـ قبحك الله .

وخرج مع المهدى وعلى بن سليمان مرة إلى الصيد ، فرمى المهدى غزالا فأصابه ، ورمى على فأخطأ وأصاب سهمه كلباً من كلاب الصيد .

فقال أبو دلامة على البديهة :

قد رمى المهدى ظبياً ... شك بالسهم فؤاده
وعلىّ بن سليما ... ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كل ... امرىء يأكل زاده

فضحك المهدى حتى كاد يسقط عن سرجه ، وأجازه .

وكان ينطلق لاستدرار عطايا الخلفاء ، دخل مرة على السفاح ، فقال له : سلنى حاجتك ؟ قال : كلب صيد .

قال : ويلك ! أهذا حاجتك ؟ كلب ؟ قال : نعم .

قال : أعطوه إياه .

قال : يا أمير المؤمنين ، فكيف ألحق به ، أأعدو على رجلى ؟

قال : أعطوه فرساً . قال : فمن يخدم الفرس ؟

فأمر له بغلام ؛ قال : فإن صدت صيداً فمن يطبخه ؟

فأمر له بجارية . قال : يا أمير المؤمنين ، وهؤلاء يبيتون فى الطريق ؟

فأمر له بدار . قال : يا أمير المؤمنين ، قد صيرت فى عنقى جملة من العيال ، فمن أين أنفق عليهم ؟

فأعطاه مالاً جزيلاً ، وقال : بقيت لك حاجة ؟

قال : نعم ، تدعنى أقبل يدك . قال : أما هذه فلا .

قال : ما منعتنى حاجة أهون على منها .

قال الحافظ : فانظر إلى حذقه فى المسأله ولطفه فيها . ابتدأ بالكلب فسهل القصة ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله ابتداء ما وصل إليه .

وولدت له بنت فغدا على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ولد لى الليلة بنت . قال : وما تريد ؟ قال : أريد أن يعيننى عليها أمير المؤمنين . وأنشده .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس إن لكم مجداً تليداً وأنتم أفضل الناس

قال : فهل قلت فى ابنتك شيئاً ؟ فأنشد على الفور :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولا رباك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء إلى لباتها وأب لئيم

قال : فماذا تحب أن أعينك ؟

قال : بملء هذه . . . وأخرج خرقة بين أصابعه .

قال المنصور : املؤوها له ، فلما فتحوها إذا هى كيس من قماش رقيق جدا متين وسع أربعة آلاف درهم .

ولما قدم المهدى من الرى دخل عليه أبو دلامة فأنشأ يقول

إنى نذرت لئن رأيتك سالماً بقرى العراق وأنت ذو وفر

لتصلين على النبى محمد ولتملأن دراهمًا حجرى

فقال : صلى الله على محمد ، أما الدراهم فلا .

قال : أنت أكرم من أن تفرق بينهما ثم تختار أسهلهما .

فأمر بأن يملأ حضنه دراهم .

ومن حسن تخلصه أنه دخل مرة على المهدى ، وعنده جلة القواد ووجوه بنى هاشم ، فقال له المهدى ليضحك منه : أحلف لئن لم تهج واحداً من هذا المجلس لأضربنك ضرباً مبرحًا.فجعل ينظر فى وجوه القوم ، فكلما نظر إلى واحد غمزه بأن يعطيه ، فما كان منه إلا أن هجا نفسه فقال :

ألا أبلغ إليك أبا دلامه فليس من الكرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامه

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامه

فضحك القوم ، ولم يبق أحد إلا أجازه .

ومن طرائفه أنه دخل على المهدى وهو يبكى ، قال : مالك ؟

قال : ماتت أم دلامة . وأنشده قوله فيها :

وكنا كـزوج من قطـا فى مـفـازة   لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فـأفــردنى ريب الزمــان بفقـده   ولم أر شيـئاً قط أوحش من فــرد

فأمر له بثياب وطيب وأموال ، وخرج ، فدخلت أم دلامة على الخيزران تبكى ، وأعلمتها أن أبا دلامة قد مات ، فحزنت لها وأعطتها مالاً .

فلما دخل المهدى على الخيزران قالت : قد مات أبو دلامة . قال : بل أم دلامة التى ماتت .

قالت : كيف وقد كانت عندى ، قال : بل هو الذى كان عندى .

وعرفا الحيلة فضحكا .

وكان جبانا يفر من القتال ويحتال لذلك بشتى الحيل . واضطر مرة إلى الخروج فى جيش روح بن حاتم المهلبى لقتال الخوارج ، فكانت القصة من أعجب القصص ، فيها حل لهذه المشكلة التى استعصت على الحلول مشكلة الحرب .

كان قريباً من الأمير فى المعركة ، فغلب عليه ما ركب فى نفسه من الطمع ، وجرب إحدي حيله ، ، فقال للأمير : أما والله لو أن تحتى فرسك ومعى سلاحك لفعلت فى العدو الأفاعيل . فضحك الأمير ، وقال : والله العظيم لأدفعن إليك ذلك ، ولآخذنك بالوفاء بشرطك . ونزل عن فرسه ، وأعطاه سلاحه ، ودفعهما إليه دفعاً .

قال أبو دلامة : فلما حصل ذلك فى يدى ، وزالت عنى حلاوة الطمع قلت : أيها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعهما ، قال : هات ، فأنشدته :

إني استجرتك أن أقدم في الوغى لتطاعن وتنازل وضراب

فهب السيوف رأيتها مشهورة فتركتها ومضيت في الهراب

قال الأمير : سترى ما أصنع بك إن هربت . وبرز فارس من الخوارج ، بطل من الأبطال ما بارزه أحد إلا قتله . قال : اخرج إليه أبا دلامة .

قلت : الله الله أيها الأمير في دمي . قال : والله لتخرجن .

فلما رأيت منه الجد قلت : أيها الأمير ، فإنه أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، فأمر لي برغيفين ودجاجة محمرة ، فأنا والله جائع ، ما شبعت من الجوع ، فأمر له به ، وقال : وبشيء من الحلوى وفاكهة . فأخذته وبرزت عن الصف . فلما رآني الخارجي أقبل علي ، وسيفه في يده ، وعيناه تقدان [1] ، وعليه فرو قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فانفتل ، فكان كأنه الوحش .

فقلت : على مهلك يا هذا ، قف نتكلم أولا ، فتوقف ، هل تقاتل من لا يقاتلك ؟

قال : لا . قلت : أتقتل رجلاً على دينك ؟ قال : لا .

قلت : فلماذاتقاتل ؟ قال : اذهب إلى لعنة الله .

قلت : لا أفعل أو تسمع مني . . قال : قل .

قلت : هل كان بيننا عداوة قط أو ثأر أو تعرفني بحال تغضبك عليّ أو تعلم بين أهلي وأهلك ثأراً ؟ قال : لا والله . قلت : ولا أنا والله . وإني لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أراده لك .

قال : يا هذا جزاك الله خيراً ، فانصرف .

---

(1) من وقد يقد ، مثل وعد يعد .

قلت : إن معى زاداً أحب أن آكله معك ، وأريد مؤاكلتك ؛ لتتأكد المودة بيننا ؛ ويرى أهل العسكر هوانهم علينا . قال : فافعل .

فنزلنا عن أفراسنا ، وقعدنا على الأرض نأكل ، والعسكران قد ماتا من الضحك .

فلما استوفينا ودعنى ، ثم قلت : إن هذا الجاهل ـ يعنى الأمير ـ أن أقمت على طلب المبارزة ندبنى إليك فتتعبنى فانصرف راشداً . فانصرف .

ومن مجونه أنه مرض ولده ، فاستدعى طبيباً ليداويه ، وشرط له أجراً معلوماً . فلما برئ قال : والله ما عندنا شيء نعطيك ، ولكن ادع على فلان اليهودى حتى أشهد لك أنا وابنى شهادة زور . فمضى الطبيب إلى قاضى الكوفة ، وهو الإمام الجليل ابن أبى ليلى ، فادعى عليه ، وأنكر اليهودى قال : لى بينة ، وذهب فأحضر أبا دلامة وولده ، وخاف أبو دلامة ألا تقبل شهادته لفسقه ؛ فأنشد فى الدهليز قبل أن يدخل بحيث يسمعه القاضى :

إذا الناس غطونى تغطيت عنهم وإن بحثوا عنى ففيهم مباحث

فلم يكن من القاضى إلا أن دفع للطبيب الأجرة من ماله ، وأعرض عن الدعوى .

هذه صورة شاعر ماجن ، لا أسردها لتكون قدوة للناشئين ، بل لتكون سلوة للسامعين ، وليحمد الله ذو الدين على دينه وذو الوقار على وقاره .

أردت منها أن أضحككم اليوم كما أبكيتكم بالأمس ، وكذلك ننتقل فى هذه الأحاديث بين دين ودنيا ، وجد وهزل ، وعقل وقلب ، لنضرب فى كل طريق، وندخل كل قلب .

وأعتذر إلى من لا يعجبه إلا الجاد النافع من الأحاديث .

* * *

توضيح

كل يوم يمضى يصير تاريخياً ، وما مر من فصول هذا الكتاب إنما كان أخبار (رجال من التاريخ) البعيد ، وما سيأتى مما لم يكن فى الطبعات السابقة للكتاب هو من أخبار (رجال من التاريخ) القريب ، ضممته إليه ، وألحقته به .

فكانت هذه الطبعة حاوية بحمد الله لما ليس فى الطبعات السابقة ، أسأل الله أن ينفع بها ، وأن يثيبنى عليها .

عائشة التيمورية

جئت اليوم أحدثكم فى الأدب ، وأخاطب فيكم العاطفة ، وأزجى لكم الحديث عن امرأة خلدها البيان ، امرأة ولدت سنة 1256 هجرية وماتت من نحو خمسين سنة [1] . وأنتم تعرفون ما كانت حال النساء فى تلك الأيام ، كن أسيرات الجهل وضيق الفكر واستبداد الرجل ، فكان من أعجب العجب أن تنشأ فيهن شاعرة مجوّدة وكاتبة بليغة ، فاقت أدباء عصرها ، وسبقت فى مضمار الرثاء العاطفى أدباء العصور كلها ، وكانت واحدة جمعت عجيبتين اثنتين : أولهما : أنها شاعرة مجودة ، والمجودات فى الشعر من النساء أقل من القليل ، لا فى العربية وحدها ، بل فى كل ألسنة العالم ، والأدب العربى على طوله لم يعرف مائة من الشاعرات المجودات ، على حين قد عرف عشرة آلاف من مجودى الشعراء . والثانية : أنها نشأت فى عصر تلك حال المرأة فيه .

وأحب أن أنبهكم إلى أن الإسلام برىء مما أصاب المرأة ، وأن التاريخ الإسلامى حافل بذكر العالمات الأديبات من النساء فى عصوره كلها حتى فى العصر الماضى ، وفى مكتبتى الآن أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة لمن نبغ من نسائنا ، وفى كتب الجرح والتعديل ذكر المئات من المحدثات اللائى كن أساتذة الرجال ، وكثير من المحدثين عندما يذكرون أساتذتهم يعدون أساتذة من النساء ، وقد سمعتم فى حديث الصالحية ذكر العشرات من العالمات فى آل قدامة وحدهم ، ولو حسبتم العالمات النابغات من نساء المسلمين الذين اعترف لهن الرجال وجلسوا بين أيديهن وأخذوا عنهن ، وأمثالهن من نساء أمم الغرب

(1) من تاريخ إذاعة هذا الحديث من إذاعة دمشق سنة 1370 هـ .

كلها لرأيتم أنه ليس عندهم واحدة مقابل كل عشرة عندنا ، ونسمع بعد ذلك من يقول : إن الإسلام هو الذى صير المرأة على هذه الحال .

لا ، ولكن الإسلام أمر بالعلم ودعا إليه ، وأمر بأن تكون المرأة عفيفة شريفة محتشمة متسترة بعيدة عن مواطن الريب ومداعس الزلل ، لأن العلم الذى لا يجىء إلا بذهاب الشرف خير منه الجهل .

وبعد ، فهذه الشاعرة الأديبة الكاتبة التى شقت الطريق لأترابها والتى سبقت زمانها ، والتى كانت أعجوبة فى بيانها هى السيدة (عائشة التيمورية) أخت العلامة المحقق أحمد تيمور ـ رحمه الله ـ وعمة رائد الأقصوصة العربية ابنه محمد تيمور وأخيه كبير القصصيين اليوم محمود تيمور .

نشأت فى أسرة تركية غنية فتعلمت القراءة والكتابة فى القصر على طريقة بنات الأكابر ، فتنبهت فى نفسها الرغبة فى المطالعة والإشراف على مجالس العلم فى القصر ، ولكن أمها أرادتها على ما كان من شأن أترابها الخياطة والتطريز ، وأبت البنت إلا ما تميل إليه فطرتها ، واستمرت المعركة حتى برز الأب إسماعيل تيمور فقال لها : دعى هذه البنت للعلم ، وعليك بأختها ربيها كما تريدين ، وأحضر لها المعلمين والمعلمات ، فأخذت النحو والعروض عن فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية ، وهذا يدلكم على أنه لم يخل ذلك العصر من عالمات وأزهريات .

والصرف والفارسية عَلَى عَلى خليل رجائى ، والقرآن والخط والفقه على إبراهيم تونسى ، وحفظت عشرات الدواوين ، وطالعت كتب الأدب حتى صارت تنظم بالعربية والفارسية والتركية ، ولها دواوين فيها جميعاً ، ولم يكن يفوقها من شعراء عصرها إلا البارودى (ذاك أمة وحده) والساعاتى ، ولها كتابة ، منها المسجع ، ومنها المرسل ، ومنها البليغ ، وهى أول من دعا إلى

أعرف فى الشعر العربى أحدّ منها حساً ، ولا أظهر عاطفة ولا أبلغ فى إثارة الأسى ، وهى فى هذا ـ لا فى جودة السبك وروعة البيان ـ تفوق ما قالت الخنساء فى أخيها ، وما قال ابن الرومى فى ابنه ، وتفوق قصيدة التهامى المشهورة فى ولده .

بدأت القصيدة تصف روعة الخطب ولوعة الحزن فقالت :

إن سال من غرب العيون بحور
فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما
ولكل قلب لوعة وثبور
ستر السنا وتحجبت شمس الضحى
وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذى أهوى وجرعنى الأسى
وغدت بقلبى جذوة وسعير
يا ليته لما نوى عهد النوى
وافى العيون من الظلام نذير

ثم أخذت تصف كيف بدأ بها المرض فى رمضان سحراً ، ألم بها على شبابها وصغرها ، فلما أصبحوا جاؤوا بالطبيب فكتب لها الدواء وبشرها بالشفاء :

طافت بشهر الصوم كاسات الردى
سحراً وأكواب الدموع تدور

تعليم المرأة ولها في ذلك مقالات وأشعار ، وكانت تحبذ الحجاب ، وترى أنه لا يمنع من العلم والأدب ، ولها القصيدة المشهورة :

بيد العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقادة وقريحة ... نقادة قد كملت آدابي

ما ضرني أدبي وحسن تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب

ما ساءني خدري وعقد عصابتي ... وطراز ثوبي واعتزاز رحابي

ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي

عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب

عاشت في سعة من العيش وإقبال ، وربيت في العز والدلال ، ولكن الدهر الذي لا يدوم على حال رماها بالنكبة التي تصدع قلوب الأبطال من الرجال ، فكيف بشاعرة من ربات الحجال مرهفة الحس رقيقة القلب تعيش بالعاطفة والحب ؟! أصابها بما لم تطق له احتمالاً ، كانت لها بنت اسمها (توحيدة) ، جمع الله لها جمال الخلق وسمو الخلق ، فياضة الأنوثة ، ساحرة الطرف ، بليغة النطق ، مهذبة الحواشي ، ما رآها أحد إلا أحبها ، وبلغت ثماني عشرة سنة وتزوجت ، فما مر على عرسها شهر حتى أصابها مرض مفاجئ فماتت .

وروعت عائشة الصدمة وشدهتها ، ولم تستطع التصبر ، ونسيت كل شيء إلا ابنتها ، وتركت كل شيء إلا الانقطاع لرثائها ، ولبثت على ذلك سبع سنين كوامل قالت فيها قصائد تبكي الصخر وتحرك الجماد ، وأثر طول البكاء في عينيها ؛ فلم تعد تبصر ، ثم ألهمها الله الصبر بعد سبع سنين ، وشُفي بصرها ، ولكنها لم تنس هذه النكبة أبداً ، وهاكم أبياتاً من قصيدة واحدة لها لا

فتناولت منها ابنتى فتغيرت
وجنات خد شانها التغيير
فذوت أزاهير الحياة بروضها
و انقدّ منها مائس ونضير
لبست ثياب السقم فى صغر وقد
ذاقت شراب الموت وهْو مرير
جاء الطبيب ضحًى وبشر بالشفا
إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهْو يزعم أنه
بالبرء من كل السقام بشير

واسمعوا كيف استبشرت الفتاة بدواء الطبيب ، وسألته التعجيل بشفائها لأجل شبابها ، بل من أجل والدتها التى حرمت على نفسها طيب المنام :

فتنفست للحزن قائلة له
عجل ببرئى حيث أنت خبير
وارحم شبابى إن والدتى غدت
ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حرمت طيب الكرى
تشكو السهاد وفى الجفون فتور

وأمسكوا الآن بقلوبكم لا يصدعها الحزن ، وبعيونكم لا يقرحها البكاء ، واسمعوا هذا المقطع الذى بلغت فيه الشاعرة الذروة ، وسبقت فيه كل من قال مرثية عاطفية . اسمعوا البنت وقد رأت عجز الطبيب فداخل قلبها اليأس

لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمعُ المقلتين غزيرُ:
أماه قد كل الطبيب وفاتنى ... مما أومل فى الحياة نصيرُ
لو جاء عراف اليمامة يبتغى ... برئى لرد الطرف وهْو حسير
يا روع روحى حلها نزع الضنى ... عما قليل ورُقْهُا ستطير
أماه قد عز اللقاء وفى غد ... سترين نعشى كالعروس يسير
وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى ... هو منزلى وله الجموع تصير
قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى ... جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدى بإزاء لحدى برهة ... فتراك روح راعها المقدور
أماه قد سلفت لنا أمنية ... يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مذ بان يوم البين وهْو عسير

وتصورت الموت وانطلقت تودع أمها :

وتصوروا الأم وهى تعود إلى الدار فلا تلقى ابنتها ، وترى جهاز العرس ما زال باقيًا ولكن العروس قد أودعت حفرة باردة ، وأهيل عليها التراب ويرن

عودى إلى ربع خلا ومآثر ... قد خُلّفت عنى لها تأثيرُ
صونى جهاز العرس تذكاراً فلى ... قد كان منه أبى الزفاف سرور
جرت مصائب فُرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد ونُفِّذ المسطور
والقبر صار لغصن قدَّى روضة ... ريحانها عند المزار زهور
أمّاه لا تنسى بحق بنوتى ... قبرى لئلا يحزن المقبور

وهاكم جواب الأم :

فأجبتها والدمع يحبس منطقى
والدهر من بعد الجوار يجور :
بنتاه يا كبدى ولوعة مهجتى
قد زال صفو شأنه التكدير
لا توصى ثكلى قد أذاب فؤادها
حزن عليك وحرسة وزفير
فسما بغض نواظرى وتلهفى
مُد غاب إنسان وفارق نور
وبُقبلتى ثغراً تقضى نحبه
فحرمت طيب شذاه وهو عطير
والله لا أسلو التلاوة والدعا
ما غردت فوق الغصون طيور
كلا ولا أنسى زفير توجعى
والقد منك لدى الثرى مدثور
إنى ألفت الحزن حتى أننى
لو غاب عنى ساءنى التأخير
قد كنت لا أرضى التباعد برهة
كيف التصبر والبعاد دهور
أبكيك حتى نلتقى فى جنة
برياض خلد زينّتها الحور

يا أيها السامعون . .

أرأيتم كيف نسيتم مصائبكم وبكيتم لمصاب هذه الفتاة التى ماتت من ثمانين سنة [1] ؟ ! هذه عظمة الشعر . رحمة الله على هذه الشاعرة التى لم يظهر بعدها مثلها .

***

(1) من تاريخ نشر هذا الكتاب .

الفصل السادس

- البرامكة
- معن بن زائدة
- القاضي المتأنق

البَرَامِكَـــة

هذى قصة رجال سَمَوْا إلى سماء العز ، وبلغوا من السعادة ما لم يكن يبلغ مثله أحد ، ثم هَوَوْا فجأة إلى قرارة المذلة ، وقاسوا من الشقاء ما لم يكد يقاسى مثله أحد ، فكانوا عجباً فى رقيهم ، وكانوا عجباً فى هويهم .

رجال كانت لهم فى تاريخنا أضخم الأسماء ، وأكثرها بريقاً ، وأشهدها دويّاً .

تعاونت على تخليد هذه الأسماء القوى كلها : قوة التاريخ ، وقوة الأدب، وقوة الأسطورة . أما التاريخ فلهم فيه أجمل صفحات الكرم ، الكرم الذى تخطى الأشباه ، وقطع الأمثال ، ولهم فيه النبل والعقل والفضل والبذل .

وأما الأدب فلهم فيه أعظم الذكر ، استنطقوا بالمدح كل شاعر ، وحملوا شكرهم على كل لسان . وأما الأسطورة فقد ولدت منهما معاً ، فكان نصفها للتاريخ ونصفها للأدب ، وعاشت فى قصص ألف ليلة وليلة ، تلك التى لم نكن نرى فيها إلا عبث أولاد ، وأداة فساد ، ورأى فيها الغربيون رائعة العصور لوحة من عالم مسحور ، فيه من عبقر طيوب وعطور ، وولدان وحور .

حازوا الدنيا وبذلوها ، وجمعوا الكنوز وفرقوها ، وملكوا القلوب بإحسانهم وأعتقوها ، فأصفتهم الود ، وثبتت لهم على الولاء ، وبقيت على حبها لهم بعد نكبتهم كما كانت أيام سعادتهم .

إذا وزنتهم بموازين البشر ، كان لكفتهم الرجحان ، وإن وزنتهم بميزان

الدين شالت كفتهم فى الميزان . أكبرهم الناس لكرمهم ، وعظموهم لجلالة أقدارهم ، ورآهم الشرع مخالفين عاصين ، ورأى عملهم سرفاً وتبذيراً ، والمبذرون كانوا من إخوان الشياطين ، هذا إن كان تبذيرهم فى مال أنفسهم ، فكيف إن كان فى أموال المسلمين .

كانوا يعطون ما لا يملكون لمن لا يستحق هذا العطاء ، فجادوا بالملايين على الشعراء والمغنين ، وفى الأمة من الأتقياء الصالحين والفقراء المستحقين ملايين لا يجدون ما يسد الخلة ويقيم الأود .

وضعت فى أعناقهم أمانة السهر على هذه الأمة كلها ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فتركوها وأقبلوا على اللذات فسمعوا وطربوا ، ولهوا ولعبوا ، حتى إذا ملوا وتعبوا ، ناموا عن الواجب عليهم ، وقعدوا عن أداء حق هذه الأمانة التى وضعت فى أعناقهم ، فعجل الله لهم العقوبة فى الدنيا ، وجعل منهم تحقيقاً لما خبر به الرسول ـ ﷺ ـ حين قال : « **من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه** » والظالم الذى تكون عقوبته فى الدنيا ويسلم فى الآخرة يكون من الناجحين .

وما أسرد قصتهم إلا لتكون عبرة لمن يغتر بهذه الدنيا ، ويطمئن إلى ما نال فيها من سلطان المال والجاه ، ليرى أنه مهما نال فلن يبلغ ما بلغه البرامكة ، ثم لما نزل بهم القدر هلك عنهم مالهم ، وما أغنى عنهم سلطانهم .

***

كان فى (بلخ) فى خراسان ـ الأفغان ـ معبد ضخم يسمونه (التوبهار) ولم يكن معبداً لله رب العالمين ، بل كان معبداً للنار يعبدونها من دون الله ، لا يزهدهم فيها أنهم يوقدونها بأيديهم ، وأنه بلغ من هوانها أن لو بالوا عليها لانطفأت . وكان سادنه (برمك) رجل الدين فى البلد ، ووجه الناس فيه ،

سبقه إلى هذا الشرف أبوه (جاماس) من قبله ، وجده (يستاسف) من قبل أبيه ، كانوا رأس المجوسية ، وكانوا أركانها حتى وصلت إليهم الرحمة التى بعث الله محمداً - ﷺ - بها لتعم العالمين ، من شاء منهم أن يستقيم ، فأطفأ الإسلام نار الشرك وأبدلهم بها نور الإيمان ، كما عوضهم من نار الظلم والطغيان جنة العدل والإحسان ؛ فأبصروا الحق فاتّبعوه ، ونشأ (خالد بن برمك) هذا ، مسلم القلب عربى اللسان . وكانت العربية تسير فى ركاب الإسلام ، فما احتل الإسلام قلوب أمة إلا احتلت العربية ألسنة أهلها . وكان فى هذه الحضارة عناصر عقلية واجتماعية ، يونانية وفارسية وهندية ، ولكن العقيدة بقيت إسلامية خالصة واللسان بقى عربياً خالصاً .

وقامت دولة بنى العباس على أكتاف الأعاجم ، وفتح المجال لأهل الكفاية والمزايا منهم ، فكان خالد مع من ظهر فضله . وذاع اسمه ، وتدرج فى (الحركة السرية) التى كانت تعمل لهدم الدولة الأموية ، حتى صار من وجهاء أصحاب قحطبة بن شبيب ، وصحبه فى حروبه ، وولاه الإشراف على مالية الجيش وقسمة الغنائم ، واتخذه مستشاراً له يستفيد من عقله ويرجع إلى رأيه ، ولبث دائباً على العمل حتى نجحت هذه الحركة ، وتم القضاء على الأمويين ، وكانت بيعة السفاح ، فدخل عليه خالد للبيعة ، فلما سمع كلامه ورأى فصاحته وبيانه لم يشك أنه من صميم العرب ، وأبقاه فى عمله ، وهو قسمة الغنائم والإشراف على مالية الجيش ، ثم نقله إلى ديوان الخراج ، ثم إلى ديوان الجند ، ثم رقاه إلى ما يشبه منصب الوزارة . وبقى على ذلك حتى مات السفاح وولى المنصور ، فأقره فى الوزارة سنة وشهوراً ، ثم لما تقرب أبو أيوب الموريانى من المنصور سعى بخالد وعمل على إبعاده ، فولاه المنصور بلاد فارس سبع سنين ، ثم عزل ونكب ، ثم أعيد أميراً على الموصل، ولبث فيها حتى ولى المهدى فأعاده إلى فارس ، ووجهه مع ولده هرون فى إحدى غزواته .

وكذلك انتقل هذا الرجل من ابن سادن فى معبد نار فى الأم المغلوبة إلى أمير ووزير فى الدولة الغالبة ، وما أعانه على ذلك نسب ولا حسب ، ولا مال ولا نشب ، بل أعانه عليه وأوصله إليه العلم و الفضل والأدب ، ولقد ذكر المسعودى أنه « لم يبلغ مبلغ خالد أحد من ولده ، فى جوده ورأيه ، وبأسه وعلمه ، لا (يحيى) فى رأيه ووفور عقله ، ولا (الفضل بن يحيى) فى جوده ونزاهته ، ولا (جعفر) فى كتابته وفصاحته ، ولا (محمد) فى شرفه وبُعد همته ، ولا (موسى) فى شجاعته وجرأته » .

* * *

وهذى صورة واحدة من صحة عقله وصواب مشورته ، وسبب تبرك قحطبة القائد برأيه : لما بعث أبو مسلم قحطبة بن شبيب الطائى لمحاربة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى والى الأمويين ، كان خالد فى جملة من كان معه ، فنزلوا فى طريقهم فى قرية ، فبينما هم على سطح بعض دورها يتغدون إذ نظروا إلى الصحراء ، وقد أقبلت منها أقاطيع الوحش من الظباء وغيرها حتى كادت تخالط العسكر ، فنظروا إليها متعجبين ولم يفكر أحد فى شأنها . فقال خالد لقحطبة : أيها الأمير ناد فى الناس أن يركبوا ويستعدوا للقتال قبل أن يهجم عليهم العدو .

فقام قحطبة مذعوراً فنظر فلم ير أحداً ، فقال : يا خالد ما هذا الرأى ؟ قال : العدو مسرع إليك ، أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت ؟ إن وراءها لجمعاً كثيفاً . فما كادوا يركبون ويستعدون حتى طلع عليهم العدو ، ولولا خالد لهلكوا .

* * *

ونشأ ولده (يحيى) فى بيت الُمارة ، وفى دارة العز ، يعيش مع أولاد

الخلفاء كأنه واحد منهم ، ولكن أباه لم يتركه يستسلم إلى اللهو واللعب ، بل أخذه بالقراءة والأدب ، ودرّبه على العمل ، وصرّفه فى المناصب حتى (كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أحسن حال) .

وأعجب به المهدى وقربه إليه ، وخلط أهله بأهله ، حتى لقد سمح بأن يرضع ولده هارون (الرشيد) من زوجة يحيى مع ولده الفضل ، وأن يرضع الفضل من الخيزران ، ثم جعله مؤدباً له ، بل لقد فوّض إليه أمر تربيته والقيام عليه حتى صار له أبا بعد أبيه ، وصار يدعوه (يا أبى) حين يناديه ، وكذلك تبدلت الحال ، فبعد أن كان سراة قريش فى الجاهلية ، وكان أوائل الخلفاء من بعد الإسلام يبعثون بأولادهم إلى البادية ليتربوا فى مضارب الأعراب فى شمس الصحراء وطهرها ، صار الخلفاء العباسيون يسلمون أولادهم إلى الأعاجم ليربّوهم وراء جدران القصور ، مع ربّات الخدور ، فكان ذلك من أسباب زوال دولة العرب .

وأخلص يحيى لهارون ، ورمى بنفسه على الموت من أجله ، ووقف موقفاً لولاه ما وصلت الخلافة إلى هارون .

ولا بد لى من أن أمهد لذكر هذا الموقف بكلمة من التاريخ : كانت الخلافة فى الأصل رياسة انتخابية يختار لها المسلمون من شاؤوا ، من الصالحين لها ، ثم لا يكون الخليفة ملكاً مستبداً ، ولا حاكماً مطلقاً ، ولكن أميراً مقيداً بالكتاب والسنة ، ليس له أن يحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، ولا يبتدع برأيه بدعاً تخالف أصول الإسلام وقواعد الدين .

فلما جاء معاوية حولها من خلافة إسلامية إلى ملكية كسروية أو قيصرية ، وكانت بدعة امتدت جذورها فى تاريخنا ، فحيثما نظرت منه وجدت شوكها وأذاها ، وما رأيت خلافاً ولا حرباً إلا بسببها ، ولا كان هذا الاستبداد وهذا

اللعب بالدماء والأموال إلا من بعدها .

وكان كل خليفة يمهد لولده كما مهد معاوية ليزيد . لم يكفهم أن اتخذوا عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، وخالفوا فى ذلك أحكام الإسلام وسنة أبى بكر وعمر ، حتى تصرفوا فى الناس وهم أموات كما تصرفوا فيهم وهم أحياء ، فأوصوا بهم إلى من أحبوا ، واختاروا كما يوصى المرء بغنمه وشائه ودرهمه وديناره . وأدركت هذه البدعة المهدى بن المنصور فقسم البلاد فى حياته بين ولديه موسى وهارون : لموسى المشرق كله ، ولهارون المغرب كله : الشام ومصر وأفريقية ، وجعل يحيى بن خالد معه ، إليه ديوانه والقيام على عمله ، والوكالة عنه إذا غاب ، فكان بمثابة (الأمين العام) فى عرف هذه الأيام ، ثم كتب لهما العهد من بعده ، لموسى أولا ثم لهارون من بعده .

وبدا فضل هارون على موسى فنجح فى الإدارة ، وظفر فى الحرب ، ورجع من خليج القسطنطينية بالنصر والغنائم ، وكان (يحيى) صاحبه ومشيره فى ذلك كله ، فأحب المهدى أن يقدمه على موسى ، فبعث إليه - وكان فى جرجان - بعض أهل بيته لينزل عن ولاية العهد لأخيه طوعاً واختياراً لئلا ينزله عنها قسراً وإجباراً ، فلم يُجب ، فبعث إليه رسولاً يدعوه فأبى وضرب الرسول وأعلن العصيان ؛ فغضب المهدى ، وأخذته عزة المُلْك ؛ فسار إليه بنفسه ليريه قدره ويأخذه بالطاعة أخذاً ، فلم يكد يخرج من بغداد حتى كان الأجل أسبق إليه من الأمل ، والمنية أعجل من الأمنية ؛ فمات فجأة ، وبويع موسى بالخلافة وتسمى بـ (الهادى) .

* * *

مات المهدى بـ (ماسبذان) وبويع موسى الهادى بالخلافة وهو بعيد بـ (جرجان) فاقترح القواد على هارون - وكان مع أبيه فى (ماسبذان) أن

يحملوا المهدى إلى بغداد ليدفن فيها .

فقال هارون : ادعوا إليّ أبى (يحيى بن خالد البرمكى) فصار إليه فقال له :

ـ يا أبت ما رأيك فيما اقترحوه ؟

ـ فقال : ما أرى ذلك .

ـ قال : ولم ؟

ـ قال : لأن من عادة الجند كلما مات خليفة أن يطالبوا برواتب سنتين أو ثلاث سلفاً ، وإنى لأخشى أن يتعلقوا بالنعش إذا رأوه وأن يتحكموا ويشتطوا ولا يدعوه يسير حتى يُعطوا ما يطلبون . ولكن أرى أن يدفن ـ رحمه الله ـ ههنا وتأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين وتنادى فيهم بالقفول ، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم يكن لهم مقصد إلا أهليهم وأوطانهم فلا يعرجون على شيء دون بغداد . ففعل ذلك ، وصاح بالجند لما قبضوا الدراهم : بغداد . . . بغداد . . . فعاد بهم .

وبدأ (يحيى) بذلك خطواته الأولى فى طريقه إلى احتلال المكان الأعلى في الدولة .

ولما وصل الجند إلى بغداد وتفرقوا أدركوا الخدعة ، وعرفوا أن الخليفة قد مات ، فتجمعوا يطالبون بالأرزاق والعطايا ، وساروا إلى قصر الربيع فأحرقوا بابه ودخلوه . . .

واهتمت الخيزران (أم الخليفة) بالأمر ، وخافت تفاقم الثورة ؛ فبعثت إلى الربيع ـ وكان شيخ الدولة ـ وإلى يحيى بن خالد تشاورهما . أما الربيع فلبى وحضر ، وأما يحيى فقد أدرك بوفرة عقله وبعد نظره أن الخليفة الجديد يغار على أهله ، ويكره من أمه (خصوصاً) أن تدخل فى أمور الدولة ، فلم يحضر

فكانت العاقبة أن غضب موسى على الربيع ورضى عن يحيى وأكرمه . وأقرأ موسى أخاه هارون فيما ولاه أبوه ـ وهو المغرب كله ـ وأمر أن يبقى معه وأن يتولى من أمره ما كان يتولاه أيام أبيه .

* * *

ولكن سرعان ما تبدلت الحال ، وتغير قلب (الهادى) على هارون ، وعملت على ذلك عوامل : أظهرها ثلاثة : أمه الخيزران ، وحاشية السوء ، وتفوق هارون .

1 ـ أما أمه الخيزران فقد كانت قوية الطبع ، محبة للسيطرة ، وكان المهدى من حبه لها يغضى عنها حتى كادت تغلب عليه ، فلما مات ورأت أنها استطاعت أن تظهر أيام البيعة لموسى ـ وهو غائب فى جرجان ـ وأن تعمل عملاً. غرها ذلك وأغراها على الاستجابة لمطالب هواها ، فأقبلت تخب فى أمور الدولة وتضع ، وتسعى لأن تولى وتعزل ، وصار بابها أحفل بالطالبين والمراجعين من باب الخليفة ؛ وغضب من ذلك موسى ، وكانت فيه رجولة ، وكانت فيه غيرة ، وهما خلتان لا تكادان تفترقان . وكان يعلم أن المرأة إنما خلقت لبيتها فما دخلت فى أمور الدولة إلا أفسدتها ، ولو كانت السياسة تصلح لأنثى لصلحت لسيدة النساء وأعقلهن عائشة أم المؤمنين . وحاول موسى منعها وكان يقول لها : ما للنساء والكلام فى أمر الرجال ؟

فلما لم تستمع ، ولما كثر ترداد القواد والأمراء عليها ، جمعهم يوماً وقال لهم :

ـ أيما خير ، أنا أم أنتم ؟

ـ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين .

ـ قال : فأيما خير ، أمى أم أمهاتكم ؟

ـ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين .

ـ قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقولوا : فعلت أم فلان، وضعت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟

ـ قالوا : ما أحد يحب ذلك .

ـ قال : فما بال الرجال يجيئون أمي فيتحدثون بحديثها ؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة ، فشق ذلك عليها ، فاعتزلته وحلفت لا تكلمه ، وأخذت تكيد له وتميل مع هارون ؛ فأغرته به من حيث لا تشعر .

2 ـ وأما حاشية السوء ممن كان يخشى سطوة هارون ، أن ينقم منه شيئًا ، فقد عملوا على صرف قلب الهادى عنه والإيقاع بينه وبينه حتى هم بخلعه .

3 ـ وأما تفوق هارون واضطراد لمعان نجمه وارتفاع منزلته ، فقد مس مواطن الأثرة من نفس الهادى ، فعزم على تحويل ولاية العهد إلى ابنه جعفر ، وأعلن ذلك لخاصته فوافقه عليه كبار القواد ، منهم يزيد بن مزيد ، وعبد الله ابن مالك ، وعلى بن عيسى ، فخلعوا هارون وبايعوا جعفر .

وتنكر الهادى لهارون وأعرض عنه ، فأعرض عنه الجلة والكبراء ، ثم زاد فأمر ألا يُسار أمامه بحربة ، وكانت هذه الحربة شعار الأمراء ، وألا يركب فى موكب ، فغدا كأنه منبوذ .

وكان فى خلال ذلك يُرهبه ويُرغبه ، ويتخذ إليه الوسائل لينزل عن ولاية العهد لجعفر ، حتى مل هارون وضاق صبره ، فأوشك أن يستجيب ، فقال له يحيى ـ وقد بقى وحده على الولاء له ـ : لا تفعل .

ـ قال : أليس يترك لى ما أعيش به مع ابنة عمى ؟ (يريد زبيدة بنت المنصور وكان يحبها حباً شديداً) .

ـ قال يحيى : وأين هذا من الخلافة ؟ ولعله ألا يترك لك بعد ذلك شيئاً . . .

وما زال به حتى جعله يأبى .

وسُعيَ إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من هارون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد .

فأغضب ذلك الهادى ، وبعث إلى يحيى من يجيء به ليلا ؛ فأيس من نفسه ، وودع أهله ، وتحنط ، وجدد ثيابه ، ولم يشك أنه يقتله .

فلما أدخل عليه قال :

ـ يا يحيى ، ما لى ولك ؟

ـ قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته؟

ـ قال : فلم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على ؟

ـ قال : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ إنما صيرنى المهدى معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ؛ فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك .

ـ قال : فما الذى صنع هارون ؟

ـ قلت : ما صنع شيئاً ، وما ذلك فيه ولا عنده .

فسكن غضبه ورده إلى داره ، فذهب إلى هارون فوجده قد طاب نفساً بالخلع ، فثبته وقوى نفسه ، وبعثت الخيزران جارية لها كانت أرضعت هارون، إلى يحيى فشقت جيبها بين يديه وبكت إليه وقالت :

ـ تقول لك السيدة : الله الله فى ابنى ، لا تقتله ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريد منه ، فبقاؤه أحب إلى من خلافته ومن الدنيا بجميع ما فيها .

فصاح بها يحيى : وما أنت وهذا ؟ إن يكن ما تقولين فإني وولدى وأهلى سنُقتل قبله فإن اتُّهمتُ عليه فلست بمتَّهم على نفسى ولا على أولادى .

فلما كان من الغد ، جلس الهادى للناس ، وقال لحاجبه : لا يدخل على يحيى بن خالد إلى آخر الناس . فأذن الحاجب للناس ، حتى إذا لم يبق أحد ، أدخل عليه يحيى فدخل ، وكان فى المجلس جلّةُ الناس وكبار القواد ، فما زال الهادى يدنيه ويقربه حتى أقعده بين يدية وقال لَه :

ـ إنى كنت أظلمك فاجعلنى فى حِلٍّ .

فتعجب الناس من إكرامه إياه وقوله . . . فقبل يحيى يده وشكر له ، فقال له الهادى :

ـ مَنْ الذى يقول فيك يا يحيى :

لو يمس البخيل راحة يحيى لسَخَتْ نفسُه ببذل النوال ؟

ـ قال : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، لا راحة عبدك .

وكلّمه فى خلع الرشيد ، فلم ير منه قبولا ؛ فاستبقاه بعدما انفض المجلس ، وخلا به ، فلم يجد منه إلا الإصرار ، فأمر به إلى السجن .

ولبث فى السجن أمداً ، وضيق عليه حتى لم يشك فى الموت ، فبعث برقعة إلى الخليفة يسأله فيها أن يسمع منه ، فدعا به فسأله ماذا يريد ، فقال له يحيى :

ـ يا أمير المؤمنين ، أخلنى . فأخلاه . فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر ، أسأل الله ألا تَبْلغه ، وأن يُقدمنا قبله ـ يريد موت الهادى ـ أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟

ـ قال : والله ، ما أظن ذلك .

ـ قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها بعض أهلك ، فتخرج عن ولد المهدى ، أو أن يطمع فيها غيرهم من غير أسرتك ؟ ولو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ، أما كان ينبغى أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له ؟ .

إنى أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر أتيته بالرشيد ، فكان أول من يبايعه .

ـ قال : نبهتنى يا يحيى . وأمر بإطلاقه .

ولم يلبث موسى إلا قليلاً حتى مات ، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر فقط ، وقعد هارون الرشيد على سرير الخلافة ، وكان الذى أقعده عليه ـ بعد الله الذى لا يكون شىء إلا بأمره ومشيئته ـ هو يحيى بن خالد ، بثباته على الوفاء له ، وعقله وفضله ، وهذا الأسلوب العجيب فى الصراحة والمنطق المهذب الذى كلم به موسى ، كما كان لعقل موسى وقبوله بالحق لما رآه أثر فى هذا الظفر ، ولقد شهد بذلك يحيى نفسه بعد ذلك فقال :

ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى .

***

كان يحيى أول من عَلم بموت الهادى ، فجاء إلى الرشيد وهو نائم فقال : قم يا أمير المؤمنين . قال : كم تروعنى رغبة منك بخلافتى وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل ! فإن بلغه هذا فما تكون حالى ؟ فقال : لقد مات موسى . فوثب فقعد فى فراشه ، فجاءه رسول آخر قال : ولد لك غلام .

فسماه عبد الله ، وكان هو عبد الله المأمون ، وكانت ليلة من ليالى الدهر :

مات فيها خليفة ، وولّى خليفة وولد خليفة ! .

وما كان أسرع ما نال يحيى ثمرة ما زرع . لقد ولاه الرشيد وزارته ، بل ولاه ما هو أكبر من الوزارة : نيابة الخلافة ، وقال له :

- أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجتُه من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى .

ودفع إليه خاتمه ، وقام إبراهيم الموصلي ينشده قصيدته التي يقول فيها :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة   فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذي الندى   فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور ، وكان يحيى يعرضها عليها ويصدر عن رأيها إلى أن ماتت بعد أربع سنين .

وابتدأت من تلك الساعة دولة البرامكة ، دولة لم يكن فيها من الفضائل إلا نُبل النفس ، وكرم اليد ، وفصاحة اللسان . أما إقامة حدود الله واتباع شرع الله وحفظ أموال المسلمين فلا تؤخذ إلا من حلها ولا توضع إلا مواضعها ، وصيانة دمائهم وأبشارهم فلا ينال منها إلا بحقها ، والتخلق بأخلاق الصالحين، واتباع سبيل المؤمنين ، والبعد عن اللهو واللعب والحرام ، أما ذلك كله فما كان منه في هذه الدولة إلا القليل .

* * *

دامت هذه الدولة سبع عشرة سنة . . . سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً بالضبط ، كان فيها البرامكة هم المتصرفين [1] فى ملك هارون الرشيد ، ولم يكن حكمهم كحكم من جاء بعدهم من الترك أولاً ، والبويهيين الفرس ثانيا ، والسلاجقة الترك أخيراً ، حين غدا الخليفة اسماً بلا رسم ، وصورة بلا معنى ، بل كان الخليفة يحكم حين يريد الحكم ، ويبرم ما يحب إبرامه من الأمر ؛ ذلك لأن الدولة العباسية لم تزل فى شبابها ، ولا يزال لخلفائها سلطانهم ، ولم يكن المعتصم قد أجرم تلك الجريمة المنكرة ، إذ جاء بغلمان الأتراك فحكمهم برقاب العرب ، فصارت الدولة إلى انحدار ، وما زالت تنحدر حتى كان عهد المماليك الذين يشترون بالمال ، ثم يكونون هم الملوك الذين يتصرفون بالأموال وبالرجال .

* * *

نال يحيى الوزارة أولاً ، ولم تكن وزارة بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، ولا بالمعنى الذي استقرت عليه الحال فى اا مر العباسى فيما بعد ، ولم تكن له سلطات محدودة بدستور أو قانون ، بل كان منصبه نوعاً من الوكالة عن الخليفة ، فكانت هذه الوكالة تتسع أو تضيق ، باتساع صدر الخليفة وضيقه ، وميله إليه أو ميله عنه .

وكان هارون الرشيد رجلاً قوياً مقتدراً ، ولكنه كان عاطفياً يتبع خاطر الحال ووحى الساعة كما يقولون ، فكانت أعماله كلها ارتجالات ومفاجآت .

لما بشره يحيى بالخلافة وكان هو الساعى له فيها ، والمدافع عنه فيها ، أحس بعرفان الجميل يغمر قلبه ، وذكر أنه لولا يحيى لكان قد تنازل عن ولاية العهد ، فمنحه تفويضاً مطلقاً ، وزاده فى السنة التالية فأضاف إليه الخاتم مع

(1) كلمة المتصرفين خبر كان ، وكلمة (هم) تأكيد وهذا هو التعبير الصحيح .

الوزارة ، وتسرب أولاده إلى الحكم ، وتداولوا الولايات والمناصب الكبرى بينهم ، وأخذ يحيى يتخلى عن تبعات الحكم لأولاده ، فترك الخاتم للفضل أولا ، وهو أخو الخليفة من الرضاع ، ثم صار لجعفر ، وغدا يحيى بمثابة المستشار للخليفة والموجه المرشد لأولاده جميعاً ، وما كان يتم شيء إلا برأيه .

لما أراد الرشيد نقل الوزارة قال ليحيى :

ـ يا أبت ، إنى أريد أن أجعل الخاتم الذى لأخى الفضل ، لجعفر ، وقد احتشمت من الكتابة إليه فى ذلك فاكفْنيه ؛ فكتب إلى ولده الفضل :

ـ قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فكتب إليه الفضل :

ـ قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فىّ وفى أخى وأطعت ، وما انتقلت عن نعمة صارت إليه ، وما غربت عنى رتبة طلعت عليه .

قال جعفر :

ـ لله أخى ، ما أنفس نفسه ، وأبين دلائل الفضل عليه ، وأقوى منة العقل فيه وأوسع فى البلاغة ذرعه !! .

وولى الرشيد الفضل خرسان ، فوجه إليها وأقام بها ، فلها عن أمورها ، وكان فى الدولة يومئذ دائرة خاصة سرية لمراقبة أعمال الولاة ، وإخبار الخليفة بها ، يسمى القائم عليها (صاحب البريد) ، لا يعرف الوالى شخصة ولا سلطان له عليه ، فكتب صاحب البريد فى خراسان إلى الرشيد بخبره ، ووصل الكتاب إليه ، ويحيى جالس بين يديه .

وكان فيه : إن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر فى أمور الرعية . فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى وقال له :

ـ يا أبت ، اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا .

ومن هنا يظهر لكم مبلغ تسلط البرامكة عليه ورفقه بهم ، ولو أراد أن يقيم حكم الله على والٍ يشتغل عن الرعية بلذته وصيده لكان العزل أيسر ما يعاقب به .

وكتب إليه يحيى كتابة أب إلى ولده المدلل :

انصب نهاراً فى طلاب العلا　　واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل أتى مقبلا　　واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد الليل بما تشتهى　　فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً　　يستقبل الليل بأمر عجيب
أرخى عليه الليل أستاره　　فبات فى لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة　　يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب فلما فرغ قال :

ـ بلغت يا أبت .

وأقر هذه الخطة الخبيثة التى اختطها هذا الرجل لابنه : لم يأمره بتقوى الله فى السر وفى العلن ومراقبته فى الخلوة وفى الملأ ، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولم يلقنه خشية الله بل خشية الناس والله أحق أن يخشوه إن كانوا مؤمنين .

على أن الفضل قد صلح بعد ذلك ، ولم يعد يفارق المسجد نهاره كله . ولما وصل إلى مدينة (بلخ) وهى وطنهم الأول وفيها (النوبهار) المعبد الذى كان أجداده سدنته وكانوا يوقدون فيه النار التى كانوا يعبدونها من دون الله ،

أمر الفضل بهدمه ، فصعب عليهم هدمه لمتانته وإحكام بنائه ، فهدم ناحية منه وأقام فيها مسجداً .

وولى جعفر نيابة مصر ، ثم نيابة سجستان ، أى أنه جعل إليه أمر نصب الوالى عليها وعزله ، فولى عليها رجلاً ولم يخرج إليها بنفسه .

ثم ولاه رياسة الحرس . ولما اضطربت الشام لما كان فيها من العصبيات القبلية واختل أمرها دعا الرشيد جعفراً فقال له :

ـ إما أن تخرج أنت ، أو أخرج أنا .

ـ فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى .

فشخص جعفر فى جيش ضخم ، ومعه جلة القواد ، فأخمد الفتنة وسن سنة سيئة ما رأيت قبله من صنعها ، هى أن العرب ـ مذ كانوا ـ يقتنون السلاح ويحملونه ، فجاء جعفر فى هذه الحملة ، فصادر الأسلحة وأدوات القتال ، فلم يدع بها رمحاً ولا فرساً ، ومدحه منصور النميرى لما توجه إلى الشام بقصيدة طويلة منها :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها جنت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يُستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها

ولما عاد ودخل على الرشيد قبل يديه ورجليه وقال :

ـ الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنس وحشتى ، وأجاب دعوتى ، ورحم تضرعى ، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجه سيدى ، وأكرمنى بقربه وامتن على بتقبيل يده ، وردنى إلى خدمته ، فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ومخرجى والمقادير التى أزعجتنى ، فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتنى ، وخطايا أحاطت بى . ولو طال بعدى عنك يا أمير المؤمنين ـ جعلنى الله فداك ـ لخفت أن يذهب عقلى إشفاقاً على قربك وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بى عن إذنك الاشتياق إلى رؤيتك ، والحمد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة وأمتعنى بالعافية ، وعرفنى الإجابة ومسكنى بالطاعة ، وحال بينى وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذنك وأمرك ، ولم يخترمنى أجلى دونك .

والله يا أمير المؤمنين ـ فلا أعظم منْ اليمين بالله ـ لقدعانيت ما لو تُعْرَض لى الدنيا كلها لاخترت عليها قربك ، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك . . . .

ولم يقصر يحيى الولايات على ولديه الفضل وجعفر ، بل فتح بابها لأولاده جميعًا ، بل للبرامكة كلهم .

فكان ولده موسى ينتدب للمهمات العسكرية . لما هاجت الفتنة الأولى فى الشام بين النزارية واليمانية ـ وهى كالفتنة التى ذهب جعفر للقضاء عليها ـ انتدب لها موسى بن يحيى ، فخرج إليها ومعه القُواد والأجناد وجماعة من مشايخ الكُتّاب ، فسكن الفتنة ، ومدحه الشعراء ، فقال إسحاق بن حسان الخزيمى يخاطب يحيى ، ويصفه بأنه حامى الإسلام ، الساهر عليه الذى لا يفرط فيه ، وقد أقام فى بغداد وبث أولاده فى الأطراف :

مَنْ مبلغٌ يحيى ودون لقائه ... زأرت كل خنابس همهام

يا راعى الإسلام غير مفرط ... فى لين مغتبط وطيب مشام

وقال غيره :

قد هاجت الشام هيجاً ... يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها ... بخيله وجنوده
هو الجواد الذى بَذّ ... كل جود بجوده
أعداه جود أبيه ... يحيى وجود جدوده

و (محمد) أخو يحيى ولاه الرشيد حجابته ، ثم قسم بلاد الخلافة كلها بين جعفر والفضل ، كما قسمها المهدى من قبل بين ولديه موسى وهارون ، فكان للفضل شرقى البلاد من بغداد إلى السند ، ولجعفر غربيها من بغداد إلى المغرب ، ثم عقد ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، فضم الأول إلى الفضل وجعله فى حجره ، وضم الثانى إلى جعفر وجعله فى حجره .

وتوجه الفضل إلى خراسان ، فأحسن السيرة فيها ، وبنى المساجد والرباطات ، وغزا ما وراء النهر ، فخرج واتخذ جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل منهم جيشاً بلغ عدده نصف مليون جندى لهم سجلات وقيود ورواتب معينة . وقدم بغداد منهم عشرون ألفاً فسُمّوا فى بغداد (الكُرنْبية) وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
أثبت خمس مئين فى عدادهمُ ... من الألوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين همُ ... أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا

وقال سَلْم الخاسر :

وكيف تخاف من بؤس بدار ... تكنّفها البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى ... نفير ما يوازنه نفير
له يومان يوم ندى وبأس ... كأن الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكى غدا ابن عشر ... فهِمَّتُه وزير أو أمير

وليدرك القارئ مبلغ ما أصاب الفضل من هذه الولاية ، أسوق له خبر ما ناله قائد من صغار قواده هو إبراهيم بن جبريل ، فإنه خرج معه وهو كاره للخروج ؛ فأحفظ ذلك الفضل عليه وأغضبه .

(قال إبراهيم) :

فدعاني يوماً بعد أن أغفلني حيناً ، فدخلت عليه ، فلما صرت بين يديه سلمت فما رد علي ، فقلت في نفسي : شر والله ، وكان مضطجعاً فاستوى جالساً ثم قال لي :

لِيفرُخْ رَوْعُك يا إبراهيم فإن قدرتي عليك تمنعني منك .

ثم عقد لي على سجستان ، فذهبت وجمعت خراجها وجئته به ، فوهبه لي وزادني فوقه خمسمائة ألف درهم ، فعاد إبراهيم إلى بغداد بسبعة ملايين! .

بمثل هذا الكرم كانوا يمتلكون القلوب ، وإنما هي أموال الله يتصرفون فيها ، يجمعون هذا المال من الآلاف المؤلفة ليعطوه لرجل واحد ، يجودون بما لا يملكون ويعطونه لمن لا يستحقونه .

ولما رجع إلى بغداد خرج الرشيد بنفسه لاستقباله ومعه القواد والكتّاب والأشراف ، فجعل الفضل يعطي الرجل ألف ألف ، والرجل خمسمائة ألف كما روى الطبري ، فكان ما وزعه في ذلك اليوم شيئاً يفوق الوصف ويستعصي على العد ، وقال فيه مروان :

إذا الناس راموا غاية الفضل في الندى وفي البأس ألفوها من النجم أبعدا
سما صاعداً بالفضل يحيى وخالد إلى كل أمر كان أسنى وأمجدا

وكان يحيى خلال ذلك في منصب المستشار للخليفة والموجه للدولة . كأنه غدا عند نفسه فوق الولايات لا يتدخل فعلا إلا إن اضطرته الأحداث إلى ذلك .

وما زالت دولة البرامكة فى صعود ، وما زالوا يتداولون الولايات حتى حج الرشيد ومعه ابناه الأمين والمأمون ، وحج معه يحيى ومعه ابناه جعفر والفضل فلما صاروا فى المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطى الناس عطاءهم ، والعطاء نوع من الضمان الاجتماعى كان أحدثه عمر بن الخطاب ، وهى رواتب من الخزانة العامة تكاد تعمّ الناس جميعاً ، ثم جلس الأمين ومعه الفضل فأعطاهم عطاءهم ، ثم جلس المأمون ومعه جعفر فأعطوهم عطاءهم فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الأعطية الثلاثة وفى ذلك يقول ابن مناذر :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك   فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة فى كل عام إلى العدى   وأخرى إلى البيت العتيق المعطر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت   بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو من الدجى   بمكة ما حجّوا ثلاثة أقمر
فما خلقت إلا لجود أكفهم   وأقدامهم إلا لأعواد منبر

ولما انتهى الحج استعفى يحيى الرشيد من الولاية فأعفاه ، واستأذنه فى الإقامة بمكة فأذن له فبقى فيها وتخلى عن الدنيا .

ولا ندرى أكان ذلك ليقظة روحية لحقته فصنع ما ينبغى أن يصنعه كل عاقل ، يؤثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، أم كان ذلك رياء وخداعاً ، وبقى فى مكة شهوراً ، ثم عاد إلى بغداد حين سمع أن الرشيد أطلق يعقوب بن داود من سجنه .

وذلك أن يعقوب هذا ، كان وزيراً للمهدى ، وحظى عنده جداً ، ولمع نجمه حتى قال فيه بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود

ثم غضب عليه المهدى ، فسجنه فى بئر ، وبنى عليه قبة ، وتركه فى البئر منفرداً ، فبقى فيها وحده خمس عشرة سنة لا يرى ضوءاً ، ولا يسمع صوتاً ، ولا يكلمه أحد ، إلا أنهم يدلون إليه كل يوم رغيفاً وكوز ماء[1] ، ويؤذنونه بأوقات الصلاة . ثم أخرجوه وقد نبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام ، فلم يستطع أن يبصر لطول ما بقى فى الظلام ، فوقفوه بين يدى الرشيد وقالوا :

ـ سَلِّمْ على أمير المؤمنين .

ـ فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدى .

قال : لستُ به .

ـ قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادى .

قال : لستُ به .

ـ قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد .

قال : نعم . ثم قال له :

ـ والله لم يشفع فيك عندى أحد ، ولكنى حملت البارحة بنتاً صغيرة على عنقى ، فذكرت حملك إياى على عنقك ، فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك .

وأنعم عليه وأحسن إليه . واشتم منه يحيى رائحة الخطر على دولته ، وغار منه ـ كما يقول ابن كثير فى تاريخه ـ وخشى أن يعيده الرشيد إلى منزلته التى كان عليها أيام المهدى ؛ فأخذ يكيد له ، وفهم ذلك يعقوب فآثر الفرار ، وكان زاهداً حقاً فى خ[illegible]كم ، وفوائد القرب من الولاة بعدما عاش فى ظلمهم وعسفهم خمس عشرة سنة ، فاستأذن الرشيد فى الذهاب إلى مكة ، فأذن له

(1) وهذا ما لا يسيغه العادل من شرائع الأرض ، ولا تأذن بمثله شريعة السماء .

فذهب إليها ، وبقى فيها حتى مات .

***

أوتى البرامكة من المواهب ، وجمعوا من خلال السيادة ، ما نالوا به الآمال وسبقوا به الأقران .

فكان جعفر فى علمه وفضله ، وفى بيانه وعقله من إحدى فلتات الدهر ، وكانت توقيعاته مثلا فى البلاغة يحتذى ، ومرآة فى البيان يُجتلى ، وكانت فى باب الإيجاز تقرب من حد الإعجاز .

والتوقيعات هى ما يكتبه الأمير على القصص (أى العرائض) التى ترفع إليه ، يأمر لصاحبها بعطاء أو منع وقبول أو رد ، على نحو ما (يشرح) الموظف اليوم على العرائض .

رفعت إليه شكوى من عامل من عماله ، فوقع فيها إلى ذلك العامل : « قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت » .

أربع كلمات أجملت قصته وأوضحت غلطته واستعدت توبته واستدنت نكبته . واعتذر إليه رجل فقال له : « قد أغناك الله بالعذر منا ، عن الاعتذار إلينا ، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك » .

ولم يكن يتعمد حلاوة اللفظ ولو كان فيها ضياع الحق ، كما كان يصنع ذلك الثقيل المتكلف الصاحب بن عباد الذى قال لقاضى (قم) : « يا أيها القاضى بقُمّ . . . » ثم وقف كما وقف حمار الشيخ في العقبة ، ولم يجد ما يسدد به السجعة إلا أن قال له : « . . . قد عزلناك فقم » .

فقيل للقاضى : فيم عُزلت ؟ قال : فى سجعة !

بل كانت توقيعات جعفر تجمع اللفظ والمعنى ، والعلم والأدب . ولقد وقع

يوما فى حضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شىء منها عن موجب الفقه .

تقولون : من أين له الفقه ؟ من الإمام أبى يوسف صاحب الإمام الأعظم ، ضمه إليه أبوه ، وألزمه صحبته فعلمه وفقهه .

* * *

وكان أستاذه الأول أبوه يحيى ، فقد كان يقول له ولإخوته : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . فكانوا يعملون بهذه النصيحة ، فكان حديثهم صفوة الصفوة ولباب اللباب ، فكانوا ملوك الكلام كما كانوا ملوك المال وملوك الناس .

وكان يحيى من العقلاء الكرماء البلغاء . ومن كلامه : « ثلاثة تدل على عقول أربابها : الهدية والكتاب والرسول » ومنه : « الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا فيمن قبلنا أسوة ، وبنا لمن بعدنا عبرة » ومنه : « من لم أحسن إليه فأنا مخير فيه ومن أحسنت إليه فأنا مرتهن به » ومنه : « إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى » .

قلت : بهذا ضاعت خزانة الدولة ، ثم ضاعت الدولة كلها ، وهى لعمرى شر نصيحة ، وخير منها آداب الإسلام وهى القصد فى الإنفاق ، والتوسط بين التبذير والتقتير ، وألا يجعل المرء يده مغلولة إلى عنقه ولا يبسطها كل البسط فيقعد (ملوماً) من الناس ، (محسوراً) فى نفسه ، وأن ينفق حيث يدفع الشرع إلى الإنفاق ويبتغى به وجه الله ، ويمسك حيث يؤثر الشرع الإمساك .

(ومنه) : ذكر النعمة من المنعم تكدير ، ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير .

(ومنه) : النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النُجح .

(ومنه) : إذا أدبر الأمر ، كان العطب فى الحيلة .

(ومنه) : من غيرته الولاية كانت الولاية أكبر منه .

(ومنه) : مما يدل على حلم الرجل : سوء خُلُق غلمانه .

وولى الرشيد رجلا ولاية ، فلما دخل عليه يودعه كان عنده جعفر ويحيى فقال لهما : أوصياه فقال له يحيى : وفر ، واعمر .

وقال جعفر : أنصف وانتصف .

وقال الرشيد : اعدل وأحسن .

وشهد المأمون ، وهو من هو فى البلاغة والعقل ، بأنه لم يبلغ مبلغ يحيى من الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة أحد من ولده .

أما كرمهم فقد جاوزوا به كل سابق ، وقطعوا به كل لاحق ، على أنى لا أراه لهم محمدة ولكن مذمة ، والكرم إنما يحسن إن أعطيت من يستحق مما تملك ، أما مَنْ عمد إلى مال الأمة الذى اؤتمن عليه فبسط به يديه وألقى به ذات اليمين وذات الشمال كما فعل البرامكة ، وكما كان يفعل أكثر الخلفاء والأمراء ، من قبلهم ومن بعدهم ـ وإن لم يبلغوا فى ذلك مبلغهم ـ أما من صنع ذلك فقد جنى جناية وارتكب جرماً وكان هو واللص سواء ، بل هو لعمرى شر من اللص ، فاللص إنما يسرق لنفسه ، ويعمر دنياه بخراب دينه ، وهذا يسرق للناس ويبيع دينه بدنيا غيره فيكون أخسر الناس .

فمن أخبار هذا الكرم العجيب :

أن إبراهيم الموصلى الذى أخذ من أموال الأمة ، هو وولده إسحاق ملايين وملايين لا يحصيها العد ، ما أخذاه بعلم نشراه ، ولا بمجد أثّلاه ، ولا يفتح

فتحاه ، بل أخذاه بأصوات لحناها ، وغناء ردّداه . حرم الخلفاء أصحاب الحق في هذا المال ، وأعطوه المغنين والعارفين والجوارى ، وأنفقوه فى لذات أنفسهم ، وفى لهوهم وشهواتهم ، فجر ذلك عليهم هولاكو ، ومن بعده من عرفنا من المستعمرين .

جاء إبراهيم يوماً إلى يحيى يشكو إليه ضيقاً فقال له :

ـ ويحك ما أصنع بك ؟ ليس عندنا فى هذا الوقت شيء ، ولكن ههنا أمر أدلك عليه ، فكن فيه رجلاً قد جاءنى خليفة صاحب مصر (أى والى مصر) يسألنى أن أستهدى صاحبه شيئاً ، وقد أبيت ذلك عليه فألح على ، وقد بلغنى أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار ، فهو ذا أستهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتنى فإياك أن تنقصها عن ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون .

قال إبراهيم : فوالله ما شعرت إلا بالرجل وافانى فساومنى بالجارية فقلت : لا أنقصها عن ثلاثين ألف دينار فلم يزل يساومنى حتى بذل لى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبى عن ردها فبعتها وقبضت العشرين ألفاً ثم صرت إلى يحيى فقال لى :

ـ كيف صنعت فى بيعك الجارية ؟ فأخبرته وقلت :

ـ والله ما ملكت نفسى أن أجبت إلى العشرين ألفاً حين سمعتها .

قال : إنك لخسيس ، فخذ جاريتك ـ بارك الله لك فيها ـ وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءنى فى مثل هذا ، فإذا ساومك فلا تنقصها عن خمسين ألف دينار فإنه لابد أن يشتريها منك بذلك .

فجاءنى الرجل فاستَمْتُ عليه خمسين ألفاً ، فلم يزل يساومنى حتى أعطانى ثلاثين ألف دينار فضعف قلبى عن ردها ولم أصدق بها فأوجبتها له ، ثم صرت إلى يحيى فقال : بكم بعت الجارية ؟ فخبرته فقال :

ـ ويحك ألم تؤدبك الأولى ؟

قلت : ضعف قلبى والله عن ردها .

قال : هذه الجارية جاريتك فخذها إليك .

وقد روى هذه القصة ابن خلكان ، ولست أدرى أيروونها مدحاً ليحيى أم قدحاً ؟ وما هى إلا مؤامرة احتيال ، وهى وسخة من أولها إلى آخرها ، ولو وقعت فى أيامنا هذه ـ على فساد هذه الأيام ـ لأحيل كل من اشترك فيها إلى محكمة الجنايات ؛ لأن (الوزير) يحيى احتال على الأمير وهو فوق ذلك قبلها منه وهى رشوة لا هدية . والأمير ما أهداها إلا ليظلم الناس ويستخلص ثمنها منهم أضعافاً مضاعفة .

ودخل عليه الأصمعى يوماً فقال له :

ـ يا أصمعى هل لك زوجة ؟

ـ قال : لا .

قال : فجارية ؟ ـ قال : لا .

فأمر بإخراج جارية فى غاية الحسن والجمال .

(قال الأصمعى) فقال لها : ـ قد وهبتك لهذا .

وقال لى : يا أصمعى خذها لك . فشكرته ودعوت له . فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت :

ـ يا سيدى تدفعنى إلى هذا مع ما ترى من سماجته وقبحه ؟

ـ فقال لى : هل لك أن أعوضك عنها ألفى دينار ؟

وأعاد الجارية إلى داره وقال لى :

ـ أنكرت على هذه الجارية أمراً ، فأردت أن أعاقبها ثم رحمتها .

ـ قلت : هلا أعلمتنى فأسرح لحيتى وأصلح عمتى وأتطيب وأتجمل ؟

فضحك وأمر لى بألف أخرى .

وكان يحيى إذا ركب يعطى كل من تعرض له مائتى درهم ، فركب ذات يوم فتعرض له رجل فقال له :

يا سميَّ الحصور يحيى أتيحت ... لك من فضل ربنا جنتان

كل من مر فى الطريق عليكم ... فله من نوالكم مائتان

مائتا درهم لمثلى قليل ... هى منكم للقابس العجلان

قال له يحيى : صدقت ، وأمر بحمله إلى داره ، فلما رجع يحيى من دار الخلافة سأله عن حاله ، فذكر له أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث : إما أن يؤدى المهر وهو أربعة آلاف ، وإما أن يطلق ، وإما أن يقيم جارياً للمرأة (أى نفقة وراتباً) يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها .

فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر ، وأربعة آلاف لثمن منزل ، وأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل ، وأربعة آلاف للبنية (أى للزفاف) ، وأربعة آلاف يستظهر بها .

فأخذ عشرين ألفاً بثلاثة أبيات لا معنى لها ولا مبنى !

وقال محمد بن عمر الواقدى :

كنت حناطاً بالمدينة (أى بياع حنطة) فى يدى مائة ألف درهم للناس أضارب بها فتلفت وضاعت ، فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد فجلست فى دهليزه ، وأنست بالخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلونى إليه فقالوا :

ـ إذا قُدم الطعام إليه لم يُحجب عنه أحد ، ونحن ندخلك عليه .

فلما حضر طعامه أدخلونى فأجلسونى معه على المائدة فسألنى :

ـ من أنت ؟ وما قصتك ؟

فأخبرته ، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز من ذلك ، فلما صرت إلى المو ضع الذى يركب منه ، لحقنى خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال :

ـ الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على أمرك وعد إلينا فى اليوم الثانى ، فأخذته وانصرفت وعدت فى اليوم الثانى فجلست معه على المائدة فأنشأ يسألنى كما سألنى فى اليوم الأول .

فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز منى ، فلما صرت إلى الموضع الذى يركب منه لحقنى خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لى :

ـ الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على أمرك وعد إلينا فى غد . ..

فأخذته وانصرفت ، فعدت فى اليوم الثالث كما أمر ، فأعطيت مثل ذلك الذى أعطيت فى الأول والثانى ، فلما كان فى اليوم الرابع أعطيت مثله وتركنى بعد ذلك أقبل رأسه وقال :

ـ إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفى ما يوجب هذا ، فالآن قد لحقك بعض النفع منى ، يا غلام ، أعطه الدار الفلانية ، يا غلام أفرش له الفرش الفلانى ، يا غلام أعطه مائتى ألف درهم يقضى دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ثم قال لى :

ـ الزمنى وكن فى دارى .

ـ فقلت : أعز الله الوزير ، لو أذنت لى بالشخوص إلى المدينة لأقضى الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بى .

ـ قال : قد فعلت .

وأمر بتجهيزى ، فشخصت إلى المدينة فقضيت دينى ثم رجعت إليه فلم أزل فى ناحيته .

وكان له كاتب يختص بخدمته ، ويقرب من حضرته ، فعزم على ختان ولده ، فاحتفل له الناس على طبقاتهم وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم ، وكان له صديق قد اختلت أحواله وضاقت يده عما يريده لذلك مما دخل فيه غيره ، فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين فجعل فى أحدهما ملحاً وفى الآخر أُشناناً مطيباً وكتب معهما رقعة فيها :

لو تمت الإرادة لأسعفتُ بالعادة ، ولو ساعدت المكنة على بلوغ المهمة لاتبعت السابقين إلى برك ، وتقدمت المجتهدين فى كرامتك ، ولكن قعدت القدرة عن البغية ، وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة ، وخفت أن تطوى صحائف البر وليس لى فيها ذكر ، فانفذت المبتدأ بيمنه وبركته والمختتم بطيبة ونظافته صابراً على ألم التقصير ، متجرعاً غصص الاقتصار على اليسير .

فلما حضر يحيى الوليمة عرض عليه كاتبه الهدايا جميعهاً حتى الكيسين والرقعة ، فاستظرفها وأمر أن يملأ الكيسان مالاً ويُرَدا عليه ، فكان ذلك أربعة آلاف دينار .

ومضى أولاده كلهم على سنته فى هذا الذى تعود الناس أن يسموه كرماً ، ولو كان من أموال أنفسهم التى تعبوا فى تحصيلها من وجوه الحلال لكان اسمه سفهاً وتبذيراً يستحقون به الحجر من القاضى ، فكيف وهو من أموال الناس التى ائتمنهم الله عليها ؛ إنه لا يسمى إذن إلا السرقة بأبشع صورها .

هذا جعفر يبذل أربعين ألف دينار فى (فرج . . .) جارية ، وأربعون ألفاً من أهل بغداد يشتهون عشر الدينار ، ثم لا يكفيه هذا حتى يهب المال لمن لا حق له به .

***

لم يكمل البحث ، ومر عليه الزمان ، فضعفت الهمة وضاعت الأصول ، وانصرفت عنه إلى سواه ، فآثرت أن أنشره ناقصاً ، على أن أهمله كاملاً .

***

معن بن زائدة

كان أجمل صفتين عند العرب ، يتصف بهما الرجل : الشجاعة والكرم . أما الشجاعة فلأنهم كانوا يعيشون فى بادية ، لا حكومة يحتكمون إليها ، ولا شرطة يحتمون بها ، ومن لم يكن شجاعاً قوياً أودى به وبماله وأهله الأقوياء ، ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب . وأما الكرم فلأنه لم يكن فيهم فندق ، ولا فى ديارهم مطعم ، فمن نزل بقوم فلم يطعموه مات جوعاً ، فكانوا يطعمون الغريب ليطعَموا وهم غرباء ، ومن هنا رسخت هاتان الصفتان فى نفوسهم حتى صارتا شعار العربى وأمارته ، وعليهما دار فخر شعراء الحماسة ، ومدح شعراء المدح ، وبقيتا فينا إلى اليوم ، فلا تجد خلقاً أجل فى عيوننا من الشجاعة ، ولا حقاً أكبر عندنا من حق الضيف ، ولو جاء يشغلك بحديثه الفارغ عن موعد لك لا تستطيع خلافه ، أو عمل لا تملك تركه ، حتى أن العدو إذا وطئ بساطك محا هذا الوطء ما كان منه من رزايا وأسواء .

وما سقت هذه المقدمة إلا لأن الحديث اليوم عن رجل جمع هاتين الخلتين ، فكان فيهما مثلا مضروباً .

وأحب أن تعلموا أن هذا الكرم هو الذى أضاع ملكنا : الكرم الجاهلى الذى يجاوز السرف ، ويقارب التبذير ، وإن أدب الإسلام خير منه وأولى ، ألا تبخل ولا تبذر ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط .

حديث اليوم عن القائد العربى الذى سمعتم به ، الجرىء المغامر ، والكريم الجواد : معن بن زائدة الشيبانى . ومن منكم لم يسمع باسم (معن) الأمير البطل الممدح من بنى شيبان أبطال ذى قار ، أهل البطولات والصولات

وقبيلة الرجال وَالأبطال ؟

لحياة معن ثلاث مراحل :

مرحلة فى خدمة بنى أمية ، تنقل فيها فى الولايات ، وكان منقطعاً إلى (يزيد بن عمر بن هبيرة) أمير العراقين . ولما حاصر المنصور واسط وقف فى وجهه ودافعه عنها وأراه العجب ، فلما آلت الخلافة إلى بنى العباس اختفى وطلبوه فلم يصلوا إليه ، فلما ولى المنصور البطاش المخيف اشتد فى طلبه ، فتنكر أعرابياً أقام فى الشمس حتى لوحت الشمس وجهه ، وخفف من عارضيه (شعر الخدين) ولبس جبة صوف ، وركب جملا ، وراح يتنقل فى البلاد ، يخالط الناس على حذر ، ويدخل فيهم على خوف ، حتى كان يوم الهاشمية .

يوم فاجأت طائفة من مارقة خراسان المنصور بثورة عارمة ، جبهوه بها وهم يحفون به للتسليم عليه ، وحالوا بينه وبى جنده ، وكادوا يقضون عليه ، وكان (معن) حاضراً متنكراً ، فلما رأى ذلك ، رفع لثامه ورمى بنفسه عليهم كالبلاء النازل ، وأعمل فيهم سيفاً كأنه شعلة من جهنم ، وما زال بهم حتى شق الطريق إلى المنصور فحماه منهم وفرقهم عنه ، ومكن للجند أن يقبضوا عليهم .

وخرج المنصور ، كأنما قد خرج من القبر ، ودعا هذا البطل المجهول الذى أنقذه من الموت ورد عليه الحياة فقال : من أنت ؟

قال : أنا من تطلبه بذنبه يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة ، وها أنذا بين يديك ، فاستحيا المنصور ، وشكر له هذه اليد وأكبرها ، وقربه من ذلك اليوم حتى صيره من أكبر قواده ، وقرب ابن أخيه البطل النجيب (يزيد بن مزيد

الشيباني) فصار هو أيضاً من القواد الكبار : وبلغ منزلة لم يسم إليها إلا القليل، وهو الذى رثاه مسلم بن الوليد ـ صريع الغوانى ـ المرثية الخالدة :

أحــــق أنــه أودى يــزيـــد ؟ تكَلمْ أيها النــاعى المـشيــد

أبِنْ لى من نعيت وكيف فاهت به شـفتـاك واراك الصـعيـــد

أحامى الملك والإسـلام أودى فما للأرض ويحـك لا تميـد

واسمعوا من (معن) نفسه خبراً طريفاً مما لقى فى هربه من المنصور من العجائب قال :

فارقت مرة بغداد متوجهاً إلى البادية لأقيم بها (قال) : فلما خرجت من باب حرب ـ وهو أحد أبواب بغداد ـ تبعنى أسود متقلد بسيف ، حتى إذا غبت عن الحرس ، قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على يدى فقلت له :

ـ وما بك ؟

فقال : ـ أنت طلبة أمير المؤمنين .

ـ ومن أنا حتى أطلب ؟

فقال : أنت (معن بن زائدة) .

فقلت له : ـ يا هذا ، اتق الله عز وجل وأين أنا من (معن) ؟

فقال : ـ دع هذا ، فإنى والله لأعرف بك منك .

فلما رأيت منه الجد قلت له : هذا عقد جوهر قد حملته معى ، وهو يقدر بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه به ، فخذه ولا تكن سبباً لسفك دمى .
قال : هاته .

فأخرجته إليه ، فنظر فيه ساعة وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولست قابله

حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك ، فقلت : قل ، قال :

ـ إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرني هل وهبت مالك كله قط ؟

قلت : ـ لا . قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا .

حتى بلغ العشر فاستحييت ، وقلت : أظن أني فعلت هذا ، قال :

ـ ما ذاك بعظيم ، أنا والله رجل فقير ، ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ، ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة .

ثم رمى العقد في حجري ، وترك خطام الجمل ، وولى منصرفاً . فقلت : يا هذا والله قد فضحتني .

قال : أردت أن تكذبني في مقالي هذا ، والله لا آخذه ولا آخذ لمعروفي ثمناً أبداً ، ومضى لسبيله . . . (قال معن) : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يجيء به ما شاء ، فما عرفت له خبراً .

وتنقل بعد ذلك في الولايات ، فولي اليمن وسجستان وأعمالاً بينهما ، وكان حيثما سار ينثر البطولات والعطايا ، حتى صار طائي عصره ، وجواد زمانه ، ووقف الشعراء قصائدهم عليه ، وانقطع كثير منهم إليه منهم : مروان ابن أبي حفصة أكبر شعراء تلك الأيام [1] ، حتى لقد أثار على نفسه حسد الخلفاء ، ولولا ما كان له من حضور البديهة وحسن التخلص لناله منهم أذى .

(1) أعني الشعراء المحافظين ، أما أكبر الشعراء المجددين فهو بشار . ولي فيه كتاب صغير ، فيه محاضرة ألقيتها على طلاب الكلية العلمية في دمشق سنة 1930 لما كنت أدرس لهم الأدب العربي ، وهو من كتبي التي لم أعد أرضى عنها فلذلك لم أعد طبعها .

دخل يوماً على المنصور ، والمنصور حريص على مال الله ، مقتصد فى الإنفاق، يحاسب عماله على السرف والترف ، ويأخذهم بالشدة ، فقال له بلهجة المعاتب الغاضب :

هيه يا معن ، تعطى مروان مائة ألف على قوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان ؟

قال : لا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله فى هذه القصيدة :

ما زلتَ يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعتَ حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

يذكره بدفاعه عنه ، وإنقاذه نفسه ، فما كان من المنصور إلا أن قال : أحسنت يا معن .

ومن حسن جوابه ، ومعرفته بخطاب الملوك أن المنصور قال له يوماً : ما أكثر وقوع الناس فى قومك يا معن . قال :

ـ يا أمير المؤمنين :

إن العرانين تلقاها حسدة ولن ترى للئام الناس حسادا

ودخل عليه يوما وقد أسن ، وقال : كبرت يا معن . .

ـ قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين .

ـ قال : وإنك لقوى .

ـ قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين .

ـ قال : وفيك بقية .

ـ قال : لك يا أمير المؤمنين .

فلما بلغ هذا الكلام الإمام الزاهد (عبد الرحمن بن زيد) قال : ويح هذا

ما ترك لربه شيئاً . ومعن شاعر مجود ، وبليغ بين ، وله قصائد مشهورة .

أما كرمه فكان أعجوبة ، ولست أستطيع أن أروى منه إلا قصة واحدة ، قصة مشهورة تدلكم على (ديمقراطية) العرب التى كانت فيهم طبعاً أصيلاً ، لا تكلفاً ولا دعاية ولا حرب أعصاب . وعن كرمه العجيب :

أرد أعرابى أن يمتحن كرمه وتواضعه ، فوقف عليه فى مجلسه فقال :

أتــذكر إذ لحافــك جلد شــاة   وإذ نعــلاك من جلــد البعيــر ؟

فغضبت الحاشية ، وهموا به ، ولكن معناً كفهم وقال : أذكر ذلك يا أعرابى ولا أنساه .

قال :

فسبحان الذى أعطاك ملكاً   وعلمك الجلوس على السرير

قال : سبحانه وتعالى ! .

قال :

فلست مسلماً ما عشت يوماً   على معــن بتسليــم الأميـر

فهاج الحاضرون ، ولكن معنًا منعهم وقال : يا أعرابى ، السلام سنة ، وأنت حر أن تسلم على الأمير أو لا تسلم .

قال :

سأرحــل عن بــلاد أنت فيــها   ولو ضــاق الزمــان على الفقيــر

قال : إن جاورتنا أهلا ومرحباً ، وإن رحلت فبالسلامة .

قال :

فجد لى يا ابن ناقصــة بشــىء   فإنى قد عــزمــت على المسيــر

قال : أعطوه ألف درهم .

قال :

قليـــل ما أتيـــتَ بـه وإنـــى لأطمـع منـك بالشىء الكثيـــر

قال : زيدوه ألفًا .

قال :

سألت الله أن يبقيك ذخــــراً فما لك فى البــرية من نظيـــر

قال : كم أعطيتموه على هجائه فى ؟ قالوا : ألفين . قال : أعطوه على مدحته ثلاثة .

وكانت خاتمة معن أن دس له الخوارج ناساً منهم ، فدخلوا مع عمال يعملون له فقتلوه ، وقد انتقم له ابن أخيه البطل (يزيد بن مزيد) .

وكان يزيد صنيعته ، وهو الذى كشف نبوغه ، ولذلك قصة طريفة .

ورثاه الشعراء المراثى الكثيرة . وكان من أجود ما رثى به القصيدة الخالدة التى قالها مروان ، والتى يقول فيها :

ألمـا علـى مـعـن وقـولا لقبـــره
سقتـــك الغـــوادى مر بعـاً ثـم مـــربعـاً
فيـــا قبــــر معن أنـت أول حفــرة
من الأرض خُطــت للسماحـة موضعـــاً
ويا قبـــر معن كيــف واريت جــوده
وقــد كـان من البـــر والبحـــر مـتـرعـا ؟
بلى قد وسعت الجود والجـود ميت
ولـو كـان حيـا ضقـــتَ حتـى تصـدعـــا
فتىً عِـــيش فى مـعـروفه بعد موتــه
كما كــان بعــد السيـــل مجــراه مرتــعـــا

* * * *

• القاضى المتأنق

القاضى المتأنق

يبدأ هذا الحديث فى قرية جبلية منفردة عن القرى ، ضائعة بين الذرى المعممة بالثلج ، والأودية التى تهيم فيها السواقى ؛ تطل على البحر المتوسط ، لا من جهة الشرق من أعالى لبنان ، ولكن من جهة الغرب من ضهور الأندلس[1] ، مع رجل لم يقعد على صخور الجبل ، ليستجلى جمال الكون ، ويكحل العين بفتنة الوجود ، بل ليفكر كيف يصل إلى المدينة العظيمة التى يسمع بها ولم يرها ، إلى قرطبة دار الخلافة ، وقصبة الأرض ، ليشكو إلى القاضى عدوان جاره على أرضه . . .

ووجد من يدله على الطريق ، ويصحبه فى هذا السفر ، حتى إذا وصل به إلى أبواب قرطبة ، ولاحت له شرفات المسجد وقبابه ، وتكشفت له غرف القصر ، ورأى تلك الفخامة وذلك العظم ، ازداد حيرة على حيرته ، ولم يدر أيان يسلك . ولحظ الناس حيرته ، فأقبلوا متطوعين لدلالته ، وساروا به حتى بلغ رحبة البلد ، فسألهم أن يرشدوه إلى المحكمة . فلما دخلها ، سأل : أين القاضى ؟ فوقفوه أمام القاضى ، فإذا هو يرى شاباً بزى الأحداث ، له جمة مفرقة (شعر طويل مفروق) وعليه رداء ملون معصفر[2] ـ كالقمصان الملونة التى يلبسها شباب اليوم ـ والكحل ظاهر فى عينيه ، وأثر الحناء فى يديه . وفى رجله نعل صرارة ، فتوقف ، ورجع يقول لهم : دلونى على القاضى . قالوا : هذا هو القاضى وأشاروا إليه فقال : إنى رجل غريب ، وأنتم تستهزئون بى ،

(1) ضهور ، من عامى الشام الفصيح ، ومنه (ضهور الشوير) فى لبنان .
(2) مصبوغ بالعصفر .

أنا أسألكم عن القاضى ، وأنتم تدلوننى على رقاص خليع !

وتركهم غضبان وذهب إلى المسجد ، إلى مسجد قرطبة أوسع مساجد الإسلام ، الذى لا تزال آثاره إلى اليوم ، وهو ميت بعد ما مات أهله ، تدهش من يراها ، وتمسك عليه أنفاسه ، فلا يملك إلا أن يفتح عينيه ، ويحبس نفسه ، وينظر . وكان العهد من أعز عهود الإسلام فى الأندلس ، عهد الحكم بن هشام ، وكان المسجد فى إبان جماله وجلاله ، وعمرانه بالعلم والعبادة ، وكانت تقتسم العالم الدولتان المتحضرتان : الدولة المسلمة فى الشرق ، دولة بنى العباس ، والدولة المسلمة فى الغرب ، دولة بنى أمية ، أما أهل أوربة فكانوا بالنسبة إليهما يومئذ كسكان أفريقية الوسطى بالنسبة لفرنسا وبريطانيا فى هذه الأيام .

وكان اليوم جمعة فقعد الرجل ينتظر الصلاة ، وينظر إلى هذه الغابة من الأساطين المتعاقبة ، والأقواس المتعاقدة ، والصناعة البديعة ، والعظم البادى ، حتى إذا كانت الصلاة ، ودنت الخطبة ، رأى الناس المزدحمين يفتحون الطريق للخطيب ، ويتلقونه بالإعظام والإجلال ، فنظر فإذا صاحبه ، الذى حسبه رقاصاً ، قد أقبل بزيه الذى رآه عليه ، هو زى الشباب ، حتى صعد المنبر فخطب خطبة من أروع الخطب ، وأبلغها مقالاً ، وأصدقها لهجة ، وأحفلها بكل علم نافع ، ووعظ بالغ ، ثم أم الناس فقرأ قراءة متدبر متفهم ، من قلب خاشع ، فبلغ من نفسه بخطبته وقراءته ما لم يبلغه الخطباء والأئمة أصحاب العمائم الكبار ، والجيب الواسعة ، واللحى العريضة .

فلما قضيت الصلاة أقبل على جاره ، يسأله متردداً مستحييا : من هذا الذى يلبس لباس المغنين ويتكلم كلام الزاهدين ؟ فيعجب الناس من عجبه ويقولون : ألا تعرفه ؟ فيقول : لا . ولست من أهل هذا البلد .

فيقولون : هذا محمد بن بشير قاضى قضاة الأندلس ، وشيخ الإسلام فيها ، وخطيب مسجدها الأعظم .

ويقبل الناس يروون مناقبه ويحدثونه حديثه .

❊ ❊ ❊

فكان مما حدثوه من مناقبه أنه كان لديه دعوى لعم الحكم ، على واحد من العامة ، وكان يظن المدعى أن له من علو مكانته ، ووثيق صلته بالملك ما يمكن له عند القاضى ، وإذا بالقاضى يقول له : قف بحذاء خصمك ولا تتكلم ، حتى أكون أنا الذى أسألك . فلما أدلى بدعواه . قال للمدعى عليه : ما تقول؟ قال : ليس على شىء - أصلح الله القاضى .

قال القاضى للمدعى : هات بينتك . قال : ألا يكفيك قولى ؟ قال : لو كفانى ما سألتك البينة . بينتك . قال : أمهلنى .

وذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموى ، فقال له : ألست تعرف أن لى على فلان كذا ؟ قال : بلى . قال : أتشهد لى ؟ قال : أنت تعرف القاضى وأخاف ألا يقبل شهادتى ! قال : كيف وأنت الذى وليته القضاء ؟ قال : هو ما أقول لك . قال : فمن يشهد لى ؟ فدعا الملك بفقيهين وكتب شهادته أمامها وأشهدهما عليها ، وقال : امض بها إليه وأنا أخاف ألا يقبلها .

فلما كان يوم المحاكمة ، وقال له القاضى : بينتك . أبرز له شهادة الملك . فقال القاضى : أنا لا أقبل شهادته .

فاستشاط العم غضباً ، وجن جنونه ، وذهب إلى ابن أخيه ، وقال : أنت ملك البلاد ، والقاضى رد شهادتك ! ماذا بقى لك من الكرامة والسلطان ؟

وضحك الحكم وقال : ألم أقل لك يا عم ؟ إن القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، عمل ما يجب عليه ، فأحسن الله جزاءه .

قال : فاعزله . قال : أعوذ بالله . أنا أخون المسلمين فى عزل مثله ؟ أنا عملت ما على وشهدت لك ، وللقاضى أن يقبل الشهادة أو يردها .

ولما سئل القاضى بعد ذلك : لماذا رددت شهادته ؟

قال للسائل : يا جاهل والله ما رددتها لنقص فى عدالته ، ولكن لابد من سؤال المدعى عليه عما يقوله فى الشاهد ، فمن كان يجرؤ على الطعن فى شهادته لو قبلتها ؟ .

يا أيها السادة . . انظروا كيف كان ملوكنا وكيف كان قضاتنا .

* * *

وكان مما حدثوه به : أن عامياً أقام لديه دعوى على ابن فطيس الوزير ، وكان له فى الأندلس سطوة ونفوذ ، فلما سأل المدعى بينته ، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم ، ولم يعرفه بهم ، وحكم عليه . فرفع الوزير شكوى إلى الحكم ، وكان القاضى حاضراً ، فأومأ إليه الحكم سائلاً . فقال : ليس ابن فطيس ممن يعرف بمن شهد عليه ، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريح شهادتهم ، لم يتحرج من استعمال سلطانه فى أذاهم فى أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم ، فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس .

يا سادة . وهذا مبدأ وضع حديثاً فى قانون البينات عندنا ، وحسب واضعوه أنهم جاؤوا بشىء جديد ليس فى الفقه الإسلامى . وهذا ابن بشير يقرره فى القرن الثانى للهجرة من أكثر من ألف ومائتى سنة .

قال : فكيف يتخذ هذا الزى ؟

قالوا : لقد سئل هو عن ذلك . فقال : حدثنى مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر ، وكان سيد القراء ، كانت له لمة (شعر طويل) وأن هشام بن عروة فقيه المدينة (ابن عروة بن الزبير الذى حدثتكم عنه) كان يلبس المعصفر وأن محمد ابن القاسم كان يلبس الخز [1] .

فلما سمع ذلك غدا عليه ورفع إليه دعواه ، فرأى عنده من العدل والنزاهة والحزم ، ما لا مزيد عليه لمستزيد ، وعلم أنه قد يكون العالم العابد المتبتل فى زى رقاص أو مغن . وقد يكون الدجال المحتال الختال فى زى عابد متبتل ، وأن العبرة بالنيات والأعمال لا بالصور والأشكال ، وأنه كان ضيق النظر محدود الفكر ، حين وقف عند ظاهر الزى ، ولم يمض حتى يختبر ما وراءه من المعاملة والفعل .

***

(1) على أن للعرف حكمه ، وإذا لم ينكر عليه زيه هذا أهل الأندلس لمكانته وديانته ، فليس لقاض أن يتخذ مثله فى بلد يرى ذلك قادحا بالمروءة مسقطاً للهيبة . وللثياب أثرها فى نفس الرجل وخلقه ، وفى رأى الناس فيه ، ونظرهم إليه ، لا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر .

خطيبُ الزّهراء

أحدثكم اليوم عن قاض كبير ، كان قاضى الجماعة فى الأندلس ، وهو مثل منصب قاضى القضاة فى بغداد ، وكان خطيبها الأول ، وكان عالمها الأكبر ، وكان يهزل حتى ليأتى بالعجائب من النكات ، والغرائب من المضحكات ، ولكنه إذا جدّ الجد ، وجاء الواجب وقف مواقف لا تثبت فى مثلها الجبال الرواسى .

أما نكته فلقد جهدت أن أعرض لبعضها ، وحاولت أن أعبر عنها بالكناية والإيماء والإشارة ، فوجدتها أفظع من أن يعرض لها فى حديث يسمعه من أريد ومن لا أريد ، فمن شاء الوصول إليها فإن بعضها فى (مطمح الأنفس) للفتح بن خاقان الوزير .

وأما مواقفه ، فهاكم صوراً سريعة لطائفة منها ، لا أستقصى فى الرواية ولا أستوفى التصوير ؛ لأن ذلك كثير ، والوقت قصير .

نحن الآن فى الأندلس جنة الأرض ، فى قرطبة عاصمة الدنيا ، فى العصر الذى لم تعرف الأندلس ، فى جاهليتها الأولى ، ثم فى إسلامها أمس ، ثم فى نصرانيتها اليوم ، عصراً أزهى منه ولا أبهى ، ولا أكرم ولا أعظم ، عصر الملك الكبير ، أعظم ملوك الإسلام فى عصره ، أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، بانى الزهراء .

لقد جُمعت الدنيا بعظمتها وبهائها فى الأندلس ، وجمعت الأندلس فى قرطبة ، وجمعت قرطبة ذلك اليوم فى القصر ، الذى ألبس من روعة البناء ،

وجلال الفرش ، وعظمة السلطان ما لا يصفه قلم ، وأعد لاستقبال وفد قيصر ، الذى قدم من القسطنطينية يريق على عتبة الناصر ولاءه ويلتمس تأييده .

وتطلعت نفوس الخطباء إلى الكلام فى هذا المقام ، وتمنى كل عالم وخطيب ، أن يشير إليه الخليفة بالرد على خطبة رئيس الوفد ، فلم ينل ذلك واحد منهم ، وناله الإمام أبو على القالى البغدادى ضيف الأندلس ، ومؤلف الأمالى .

وقام أبو على ليتكلم فارتُجّ عليه ، وانقطع فما قدر على كلمة ، وكاد يضطرب الأمر ، وإذا بشاب يقوم من بين العلماء ، فيقف على المنبر ، دون القالى بدرجة ، ويرتجل خطبة ، لم يسمع الناس مثلها ، هز فيها القلوب ولعب بالعواطف ، وملك المشاعر ، وجاء بشىء عجب ، نبه الخليفة إلى مكانه ، فسأل ابنه الحكم عنه ، فقال : هذا منذر بن سعيد البلوطى ، قال : لأرفعن منه فإنه لذلك أهل . فولاّه القضاء ، وخطابة المسجد الجامع ، ثم لما بنى مدينة الزهراء ، أعجوبة الفن المعمارى التى لم يبن مثلها ملك ولا أمير ، والتى لو بقيت لكانت الحمراء إلى جنبها كوخاً من الأكواخ ، ولما أكمل مسجدها ولاه خطابته .

وكان الخليفة قد استغرق ، فى الإشراف على بنائها ، حتى قالوا : إنه أضاع صلاة الجمعة مرة ، وبنى فيها قاعة جعل قرامدها من الذهب والفضة ، وغرم فيها ما لا يوصف ، وحشد الناس لافتتاحها الرسمى ، وجعل ابتداء حفلات الافتتاح بصلاة الجمعة ، وكان الخطيب منذر بن سعيد فصعد المنبر فبدأ الخطبة بداية عجيبة ، بقوله تعالى : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)**

واتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء 128 ـ 135] .

ووصل ذلك بكلام جزل ، وقول فصل ، ذم فيه السرف والترف ، وإضاعة أموال الأمة فى زخرفة القصور ، ووصله بقوله ودموعه تنحدر من لحيته :

والله يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان ـ أخزاه الله ـ يتمكن منك هذا التمكن ، حتى أنزلك منازل الكافرين ، فجعلت قوامد بيتك من الذهب والفضة ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 33 ـ 35] .

ووصله بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَ ـ رَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : 108 : 110] .

وما زال فى مثل هذا ، حتى نسى الناس الخليفة ونسوا الاحتفال ، وصغت القلوب إلى الله ، وصفت النفوس لله ، وارتج المسجد بالبكاء .

فلما قضيت الصلاة انصرف الخليفة مغضبا ، وقال لابنه : أرأيت جرأته علينا ، والله . . .

ماذا ترونه يا سادة فاعلاً معه ، إنه لم يفعل إلا أن قال :

. . . والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً .

قال له ابنه الحكم ، وما يمنعك من عزله ؟ فرجع الخليفة إلى نفسه وقال : ويحك أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه ـ لا أمّ لك ـ يعزل فى إرضاء نفس ناكبة عن سبيل الرشد ؟ إنى لأستحى من الله أن أجعل بينى وبينه إماماً غيره ، ولكنّه قسم سبق (1) .

وأمر بنقض الذهب والفضة من القصر .

***

وهاكم موقفاً آخر من مواقفه مع الناصر .

أراد الناصر أن يبنى قصراً لإحدى نسائه ، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضى ، فطلب شراءه ، فقالوا : إنه لا يباع إلا بإذن القاضى ، فسأله بيعه فقال : لا ، إلا بإحدى ثلاث : حاجة الأيتام ، أو وهن البناء ، أو غبطة الثمن .

فأرسل الخليفة خبراء قدروهما بثمن لم يعجب القاضى ، فأباه ، وأظهر الخليفة العدول عنهما والزهد فيهما ، وخاف القاضى أن يأخذهما جبراً ، فأمر بهدم الدار والحمام ، وباع الأنقاض ، بأكثر مما قدر الخبراء (2) . وعز ذلك على الخليفة وقال له : وما دعاك إلى ذلك ؟

قال : أخذت بقوله تعالى : ﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾ [الكهف : 79] .

لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار والحمام ، وبقيت للأيتام

(1) السنة أن يكفّر عن يمينه ويفعل ما هو خير ، والله يقول : ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا** ﴾ [البقرة : 224] أى لا تجعلوا القسم عرضة أى معترضاً طريقكم إلى ما هو أبر وأرضى لله ، والحديث الصحيح صريح فى هذا .

(2) ويظهر أن الخبراء الرسميين هكذا دائماً .

الأرض، فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن .

قال الخليفة : أنا أولى أن أنقاد إلى الحق . فجزاك الله عنا وعن أمتك خيراً.

***

يا أيها السادة : إذا أردتم أن تعرفوا من أين جاءته هذه الهيبة في الصدور ، وهذه الجلالة في النفوس ، وهذه المنزلة عند الخليفة والناس ، فاعلموا أنها ما جاءت إلا من إخلاصه لله ، وخوفه منه ، وعبادته لله ، واتصاله به . إن من خاف الله خافه كل شيء ، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه ، ومن أطاب مطعمه ومشربه استجاب الله دعاءه .

قحط الناس في أواخر مدة الناصر ، فأمر القاضي منذر بن سعيد بالخروج إلى الاستقساء فتأهب لذلك واستعد ، وصام بين يديه (أي قبله) ثلاثة أيام ، واستغفر الله من ذنبه ، وأحصى حقوق الناس عليه فردها أو سألهم السماح بها، وخرج وخرج معه الناس جميعاً ، رجالاً ونساءً وولداناً .

وقال لصديق له من خواص الخليفة وهو خارج : اذهب فانظر ما يصنع أمير المؤمنين ؟ .

فعاد يقول : ما رأيناه قط أخشع منه في يومنا هذا ، إنه لمنتبذ (منفرد) حائر لابس أخشن الثياب ، مفترش التراب ، قد رمى منه على رأسه وعلى لحيته ، يبكي ويستغفر ويقول : يا رب هذه ناصيتي بين يديك ، فإن أذنبت أتراك تعذب الرعية بذنبي ، وأنت أحكم الحاكمين ، وأنت قادر عليّ لن يفوتك شيء مني .

فتهلل وجه القاضي ، وقال لغلامه :

اذهب فاحمل المِطَرَ (المشمع) فقد أذن الله بالسقيا ، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبارَ السماء .

وقام يدعو ، والناس يضجون بالدعاء والتوبة والاستغفار ، فما انصرف حتى امتلأت السماء بالغيوم وبلل الناس المطر .

هكذا كان قضاة المسلمين ، لم يكونوا مثلي .

اللهمّ بيدك قلوب العباد ، وأنت على كل شيء قدير ، اللهم اسلك بنا سبيلهم ، وألهمنا الاستنان بهم ، واجعلنا برحمتك من قضاة الجنة لا من قضاة النار .

وارحم منذر بن سعيد ، وكل من اتَّخذ الحق شعاراً ، وأقام للدين مناراً ، إنك أنت أرحم الراحمين .

* * *

الملكُ الصَّالِحُ

وهذه سيرة عظيم آخر لا تعرفونه ، وما أكثر من لا تعرفون من عظماء الإسلام ، ملك آخر كان فى سيرته وأعماله مثلاً مضروباً لما ينبغى أن يكون عليه الملك المسلم ، حلقة من هذه السلسلة الذهبية التى ضمت حلقاتها سير أبى بكر وعمر ، وعثمان وعلى ، وابن عبد العزيز ، ونور الدين وصلاح الدين ، وأورنك زيب ، هو الملك الحليم مظفر بن محمود ، من ملوك أحمد آباد فى الهند .

وكانت أحمد آباد حاضرة الهند ، ومدينة المدائن ، فاقت البلدان ببساتينها وحدائقها ، وحسن نظامها ، وعظيم عمرانها ، وفاقتها بأمنها وسلامها ، وإقامة العدل فيها ، وفاقتها بكثرة علمائها ومحدثيها ، والصالحين من أهلها .

ولد يوم الخميس 20 شوال سنة 875 هـ فى الكجرات ، ونشأ نشأة عالم عابد ، فى أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبدون ، وقرأ ما كان معروفاً من كتب العلم ، وبرع فى الحديث ، وكان قد تلقاه عن المحدث جمال الدين المبارك الحميرى الحضرمى ، ومجد الدين الإيجى ، وشارك فى العلوم والفنون كلها حتى الموسيقى ، وكان خطاطاً جيد الخط ، يتقن النسخ والثلث وخط الرقاع المعروف اليوم بالرقعى . وكان يكتب المصحف بيده ويبعث به إلى الحرمين وحفظ القرآن فى شبابه .

ومارس السيف والرمح والرمى ، والفروسية والمصارعة ، وأتقن الفنون الحربية ، وكانت نشأته صورة عن نشأة أورنك زيب التى حدَّثتكم عنها ، أو أن تلك على الصحيح صورة عن هذى ، لأنَّ أورنك زيب جاء بعده بأكثر من قرن

ونصف القرن .

وكذلك ترون أن فى الهند المسلمة ، التى تجهلون تاريخها - كما كنت أجهله قبل أن أرحل إليها - ملوكاً فى ثياب فقهاء وعلماء ومحدثين ، رجالاً جمعوا الدنيا والدين ، والعلم و العمل ، ونحن لا نكاد نجد فى تاريخ بلادنا ، بعد عمر بن عبد العزيز - الذى كان العلماء أمامه تلامذة - إلا قليلاً ممن جمع العلم والسلطان الذى سخَّره للعمل بهذا العلم .

وكان أسلافه كلهم على هذا الطريق ولكنه فاق أسلافه .

ولى الملك 3 رمضان سنة 917 وهو فى الثانية بعد الأربعين ، وحكم إلى أن توفى فى 2 جمادى الأولى 932 ، فكانت مدَّة سلطانه خمس عشرة سنة ، مرت على الناس مما رأوا فيها من عدله وسخائه ، وحزمه وتقواه ، وكأنَّها خمسة عشر يوماً .

وكان يتبع السنَّة ، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة ، فى كل صغيرة وكبيرة ، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعية ، ويدنى العلماء ويصحبهم ويكرمهم ويرجع إليهم ، ولم يكن يحسن الظن بمشايخ الطرق ، ثم مال إليهم بعض الميل فى أواخر أيامه ، وكان يخاف الله ، ويخشى أن يكون قد جانب الشرع ، وكان كثير الإنفاق فى الخير ، فسأل العلامة خرم خان وكانت له ثقة به ، وقال له : لقد نظرت فيما أنفقه فإذا أنا بين إفراط فى صرف هذا المال ، وهو مال المسلمين ، وتفريط فى منعه ، فإذا سألنى ربى عن ذلك فبماذا أجيب؟

خبرونى يا سادة ، كم من العلماء والزهاد والصالحين ، من يفكر فى مثل هذا الذى كان يفكر فيه ويسأل عنه هذا الملك ؟

وكان يحافظ على الوضوء أبداً ، وعلى صلاة الجماعة ولم يقرب الخمر

قط ، ولم يقع لسانه قط فى عرض أحد ، وكان يعفو ويسامح ، ويعطى ويجتنب الإسراف والتبذير . وكان مطلعاً على أخبار الناس ، يقوم بما دق وجل من شؤون الملك بنفسه . وربما غير زيه ، وخرج من القصر ليلاً ونهاراً ، يخالط الناس وهم لا يعرفونه ، ويسمع ويزى ويطلع على ما يسيئون فيه ، وما يشكون منه ، وكان يحيط الممالك المجاورة له ، لا سيما الهندية المجوسية ، بشباك من جواسيسه وعيونه ، فلا تخفى عنه خافية من أمورهم

وكان فى الحرب قائداً عبقرياً ، وإن لم يكن يميل إلى خوض الحروب ، ولما استنجد به السلطان محمود الخلجى ، وجاءه مستجيراً به ، وقد غلبه المجوس على دياره ، واحتلوا عاصمته وفيها أهله وأمواله ، وخرج ينجده بجيش ضخم فخدعه العدو ، وعرض عليه تسليم القلعة وماطله حتى جاءه القائد الهندى الأشهر (رانكا سانكا) منجداً ، وكاد السلطان يسقط بين حجرى الرحى ، ويحيط به العدو من الجانبين ، فإذا هو بحيلة حربية بارعة ، وشجاعة نادرة ، يفتح القلعة ، ويدحر الجيشين المعاديين ، ويكون له النصر الأبلج .

ولما وصل إلى بابها ، لم يدخلها بل التفت إلى السلطان الخلجى وهنأه بالفتح ، وقال : باسم الله ، ادخلوها بسلام آمنين . وعطف عنان فرسه راجعاً ، ولكن الخلجى لم يدعه حتى أدخله قبله ، وقدم إليه أولاده الذين استُنقذوا به من الأسر ، وأراه آثار آبائه ، ومعالم بلاده ، ثم دعا وجوه مملكته ، وقواد جيشه ، وقال للسلطان المظفر على ملأ منهم جميعاً : الحمد لله الذى أرانى بهمتك ما كنت أتمناه ، ولم يبق لى الآن أرب بالملك وأنت أحق به منى .

قال المظفر : إن أول خطوة خطوتها إلى هذه الجهة كانت لله ، لا لقصد الملك ، والله يبارك لك فى ملكك على أن تقيم فيه حكم الله ، وتحكم

بشرعه، وأن نكون يداً واحدة فى كل أمر . قال الخلجى : لقد خلا ملكى من الرجال ، وليس لدى جيش يحميه ولا آمن عودة العدو . قال المظفر : أما هذه فنعم ، وترك عنده قائده آصف خان باثنى عشر ألفاً ، وقال لهم : إن جرايتكم على حالها ، ورواتبكم ونفقاتكم كلها علىّ كما كانت من قبل ، وما أعطاكم الخلجى من شىء فهو توسعة عليكم . وأمر للخلجى بخزانة مال .

. ولما هم بالرحيل سأله أركان دولته أن يستأثر بالقلعة ، ويضمها إلى ملكه ، فالتفت إلى الخلجى ، وقال له : احفظ باب القلعة برجالك ولا تدع أحداً يدخلها بعد نزولى ، ولو كان من أصحابى وأولادى .

وأخذه الخلجى ، قبل الوداع إلى دار مغلقة ففتحها له ، فبرز منها نساء ما رأت العين مثلهن ، فنثرن الزهر والجوهر على قدميه ، فغضّ بصره وأشار إليهن أن يحتجبن ، لأن النظر إلى الأجنبية حرام . قال الخلجى : كلهن ملكى وأنا مالُكَ والعبد وما ملك لمولاه . فدعا له ، وخرج ولم ينظر إلى واحدة منهن .

والعجيب حقاً فى القصة المملوءة بالعجائب ، أن الخلجى هذا وآباؤه كانوا أعداء دولة الكجرات وألد خصومها ، وأعجب منه أنّ والد الخلجى هذا ، المسمى غياث الدين الخلجى ، كان قد خرج إلى الكجرات لنصرة كفار الهند على ملوكها المسلمين ! .

***

وكان من دأب الملوك المسلمين ـ يا سادة ـ إذا عنوا ببلادهم ، وأصلحوا أمرها ، أن يعنوا بالبلد الذى هو بلد كل مسلم ، بالحرمين ، فيقفوا عليهما الأوقاف ، ويرسلوا إليهما المدد ، وكانت إمدادات المظفر لأهل الحرمين متصلة ، وقد صنع مركباً شحنه بأثمن القماش وأرسله هدية هو وما فيه إلى

جدة ، وبنى بمكة رباطاً فيه مدرسة وسبيل ومساكن ، ووقف عليه وقفاً كبيراً ، وكانت له فى كل موسم صلات ضخمة يبعث بها إليهم

***

وكان خبر موته خبراً عجيباً ، يدل على حسن الخاتمة ، وعلى أنه ـ إن شاء الله ـ من أهل الجنة ، وأنا أروى الخبر ، كما جاء فى كتاب (نزهة الخواطر) للعلامة الطبيب الحاذق مؤرخ الهند المسلمة عبد الحى الحسنى ، والد الصديق الجليل الأستاذ أبى الحسن الندوى نقلاً عن الآصفى . قال :

قال الآصفى : وفى سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء ، وتصدق وتفقد ذوى الحاجة على طبقاتهم ، وسألهم الدعاء ، ثمَّ تقدم للصلاة ، وكان آخر ما دعا به أن قال : اللهم إنى عبدك ولا أملك لنفسى شيئاً ، فإن تك ذنوبى حبست القطر فها ناصيتى بيدك فأغثنا يا أرحم الراحمين . قال هذا ووضع جبهته على الأرض ، واستمر ساجداً ، يكرر قوله : يا أرحم الراحمين ، فما رفع رأسه إلا وقد هاجت ريح ، ونشأت سحابة ببرق ورعد ومطر ، ثمَّ سجد لله شكراً ، ورجع من صلاته بدعاء الخلق له ، وهو يتصدق وينفح بيده بالمال يميناً وشمالاً .

وبعد الاستسقاء بقليل اعتراه الكسل ، ثم ضعف المعدة . . . . وفى خلال ذلك عقد مجلساً ، حافلاً بسادة الأمة ، ومشايخ الدين ، واجتمع بهم ، وتذاكروا فيما يصلح بلاغاً للآخرة ، إلى أن تسلسل الحديث فى رحمة الله سبحانه ، وما اقتضاه منُّه وإحسانه ، فأخذ يشرح ما من الله عليه به من حسنة ونعمة ، ويعترف بعجز شكرها ، إلى أن قال : وما من حديث رويته عن أستاذى المسند العالى مجد الدين ، بروايته له عن مشايخه ، إلا وأحفظه وأسنده، وأعرف لراويه نسبته وثقته ، وأوائل حاله ، إلى وفاته ، وما من آية

إلا ومنّ الله عليّ بحفظها ، وفهم تأويلها ، وأسباب نزولها ، وعلم قراءتها ، وأما الفقه فأستحضر منه ما أرجو به مفهوم من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، ولى مدة أشهر أصرف وقتى باستعمال ما عليه صالحوا الصوفية ، وأشتغل بما سنه المشايخ الواقفون على حدود الشرع منهم ، لتزكية الأنفاس عملاً بما قيل : من تشبه بقوم فهو منهم ، وكنت شرعت بقراءة معالم التنزيل ، وقد قاربت إتمامه إلا أنى أرجو أن أختمه فى الجنة إن شاء الله تعالى ، فلا تنسونى من صالح دعائكم ، فإنى أجد أعضائى فقدت قواها ، فدعا له الحاضرون بالبركة فى العمر .

قال : وفى سنة 932 عند خروجه من جانبانير ظهرت منه مخايل المستودع بفراق الأبد لها ولأهلها ، وأكثر من أعمال البر فيها ، وفى طريقه إلى أحمد آباد ، ولما نزل بها كان يكثر من الخير بها .

وفى أواخر أيامه وكان يوم الجمعة ، قام إلى القصر واضطجع إلى أن زالت الشمس ، فاستدعى بالماء وتوضأ وصلى ركعتى الوضوء ، وقام من مصلاه إلى بيت الحُرم ، واجتمعت النسوة عليه ، آيسات باكيات يندبن أنفسهن حزناً على فراق لا اجتماع بعده ، فأمرهن بالصبر المؤذن بالأجر ، وفرق عليهن مالاً ، ثم ودعهن واستودعهن الله سبحانه ، وخرج وجلس ساعة ، ثم استدنى منه راجه محمد حسين المخاطب (أى المدعو) بأشجع الملك ، وقال له : قد رفع الله قدرك بالعلم ، أريد أن تحضر وفاتى وتقرأ عليّ سورة ياسين وتغسلنى بيدك ، وتسامحنى فيه ، فأثنى عليه بما هو أهله وفدَّاه ودعا له ، وسمع أذاناً فقال : أهو فى الوقت ؟ فأجاب أسد الملك : هذا أذان الاستدعاء لاستعداد صلاة الجمعة ويكون فى الهند عادة قبل الوقت ، فقال : أما صلاة الظهر فأصليها عندكم ، وأما صلاة العصر فعند ربى فى الجنة إن شاء الله تعالى ، ثمَّ أذن

للحاضرين فى صلاة الجمعة ، وطلب مصلاَّة، وصلَّى ودعا الله سبحانه ، بوجه مقبل عليه ، وقلب منيب إليه ، دعاء من هو مفارق للقصر ، مشر ف على القبر ، ثمَّ كان آخر دعائه : رَبِّ قد آتيتَنى من المُلك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدُّنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين . و قام من مصلاه وهو يقول: استودعكم الله ، واضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس ، ووجهه إلى القبلة وقال : لا إله إلا الله محمَّد رسول الله . وفاضت روحه والخطيب على المنبر يدعو له .

رحمه الله وأوسع له فى دار النعيم المقيم .

***

العَالِـمُ العَـامِلُ

نحن اليوم مع علم من الأعلام الشوامخ ، وإمام من الأئمة الكبار ، ونادرة من نوادر الزمان ، مع رجل ملأ فى زمانه القلوب والعيون والأسماع ، ولا يزال وقد مرّ عليه ثلاثة عشر قرنا يملأ الأسماع والعيون والقلوب . مع رجل كان فى الورع والتقوى آية ظاهرة ، وكان فى العلم بحرًا زاخراً ، وكان فى الفصاحة والبيان علماً مفرداً ، وكان أعظم وعاظ الإسلام فى تاريخه كله ، هو سيد التابعين ، الحسن البصرى .

وكان الوعاظ يُدْعون القصاص ، وكان أكثرهم ممن يتخذ الدين حرفة والتقوى صناعة ، يأكلون بها الدنيا ، ويجمعون بها المال ، يمخرقون على العامة باللفظ الجميل ، والمظهر الخداع ، والخشوع الكاذب ، يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم ، لذلك منع أمير المؤمنين على بن أبى طالب القصاص من دخول المسجد فى البصرة ولم يستثن إلا الحسن البصرى ؛ لأنه كان يقول الحق ، ويروى الحديث الصحيح ، لا يسرد الإسرائيليات و لا ينقل الموضوعات ؛ ولأنه كان يتكلم من قلبه ، يزهد الناس فى الدنيا وهو أول الزاهدين فيها ، لا يزهدهم فيها ، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها ، ولا يأخذ منهم أجراً ، ولا يقبل منهم هدية ، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك، والقرب من السلاطين .

وكان الحسن نفسه حرباً على هؤلاء القصاص من علماء السوء ، الذين

يدعـون للآخـرة ويطلبـون الدنيـا ، ولقـد قـال فـيـهـم كلمـة الحق التى أثرت وحفظت :

دخل المسجد مرة ومعه فرقد ، فقعد إلى جنب حلقة ، فأنصت يستمع حديث أهلها وهم يتكلمون فى الدين والزهد ، ثم أقبل على فرقد فقال : يا فرقد ، والله ما هؤلاء إلا قوم ملُّوا العبادة ، وصعب عليهم العمل ، وقل ورعهم ، فوجدوا الكلام أهون عليهم فتكلموا !

* * *

هو الحسن بن يسار البصرى ، وكان أبوه فى الأصل عبداً مملوكاً من سبى ميسان ، وكانت أمه كذلك ، ولكن الله أراد لهما ولذريتهما الخير ، وإذا أراد الله الخير لأحد ، هيأ له أسبابه ، فصار أبوه مولى زيد بن ثابت أحد أئمة الصحابة وعلماء الصدر الأول ، وصارت أمه خيرة مولاة لأم المؤمنين وزوجة الرسول ـ ﷺ ـ أم سلمة ، وكان من تمام حظه أن أمه كانت تغيب فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها ، فربما در عليه اللبن من حنانها ، فهل فى التكرمة أكثر من أن يلتقم ثدى أم المؤمنين زوجة الرسول ـ ﷺ ـ ؟ !

وعاش بين الصحابة ، فأقبل على العلم ، ونشأ على التقوى ، وكان من الفصاحة والبيان فى منزلة قل من بلغها من الأدباء . وقلّما قرأت كلاماً أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه ، ولقد شبهوه من قديم بكلام الأنبياء ، وشهد له شيخ العربية وإمام أئمتها أبو عمرو بن العلاء ، بأنه كان هو والحجاج أفصح الناس ، قيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن .

والعجب إن مناهج الأدب فى المدارس لم تعن بدراسة هذا النمط من الكلام العالى المطبوع ، وإنما اشتغلت بالمتكلف المصنوع الذى خلفه أمثال ابن العميد والصاحب (ابن عباد) من صفافى الكلام الخالى من الروح ، الفارغ من المعنى ، وتركت مثل ابن السماك الذى لاأكاد أعرف كلاماً أحلى وأبلغ من كلامه ، والعتابى وابن الجوزى فى بعض كلامه فى صيد الخاطر[1] ، وتوقيعات بلغاء الخلفاء ، وكتابات أدباء العلماء . .

وهاكم طائفة من كلام الحسن البصرى ، لتروا لوناً من ألوان البلاغة المطبوعة فى كلام ملىء بالدين والعلم ، والنظر السديد ، والرأى الصائب لا كمثل رسائل الصاحب فى سخفها ورقاعتها وتكلفتها ومجانبتها سبيل البلاغة الواضحة . . .

هذه كلمة له فيها من المعانى ما يشرح فى كتاب ويصلح منهجاً للحياة الخلقية الكاملة ، ونتيجة لدراسة نفسية شاملة فى أقصر لفظ ، وأوضحه وأجمعه للمعانى ، حتى لكأنها من جوامع الكلم .

سئل عن الرجل الكامل الرجولة ، والبطل الظاهر البطولة ، فقال : هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة ، وعند الشهوة ، وعند الغضب .

وانظروا إلى تعريفه الإنسان فى قصر عمره ، وأنه يضيعه بغفلته وجهله قال : ابن آدم ، إنما أنت أيام ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك . وانظروا إلى هاتين الصورتين البيانيتين ، يرسمهما هذا العبقرى البين ، بألفاظ معدوده ، كما يرسم المصور اللوحة المعبرة ، بالخطوط القليلة . صورة فى وصف أهل

---

(1) حققه أخى ناجى وكتبت له مقدمة طويلة وعلقت عليه .

الخير والكمال من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ وصورة لعلماء السوء الذين يتخذون مظهر الدين وزى التقى سلمًا لنيل الأموال والحظوة عند الأمراء .

أما الأولى فقد قال له بعض القوم : أخبرنا عن صفة أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فبكى ، وقال : ظهرت منهم علامات الخير فى السيماء والسمت ، والهدى والصدق ، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد ، وممشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل ، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق ، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى ، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا ، وإعطائهم الحق من أنفسهم ، ظمئت هواجرهم ، ونحلت أجسامهم ، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق . لم يفرطوا فى غضب ، ولم يحيفوا فى جور ، ولم يجاوزوا حكم الله فى القرآن ؛ شغلوا الألسن بالذكر ، بذلوا لله دماءهم حين استنصرهم ، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم ، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين من إنفاذ حكم الخالق . حـ ت أخلاقهم ، وهانت مؤنتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم .

وأما الثانية ، فإنه مر بباب الأمير ابن هبيرة فإذا هو بالقراء على الباب ، فقال : ما يجلسكم ها هنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار ، تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم ، قد شمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ، فضحتم القراء فضحكم الله ؛ أما والله لو زهدتم فيما عندهم ، لرغبوا فيما عندكم ، لكنكم رغبتم فيما عندهم ، فزهدوا فيما عندكم .

ووصف الصالحين فقال : إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة فى

الجنة خالدين ، وكمن رأى أهل النار فى النار خالدين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة ، أما الليل فصافَّة أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربنا ربنا ، وأما النهار فحلماء علماء ، بررة أتقياء . كأنهم القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويظنهم خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم .

* * *

وكان الحسن صداعاً للحق ، لا يسكت عن إنكار منكر ، ولا تمنعه منه هيبة أمير ، ولا بطش ملك ، وكان حيناً يعرض تعريضاً ، وحيناً يصرح تصريحاً فمن تعريضة بالأمراء وترفهم وسرفهم ، وصفة رسول الله ـ ﷺ ـ قوله :

لما بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ يعرفون وجهه ، ويعرفون نسبه ، قال : هذا نبيى هذا خيارى ، خذوا من سنته وسبيله ، أما والله ما كان يغدى عليه بالجفان (الموائد) ولا يراح ، ولا يغلق دونه الأبواب ، ولا تقوم دونه الحجاب ، وكان يجلس على الأرض ، ويوضع طعامه على الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار . ثم قال : ما أكثر الراغبين عن سنة نبى الله ، وما أكثر التاركين لها .

ثم راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال : ثم إن علوجاً فسقه ، قد أضلهم ربى ومقتهم ، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا ، وشادوا وزخرفوا . ويقولون : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه .

فى كلام طويل جليل تلقونه فى حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى[1] يقول ذلك فى مجلس وعظه الذى كان يحضره عشرة آلاف من الناس .

***

ومن صراحته أن عمر بن هبيرة لما ولى العراق، أرسل إلى الحسن والشعبى وابن سيرين ، والثلاثة من أعلام التابعين ، وأئمة المسلمين . فقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلىّ فى أشياء ، إن أطعته فيها أغضب الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه ، فهل ترون لى فى متابعتى إياه فرجاً ؟ فتكلم الشعبى وابن سيرين كلاماً فيه تقية ومداراة والحسن ساكت ؛ قال له : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟

قال : أقول يا عمر بن هبيرة : يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ ، فيخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله ، يا عمر بن هبيرة : لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك ، نظر مقت ، فيغلق باب المغفرة دونك ، يا عمر بن هبيرة : لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهى مقبلة، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهى مدبرة ، يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله فى طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبد الملك ، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك فى معاصيه وكلك الله إليه .

فبكى عمر حتى أخضل لحيته ، وزاد فى إكرامه على الشعبى وابن سيرين .

(1) والحديث الذى انفرد بروايته يكون ضعيفاً .

وكان له مع الحجاج مواقف عظام لم يسكت عنه يوماً ، ولم يكن فى العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عالياً فى الحجاج إلا لسان الحسن ، وسلمه الله منه بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده ، وكان يطلبه أبداً، واختفى منه مرة فى دار على بن جدعان سنتين ، ومرة فى بيت أبى محمد البزاز . وأدركه الشرط مرة فساقوه إلى الحجاج ، وأيقن الناس أنه قاتله ، فلما رآه قال له : أنت الحسن ؟ قال : نعم . قال : أنت القائل ما بلغنى عنك . قال : وما بلغك عنى ؟ قال : قولك : اتخذوا عباد الله خولاً وكتاب الله دخلاً، ومال الله دولاً ، يأخذون من غضب الله ، وينفقون فى سخط الله ، والحساب عند البيدر ؟ قال : نعم . قال : وتكنى بذلك عنَّا . قال : نعم . قال: ولم قلته ويلك ؟ قال : لما أخذ الله ميثاق الفقهاء فى الأزمنة كلها ليبيننه للناس ولايكتمونه .

ثم قال له : كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب ؟ قال : كثير . قال : أين هم ؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكراً . ثم قال : يا جارية : الغالية (أى الطيب) فخرجت بها . فقال : ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب . ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت .

وانصرف وعاد إلى ما كان عليه ، حتى بلغه موته وهو مختف منه فى المسجد ، فسجد شكراً لله .

وبعد فإن سيرة الحسن البصرى أجل من أن يتسع لها حديث أو أحاديث ، وكيف وهو علم الأعلام ، وواعظ الإسلام ، الذى بلغ من خلود اسمه أنه إذا قيل الحسن فقط انصرف ذلك إليه وحده .

وأختم هذا الحديث بوصف خالد بن صفوان[1] إياه لما سأله عنه مسلمة بن عبد الملك [2]. قال : أخبرك عنه بعلم ، أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه فى مجلسه ، وأعلم الناس به ، وهو أشبه الناس سريرة بعلانية ، وقولاً بفعل ، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، رأيته مستغنياً عن الناس ، ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه .

رحمة الله عليه ، ورضى الله عنه ، وأسأل الله أن يمن على أمة محمد ـ ﷺ ـ فيجعل فيها علماء من أمثال الحسن .

* * *

(1) كان خالد من الفصحاء المعدودين وكذلك كان الحسن وكان الحجاج .
(1) هو أنجب أولاد عبد الملك وأعقلهم .

الخليفة الكامل

يا أيها السادة : أريد منكم أن تأخذوا الأقلام بأيديكم ، وتجمعوا أذهانكم وتكتبوا كل صفة تتمنون أن يتصف بها الحاكم ، فى نفسه وفى أهله ، وفى أمانته وسياسته ، وفى لينه وشدته . . . حتى إذا اكتملت الصورة الخيالية التى صورتها أمانيكم وآمالكم ، جئتكم بحقيقة واقعة لملك من ملوكنا تعدلها وقد تزيد عليها .

حاكم كانت حياته المثال الكامل لما يمكن أن يبلغه خيال أديب قصاص ، أو أمل عالم مصلح .

خليفة كان نموذجاً من النماذج التى لا ترى إلا مرة واحدة فى القرون الطوال ، وليس من أمثاله فى تاريخ الأمم كلها إلا آحاد .

كان عالماً : العلماء الكبار تلامذة أمامه ، وكان كاتباً : الكتاب البلغاء مبتدئون لديه ، وكان ديِّنا دين فعل لا دين قول ، دين إخلاص وخلوة ، لا دين رياء وإعلان ، وكان يتواضع لله حتى ليكبر عنده الصغير المسكين ، ويشتد لله حتى ليذل عنده الطاغية الجبار . وكان يعيش عيش الفقر وبيده خزائن الأرض ، ويحيا حياة العفاف والحرمان ، وتحت سلطانه كل جميلة فى الدنيا .

ملك لو لا أنه كان بشراً لقلت : إنه مَلَك .

***

يا سادة : لنرجع إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً .

نحن الآن فى مرج دابق فى أوائل سنة 97 للهجرة .

ودابق قرية فى جهات حلب ، من أعمال عَزَاز[1] ، كان فيها المعسكر الأمامى للجبهة الرومانية ، وفى دابق الخليفة الشاب سليمان بن الملك ، ومعه الجيش ورجال الدولة ، وهو مرابط فيها منذ شتاءين . يمد الجيش المحاصر للقسطنطينية ، الذى يقوده أخوه مسلمة ، والمعركة لا أمل فى ربحها ، وقد فشا الضر فى جيش مسلمة ، وضعفت روح الجنود المعنوية ، ووجب فك الحصار ، وسليمان يصر عليه خلافاً لآراء الخبراء العسكريين وعقلاء القوم .

وفشت الحمى فى الجيش ، وتتابعت الوفيات ، حتى لم يجد الخليفة من الخدم واحداً صحيحاً يوضئه . وعلا المنبر يخطب ، وصوته يملأ المسجد ، فأصابته الحمى فما زال يضعف صوته ، حتى حمل إلى بيته محموماً . وعهد إلى ولده الصغير ، فحوله عن ذلك مستشاره الخاص رجاء بن حيوة وما زال به حتى رضى أن يعهد إلى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز . فقال سليمان : نعم الرجل هو لولا أن أبناء عبد الملك لا يرضون أن تصرف الخلافة عنهم . قال : فاجعلها بعده ليزيد بن عبد الملك .

وكتب العهد على ذاك . ودعا إليه الأمراء الأمويين ، وأشراف الناس ، وأخذ بيعتهم على ما فى الكتاب مختوماً .

وجاء عمر إلى رجاء ، قال : يا رجاء إنى خشيت أن يكون قد عهد إلى وأنا والله لا أطيقها ، فخبرنى الآن وهو حى ، لأصرفها عنى ، وأنا أشكر لك

(1) ويسمونها اليوم أعزاز .

صنيعك . قال : لا والله ، لا أخبرك بشيء . فأنصرف مغضباً . وجاءه هشام، فقال : يا رجاء أخشى أن يكون قد عهد إلى غيرى ، وأنا أشكر لك وأثيبك ، فخبرنى الآن وهو حى ، حتى أحولها إلى . قال : لا والله لا أخبرك شيئاً ، فانصرف مغضباً.

ومات سليمان . وجمع رجاء الناس وفتح الكتاب فإذا هو عمر .

فضج أبناء عبد الملك ، فلما سمى يزيد بعده سكتوا ، وصعق عمر حتى ما يستطيع القيام ، وقال : والله ما سألتها الله فى سر ولا علن ، فأخذوا بكتفيه حتى أقاموه إلى المنبر . وسكت الناس . فقال : يا أيها الناس . إنى ما استؤمرت فيها ولا خيرت ، وما لى بها من حاجة ، وقد خلعت بيعتى من أعناقكم ، فبايعوا من شئتم . فضجوا وصاحوا من كل طرف :

ـ لا نريد غيرك .

فقام عند ذلك فألقى خطبة العرش [1] ، وأعلن فيها (بيانه) وسياسة حكومته ، وأنه لا يملك التشريع ؛ لأن الشارع هو الله ، ولكن له السلطة التنفيذية وحدها ، وأنه إن خالف الشريعة وجبت مخالفته ، وأن الخليفة ليس سيد الأمة ومالكها ، ولكنه أجيرها وخادمها فقال :

أما بعد ، فإنه ليس بعد نبيكم نبى ، ولا بعد القرآن كتاب ، ألا ما أحل الله فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا لست بشارع ولكنى منفذ ، ألا وإنى لست بمبتدع ، ولكنى متبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله . ألا وإنى لست بخيركم ولكنى رجل منكم غير أن الله

(1) كما تدعى اليوم .

جعلنى أثقلكم حملاً .

***

وارتجت الأرض من دبدبة الموكب الرسمى . وأعدت السرادقات الملكية ، فأبى ذلك كله وقال: ما لى ولهذه المواكب ! نَحوها وقربوا إلى بغلتى ، فركبها وسار إلى فسطاطه ، وأمر بإبطال الموكب الرسمى ، وبيع أثاث الفساطيط الملكية ورياشها وإدخالها فى بيت المال .

لما كانت البيعة يا سادة ، حسب الناس أنه أمر كالذى عرفوا من الأمور .

خليفة يمضى ، وخليفة يأتى ، ويبقى كل ما كان على ما كان .

يتبدل الرفرف الأعلى من البناء ، فماذا ينفع المقيم فى الأقبية المظلمة ، والغرف الباردة أن تتبدل رفارف البناء ؟

ولكن لم يكد يصعد الخليفة الجديد المنبر ، ويلقى خطبة العرش ، ولم يكد يصدر أمره فى دواب الموكب وأثاث الخلافة حتى أدرك الناس أنه أمر ليس كالذى عرفوا من الأمور ، وليس خليفة كالذين رأوا من الخلفاء .

وليس تبديلاً فى ذرى البناء ، ولكنها بوادر تبديل شامل ، إصلاح أساسى ، يبدأ من أسس البناء ، لا يقتصر على الزخارف والألوان ، إصلاح يبدأ من جذور الدوحة ، لا من الفروع وحدها والأغصان .

ولم يدم هذا ا[illegible] إذ م[illegible] ما تبرق فى الجو بارقة وتختفى ، خافوا أن يكون هذا الخليفة الذى يزهد فى الملك ، ويعلن التنازل عنه ، ورد أمره للناس ، خافوا ألا يكون منه إلا رجل صالح متعبد ، ولكنه مغفل ضعيف يعجز من أول

يوم عن إدارة هذه الآلة الضخمة ، الممتدة أجزاؤها من فرنسا إلى الصين ، نعم من حدود الصين إلى أطراف فرنسا ، الآلة الهائلة التى يسمونها الدولة الأموية .

وأمسكوا بقلوبهم خشية أن يتبدد هذا الحلم الذى برقت لهم بوارقه من خطبة العرش .

ولكن الحلم يا أيها السامعون . . . إن الحلم تحقق . وصار الخيال فى تاريخنا حقيقة واقعة ! .

إن عمر بن عبد العزيز لم يذهب إلى زاوية ليقرأ الأوراد ، بل قعد من فوره يملى الكتب إلى الأطراف ويضع البرنامج للحكومة الجديدة ، وكان أول أمر أصدره ، الأمر بفك الحصار عن القسطنطينية ، ورجوع الجيش ، فرجع بعد ما قاسى الجند الإسلامى الويلات من هذا الحصار ، ثم أصدر تشكيلات سريعة (كما يقال باصطلاح اليوم) فى المناصب الكبرى ، فعزل الأمراء الظلمة الطغاة، وكان منهم والى إفريقية يزيد بن أبى مسلم العاتى الظالم ، المتهم بحبس الناس وتعذيبهم وضربهم بلا وجه شرعى ، وأسامة بن زيد التنوخى ، رئيس المالية فى مصر ، وكان يقطع الأيدى ويشق البطون ، ويرتكب الجرائم الكبار ، وحكم عليه بالحبس سنة فى كل مركز من مراكز الدولة ، أى بالسجن المؤبد ، وعزل عمال الحجاج جميعاً ، وولى ناساً صالحين أهل مقدرة وأمانة وحزم .

وكان حرس الخليفة ، مؤلفاً من ستمائة : ثلاثمائة حرسى ، وثلاثمائة شرطى ، فنهاهم أولا عن القيام له . . ثم قال : (حسبك بالأجل حارساً) ، وأمر بحل فرقة الحرس كلها ، وأعطى الفقراء العاجزين عن العمل منهم

رواتب تسريح دائمة ، وعوض الباقين مالاً ، وكان قد مر عليه ليلتان بلا منام ، فأغفى يستريح قليلاً فدخل عليه ابنه عبد الملك وقال له : تنام ولا ترد المظالم ؟ قال يا بنى : إنما هى ساعة فإذا قمت الظهر رددتها قال : ومن لك بأن تعيش إلى الظهر ؟ . .

فنهض لرد المظالم . . .

أتدرون ما هذه المظالم ؟ . . هى الأموال الهائلة . . . والثروات العظيمة ، التى تملكها أسرته ، أخوته وحاشيته ، لقد عزم على ردها إلى أصحابها إن عرف أصحابها ، أو إلى الخزانة العامة ، وأن ينفذ على الجميع قانون (من أين لك هذا) ؟ .

وبدأ فى ذلك بنفسه ! فقد كان له عقارات ، أيام أسلافه من الخلفاء ، فرأى أنه لم يكن لهم سلطة شرعية عليها ليعطوه إياها ، وأنها من أملاك الدولة . وهذا أيها السامعون هو المقياس الصحيح للدين ، أن تبدأ بنفسك فتعظها ، قبل أن تعظ الناس وإلا فما قيمة الوعظ ، إن كان الواعظ لا يعظ نفسه أولا ؟ .

إن من أسهل شىء على الإنسان ، أن يكبر عمامته ، ويعرض لحيته ، ويوسع جبته ، ويحفظ الآيات والأحاديث والرقائق ، ثم يقعد فى المساجد فيتكلم ولا قيمة لذلك فى حساب الملكين ، ولا وزن له عند الله إذا لم يكن معه صدق وإخلاص وعمل ، إن الكلام وحده لا ينفع شيئاً ، فإن اتخذه سلماً إلى الدنيا ، وطريقاً إلى [illegible] وجعله تجارة ، حتى يصير به من أغنياء الدنيا ، فهو الخسران الأكبر . .

إن أول ما ينبغى للمؤمن حين يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : 22] أن يكون مصدقاً بذلك ، موقناً به ، وألا يخاف إن أقام الحق ، أن يبقى هو وأولاده بلا طعام ، فإن لم يفعل كان كاذباً ، وما كان عمر بن عبد العزيز من الكاذبين .

وأحصى أملاكه فإذا هى كلها من عطايا الخلفاء ، ولم يجد إلا عيناً فى السويداء ، كان استنبطها من عطائه ، والعطاء يا سادة : رواتب عامة ، تعطى من بيت المال للناس جميعاً ، نوع من الضمان الاجتماعى لم تصل إلى بعضه اليوم أرقى دول الغرب ، وفكر فى أولا ده ، هل تكفيهم غلّة هذه العين ، وهى مائة وخمسون ديناراً فى السنة فقط !

ثم ذكر أن الرزاق هو الله ، وأن ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك . فنزل عنها كلها ومزق سجلاتها .

وتوجه إلى أمراء البيت الأموى ، فجمعهم وحاول أن يعظهم ، ويخوفهم الله ، وبين لهم أن ليس لهم من الحق فى أموال الخزانة العامة أكثر مما للأعرابى فى صحرائه ، والراعى فى جبله ، والزارع فى مزرعته ، وأن ما بأيديهم من أموال جمعوها من حرام ليس لهم ، وإنما هى لله ، وأرادهم على ردها فأبوا .

ودعاهم مرة أخرى إلى وليمة أعدها لهم ، فتركهم حتى يبلغ منهم الجوع ثم قدم لهم عدساً وتمراً وبصلاً وطعامًا من طعام الفقراء فأكلوا منه حتى إذا شبعوا ، جاءهم بالطعام الطيب ، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه .

قال : أرأيتم ؟ فلم التقحم فى النار من أجل أكلة وشربه ؟ !

فلم يستجيبوا ، فلما عجزت معهم أساليب اللين ، عمد إلى الشدة وأعلن

أنه كل من كانت له مظلمة ، أو عدا عليه أحد من هؤلاء فليتقدم بدعواه ، وألف لذلك محكمة خاصة وبدأ يجردهم من هذه الثروات ، التى أخذوها بغير وجهها ، ويردها على أصحابها ، أو على الخزانة العامة .

ووسطوا له عمة له، كان يوقرها بنو أمية لسنها وشرفها . فكلمته ، فقال لها : يا عمة ، قبض رسول الله - ﷺ - فترك الناس على نهر جار ، فولى بعده رجل - يريد أبا بكر - فلم ينتقص منه شيئاً . . ثم ولى بعده رجل - يعنى عمر - فلم ينتقص منه شيئاً . . ثم ولى رجل فشق منه ساقية صغيرة ، ثم لم يزل الناس يشقون السواقى حتى لم يبق منه شىء ، وأيم الله لأسدن السواقى حتى أعيده كما كان .

ودعا بجمر ودينار ، فألقى الدينار ، فى الجمر حتى إذا احمر ، أخذه بشىء وقربه من جلده . و قال : يا عمة أما تشفقين على ابن أخيك أن يكوى بهذا يوم القيامة ؟ . . قالت : إذن لا تدع الناس يسبونهم . قال : ومن يسبهم؟ . . إنما يطالبونهم بحقوقهم .

فخرجت فقالت : هذا ذنبكم ، لماذا زوجتم أباه بنت عمر بن الخطاب ؟ اصبروا فإنه لا يحيد . وتجرأ عليه ابن للوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه كتاباً شديد اللهجة ، أشبه بإعلان الثورة والمبارزة بالعصيان ، فما كان من عمر ، وهو اللين المتواضع إلا أن غضب لله ، فانقلب أسداً كاسراً وقبض على ابن الوليد ، وحاكمه محاكمة سريعة عادلة ، كادت تودى به إلى سيف الجلاد ، لولا أن تاب وأناب .

وخضعوا جميعاً ، وردوا ما كان فى أيديهم من الأموال ، واكتفوا

بمرتباتهم الكثيرة التى كانوا يأخذونها من الخزانة . . ولكن عمر لم يكتف ، وأمر بقطع هذه الرواتب ، وإعطائهم عطاء أمثالهم، وأمرهم بالعمل كما يعمل الناس .

وعم الأمن ، وهمدت الثورات ، وشملت السعادة الناس . واختفت مظاهر البذخ الفاحش ومظاهر الفقر المدقع ، وصارت هذه البلاد التى تمتد من فرنسا إلى الصين ، كأنها مدرسة داخلية أو جمعية روحية ، تعيش بالحب والود والإخلاص، وكانت كتبه ومنشوراته مناهج تهذيبية إصلاحية ، فيها علم وهدى وإدارة وتنظيم .

وبعد فمن هو عمر بن عبد العزيز ، وكيف نشأ مثله فى بنى أمية . . وما كان بيت أمية بيت تقى ونسك ؟ وما سيرته فى نفسه وفى أهله ؟

سأحدثكم عن هذا كله فى مثل هذه الساعة من الجمعة المقبلة إن شاء الله(1) .

كأنى بكم تقولون وقد سمعتم حديث ابن عبد العزيز الجمعة الماضية : ومن أين لابن عبد العزيز هذه المزايا ، وهذه الخلال ، وما كان بيت أمية قط بيت زهد وورع ، ولا عرف عن أموى قط (2) أنه الناسك المتبتل ؟ .

وإنى لأرجع بكم لأجيبكم خمسين سنة أخرى . أرجع بكم إلى عهد عمر العظيم ، عمر بن الخطاب .

---

(1) كانت تذاع هذه الأحاديث بعد صلاة الجمعة فى موعد (نور وهداية) الآن ، هنا .
(2) إلا عثمان وإلا معاوية الصغير ، أى ابن يزيد بن معاوية .

كان عمر يعس ليلا (يفتش) على عادته ، فمر بخباء قوم من الأعراب فسمع امرأة تقول لابنتها : امذقى لبنك [1] قالت البنت : أما سمعت منادى عمر ينهى الناس عن ذلك ؟ قالت الأم : امذقيه ، فإنه لا يدرى بك عمر ، ولا منادى عمر . قالت : ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء ، وإن كان عمر غائباً ، فإن رب عمر حاضر يسمع ويرى .

هكذا كانوا يا سادة ، كان الحاكم يرجو رضا الله ومصلحة الناس حين يأمر وحين ينهى ، وكان الناس يتقربون إلى الله بطاعة الحاكم ؛ لأنهم كانوا يرون طاعته من الدين .

قال عمر لغلامه . عَلِّم الخباء . وذهبا .

فلما كان غد ، سأل عنها فإذا هى فتاة يتيمة ، فجمع ولده ، فقال : ها هنا امرأة صالحة ، فمن يريد الزواج منكم ؟ قال ابنه عبد الله : لى زوجة . وقال الآخرون : لنا زوجات . وقال ابنه عاصم : لا زوجة لى . فزوجه بها . فكانت خير امرأة وأفضلها ، فولدت له بنتاً ، دعاها أم عاصم ، ونشأت مثل أمها نشأة خير وصلاح .

وأراد عبد العزيز بن مروان الزواج ، فقال : دلونى على امرأة صالحة . فدلوه عليها ، فتزوجها فولدت له عمر .

فعمر بن عبد العزيز ، كان ابن أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فمن هنا جاءته هذه الأخلاق العمرية . ثم إن أباه أراد له خير ما يريد أب

(1) اخلطيه بالماء .

لولده، فسلمه إلى الإمام الحبر شيخ المسلمين عبد الله بن عمر فربى بإشرافه . فما ظنكم بمن يربيه عبد الله بن عمر ، ويتولاه الأئمة الفحول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأنس السائب وعبادة ؟

ولما سافر أبوه إلى مصر واليا عليها ، تركه عندهم فى المدينة ، ووكل به صالح بن كيسان ، فتأخر يوماً عن الصلاة ، فزجره فاعتذر بأن مرجلته كانت ترجل لمته (أى تزيت شعره) فكتب بذلك إلى أبيه ، فأمر بحلق شعره فحلقوه .

***

نشأ فى النعيم ، وتقلب فى فرش السعة . ورأى من الدلال ما لم ير ولد ناشئ ، ولم لا ؟ وأبوه والى مصر (ملك مصر) وجده مروان خليفة ، وعمه عبد الملك خليفة ، ولكن إذا جاء الدين ، أو جاء الواجب فلا تدليل ولا ترفيه ، وإنما كان يؤخذ بأشد الشدة ، وأحزم الحزم ، كما رأيتم فى قصة الشعر .

وما بلغ الشباب ، حتى كان من صدور العلم ، ومن علماء العصر ، ومن الصلحاء العباد . إلا أنه كان رجل ترف ورفاهية ؛ يلبس من الثياب ما لا تلبسه الملوك ، ويلقى الثوب بعد لبسة واحدة ، ويمشى مشية خيلاء ، عرفت به وعرف بها ، حتى لقد صارت (موضة) يقلدها الشباب والصبايا وتسمى : العمرية ، وكان يتخذ أغلى العطور ، فإذا طلع من أول الشارع هبت من طلوعه نسمة عاطرة كأنها نسمات الروض الزاهر .

ثم زوجه عبد الملك بنته فاطمة . السيدة الأولى فى ذلك العصر ، بل لعلها لم تبلغ سيدة من النبالة و (الارستقراطية) ما بلغت هذه السيدة ، كان أبوها

عبد الملك خليفة ، خليفة لا أمير قرية ، ولا حاكم مدينة . كان الحاكم على ثلث المسكون من الأرض ، وكان جدها مروان خليفة ، ثم صار أخوها الوليد خليفة ، وصار أخوها سليمان خليفة ، وصار زوجها عمر خليفة ، وصارأخوها يزيد خليفة ، وصارأخوها هشام خليفة، وصار ابنا أخيها من بعد خلفاء ، فأى سيدة فى التاريخ كان من أهل بيتها الأقربين تسعة خلفاء .

وكانت جميلة ، وكانت وفية . وكان عمر زينة الشباب شكلاً وقولاً وعملاً ، وكان ثوب النعمة سابغاً عليهما ، وكان الحب مالئاً قلبيهما . فعاشا فترة سعادة ما عاشها زوجان .

* * *

وولى عمر المدينة فجمع طائفة من علمائها وصلحائها ، من أساتذته ، فجعلهم مستشاريه ، وفوض إليهم رفع كل مظلمة إليه . فلا يجدون مظلوماً ولا شاكياً ولا محتاجاً إلا أبلغوه . وكان يذهب بنفسه إلى دار أستاذه عبيد الله ، فيدخله أحيانا ، وحينا يرده من الباب . وهكذا كان الأمراء فى تاريخنا مع العلماء ، وكان العلماء أهل زهد وعفاف ، فلم يكونوا يطلبون من الأمراء دنيا ولا مالاً ولا منفعة شخصية .

فلما ولى الخلافة . . وكان الناس يهتفون بشكر الله ، ويضحكون لهذه النعمة ، التى أنعم الله بها عليهم حين ولى أمرهم الرجل الصالح ، كانت المناحة فى بيت عمر .

وعجبوا وذهبوا يسألون ما الخبر ؟

ما الخبر ؟ الخبر أن عمر جمع نساءه وجواريه . فقال : إنه قد نزل بى ما شغلنى عنكن ، فمن شاءت سرحتها أو أعتقتها ومن شاءت أقامت ولكن لم يكن منى لها شيء .

وأقامت معه فاطمة .

ولقد حدثتكم عن عمر فى إدارته وفى سياسته ، وحديثى اليوم عن عمر فى نفسه وفى أسرته ، وعن هذه الزوجة الفاضلة الخيرة . لقد عاش معها عمر بعد الخلافة وكأنهما أخوان ليس بينهما إلا ما يكون بين الأخوين ، ما ذهب الحب ، ولكن ذهب فراغ الوقت ، وفراغ القلب . وملأت قلبه هموم الخلافة ، فكانت خلافته نعمة على الناس ، ونقمة على وعمر وآل عمر .

قالت فاطمة لمن سألها عنه بعد موته : والله ما علمته اغتسل من جنابة أو احتلام ، منذ استخلف حتى قبضه الله .

وأهملت هى كذلك التجميل والزينة ، حتى لامها النساء ، وواجهتها باللوم مرة إحدى نساء الأمراء فقالت لها : وهل تصنع الزوجة لزوجها إلا ما يحب ؟ قالت : نعم . قالت فاطمة : فإنه يحب هذا منى .

ولم تفقد بالخلافة الحب ومتع الزواج فقط ، بل فقدت النعمة والسعة ، ولقد سمعتم أن عمر كان قد تبرع بكل أملاكه للخزانة العامة . . ردها حين رد المظالم ؛ لأنه رأى أنه كان أخذها من الخلفاء قبله بلا حق . ولم يبق له كما سمعتم وعرفتم إلا مائة وخمسون ديناراً فى السنة . هذا مورده كله . وأسرته كبيرة ، فألزم نفسه الحياة به وحده . فكانت حياته كأنها حياة موظف أمين من المرتبة

العاشرة اليوم[1]

لم يسكن قصور الخلافة ، وإنما أقام فى داره (فى موضع السميساطية) اليوم بجوار الأموى عند باب العمارة . وما زال يبيع ما فيها من الأثاث والرياش حتى عادت قفراً ، وكان يصلح فيها بيده إن وجد فى وقته فراغاً .

ولقد جاءت امرأة مرة من أقاصى إيران لتقابل الخليفة ، فسألت عن قصره فدلوها ، فوجدت داراً عادية ليس فيها إلا خادم صغير ، فدخلت فإذا رجل يطيِّن جداراً وامرأة تناوله الطين ، قالت لها : ألا تحتجبين من هذا الطيان ؟

قالت : إنه أمير المؤمنين ! !

وكانت هذه المرأة التى رضيت أن تشتغل أجيرة طيان : فاطمة زوجة الخليفة وقريبة الخلفاء التسعة ! وكان أكثر طعامه العدس ، صبت فاطمة مرة للخادم الصغير عشاءه ، فتذمر وغضب . [illegible] : كل يوم عدس ؟ قالت : إنه طعام مولاك أمير المؤمنين ! !

وكانت تصبر راضية ، غير متألمة ولا متذمرة ، ولا تشكو بل ولا تعلن ما هى فيه إلا مضطرة ، مرض عمر ، فعاده أخوها مَسْلَمة ، فلما خرج قال لأخته : يا فاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فإنه وسخ ، وهو خليفة والناس يعودونه ، فلما رجع بعدأيام وجده لم يغسل ، فأعاد القول عليها ، ورآه الثالثة ، فأغلظ لها الكلام ، فأحنت رأسها وفى عينيها دمعة ، وقالت : والله ما له قميص غيره ! !

(1) والإصطلاح فى المملكة أن المراتب يبدأ عدها من تحت ، فالمرتبة الأولى هى أدنى المراتب .

ورأى مرة بنتاً له اسمها أمينة تمر فى الدار فناداها : يا أمين . . يا أمين . . فلم تجب ، فأمر بإحضارها فإذا ثوبها مقطع . قال : لِمَ لم تردى ؟ . . فبكت وأشارت إلى ثوبها . فدعا بمولاه مزاحم ، وقال : انظر إلى تلك الفرش التى فتقناها فاقطع لها ثوباً منها .

ثوب من ملحفة عتيقة لبنت أمير المؤمنين . فهل تقبل به بنت أحد السامعين؟

ومرت به بناته يوماً ، فسددن أفواههن وأسرعن ، قال : ما لهن ؟ قالت فاطمة : لم يجدن ما يتعشين به إلا خبزاً وبصلا ، فسددن أفواههن حتى لا تشم ريحهن .

هذا عشاء بنات أمير المؤمنين فهل تقبل به بنت أحد من السامعين ؟

وجاءه مرة تفاح من بستان من أملاك الدولة ، فقعد يقسمه بين المستحقين ، فجاء طفل له يحبو ، فأخذ تفاحة فأمر بانتزاعها منه فتمسك بها وهو يبكى ، فنزعها من يده ، فذهب إلى أمه باكيا ، فأخذت درهما فاشترت به تفاحاً . . فلما جاء عمر وجد التفاح فسر به وقال : أنا والله أشتهيه وأكل منه ، وسألته عن الغلام فقال : لقد انتزعت التفاحة من يده ، وكأنى أنتزعها والله من قلبى ، ولكن كرهت أن أبيع نفسى من الله بتفاحة من فىء المسلمين .

وكان يتورع عن أقل من هذا ، طلب مرة أخرى تفاحاً ، وكانت دواب البريد قادمة فى طريقها . فحملوا التفاح عليها ، فباعه ودفع الثمن للخزانة ، مقابل أجرة الدواب . وكانت دواب البريد كالسيارات الرسمية اليوم ، فمن

من الموظفين يمتنع عن أكل كيل (كيلو) تفاح ، إذا جاؤوه به في سيارة الدولة ، وهى فارغة وقادمة على كل حال ؟ .

وسخنوا له مرة أبريق ماء فى مطبخ العامة ؛(لأن الخلفاء كانوا يطبخون ويطعمون الناس كل يوم) فاشترى للمطبخ حطباً فى مقابل ذلك . وجاءه مرة موظف بأوراق رسمية ، فاقتطع ورقة بمقدار إصبعين كتب فيها شيئاً له . فلما كان الغد طلب الإضبارة ، ثم ردها ، فنظر الموظف فإذا هو قد وضع فيها ورقة مكان التى أخذها .

***

أما (ديمقراطيته) ، فكانت نموذجاً كاملاً ، وكانت سجية منه لا تكلفاً . وكان يعمل صامتاً بلا دعاية ولا إعلان . وكان خارجًا إلى الصلاة فاعترضه إنسان بيده شكاة مكتوبة فى طومار (كرتونة) فرمى عمر بها فشجت وجهه وسال الدم ، فجزع الرجل وخاف ، فقضى حاجته ، وأعطاه ترضية لأنه خوفه .

وكان معه رجاء (مستشار الدولة) يدرسان أوراقاً رسمية ، فاحتاج السراج إلى إصلاح . ونادى الخادم فوجده نائماً ، فقام رجاء فمنعه ، وقال : ليس من الكرم أن يستعمل الرجل ضيفه ، وأصلحه بنفسه . قال : أتقوم وأنت أمير المؤمنين ؟ فقال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر .

وكانت له جارية تروّحه فى يوم حار فنامت وسال عرقها ، فقام إليها يروّحها .

ودخل المسجد مرة ليلاً ، فداس إنساناً نائماً . فقال له : أأنت حمار ؟ قال : لا ، أنا عمر . فهم به الحرسى قال : دعه ، سألنى أأنت حمار ؟ فأجبته : لا أنا عمر .

* * *

أعود يا سادة إلى حديث فاطمة ، لقد تخرجت من مدرسته ، وسارت على سنته ، ورضيت لنفسها بماارتضاه لنفسه ، وصبرت معه على الفقر ، وتحت أيديهما كنوز الأرض ، وصبرت على (الحرمان) وهى تعيش مع الزوج . وكان يصلى من خوف الله ، فتصلى بصلته ، ويبكى من خشية الله ، فتبكى لبكائه .

قال لها يوماً : أين نحن من ذلك النعيم الذى كنا فيه ؟ قالت : أنت اليوم أقدر عليه لو أردته . قال لها : يا فاطمة إن لى نفساً تواقة ، ما أعطيت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، تمنيت الإمارة ، فلما أعطيتها تمنيت الخلافة فلما أعطيتها تمنيت . .

. . . وماذا تظنونه تمنى ، وهل شىء أكبر من الخلافة . لقد أعطى الدنيا كلها ، فهل شىء أعظم من الدنيا كلها ؟ نعم . لقد تمنى ما هو أكبر منها : الجنة .

لذلك قال : فلما أعطيت الخلافة تمنيت الجنة .

وتمنتها معه فاطمة وسمت مثل سموه إليها ، فهانت عليها الدنيا ، وكانت كراكب الطيارة إذا هى علت وضربت فى طباق الجو ، رأت البلد العظيم نقطة ،

والنهر الكبير خطاً ، والبحر كله بقعة حبر أزرق على صفحة ورق .

ولكن لا أنا ـ (صدقونى) ـ ولا أنتم نستطيع أن نتصور هذا ، إننى ألقى الحديث ، وأنتم تسمعون ، وكل منا قد ملأت ذهنه مشاغل الأرض ، ولذات العيش الصغار . إننا نعمى بها رؤية الحقيقة الكبرى . كمن يضع كفه أمام عينيه ، فتسد هذه الكف الصغيرة الفضاء الأرحب . إننا اشتغلنا بمناظر الطريق عن غاية السفر وبصغائر الحياة عن غاية الحياة . فصرنا إذا قرأنا أخبار هؤلاء لم ندركها . . ولكنها عندهم حقائق كبار .

إن لـلــه عبــاداً فطنا　　طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا

قـد رأوها لجة فاتخـذوا　　صالح الأعمال فيها سفنا

وكان لفاطمة مجموعة حلى ، ليس لامرأة مثلها ، فقال لها يوماً : يا فاطمة إن هذه لا تحل لك ، وقد أخذت من أموال الله فإما أنا وإما هى ، قالت : بل أختارك والله على أمثالها . فأخذها فوضعها فى بيت المال ، فلما مات عمر وولى أخوها يزيد ردها إليها ، فتصورت عمر أمامها ، وفاض قلبها دمعاً من عينيها ، وغلبها حبها لمرضاته على الحلى ولذتها وقيمتها . قالت : لا والله ما كنت لأعصيه بعد موته ، ما لى فيها من حاجة . فقسمها بين نسائه وهى تبصر !

* * *

ولا يمكن استقصاء أخبار عمر ومناقبه فى حديث ، فدعونى أختم حديثى بهذه المنقبة العمرية . . . بهذا الموقف الذى لا يقوى على مثله إلا رجل من طراز

عمر . ولقد يصبر الرجل على عضة الجوع ، وشدة الحرب ، ومعاناة الأهوال ، أما الصبر على الحب العارم ، الذى يسحر القلب ، ويسكر الجسد ، ويختصر لذات الدنيا كلها حتى تكون وصال الحبيب ، وآلام الدنيا كلها حتى تكون هجرة . الحب الجارف الذى يزلزل كيان الرجل زلزالا . فذلك شيء آخر .

ويظهر أن عمر بلى هذا الحب مرة واحدة ، أحب جارية كانت لزوجته فاطمة . وجرب الأساليب كلها لتهبها له فأبت ؛ لأن المرأة ترضى أن تضحى بكل شيء فى مرضاة زوجها إلا أن تقدم له أخرى تشاركها حبه ، وتقاسمها قلبه ، وكان يمنعه دينه أن يواصلها فى حرام . ولبث كذلك يقاسى من حبها مثل كى المكاوى ، حتى إذا ولى الخلافة ، وبلغت فاطمة من الإخلاص له والتفانى فيه ، أن ذابت رغباتها فى رغباته ، وأهواؤها فى أهوائه ، وقهرت نفسها ووقفت موقفاً لا تقفه امرأة ، فوهبتها له ، وتزينت الجارية ودخلت عليه، وفرك عينيه فلم يعرف أهو فى يقظة أم فى منام ، ثم تنبه فى نفسه الشعور بالواجب ! فسألها لمن كانت ؟ . . وممن أخذت ؟ فلما تبين له أنها قد غصبت من أصحابها ، وأنه يجب ردها ، اصطرعت فى نفسه قوتان : قوة هذا الحب القوى العارم ، وهذه الرغبة التى صرم السنين الطوال فى انتظار تحقيقها ، وقوة الواجب الذى أخذ نفسه بإنجازه ، والمبدأ الذى أعلنه مبدأ رد المظالم .

وتردد قليلاً ثم أمر بردها إلى أصحابها .

فعاد بها أصحابها يهبونها لأمير المؤمنين . قال : لا حاجة لى فيها ، قالوا: فاشترها . قال : لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى .

قالت . فأين حبك لى يا أمير المؤمنين ؟ . . قال : على حاله وقد ازداد .

ولم تزل في نفسه حتى ماتت .

هذه أطراف من قصة رجل ، لو أن متخيلاً تخيل أنبل السجايا الإنسانية لما كانت إلا سجاياه . رحمه الله ورضي عنه وأرضاه . قصة حاكم لو توهم متوهم ، أكمل صفات الحكام لما كانت إلا صفاته .

* * * *

❖ الفهرس ❖

المحتويات	الصفحة

الفصل الخامس:-

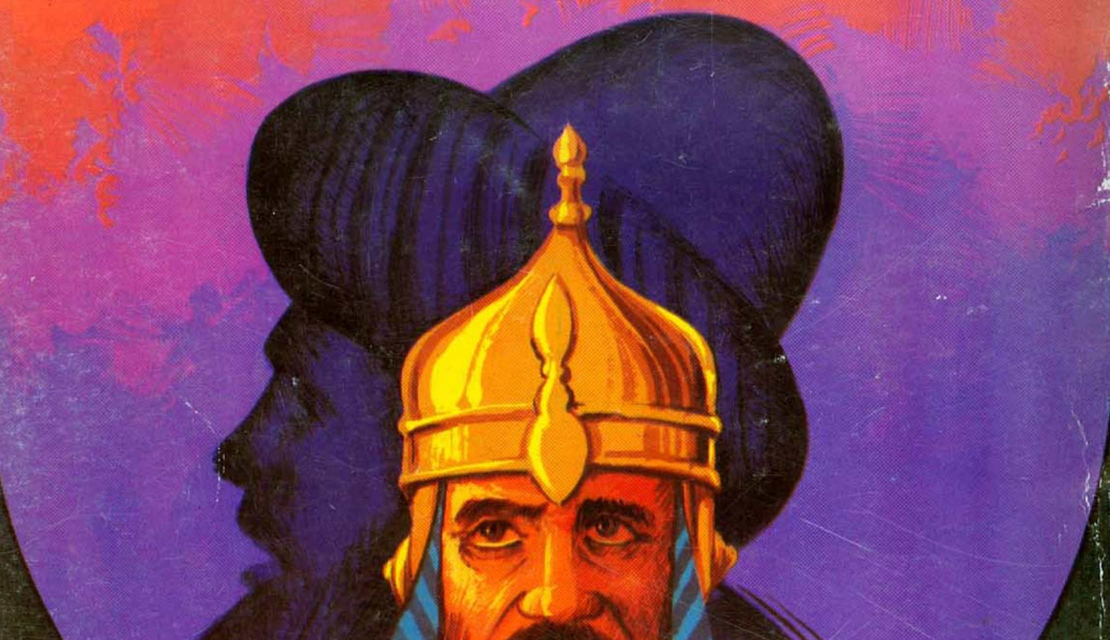
الفصل السادس:-

الفصل السابع:-

●●●●●

الشيخ علي الطنطاوي

رجال من التاريخ



الجزء الثاني

دار البشير

الطبعة الأولى بمصر

1418 هـ - 1998 م

• الكتـــــــاب : رجال من التاريخ - جـ 2 .

• الـــكـــاتـــب : على الطنطاوى.

• النشر والتوزيع: دار البشير للثقافة - دار المنارة - جدة.

تليفاكس 302404 ، 308909 ☎ 210907 - 228277

• التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى . منشية البكرى

ص . ب265 تليفاكس : 228277

• الإيداع القانونى : 15197 / 1997.

• الترقيم الدولى :9- 056 - 278 - 977.

• تصميم الغلاف : الفنان / عطية الزهيرى

المقدمة

كل ما فى هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لى من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة . استمرت إذاعتها أعواماً، تعبت فى إعدادها كثيراً ، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير ، بلغت ثلاثمائة حديث أو تزيد ، ضاعت فيما ضاع مما كتبت ، وأرجو ألا يضيع عند الله ثوابها ، إن كتب الله لى بكرمه الثواب عليها .

كنت إذا أردت الحديث عن رجل ، قرأت كل ما تصل إليه يدى مما كتب عنه ، وقيدت فى ورقة ما أختار من أخباره ، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات ، ثم أعمد إلى خبر منها ، فأجعله مدخلاً إليها ، وأحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بى عن جفاف السرد التاريخى ، ويخلص من تخيل الكاتب فى القصة الأدبية ، لعلى أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب ، فأوفق حيناً ، ويجانبى حينا التوفيق .

وكنت كلما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال ، فتح لى الباب للكلام على أقرانه وأمثاله ، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين ، وحديث عن أبى حنيفة يدفعنى إلى آخر عن مالك ، ولو أنى استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة ، فى كل أسبوع حديثاً ، وجاء مائة مثلى يصنعون مثل صنعى ، لما نفدت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال ، وأنا لست من المولعين بجمع الكتب ، ورصها فى الخزائن لأزهى بها ، وأفخر بكثرتها ، ولا أقتنى إلا الكتاب الذى أحتاج إليه ، أرجو النفع به ، أو المتعة بقراءته ، وقد اجتمع لى ـ على هذا ـ فى مكتبتى الصغيرة ، هنا وفى

دمشق ، أكثر من تسعين مجلدة فى تراجم الرجال والنساء ، فلو أن فى كل واحدة منها سيرة مائة منهم ، لكان من ذلك تسعة آلاف من سير العظماء .

ومن نظر فى مقدمة الطبعة الثانية من كِتابى (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التى أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن ، قلت فيها :

(إن فى كتب التاريخ والأدب ، والمحاضرات والرحلات ، آلافًا من سير العظماء ليست فى كتب التراجم على كثرتها .

من ذلك أننى كنت أتسلى مرة بالنظر فى (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين ، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حفدة جنكيزخان المسلمين ، وكان يحكم مملكة واسعة المدى ، مترامية الأطراف ، كثيرة الجيوش ، واسعة الخيرات . فهل سمعتم باسم طرمشيرين ؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين ، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر ، عاشت حينًا من الدهر ، كانت تسمى دولة البلغار ، وكانت عاصمتها بقرب « ستالينغراد » ؟ .

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها ، فارجعوا إن شئتم إليه ، تَطَلَّعوا عليه .

ولما كتب لى أن أزور القارة الهندية ، وأندونيسيا ، رأيت للمسلمين فيها تاريخًا ما كنت أعرفه ، ولا كان مما يدرس فى المدارس ، ولا مما يوجد فى الكتب التى اطلعنا عليها . تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذى يحيط به ، والقلم البليغ الذى يكتبه ، وفى هذا الكتاب مثال صغير عليه فى سيرة : أورنك زيب (15) ، وسلطانة الهند (118) ، ومن نظر فى كتابى عن أندونيسيا ، وقرأ قصة دخول الإسلام إليه ، يرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول .

***

والعجب ممن يزعم أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، هل كان مع الرسول ـ ﷺ ـ في مكة سيف ؟ والمجتمع الإسلامى الأول ، الذى كان فيه مع محمد أبو بكر وعلى وخديجة وسلمان وصهيب وبلال ، وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام ، هل كان معهم سيف ؟ ! .

هل تنبهتم إلى أسمائهم ؟ هل أدركتم الرمز الذى تشير إليه ؟ لقد مُثِّل فيه الرجال بأبى بكر ، والنساء بخديجة ، والأولاد بعلى ، وهل المجتمعات إلا رجال ونساء وأولاد ؟ ومُثِّل فيه العرب بهؤلاء ، والفرس بسلمان ، والحبشة ببلال ، والروم بصهيب ، وهؤلاء هم قطان هذه البقعة من الأرض .

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها دعوى بلا دليل ، والدليل القائم ، عليها لا معها ، انشروا مصور العالم الإسلامى وانظروا ، هل البلاد التى دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً ، أم البلاد التى دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح ، وانطواء راياته ، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة ؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقية ؟ وهل بلغت كوريا واليابان ، أم انتشر فيها الإسلام وحده ؟

وهل أكره الفاتحون الأولون أحداً على الإسلام ؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين ، كالإسكندر ، وجنكيز ، وبونابرت ، وهتلر ، وأمثال لهم كثير ، فأين الآن ما فتحوه ؟

لقد كان زيتًا صببته على ماء ، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً ، فلما بطل الهز عاد الزيت زيتا والماء ماءً . بقى فى البلاد غالبون ومغلوبون ، مفتوحة بلادهم وفاتحون .

أما الفتح الإسلامى فقد كان كاختلاط الماء بالخل ، صُبَّ ماءً على الخل ثم

انظر هل تقدر أن تفصل الخل عن الماء ؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التى بلغها الفتح هل تميَّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين ، من أبناء البلاد الأولين ؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة ، ليست أمة العرب ، ولا أمة الفرس ، ولا أمة الترك ، ولكن أمة محمد ـ ﷺ ـ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10]

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها مقالة جاهل بالطبع البشرى ، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها .

إن الإسلام عقيدة ، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة ، فمن سمع أن العاطفة تجىء بالقوة والبطش ؟ إذا فَرَكَتْكَ امرأتك (أى كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها : إما أن تحبينى وإما أن أكسر أضلاعك ؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه ؟ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : 256] . لقد عرف التاريخ حكامًا طغاة جبارين ، يكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين ، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون ، ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم ، حتى تمتلئ بحبهم ؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم ؟

أقمت فى أندونيسيا شهراً ، نهارى فيه مع العلماء والأدباء ، وسهرى فى المحاضرات والندوات ، زرت الجامعات والمكتبات ، ووقفت فى آخر جزيرة «جاوه » على قبر الرجل الذى حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم ، وهم يعظمونه فيقولون : (سلطان إبراهيم) .

فمن إبراهيم هذا ؟ ما وجدت ممن لقيت من الناس ، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء . فكيف إذن دخلت هذه البلاد فى الإسلام ، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مائة وخمسون مليوناً ، كلهم مسلم بالقيد الرسمى ، مسلم بالإحصاء الجغرافى ، نسأل الله أن يخلصها من

مكر الملحدين ، والبانجاسيلا (المبادئ الخمسة) التى جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين ، ومن كيد المكفِّرين المنفِّرين المنصِّرين الذين يدعون افتراء بالمبشرين .

إن فى تاريخ الإسلام فى أندونيسيا رجالاً أبطالا ، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم .

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمائة مجلد . نعم وأكثر من ذلك ، لا أبالغ ، ولا ألقى القول جزافاً ، صدقونى .

إن تاريخنا أعظم تاريخ ، ولكننا أمة تجهل تاريخها . هذا التاريخ الذى ليس لأمة مثله ، هذا التاريخ الذى يفيض بالحب ، والنبل والتضحية والبطولة والإيمان .

ولست أعنى التاريخ السياسى وحده ، بل التاريخ العلمى أولا . تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين فى ميدان الطروس ، بأسنة الأقلام ، وهجروا لذلك لذائذهم ، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم ، واطرحوا رغبات الغنى والجاه ، وكل ما يتزاحم عليه الناس ، واستهانوا فى سبيله بكل صعب ، حتى أنهم كانوا يرحلون الإبل أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان ، أو من مغربها فى الأندلس ، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد، فى طلب مسألة مفردة ، أو حديث واحد . أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتيات ، فسارت البشرية على ضوئها . كانوا فى عصر الحكمُ فيه حكم مطلق ، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم ، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها

الحصانة التى يعتز بها القضاء ويكفلها لهم القانون الآن [1] ، تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم ، وفارقوا أهليهم وخلفوا دنياهم وراء ظهرانيهم ، أداء لحق الله وإعلاء لكلمة الله ، ما كانوا عادين ولا باغين ، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حربا دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع ، فما كانت دفاعا عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة ، فنهدنا [2] ندافع عنها ، إنما هى حرب دفاع عن العقيدة .

أرأيتم الجائعين فى أفريقية ، الذين تسمعون أنباءهم فى الإذاعات ، وتقرؤونها فى الجرائد . . . إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء ، وما يدفع عنهم البلاء ، فوقف ظالم فى طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم ، يريد أن يميتهم فى دورهم حتى تصير هى قبورهم .

ألا تقاتله ؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون . نزل عليهم المصباح الهادى فى (حراء) والدنيا تتخبط فى الظلماء ، فحملناه لينير لهم طريقهم ، فاعترضنا من يمنعنا .

قلنا : تعال فاحمل النور معنا ، تكن منا ، لك ما لنا وعليك ما علينا . قال : لا .

قلنا : فدعنا نمر ونحن نحميك من عدوك ، ونرد عنك من يعتدى عليك ، ونبذل نحن أرواحنا دونك ، لا نريد منك إلا أجرة يسيرة من مالك ، مقابل ما نبذل من دمائنا ، قال : لا .

فما الذى نصنعه معه إلا أن نقاتله ؟ هذا هو الجهاد .

(1) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ) .
(2) نهد : أى نهض .

إن تاريخنا السياسي أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم ، ولا يخلو ـ على ذلك ـ من أمور لا يحسن أن ننشئ عليها أولادنا ، أمور تقضيها طبيعة البشرالذين يخطئون ويصيبون ، ويحسنون ويسيئون ، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

حتى المجتمع الذى كان أسمى مجتمع بشرى ، الذى كان (ظاهرة) لم تُسْبق ولم تتكرر ، مجتمع الصحابة لم يَخْلُ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة ، ولكن من دس الدسائس بينهم ، وفرق بالكذب جمعهم . فلماذا ندرسها لأولادنا ؟ لماذا ، وقد كره علماؤنا الخوض فيها ؟ وكيف نسمح لمدرس غر قد يكون قليل الدين ، أن يقيم من نفسه حكمًا بين عائشة أم المؤمنين وعلى أمير المؤمنين ؟

تقولون : ما الحل ؟ لقد بصرت بالحل أيام الوحدة لما كنت قاضى دمشق ، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التى تديرها الأوقاف [1] ، وكتبت بذلك إلى الوزير [2] ، فكلفنى وضع مناهج جديدة لهذه المدارس ، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً ، كان منها : أنى رفعت من المنهج التاريخ السياسى ووضعت مكانه مادة سميتها : (أعلام الإسلام) . ندرس فيها مناقب العظماء ، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم ، وأمضى الوزير ما اقترحت ، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن .

أنا مدمن القراءة يومى كله إلا ساعات العمل ، أمضيه فى المطالعة ومحادثة الكتب ، من يوم أتقنت القراءة ، قبل سبعين سنة ، وأنا أقرأ . وأكثر ما أولعت به التاريخ ، وذلك بعد إقامة لسانى بتعلم العربية ، وضمان

(1) أى رئيس مجلسها الأعلى .

(2) عبد الحميد السراج .

آخرتي ـ وما تضمن إلا برحمة منه ـ بمعرفة الشرع . فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم ، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات ، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت ، (ورجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التى حسب قوم أنى كتبتها للأطفال فعدوها من أدب الأطفال ، مع أنى لم أكتبها لهم ، وأسلوبها يعلو ـ كثيراً ـ عن أفهامهم .

بدأت بهذه الأنواع كلها من سنة 1930 من حين كنت (محرراً) فى جريدة (فتى العرب) ، بل لقد بدأت ، فى الفتح والزهراء سنة 1347 هـ ، وهذا الكتاب ثمرة باقية ، مما فقد .

وهذه هى الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب . أما الطبعات المسروقة فلا أحصيها . ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها .

وقد وقفت أنا على طبعها ، وعدلت فيها ، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل فى مجلة ولا صحيفة ولا كتاب ، بل لم يذع من الإذاعة ؛ لأنه لم يكمل ، وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع .

وليس لأحد فى هذا الكتاب ولا فى غيره من كتبى حق من حقوق الطبع ، ومن ادعى ذلك كان كاذباً .

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذى تنفد فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها . أقول هذا لـمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين ، لا يردعهم عنه الدين ، ولا الخلق المتين ، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلا فيها ، ولا يحرصون إلا عليها ، يلبسون للمؤلف عندما يَلْقَوْنه جلد الحمل الوديع ، فإذا صار الكتاب فى أيديهم ، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب

الكاسر ، وهذه تذكرة لمن شاء أن يذكر ، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد .

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقى الله لى منه ما يكفينى وسآخذ حقى يوم أكون محتاجاً إليه ، لا من ريالات المعتدى ودولاراته ، بل من حسناته التى هى وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته .

نسأل الله أن يحيى قلوبنا ، حتى نراقب ربنا ، ونذكر آخرتنا ، وأن يهدينا جميعاً : الناشرين والمؤلفين .

أما (دار المنارة) التى تنشر هذا الكتاب اليوم ، فهى منّى ليست غريبة عنى ، وصاحبها ديِّن أمين على حين قلَّت فى الناس الأمانة ، وأنا لا أزكّيه على الله ولكن أزكِّيه للناس . وأنا أعلم أنَّ هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها .

أمَّا جودة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك .

وبعد : فما أردتها مقدمة للكتاب ، ولكن تعريفًا بهذه الطبعة استرسل فيه القلم ، وانبسط المجال فطال المقال .

على الطنطاوى

الفصل الأول

- بقية الخلفاء الراشدين
- موسى بن نصير
- فـاتح القـدس
- عـبـرة

بقية الخلفاء الراشدين

من العظماء رجال ، لم يكن لهم فى غير الخط مجال ، صرفوا إليه هممهم كلها حتى برعوا فيه ، ومرنت أيديهم على صنع المعجب من آثاره ، وخلفوا لنا لوحات لا تقل جمالاً عن أخذ الصور الفنية . ومنهم رجال ضربوا فى أودية البلاغة ، وسلكوا طرق البيان ، وصاروا أئمة القول ، وأعلام الكلام، وتركوا لنا رسائل هى العسل المصفى ، وهى السحر الحلال . ومنهم رجال صرموا حيواتهم ، وأمضوا أعمارهم ، فى النظر فى الأدلة ، وتخريج المسائل، حتى صاروا سادة الفقهاء وصدور العلماء . ومنهم رجال كانوا ملوكاً عباقرة مصلحين ، بنوا ممالك ، ووطدوا دولا ، وفتحوا فى الأرض شرعة السماء(1)، وكان حكمهم خيراً على الناس وبركات . ومنهم رجال كانوا قواداً مظفرين كانوا جن الحروب ، ومردة المعامع ، لا يخرجون من معركة إلا إلى معركة أشد منها ، ينتزعون النصر من يد الهلاك ، ويبنون الحياة على أشلاء الموت ، لا يحاربون للقتل ولا للتخريب ولا للأذى ، ولكن ليدفعوا عن الحق والحضارة ، شر من يأبى أن يقوم فى الأرض صرح الحضارة وأن يرتفع فيها لواء الحق . ومنهم رجال كانت عظمتهم أن كرهوا العظمة واجتووها ، وزهدوا فى الدنيا واستصغروها ، وهانت عليهم بمتعتها ولذتها ، لما طمعوا بلذاذات الآخرة ومتعها ، فأقبلوا على العبادة ، وأنسوا بالله ، وتجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، يرجون رحمته ويخافون عذابه . . .

. . . وهذا عظيم جمع هذا كله ، فكان خطاطاً ، وكان كاتباً شاعراً ،

(1) الشرعة والشريعة:الطريق ، لذلك قلت : (فتحوا) .

وكان فقيها ، وكان ملكا ، وكان قائداً مظفراً ، وكان زاهداً متعبداً .

حكم الهند كلها خمسين سنة ، فأقام فيها العدل ، ونشر الأمن ، وأعز الصالحين ، وقهر الطغاة الجبارين ، وترك آثاراً على الأرض ، وآثاراً فى الحكم، وآثاراً فى العقول : ملأ الهند مساجد ومشافى ومارستانات، وملاجئ للعاجزين ، ومدارس للمتعلمين ، وسن فى أساليب الحكم سنن الخير ، فنظم القضاء ، وأصلح قوانين الضرائب و ترك للعلماء كتاباً من أجل كتب الفقه الإسلامى ، هو السلطان عالمكير (1) ، أورانك زيب (2) ابن شاهجان بن جهانكير ابن الإمبراطور أكبر حفيد تيمورلنك .

نحن الآن فى الهند ، فى القارة التى حكمناها ألف سنة ، فى الدنيا التى كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، فى (الفردوس الإسلامى المفقود) حقاً ولئن كانت لنا فى إسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً ، فلقد كان لنا هاهنا أندلس أكبر ، فيها اليوم أربعمائة مليون (3) ـ خمس سكان الأرض ، ولئن تركنا فى الأندلس من بقايا شهدائنا ، ودماء أبطالنا ، ولئن خلفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فإن لنا فى كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه، وحضارة خيرة وشيت جنباتها ، وطرزت حواشيها ، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس ، كم أنارت عقولاً ، وفتحت للحق قلوباً ، ولا تزال تفتح القلوب ، وتنير العقول ، وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء ، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء على ظهر الأرض .

ولو كنتم تعرفون من تاريخ المسلمين فى الهند ، ولو مثل القليل الذى تعرفون من تاريخهم فى الشام ومصر ، لدخلت الآن فى الحديث عن أورانك

(1) أى زمام العالم أو قائد العالم .

(2) أى زينة الملك .

(3) صاروا الآن سبعمائة .

زيب ، ولكنكم لا تعرفون مع الأسف تاريخ الهند ، ولا أجد بداً من أن أمهد لهذا الحديث بشىء من التاريخ :

لقد مرت بالهند أربعة عهود إسلامية ، عهد الفتح العربى ، ثم عهد الفتح الأفغانى ، ثم عهد المماليك ، ثم عهد المغول .

كان أول من حمل إلى الهند لواء الإسلام ، محمد بن القاسم الثقفى ، القائد الشاب الذى هجر منازل قومه فى الطائف ، ومشى إلى العراق فى ركاب ابن عمه الحجاج ، الذى ظلم كثيراً وقسا كثيراً ، وكانت له هنات غير هينات ، ولكنه هو الذى أبقى لنا العراقين وفتح لنا المشرق كله والسند ، فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التى أضرمها الخوارج ، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان ، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند .

ولولا الإيمان الذى يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبار التى تزيح الجبال ، ولولا البطولة التى وضعها محمد - ﷺ - فى قلوب العرب لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خمس محيط كرة الأرض وهو ماش على الأقدام ، أو معتل ظهور الإبل والدواب ، ما عرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طيارة ، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول فى هذا الصرح الهائل ، وأدخل الشعاعة الأولى من هذه الشمس التى أشرقت فى مكة إلى هذه القارة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ الشهادة الثانوية .

وعاد إليها لواء الإسلام مرة ثانية فى القرن الرابع ، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوى ، الذى خرج من غزنة وكانت قصبة بلاد الأفغان ، وهى إلى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذى يشق تلك الجبال الشاهقة شقًا ، والذى تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته

أسد الفلا ، وجن الليالى السود ، ثم دخل الهند ، وخاض عشرات من المعامع الحمر ، التي يرقص فيها الموت ، ويشتعل الدم ، واجتمع عليه أمراء الهند وأقيالها جميعاً ، فطحن أبطالهم ، ومزق جيوشهم ، ومضى حتى جاب البنجاب ، واستجابت له هاتيك البلاد ، فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الإسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغورى ، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً ، وأكمل منه ما كان ناقصاً ، وملك شمالى الهند ، وبلغت جيوشه دهلى فأوقدت فيها منارة الدعوة الإسلامية ، فضوأت بعد الظلمة ، وأبصرت بعد العمى ، ودوى فى أرجائها الصوت الذى خرج من بطن مكة . . صوت المؤذن ينادى فى قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام أن خابت آلهتكم ، وهوت أصنامكم ، إنما هو إله واحد : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقامت فى الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلي .

وبينما كان قطب الدين أيبك قائد السلطان الغورى يفتح المدن بسيفه ، كان الشيخ معين الدين الجشتي يفتح القلوب بدعوته ، فدخل الناس فى الإسلام أفواجاً ، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد ، وكان منه اليوم ثمانون مليونا من المسلمين فى باكستان ، وأربعون مليوناً غيرهم فى هندستان (1) ، وسيبقى الإسلام فى تلك الديار إلى آخر الزمان .

وولى الملك بعد السلطان الغورى قائده قطب الدين ، الذى فتح دهلى وبدأ

(1) هم على شر حال اليوم من الجهل فيهم وإهمال الحكام لهم . والأمل فى جماعة التبليغ وفى جماعة المودودى وفى الجامعات والمدارس كجامعة ديوبند ودار العلوم لندوة العلماء فى لكنو ، وهى خير مدارس الهند منهجاً ومسلكاً ، والعدد الذى ذكرته تضاعف الآن .

به عهد المماليك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا بانى منارة قطب [1] (قطب مينار) التى يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلى وشمس الدين الألتمش وغياث الدين بَلَبَان .

ثم جاء الخلج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجى الذى عدل فى الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الأمن ، وأوغل فى الهند .

وجاء من بعدهم آل تغلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان فى أحمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتى [2] .

وكان للعلماء فى دولة المماليك دولة أكبر منها ، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك . ولقد روى أخونا أبو الحسن على الحسنى الندوى ، أن السلطان شمس الدين الألتمش الذى دانت له البلاد كلها (وكان فى القرن السابع الهجرى) وخضع له ملوك الهند جميعاً ، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكى ، فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ، ولا يزال يكبس رجليه ويخدمه ويذرف الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف .

وإن علاء الدين الخلجى أكبر ملوك الهند فى زمانه استأذن الشيخ الدهلوى فى أن يزوره فلم يأذن له الشيخ .

ولما مرض الشيخ الدولة آبادى المفسر وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقى ، ودعا عند رأسه أن يكون هو - أى السلطان - فداءه من الموت .

(1) وقد مر ذكرها فى حديث الملك الظاهر .
(2) وسيأتى حديثه .

وكانت زاوية نظام الدين البدايونى ، أحفل بالقصاد ، وأزخر بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحى أعظم من سلطان الملك المادى .

كان ذلك ـ يا سادة ـ لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات ، وزهدوا بما فى أيدى الملوك ، فسعى إلى أبوابهم الملوك ، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفى عهد السلطان إبراهيم اللودهى سنة 933 هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهى ـ وكانت مائة ألف ـ باثنى عشر ألفاً من فرسان المغول المسلمين ، وأسس دولة المغول التى كانت أكبر الدول الإسلامية فى الهند ، وكان من ملوكها ، الملك الصالح الذى أحدثكم عنه : أورانك زيب .

ولما مات بابر ، وولى ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامى لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك ، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة فى الدول ، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق إلى مثله ، هو السلطان شيرشاه [1] السورى لما مات عاد الملك إلى ابن همايون ، وهو الإمبراطور أكبر وكان من أعاظم الملوك ، حكم الهند كلها ، إلا قليلاً ، وطال حكمه فكفر فى آخر أيامه بالله ، وأكره الناس على الكفر ، و ابتدع لهم ديناً جديداً ، وأزال معالم الإسلام ، وبطل شعائره [2] ، وكان معه الجيش ، وكان معه الأمراء ، وكانت البلاد كلها فى يده ، فمن يقوم فى وجهه ، ومن ينصر الإسلام ، ومن يدافع عن الدين؟ .

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم ، قليل المال والجاه والأعوان ، ولكنه قوى الإيمان بالله ، كبير النفس والقلب ، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل

(1) شيرشاه أى الملك الأسد ، أو ملك الأسود .

(2) ولذلك يعظمه المؤرخون من أعداء الإسلام من الغربيين ومن يقلدهم منا بلا علم ولا فهم .

ما فيها من مال ومناصب ولذائذ واستهان بالحياة فهو لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه ، هو الشيخ أحمد السرهندى .

ولم يكن يطمع بإصلاح الإمبراطور ، ولا يجد فيه أملاً ، فجعل يتصل بالقواد الصغار ، وبالحاشية ، ويعد لانقلاب شامل ، لا لانقلاب عسكرى ، بل لانقلاب روحى فكرى ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والإيمان . ولما مات أكبر وولى ابنه جهان كير (أى قائد الدنيا) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندى ابن الشيخ السرهندى أن يشرف على تربية طفل صغير ، هو أحد حفدة جهانكير .

ولم يكن هذا الطفل كبير أخوته ، ولا كان ولى العهد ، ولم يكن يؤمل له أن يلى الملك ، ولكن الشيخ وضع فى تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب فى مدرسة دينية داخلية ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوده ، والفقه الحنفى وبرع فيه ، والخط وأتقنه ، وألم بعلوم عصره، وربى مع ذلك على الفروسية ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير ، وولى شاه جهان ، ولى كلا من أبنائه قطراً من أقطار الهند ، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورانك زيب) ولاية الدكن .

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها فى الحسن ، ولا مثيل لحبه إياها فى الحب ، هى (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر ، وخلدها ولكن لا بصورة ولا تمثال ، لقد رثاها فخلدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها ، فهى شعر ، وهى أغنية ،وهى صورة، وهى أعظم تحفة فى فن العمران .

هى تاج محل ، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا ، وما زال يدهشها ، والذى لان فيه الرخام لهذه الأيدى العبقرية فجعلت منه أجمل بناء

شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذى لم يعرف قط نقش فى مثل دقته وفنه وسحره .

هذا القبر الذى يأتى اليوم السياح ، من أقصى أميركا إلى (أكرا) قرب دهلى ليشاهدوه ويسمعوا قصته ، وهى أعظم قصص الحب على الإطلاق . لقد صدع موت هذه الزوجة الحبيبة الإمبراطور العظيم ، فزهد فى دنياه ؛ لأنها كانت هى دنياه ، وحقر ملك الهند ؛ لأنها كانت أعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب بعدها إلا أن يملص من حاضره ، ويوغل بذكرياته فى مسارب الماضى ، ليعيش بخياله معها ، يستروح رياها ، ويستجلى جمالها ، ويسمع خفى نجواها ، ويحس حرارة أنفاسها ، ثم استحال حبه إياها حبا لهذا القبر الذى شاده لها ، فجن به جنوباً ، وصار يحس فى برودته حرارتها ، وفى جموده خطراتها ، وفى صمته حديثها ، وانصرف عن الملك وأهمله ، فوثب ابنه الأكبر فولى الملك إلا اسمه ، وتصرف بالأمر وحده ، ونازعه أخوته ، وجاء كل من إمارته : شجاع البنغال ، ومراد بخش (أى مراد الله) من الكجرات ، وأورانك زيب هذا من الدكن ، واستطاع أن يغلبهم جميعاً وينفرد بالأمر ، ووضع أباه فى قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجوارى ، وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح ، يرى منها (تاج محل) على البعد ، وهو مضطجع فى سريره كأنه أمامه . وكان ذلك كل ما بقى له من لذائذ دنياه !

وكان جلوسه على سرير الملك سنة 1068 هـ (قبل ثلاثمائة سنة) [1] وكأنى بكم تظنون أن هذا الملك الذى ربى بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية ، سيدخل

(1) من يوم إذاعة هذا الحديث سنة 1368 هـ .

خلوته ، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية ، يصلي ، ويقرأ في كتب الفقه ، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها ، كلا يا سادة ، وما هذه خلائق الإسلام، ولا هذى طريقته ، إن العمل لإسعاد الناس ، وإقامة العدل ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين فى الأرض ، كل ذلك صلاة كالصلاة فى المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة .

لذلك ترونه قد لبس لأمة الحرب من أول يوم ـ وكان يومئذ فى الأربعين ـ ونهض بنفسه يقضى على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ويقرر العدالة والأمن فى الأرض ، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ، ومن بلد يصلحه إلى بلد ، حتى امتد سلطانه من سفوح همالايا ، إلى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً فى سبيل الله فى أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل .

ومن خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ولم تدع له بقية لإصلاح فى الداخل ، أو نظر فى أمور الناس ، ولكن أورانك زيب ، حقق مع ذلك من الإصلاح الداخلى ما لم يحقق مثله إلا قليل من الملوك .

كان ينظر فى شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها بمثل عين العُقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نأمة فساد ، وقضى على كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقيًا من الزندقة التى جاء بها (أكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفح من نارها ، فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع ، فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيبته ولولا شدته فى الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً

جديدة ، ويكفي لتدركوا طول الطرق في الهند أن تعرفوا أنَّ طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري ، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات !

وبنى المساجد في أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس دوراً للعجزة ، ومارستانات للمجانين ، ومستشفيات للمرضى .

وأقام العدل في الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم في القضاء بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي معللا له مدللا عليه ، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية ، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، ولمن له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس .

وكان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي ، فأدنى العلماء ولازمهم ، وجعلهم خاصته ومستشاريه ، وبنى لهم المدارس ، وجعل لهم الرواتب .

ووفق إلى أمرين لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين :

الأول : أنه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيئتين : أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم ـ فما قول مدرسي الإفتاء والأوقاف في الشام ؟

والثاني : أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، في كتاب واحد ، يتخذ قانوناً فوضعت له ـ وبأمره وبإشرافه ونظره ـ الفتاوى التي نسبت إليه ، فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل

من يقرأ هذا المقال من العلماء ؛ لأنها من أشهر كتب الأحكام في الفقه الإسلامي ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً [1] .

وكان ـ بعد ذلك كله ـ يؤلف . . ألف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التي تعد في لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها . وحفظ القرآن بعد أن ولي الملك . وكان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا ، ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها .

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال ، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لأمر من الأمور ، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ثم يذهب حيث شاء ، وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر ، وما أدراكم ما حر الهند ؟ ويحيي الليالي بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد ، ويصوم الإثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع من أسابيع السنة ، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار ، ويمد أهل الحرمين بالصلات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم ، والبراعة في فنون الحرب ، وفي التنظيم الإداري . فكيف استطاع أن يجمع هذا كله ؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة ؟ ويقضي بين الناس ؟ ويؤلف في العلم ؟ ويكتب المصاحف ويحفظ القرآن ؟ ويدير هذه القارة الهائلة ؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة ؟

(1) وضعت على أسلوب القوانين فيها الحكم ولكن ليس فيها ذكر الدليل فمن أراد معرفة دليلها رجع إلى مطولات المذهب كالمبسوط وبدائع الصنائع وشرح الكنز وأمثالها .

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته ، ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ، ووقت لأهله ، ووقت لربه ، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها .

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا فى عصره ، وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة !

هذا هو الملك الذى قلت : إنه كان بقية الخلفاء الراشدين ، توفى فى مثل هذا الشهر من سنة 1118 هـ وما رأى الناس بعده وقلما رأوا قبله مثله .

رحمة الله على روحه الطاهرة .

* * *

موسى بن نُصَير

هذى صفحة من تاريخ الفتح ، الذى كان أعجوبة التاريخ فى سرعته ومضائه ، كما كان أعجوبة التاريخ فى استمراره وبقائه ، وفى طهر أسلوبه ونقائه ، وفى سمو مقصده وعلائه . رأى التاريخ فتوحاً لا تعد من كثرتها ولا تحصى ، فما رأى فتحاً أسرع منه ولا أنفع . لم يكن فيه شعب غالب وشعب مغلوب ، بل كان فيه أتقياء بررة ، وفساق فجرة ، وملحدون كفرة ، فكان أكرم الناس أتقاهم ، سواء فيه أكان فى الأصل من الغالبين أو المغلوبين ؛ لأن الإسلام لا ينظر إلى الأنساب ، بل إلى الأعمال ، ولا يميز الناس بآبائهم بل بأنفسهم . وليست العظمة فيه بعلو الجاه وكثرة المال ، بل بصدق الإيمان وحسن الفعال .

ولئن هدى الله مصر بعمرو ، فكان إسلامها حسنة من حسناته . فالمغرب حسنة من حسنات عقبة بن نافع أولاً ، وحسان بن النعمان ثانياً ، وموسى بن نصير أخيراً . ولولا موسى ما استقر فيها الفتح ، ولا خلصت للإسلام . ولولا موسى ما كان لنا فى الأندلس هذا الفردوس الذى فقدناه .

وموسى بطل مظلوم ، ظُلِمَ فى حياته ، فكانت مكافأته شر مكافأة على أحسن عمل ، حمل وزرها سليمان بن عبد الملك إذ أساء إلى كل من أدركه من الفاتحين الذين أحسنوا للعروبة والإسلام ، ولم يكن له من أعمال الخير إلا أنه سمع رأي روح بن زنباع فجعل ولى عهده الخليفة الصالح المصلح عمر بن عبد العزيز .

وظلم بعد موته . فخلد اسمَ طارق هذا الجبلُ ، والجبل الآخر الذى أقامه فى التاريخ من المكرمات ، وكاد ينسى اسم (جبل موسى) . وهو الذى بعث طارقاً ، وهو الذى مكّن له ، وهو الذى أرسى أساس ذلك الصرح الذى شاد طارق شرفة من عالى شرفاته .

على أنى لا أظلم طارقاً ، وسيأتى عنه من الحديث ما فيه النَّصَفَة والحق إن شاء الله .

* * *

هذه سيرة موسى بن نصير ، أعرضها عرض القصة المتسلسلة ، لا أقف فيها لأعلل وأدلل ، وأقابل وأفاضل ، بل أدع الحوادث تنطق بلسان حالها ، لتكون قصة لمن أرادها قصة يتسلى بها ، وتاريخاً لمن شاء العبرة من التاريخ .

ولم يكن موسى قائداً عسكرياً فقط ، بل كان ـ كما ترون بعد ـ حاكماً إدارياً ، وكان خطيباً بليغاً ، وكان دَيِّنًا مراقباً ربه ، عاملاً لآخرته . وكان نموذجاً كاملاً لطلبة الدورة الثانية فى مدرسة محمد ـ ﷺ ـ ، وهم التابعون ، أما طلبة الدورة الأولى فهم خلاصة البشر ، ولباب اللباب « صحابة رسول الله» .

وكان والده نصير (مولى عبد العزيز بن مروان) من حرس معاوية ، فلما أعلن معاوية ثورته على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وقام بهذا الانقلاب العسكرى الذى نجح ـ مع الأسف ـ قعد عن نصرته ، فقال له معاوية :

ـ ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ؟

ـ فقال :

ـ لم أستطع أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى .

ـ قـال : ومن هو ويحك ؟ (فـوازن في نفسـه بين حق معـاوية عليـه في وجـوب نصـرتـه ، وحق الله عـليـه في وجـوب القـعـود عنهـا ، ورأى أن الله يعصمه إن أطاعه من معاوية وغير معاوية ، ومعاوية لا يعصمه من الله) .

ـ قال : الله .

ـ فأطرق معاوية ملياً ، ثم قال له :

ـ لقد قلت حقاً . وأنا أستغفر الله .

ولو كان معاوية ملكاً كمن يعرف التاريخ من الملوك لغضب عليه ، ولكنه كان صاحب محمد ـ ﷺ ـ ، كان من كتاب الوحي الذى أنزله الله عليه . فلما رأي الحق رجع إليه .

ولزم موسى عبدَ العزيز بن مروان وكان أمير مصر ، وكان خير بنى مروان ، لا يفضله فيهم إلا ابنه عمر العظيم . فكان موسى مع المجاهدين لنشر الإسلام في أفريقية ، سلك معهم الصحراء ، وركب معهم البحر ، وقاد حملات وسفناً إلى أن ولى الخلافة عبد الملك ، فأراد أن يُشَرِّف أخاه الأصغر بشْراً بولاية العراق ، ولكنه كان يعرف ضعفه عنها ، وكان يعلم أن من ولى رَجلاً ولاية وفى المسلمين من هو أقدر عليها ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين . فكتب إلى أخيه عبد العزيز أن يبعث بشراً ـ وكان معه في مصر ـ أميراً على العراق ، وأن يبعث معه بموسى ، وأن يفهمه أنه هو الأمير الحقيقى ، وما لذاك إلا الاسم ، وأنه مسؤول عن كل خلل أو تقصير ، فاستلم بشر إمارة العراق ظاهراً ، وكان موسى الأمير حقاً . فأدار الأمور خير إدارة ، وساس الناس أعدل سياسة ، وبقى على ذلك حتى مات بشر ، وولى الرجل الحازم الصارم الظالم الحجاج . وكان يكرهه ويتهمه بتهم هو برىء منها ، فاستأذن عبد الملك فى

عقوبته ، وكان فى دمشق صديق لموسى هو خالد بن أبان فكتب إليه :

« إنك معزول ، وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف ، وقد أمر فيك بأغلظ أمر ، فالنجاةَ النجاةَ ، فإما أن تلحق بالفرس فتأمن ، وإما أن تلحق بعبد العزيز مستجيراً به ، ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك » .

فلما أتاه الكتاب ركب فلحق بعبد العزيز بن مروان وكان فى الشام قد وفد يحمل أموال مصر إلى أمير المؤمنين .

وغضب الحجاج لما رآه أفلت منه . وكتب إلى عبد الملك : « يا أمير المؤمنين، إن موسى بن نصير قد اقتطع من أموال العراق ما لا يقدر ، وفرّ ، فابعث به إلى » .

ولكن عبد العزيز أدخله على أخيه الخليفة ، وعمل حتى رضّاه عنه ، ثم سيّره معه إلى مصر . وبقى فى مصر ، حتى خلا مكان القائد العام لجيوش العرب بموت حسان أو بعزله ـ وفى ذلك روايتان ـ فولى موسى القيادة العامة .

وكانت راية الإسلام قد رفرفت من قبل على أفريقية كلها ، على يد عقبة ابن نافع أولاً الذى اخترق بجيشه الشمال الأفريقى كله ، ماضياً وسط القبائل البربرية كالسهم . ثم على يد حسان بن النعمان ، ولكنها كانت حركة عسكرية . لم يكن بعدها استقرار ، ولم تطهر البلاد من قوى الأعداء .

فلما تسلم موسى ، رأى الجيوش الإسلامية التى بلغت البحر قد عادت إلى القيروان ، التى بناها عقبة مؤقتاً ، لتكون مركزاً ثابتاً للقيادة ، قد أصابها الجزر بعد ذلك المد ، فاضطرت إلى الانسحاب والتوقف بعد ذلك الهجوم(1) .

(1) كما وقع لرومل أقدر قائد معاصر فى أقوى جيش حديث بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً ، ولكن رومل فشل نهائياً ، وفشل خصومه وإن ظفروا فى المعركة . وعادت البلاد إلى أهلها . وما أهلها إلا أولئك الفاتحين الأولين .

والقيران نفسها لم تكن إلا مجموعة من الأكواخ والخصاص ، حتى أن المسجد لم يكن أكثر من جدران من الطين قد سقفت ببعض الخشب ، وكانت الجبال المحيطة بها كلها بيد البربر . وكانوا يهددون المدينة دئماً ، فكان أهلها يصبحون على ترقب ، ويمسون على حذر .

ولم يجد الفاتحون المسلمون فى كل من قابلوا من الأمم من هو أقوى ساعداً، وأجرأ قلباً ، وأكثر بالحرب تمرساً من الترك فى الشرق ، والبربر فى الغرب . فرمى الله أولئك بقتيبة وهؤلاء بعقبة ثم بموسى .

ولما وصل موسى إلى مقر القيادة فى ذات الجماجم . جمع القواد والضباط وخطبهم خطبة عرفهم فيها بنفسه وبخطته ، وأعلن فيها أسلوبه فى الحكم . فكان الأسلوب العمرى : شدة فى غير عنف ، ولينا فى غير ضعف ، وتواضعاً فى غير مذلة ، لا استئثار فيه ولا استبداد ، وليس فيه حمل على باطل . فكان مما قال :

« وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى منى حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها فإنى أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون . ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان ـ إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

ثم نقل القيادة إلى المركز الأمامى إلى القيروان . وهناك خطب خطبة ثانية أعلن فيها طريقته فى القيادة العسكرية ، كما أعلن فى الأولى طريقته فى الإدارة المدنية ، فقال :

« ليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم من غير

أن يكلم أو يكلم . متوكلاً فى حزمه ، جازماً فى عزمه ، مستزيداً فى علمه ، مستشيراً لأهل الرأى فى إحكام رأيه ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً ، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً ، راجياً من الله حسن العاقبة . وإن من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عونًا عليه عند النكبة ، وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها ، أو يحكم الله فيها وهو خير الحاكمين » .

وفى هذه الخطبة الموجزة المعجزة أصدق صورة للقائد الكامل ، ولقد أمضى كل ما قاله فيها ، فجرد حملة من خمسمائة فارس ، وصلت إلى زعوان وعادت بشىء من الأسرى والغنائم .

ووجه حملة أخرى بقيادة ابنه عبد الرحمن ، وثالثة بقيادة ابنه مروان ، فطهر بذلك منطقة القيروان كلها من الأعداء . وأمن على مركز القيادة . وأحصيت الغنائم فبلغ الخمس ستين ألفاً . أعده ليبعث به إلى عبد العزيز ، وكتب إليه فى ذلك كتاباً ، أخطأ الكاتب فيه فذكر أن الخمس كان ثلاثين ألفاً .

فلما وصل الكتاب إلى عبد العزيز ، أكبر الرقم ولم يصدقه وكتب يقول له : « هل هذا صحيح أو هو خطأ من الكاتب ؟ » .

فأجابه أنه خطأ كما قدر الأمير ، ولكنه خطأ نقص لا زيادة ، والرقم الحقيقى هو ستون ألفاً .

* * *

ووجه همته إلى الفتح .

وكان أدنى القبائل إليه هوارة وزناتة وكتامة ، تسرح فى موضع حكومة

الجزائر اليوم . وهى قبائل بربرية مقاتلة لا تحصى كثرة وعدداً ، وكان فى المغرب الأقصى قبائل صنهاجة القوية الشديدة ، وكانوا جميعاً محاربين صحراويين ، ولكن العرب كانوا كذلك صحراويين محاربين . وكانوا مسلحين بالإيمان الذى يجعلهم يطلبون الموت فى سبيل الله ، كما يطلب غيرهم الحياة ، فلم يكن يخيفهم شىء ، وهل أخوف من الموت ، فبماذا تخيف من يطلب الموت ؟ .

وجرد الحملات أولا على القبائل القريبة منه ، وكانت قد جربت قتال العرب المسلمين وعرفت ما هم فى الحروب . فدافعت دفاعاً قوياً ، وكانت مواقع مهولة كان فيها الظفر للمسلمين فاستسلمت تلك القبائل ، فصالحهم موسى وأخذ منهم رهائن لئلا يغدروا على عادة تلك القبائل . فأحس منهم الغدر ، فهم بالبطش بالرهائن فقالوا له :

لا تعجل أيها الأمير حتى يتبين لك الأمر ، فإن آباءنا وقومنا لن يعودوا إلى الخلاف ، ونحن فى يدك ، فإن وجدتهم غدروا فأنت على ما تريد أقدر منك على استحيائنا بعد القتل . فأمهلهم وخرج إلى كتامة فوجد وجوهها ورؤساءها قد تلقوه مسالمين معتذرين . فقبل منهم واستحيا رهائنهم .

* * *

وتوجه بعد ذلك إلى قبائل صنهاجة بقوى ضخمة من أهل الديوان (أى الجند النظامى) والمتطوعة من العرب وممن أسلم من البربر ، فوجد النهر فى طريقه فى فيضانه وزيادته ، فأحدث فيه مخاضة غير التى كان أحدثها عقبة ومضى قدماً ، فوجدهم مستعدين للحرب ، وكانت المعركة فى دارة واسعة بين جبال منيعة اختاروها ، لا يوصل إليها إلا من مضايق قليلة بين الصخور ، ودارت المعركة يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت إلى العصر ، وكانت من أعنف المعارك .

وخرج خلالها فارس من فرسان البربر ، فدعا إلى المبارزة فلم يجبه أحد ، لما رأوا من شكله وهوله . فأمر موسى ابنه مروان فخرج إليه . فلما رآه البربرى شاباً حدثاً ضحك منه وقال له :

ارجع فلست أريد أعدم منك إياك .

فحمل عليه مروان ، حتى ألجأه إلى طرف الجبل ، فكر البربرى ورماه بالمزراق ، وهو كالرمح القصير فتلقاه مروان من الهواء بيده ولحقه فرماه به ، فخرج جنبه وسقط .

وكان الظفر للمسلمين ، وبسطوا سلطان الإسلام على الشمال الأفريقى ، ولم يبق إلا منطقة طنجة والريف ، وبعث بالأخماس إلى الخليفة .

وهاكم خبراً يدلكم على جانب من نبل هذا الرجل وتقاه .

ولما قدم كتاب موسى على عبد الملك بن مروان بالفتح ، أمر له بمائة ألف عطية له يأخذها من الأخماس ، وله أن يأخذها شرعاً ؛ لأن السنة أن من جاءه شيء من هذا المال بغير طلب منه له ، ولا استشراف نفس ، كان له أن يأخذه ثم يتموله أو يتصدق به . فإن أخذه لنفسه انتفع به فى دنياه والدنيا فانية ، وإن تصدق به قدمه بين يديه ابتغاء منفعة فى الآخرة الباقية ، فآثر موسى الآخرة على الدنيا ، وجمع الجند فأشهدهم أنه جعله كله معونة للمسلمين ، وفى الرقاب (1) .

وكان إذا أفاء الله عليه شيئاً نظر فى الأسرى ومحص عقولهم ، وجرب فطنتهم ، فمن وجده ذا عقل وفطنة عرض عليه الإسلام ، فإن أسلم أعتقه وتولاه ، وتعهده حتى ينجب ، فنشأ بذلك طبقة من البربر كان منها القواد

(1) أى لتحرير العبيد .

ومنها العلماء . ولعل طارقاً فاتح الأندلس كان من هؤلاء ، لأن أصح الأقوال فى أصله أنه كان من مسلمة البربر .

كان عقبة قد وصل إلى البحر الأعظم (الأطلسى) فخاضه بفرسه ، وقال : « اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا فى سبيلك » .

ولولا أن البحر منعه لمضى .

أما موسى فلم يمنعه البحر أن يمضى ، ولم يخضه بفرس ولا ناقة ، بل دخل البيوت من أبوابها ، ونال الأمور بأسبابها ، فركب ظهر البحر بسفينة وأسطول ، وكان موسى كما قدمنا قد شارك قبل إمارته فى الجهاد المقدس فى البر وفى البحر .

فلما أخضع الآن البر كله ، وأتم ما كان ابتدأ به عقبة ، ولى وجهه شطر البحر ، فأنشأ داراً للصناعة ، وهى بركة عظيمة جداً حفرها فى موضع أمين قريب من موضع تونس اليوم ، وحفر قناة أجرى فيها الماء من البحر إلى هذه البركة . وأمر بصناعة مائة مركب .

وقدم عطاء بن أبى نافع الهذلى فى أسطول مصر . وكان قد بعثه عبدالعزيز إلى جزيرة سردانية ، فأرسى بسوسة ، فأمر له موسى بما يحتاج إليه ، وكتب إليه أن ركوبالبحر قد مضى فى هذا العام وقته ، وقد جاء تشرين الآخر فلا تغرر بنفسك وبالمسلمين . فلم يلق عطاء بالاً لكتاب موسى ولم يبال به ، وشحن مراكبه وأبحر ، فافتتح جزيرة صغيرة وأصاب مغنماً وربحاً ، وعاد فأصابته الرياح العاصفة وهاج عليه البحر ، فغرق عطاء وغرق من كان معه ، ووقع من نجا منهم إلى سواحل أفريقية ، فلما بلغ ذلك موسى ، بعث فرقة من الجيش للتفتيش عنهم وإنقاذهم ، وأمر بحطام تلك المراكب فأدخلت دار

الصناعة وجددت ، فلما تم الأسطول ، احتفل بإنزال سفنه إلى البحر احتفالاً ضخماً حضره وجوه الناس وأشرافهم . فأعلن أنه راكب بنفسه فرغب الناس فى الركوب وأسرعوا ، فلما اكتمل جمعهم فى السفن ، عقد لواء القيادة لولده عبد الله ، وولاه عليهم وأمره بالإقلاع من ساعته ، فوصل إلى صقلية وفتح مدينة فيها ، ورجع بالنصر المؤزر ، والغنائم الوافرة . وتعاقبت الغزوات فى البحر إلى سردانية وصقلية ، وافتتحت الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة وغيرهما) .

ثم وجه ابنه مروان ففتح السوس الأقصى ومدينتها طنجة ، ولم يبق بقعة فى أفريقية خارجة عن حكم الإسلام إلا سبتة ، فكانت من أملاك إسبانيا .

وكان موسى عازماً على افتتاحها بل كان يطمح إلى افتتاح إسبانيا ذاتها . ولكن أحب أن يمهد لذلك بمعارك فرعية خوفاً من المغامرة بجمهور الجيش الإسلامى ، وعملاً بتوجيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وأعد حملة بحرية بقيادة طريف بن مالك البربرى ، فوصلت إلى الجزيرة التى سميت جزيرة طريف ، وعادت سالمة غانمة .

فجهز حملة كبيرة ، من سبعة آلاف أكثرهم من البربر . وكان البربر قد أسلموا وحسن إسلامهم . والبربر أمة صحراوية ، سليمة القلوب ، متينة الأخلاق ، حاربت الإسلام أولاً كما حاربه العرب . ثم قبلته كما قبلوه فكان منها جند موسى وأعوانه فى هذا الجهاد . فنجحت ذلك النجاح العجيب ، وفتح مدناً عظاماً ، وكاد يكتسح الأندلس كلها[1] لولا أن موسى ، أمره بالتوقف حتى يلحق به ، وكان موسى - وهو القائد العام - لم يرد من بعث طارق فتح البلاد بل إثارة معارك محلية للاختبار ودراسة حال العدو ، وحدد

(1) ستقرأ خبر ذلك مفصلاً إن شاء الله .

له أمداً لا يجاوزه ، والحياة العسكرية تقوم على الطاعة ، فلما جاوز المدى ، وأوغل بجيشه الصغير حتى صار معرضاً للتطويق ، وكان مستحقًا للعقوبة على ما أتى من المخالفة ، وإن كان مستأهلاً للشكر على ما أصاب من النجاح . ولو كان طارق قائداً من قواد اليوم وفعل ذلك لحوكم أمام المجلس العسكرى ، فإما أن يعاقبه وإما أن يخفف الحكم عليه أو يبرئه . وهذا ما صنعه موسى بطارق كما تعلمون بعد قليل .

دخل موسى الأندلس بجيش كبير ، فيه ثمانية عشر ألفاً نصفهم من البربر ، يحمى به جيش طارق ، ويشد أزره ، وكان شيخاً كبيراً قد جاوزت سنه السبعين ، ولكنه كان كالأسد الكاسر ، فعبر إسبانيا ودوخها ، لم يقف أمامه عدو ، ولم يثبت أمامه خصم ، ولم يستعص عليه حصن .

ترك الجبل الذى دخل منه طارق ، ودخل من الموضع الذى كان معروفاً ـ إلى أيام المقرى مؤلف نفح الطيب (إلى ما قبل ثلاثمائة سنة فقط) ـ بجبل موسى ، كما عرف مدخل طارق بجبل طارق ، ولا يزال يعرف بذلك إلى الآن ، فى الدنيا كلها .

ثم سلك غربى الطريق الذى سلكه طارق ، فأتى أولاً على شذونة فافتتحها عنوة ، ثم سار إلى مدينة قرمونة (كارامونا) ولم يكن فى الأندلس ـ كما فى نفح الطيب ـ أحصن منها ، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال . فدخلها ، ثم مضى إلى أشبيلية ، وكانت أعظم المدن شأنا ، وأعجبها بنياناً ، وأكثرها آثاراً . وكانت دار الملك قبل القوط ، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس ، حولوا السلطان إلى طليطلة وبقى رؤساء الدين فى أشبيلية . فامتنعت على موسى مدة ثم فتحها الله عليه ، واعتصم فلول جيش الإسبان فى

قلعة لقنت (آليكانت) ففتح الحصن وتوجه إلى مدينة ماردة (ميريدا) وكانت عاصمة مملكة قديمة ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر ، فحاصرها ودافع أهلها دفاعاً شديداً . فعمل موسى دبابة [1] ، دب المسلمون تحتها من برج إلى برج يهدمونه بمعاولهم ، فصالحه أهلها وفتحت . وانتفضت أشبيلية وثار أهلها فبعث إليهم ابنه عبد العزيز فأعاد فتحها ثم توجه موسى إلى طليطلة .

ولما لقي طارقاً ، ووقعت عليه عينه ترجل طارق ، فوبخه موسى على مخالفته أوامر القيادة العليا ، وهم بعقوبته وطالبه بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة فأتاه بها بعدما خلع رجلاً من أرجلها وخبأها عنده .

ولهذه المائدة أخبار كثيرة ، وأوصاف فيها مبالغات . و كانت تسمى مائدة سليمان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وما لسليمان علم بها . وحقيقة أمرها أن أتقياء النصارى فى إسبانيا كانوا يوصون بالأموال الجزيلة للكنائس ، فإذا اجتمع ذلك المال صاغوا منه الموائد والكراسى من الذهب والفضة وحلوها بكريم الحجارة ، وحمل عليها القساوسة الأناجيل فى حفلاتهم وأعيادهم .

وكانت تلك المائدة فى طليطلة مما صيغ فى هذا السبيل ، وبالغوا فى تفخيمهما ، يزيد فيها كل ملك على ما صنع سلفه ، حتى بلغت مبلغاً لم تصل إليه تحفة من التحف . ولم يكن يبلغ حقيقة قدرها ثمن من الأثمان .

❊ ❊ ❊

(1) عربة مغطاة بالخشب والجلود ، يهجمون بها على الأسوار ، ومنها ما له رأس من حديد ثقيل لنقب السور يسمى الكبش .

ثم عفا موسى عن طارق ، وغفر له مخالفته فى جنب ما جاء على يديه من عظيم الفتوح ، وأقره على مقدمته ، وسيره لفتح شرق الجزيرة ، وسار هو غرباً ، وكانا قد انتهيا من فتح مقاطعة الأندلس ، ومقاطعة قشتالة ، وتوجه موسى إلى الأراغون ، فاجتمعا أمام أسوار سرقسطة ، فافتتحت بقيادة موسى، ثم شرق طارق فافتتح بلنسية (فالانس) وبرشلونة (بارسلونا) وهى العاصمة الثانية للبلاد ، ثم اخترق موسى جبال البرنس (البرنة) وفتح جنوبى فرنسا . ووجه طارقاً إلى جليقية ، وهى الزاوية الشمالية الغربية من إسبانيا ولم يكن قد بقى للعدو غيرها . وأعلن موسى خطته الجريئة العظيمة ، وهى اختراق أوربة من الغرب إلى الشرق ، وافتتاحها كلها ، وكان ذلك ممكنًا عسكريًا ، وكان موسى أهلاً له بمساعدة طارق وغيره من قواده ، وكان قادراً بعون الله عليه ، وكان فى ذلك -لو تم- تغيير تاريخ العالم ، وكانت السيادة اليوم فى الأرض للمسلمين ، وكانوا هم أرباب العلم والقلم ، والسيف والعلَم، ولنجت الدنيا من شرور الغرب والشرق ، من القنبلة الذرية التى تهلك الحرث والنسل ، وتخرب المدن والقرى ، ومن القنبلة (الأخرى) التى تذهب الدين والخلق والحرية والإنسانية : وهى الشيوعية ، ولكن الله لم يرد هذا ، ولا راد لإرادته ، فأقام دونه حاجزاً من أمر الخليفة فى دمشق باستدعاء موسى إليه ، وأنتم تعرفون بقية المأساة التى انتهت بها سيرته .

***

فاتحُ القدس

قل للملوك تنحوا عن عروشكم

فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

هذا الذى أخذ الدنيا بسيف الظفر ، ثم جاد بها بيد الكرم ، هذا الذى روع أوروبة مرتين : مرة حين قهر جيوشها بسيفه ، و مرة حين شَدَهَ نفوسها بنبله . هذا الذى كان النموذج الأتم للقائد المنصور ،وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل ، والمسلم الصادق . وكان المحرر الأعظم ؛ حرر هذه البلاد : الشام و فلسطين من استعما ر الأوربيين بعدما استمر نحوا من مائة سنة .

هذا الذى انتزع من أصدقائه ومن أعدائه ، أعظم الإعجاب ، وأصدق الحب ، و ترك فى تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد ، وأعطر السجايا ، وكان اسمه من أضخم الأسماء التى رنت فى سمع الزمان ، ودوت فى أرجاء التاريخ ، وخلدت على وجه الدهر : « صلاح الدين الأيوبى » .

سقطت على أقدامه البدول ، ووقفت على أعتابه الملوك ، ودانت له الرقاب، وانقادت إليه الخزائن ، ومات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً وديناراً ذهبياً واحداً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً ، فجهز وأخرجت جنازته ـ كما يقسم القاضى ابن شداد ـ بالدين ! .

لقد قرأت سيرة صلاح الدين مراراً ، ولكننى عدت أنظر فيها قبل أن أكتب هذا الفصل ، فقرأت فى سيرته وحروبه أكثر من ألف صفحة ، فكان من

أعجب ما وجدت أن ينبغ هذا الرجل العظيم (جداً) ، فى ذلك الزمان الفاسد (جداً) ، وأن يتغلّب على العدو القوى (جداً) .

كان المسلمون قبل نور الدين ، وصلاح الدين ، على شر حال من الانقسام، على حال لا يمكن أن يصل إلى توهمها وهم [1] واحد منكم مهما بالغ فى تصور الشر ، كان فى هذه البقعة الضيقة من الوطن الإسلامى ، من الدول ، بمقدار ما كان فيها من البلدان ، ففى كل بلدة دولة مستقلة : فى دمشق دولة ، وفى شيزر دولة ، وفى حماة دولة ، وفى بعلبك ، وفى حلب ، وفى ماردين ، وفى خلاط ،وفى الموصل ، وفى سنجار بجنب الموصل ! وفى الحلة [2] ، وفى بانياس وفى الجبل دول . وكان فى كل دولة ملك أو أمير ، أمراء منكرون لهم أسماء عجيبة وسير أعجب . وكان أقصى مدى لصلاح الدين ونور الدين من قبله ، أن يكون كواحد من هؤلاء الأمراء ، وإن هو نبغ كان أكبرهم ، فكيف ظهر هذان البطلان الخالدان ، فى مثل ذلك الزمان ؟

* * *

وكانت قد دهمت الشام قبل صلاح الدين حملتان صليبيتان ، جاءتا كموج البحر لهما أول وليس لهما آخر ، ساقهما الطامعون فى هذه البلاد باسم الغيرة على النصرانية ، وإنقاذ أرض المسيح من أيدى الوحوش الضوارى ذوات الأنياب والمخالب : المسلمين !

وكانت لهم دول ، دول لا دولة واحدة ، فلهم فى القدس مملكة ، وفى أنطاكية إمارة ، وفي طرابلس ، وفى الرها (أورفه) حكومة . ولهم فى يافا كونتيه . دول وإمارات طالت جذورها ، وبسقت فروعها ، وعششت بومها وباضت وفرخت ، وحسب أهلها ، وحسب المسلمون أنها امتلكت الشام إلى الأبد .

(1) « الوهم » و « التوهم » عند علمائنا الأولين ما يسمى « الخيال » ومنه الرسالة القيمة « التوهم » .
(2) وللباطنية (الحشاشين) من الإسماعيلية دولة .

فكيف استطاع صلاح الدين أن يصنع من ضعف المسلمين قوة ، ومن انقسامهم وحدة ، حتى واجه بهم أوروبة كلها ، وأزال ـ ما أمكن ـ من بقايا الحملتين الماضيتين ، ورد الحملة الثالثة الهائلة التى رمته بها أوروبة ؟

أتدرون كيف ؟

إنه ما رد العدو بعدد المسلمين ولا بعُدَدهم ، ولكن بالسلاح الوحيد الذى لا ينفع فى هذا المقام غيره : « بالإيمان » .

غير ما كان بنفسه من الفساد ، فغير الله على يديه ما كان فى قومه من الضعف والتخاذل ، كان يلهو ويعطى نفسه هواها ، فتاب وأناب ، لم يفسد بالإمارة كما يفسد بها كل صالح ، بل صلح بها بعد أن كان هو الفاسد ، ورجع إلى الله ، فأرجع الله إليه النصر .

استمد أخلاقه وسيرته من إرث محمد ـ ﷺ ـ فى التقوى والصلاح فأعطاه الله إرث محمد فى الغلبة والظفر .

تمسك بالدين وأقام دولته على أساس من الإسلام متين ، فاستطاع بهذه الدولة المتفرقة الجاهلة الهزيلة ، وهؤلاء الأمراء المنكرين ذوى الأسماء العجيبة، أن يحارب أوروبة كلها ، أوروبة الحانقة الحاقدة المتعصبة التى اجتمع ملوكها جميعاً على حرب فلسطين .

صحح عقيدته أولاً ، وسأل (القطب النيسابورى) فألف له عقيدة عكف عليها وصار يلقنها أبناءه ، وقرب أهل العلم والدين ، فكان مستشاريه وخاصته أعلام العصر : القاضى الفاضل ،والقاضى ابن الزكى ، والقاضى ابن شداد ، وكان كلما نزل بلداً دعا علماءه ، ومن كان لا يأتى منهم أبواب السلاطين أخذ أولاده وذهب إليه ، كما ذهب إلى (الحافظ الأصبهانى) فى

الإسكندرية ، وكان يحرص على صلاة الجماعة ، ولا يترك الصلاة قط إلا فى الأيام الثلاثة التى غاب فيها قبل موته ، وكان يصوم حتى فى أيام المعارك ، وكان مكثراً سماع القرآن يبكى من خشية الله عند سماعه ، ويواظب على مجالس العلم والحديث ، حتى فى ليالى القتال ،لم يترك صلاة الليل إلا نادراً، يلجأ إلى الله كلما دهمته الشدائد ، وضاقت عليه المسالك ، فيجد الفرج والنجاة ؛ لأنها إن سدت أبواب الأرض أحياناً ، فإن باب السماء لا يسد أبداً ، وكان يقيم الحق لا يبالى ولا يحابى أحداً . أخذ مرة ابن أخيه تقى الدين وأعز الناس عليه بشكوى عامى من دمشق اسمه ابن زهير ونكل به . أما كرمه وهوان الدنيا عليه ، فأمر لا تتسع له الأحاديث . وكان اعتماده على الله ، ما استكثر قط عدواً ، ولا خافه ، ولا فقد أعصابه قط فى هزيمة ولا ظفر . وكان متواضعاً يطأ الناس (طراحته) عند ازدحامهم للشكوى ، ويردون عليه ويضايقونه فى أوقات راحته ، ما غضب لنفسه قط ، ولكنه إذا غضب لله ، لم يجرؤ أحد أن يرفع النظر إلى وجهه ،وصار كالأسد الكاسر لا يقف أمامه شيء . وكان محتسباً صابراً ، ولما جاءه نعى ولده إسماعيل ، قرأ الكتاب ودمعت عيناه ، ولم يقل شيئاً ولم يعرف الناس إلا بعد .

ولما جاءه نعى ابن أخيه تقى الدين ، أبعد الناس عن خيمته وجعل يبكى بكاء شديداً ، والقضاة معه يبكون لبكائه ولا يعرفون السبب ، فقال لهم والعبرة تخنقه : مات تقى الدين . ثم رجع إلى نفسه فاستغفر الله ، وغسل عينيه بماء الورد ، وكتم الخبر كيلا يبلغ العدو فيقوى ، أو الجيش فيضعف .

وكان حسن العشرة ، طيب الأخلاق ، حافظاً للأخبار والنوادر ، وكان معتلاً بدمامل ما تفارق نصفه الأدنى ، وكان مع ذلك يركب الخيل ويصبر على الألم ، ويخوض المعارك .

***

وأى معارك ؟ أنا لا أعرف فى كل ما قرأت من كتب التاريخ ، وأظن أنى قرأت تاريخ الشرق والغرب ، جيشاً خاض من المعارك أكثر مما خاضه جيش صلاح الدين ، لقد ضرب كل رقم قياسى إلى ذلك العصر ، خاض أربعاً وسبعين معركة فى مدة ولايته على الشام ، فى أقل من تسع عشرة سنة .

حارب هؤلاء الأمراء ، أمراء الموصل ، وأمراء حلب وحماة ، وحارب الحشاشين القتالين ، ومن اشتهارهم بالقتل اشتق اسم (أساسان) فى الفرنسية للقاتل . ولا تقولوا كيف حارب أمراء الإسلام ؟ فإن الذى يريد أن يبنى له داراً، لابد أن يزيل الأنقاض والخرائب ، فهو يهدم بيته البالى ليبنى بيتاً جديداً، وكذلك فعل صلاح الدين ، ثم ابتدأت سلسلة المعارك الهائلة ، حروب ما عرفت مثلها أرض فلسطين وديار الشام إلى ذلك العصر ، حروب لا تقاس بها القادسية ولا اليرموك . . حروب جرب فيها كل سلاح : السيف والرمح والدبابات والمجانيق ، والشجاعة والكيد ، والذكاء والاختراع ، والمروءة والشهامة ، وكان صلاح الدين ظافرا فيها جميعاً .

حروب استعملت فيها المنجنيقات التى تقذف الصخور الهائلة كالمدافع الثقيلة اليوم ، والسهام المتلاحقة كالرشاشات ، يمهد للمعركة بآلاف القذائف، وبالضرب الذى يستمر يومين وثلاثاً . واستعملت الأكباش ، وهى عربات ضخمة مصفحة لها رأس ثقيل ينقب الأسوار ، والدبابات ، نعم الدبابات ، وهذا هو اسمها القديم ، وكانوا يفتنون فيها حتى اخترع الإفرنج فى حصار عكا دبابة ثقيلة صنعوا منها ثلاثاً ، فى كل منها أربع طبقات ، فجاءت أعلى من السور ، وحصنوها بالحديد والجلود المسقاة بمواد يعرفونها تمنع الحريق ، ولم تؤثر فيها قذائف المسلمين ولا النار اليونانية التى كانوا يلقونها ، وجزع المسلمون وخافوا ، فقال لهم صانع من دمشق اسمه ابن شيخ النحاسين : أنا

أصنع لكم ناراً تحرقها ، فاستصغروه فلما ألح أجابوه ، فاستمهل يومين ثم صنع أشياء خلطها ووضعها فى قدور ثلاث ، وألقاها فانفجرت كالقنابل ، بمثل دوى الرعد ، وأحرقت الدبابات ، وكبر المسلمون، وكان يومًا عظيمًا ، ولما عرضوا عليه الجوائز أباها ، وقال : عملت ذلك لله !

وجاء العدو مرة بكبش (مصفح) عظيم ، فأحرقه المسلمون ، ثم خافوا أن ينسحب ، فرفعوه (وهو يشتعل) بالآلات (اللنشات) حتى قارب السور فصبوا عليه خراطيم الماء ، وأخذوه والفرنج ينظرون مشدوهين ، فوجدوا فيه (425) رطلاً من الحديد .

واستعملوا الحيلة : لما ضاقت الميرة على عكا أثناء الحصار ، وفشلت كل محاولة لإمدادها بالأغذية ، تطوع جماعة من المسلمين فحلقوا لحاهم ولبسو لباس الإفرنج ، وحملوا معهم الخنازير ، وتكلموا الفرنسية ، وركبوا بطشة (زروقاً ضخماً) ودخلوا بحيلة من أعجب حيل الحروب .

ومن هذه الحيل أن صلاح الدين كان يعرف القاعدة العسكرية ، وهى أن الجيش ليس المرابط فى الجبهة ، ولكن الشعب كله جيش ، لذلك كان يستغل كل قواه للحرب ، حتى اللصوصية ، جمع اللصوص ليتخلص من شرهم ، ولكنه لم يحبسهم بل استخدمهم فى صنعتهم ، فكانوا يسرقون له الأمراء والجنود من فرشهم بطرق عجيبة رواها ابن شداد ، وطالما انتزع أمراء من تحت لحفهم والخناجر على أعناقهم ، والمخدر فى أجسامهم ، فلم يروا أنفسهم إلا أمام صلاح الدين .

ويوم حطين اتبع صلاح الدين (تكتيكاً) حربيا عجيباً ، حين أجبر الإفرنج على ملاقاته فى المكان الذى تخيره هو ، وتحصن فيه . ويوم نجح فى استرداد القدس أتى من النبل والكرم والمروءة ، ما لم يفرغ بعد مؤرخو الإفرنج من

الكلام فيه وتقديره .

استرد القدس بعدما ملكها الإفرنج إحدى وتسعين سنة ، أفتشكون في استردادها اليوم ، و قد ملكها اليهود سبع سنين [1] ؟ استردها وحولها ، يحامي عنها دول أوروبة كلها وملوكها ، أفلا نستردها اليوم وحولها حفنة من شذاذ الآفاق ؟

لقد كانت للصليبيين دول ، استمرت أكثر من مائة سنة ، فأين تلك الدول؟ ولم نكن على مثل انتباهنا اليوم ، فعاملناها لم نقاطعها كما نقاطع الآن إسرائيل ، وحالفناها جميعاً حتى دمشق بلدنا قد حالفت مرة الصليبيين ضد المجاهد الأول عماد الدين ، وحالفهم الحشاشون ، وحالفهم شاور من قبل، فهي بقي مع ذلك أثر للصليبيين ؟

إن الأمة التي أخرجت صلاح الدين ، وهي أسوأ من حالنا اليوم حالاً ، وأشد انقساماً وأكثر عيوباً ، لا تعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين .

إن نكبة فلسطين بالصليبيين كانت أشد بمائة مرة من نكبتها بإسرائيل ، وقد مرت بسلام ، فهل تشكون في أننا سننقذ فلسطين ؟ أما أنا فوالله الذي لا إله إلا هو ، لو بقي على وجه الأرض أربعون مسلماً لما شككت في أنهم يستردونها ، وإني لأشك فيمن يشك في هذه الحقيقة ، أشك في إدراكه لطبيعة هذه الأمة ، أشك في عقله ، أشك في أنه عربي وأنه مسلم [2] .

وإذا عجزنا نحن عن أن نعود إلى مثل سيرة صلاح الدين ليكتب لنا مثل نصر حطين ، فسيخرج من أصلابنا ، من هم أنقى منا وأطهر ، وسيستردون فلسطين .

(1) أذيع هذا الحديث سنة 1955 م .

(2) وهذا بعد أن نغيّر ما بأنفسنا ، ونعود إلى ديننا ، ونجاهد لإعلاء كلمة ربنا .

عِبـــرة

كنت أتمنى ألا أحدثكم إلا أحاديث المكارم والمفاخر ، ولا أقص عليكم إلا أخبار النصر والظفر ولكنى رجل مؤرخ ، وحياة الأمم كحياة الأفراد ، فيها الصفاء وفيها الكدر ، وفيها الأعراس وفيها المآتم . ولا أكون أمينا على التاريخ، ولا صادقاً فى الرواية ، ولا ناصحاً للقارئين ، إذا أريتكم صفاء الماضى دون كدره ، وسردت عليكم مباهجه دون مآسيه ، ولعل العبرة فى الهزيمة أكبر من العبرة بالنصر .

وأنا أستجديكم اليوم الدمع ، وأدعوكم إلى البكاء لا بكاء أبى عبد الله الصغير الذى سأحدثكم حديثه فهذا بكاء الأنذال ، إنما أريد بكاء الرجال ، والرجل قد تجيش عاطفته ، ويسيل قلبه دمعاً من عينيه ، ثم يمسح الدمعة، وينسى العاطفة ، ويحكم العقل ، ويمضى إلى العمل ، فلئن ضاعت منا الأندلس ـ وسترون لم ضاعت ـ فقد أبقت لنا عبرة ، ولقنتنا درساً .

حديث اليوم عن الفردوس الإسلامى الذى فقدناه ، عن المأساة التى لم ير تاريخنا مثلها ، اللهم إلا مأساة فلسطين ، التى ستغدو لنا إن بقينا على غفلتنا وانقسامنا أندلساً جديدة ، ولن يكون ذلك ـ إن شاء الله ـ ما دام فى السماء رب عادل ، وعلى الأرض شعب مسلم .

الحديث عن أبى عبد الله الصغير ، وعن سقوط الأندلس ، وما هو ـ مع الأسف ـ إلا إشارات عابرة لتلكم الأحداث الجسام ، وكلمات قليلة عن هاتيكم الفواجع الكبار التى ملأت صحف التاريخ أسى وحزناً .

نحن الآن فى أواخر العهد بالأندلس ، فلقد تقلص ذلك المجد المنبسط ، وانزوت تلك الراية التى كانت ترفرف على أسوار طليطلة وقصور قرطبة ، وعلى سيف البحر من المرية إلى برشلونة ، والتى جازت جبال البرنس (البيرنة) حتى بلغت قلب فرنسا ، لقد مضى ذلك كله وانقضى ، فلا أمية باقية، تلوح أعلام قوادها وهى على عرش الخضراء فى دمشق ، أو على عرش الزهراء فى قرطبة ، ولا الموحدون تموج (الزلاقة)بفرسانهم الذين ينتزعون النصر من بين فكى الدهر ، لقد ذهبت الدول الحاكمة القوية ، فناد اليوم لا يلبك القائد عبد الرحمن الغافقى ، ولا الأمير عبد الرحمن الداخل ، ولا الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ولا يجبك الملك المظفر أسد الصحراء ابن تاشفين . وقد ذهبت الإمارات القوية ، فما فى البلاد اليوم مثل الحاجب المنصور ولا مثل ابن عباد ، ما فيها إلا إمارة صغيرة حقيرة فيها عرش صغير حقير ، نخر سوس الخلاف باطنه ، وهدت فؤوس الإسبان جوانبه ، ولا يزال أهله يتنازعون عليه ، ويتقاتلون من حوله ، عرش بنى الأحمر فى غرناطة . .

أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التى كتب الله أن يكون ضياع الأندلس على أيديها ؟ .

كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها ، والموحدون صحراويون أشداء ، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا ، ولا المدن بنعيمها ، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب ، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد ، كانوا أسود قفر ، فانجحرت منهم الذئاب ، وفرت من أمامهم ، فلما ذاقوا متع الحضارة ، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس ، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب .

وخرج عليهم ابن هود ، فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم ، وخرج على ابن هود ابن الأحمر ، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده ، وكان الموحدون

فى الأصل خارجين على الإمامة العظمى ، فكانت مملكة بنى الأحمر هذه ، مملكة خوارج على خوارج على خوارج .

ولم ينج ابن الأحمر من أمراء كانوا أصغر منه ، فخرجوا عليه ، يشترون منه ملكه برأس ماله ، وكان يحميهم الإسبان الذين كانوا يمدون أيديهم أبداً من وراء ستار ، فيضرمون هذه النار ، فلم يجد وسيلة لاستبقاء لذة الحكم ، إلا أن يبيع نفسه للشيطان ، ويخضع للإسبان ، ويجعل من نفسه ملكا على المسلمين ، وتابعاً لأعدائهم ، وكذلك يصنع حب السلطان .

وهذه مصيبتنا دائماً ، الانقسام وشهوة الحكم .

ثم تتنبه فى نفسه حمية المسلم ، وتستيقظ عزة المؤمن ، فيقطع حبل مودة الإسبانيين ، وتقوم الحرب بينه وبينهم ، ويعينه ملوك المغرب بجامع الأخوة الإسلامية التى لا تنفصم قط عراها ، فينتصر عليهم .

ويتسلسل الملك فى أولاده ، إلى العهد الذى أحدثكم حديثه ، حين يقوم النزاع على هذا العرش الصغير الذى لا يستحق أن يتنازع عليه غريبان ، فضلاً عن أن يتقاتل من أجله أخوان ، أبو عبد الله الكبير المعروف بالزغل ، وأبو الحسن والد أبى عبد الله الصغير ، وغلب الثانى على الملك ، وإن كان الأول أقوى وأحزم وأبرع وأحكم ، واستهوته حلاوة هذا العسل ، فأنسته السم الكامن فى قرارته ، وحمات النحل التى تحوم من حوله ، وغرق فى لذائذه ، وكانت له زوجة شريفة عفيفة من بنات عمه اسمها عائشة ، هى أم ولديه محمد (وهو أبو عبد الله الصغير) ويوسف ، فتركها وعشق فتاة إسبانية بارعة الجمال فاتنة الحسن ، وارتكب جريمة مثلثة اللعنات :

1 ـ حكمها فى نفسه وقصره ، وأطلعها على دخيلته وسره هى وقومها

الإسبان أعداءه وأعداء بلاده ودينه[1] .

2 ـ وظلم من أجلها زوجته الشرعية وجافاها وأذلها .

3 ـ ثم عمل ما لا يعمله رجل شريف ، فحبسها هى وولديها فى البرج ، وبقيت الحمراء كلها لهذه الإسبانية تمرح فيها هى وأعوانها ، وتكيد للعرش وصاحبه ، وتخدم قومها الإسبان وهى محمية بعرش الملك المسلم .

وكانت هذه السيدة عائشة امرأة قادرة داهية أريبة ، فلم ترض لنفسها هذا المصير ، وأعدت العدة للفرار من البرج العالي وكاتبت أنصارها ، وهيأتهم للثورة على زوجها ، ثم شققت الستائر والملاحف ، واتخذت منها حبالاً تعلقت بها وولداها وهبطت من البرج .

وبينما كان أبو عبد الله الكبير يقاتل الإسبان ، ينازل جيشاً لهم جراراً جاء ليقضى على هذه البقية الباقية من دولة العرب فى الأندلس ، كانت عائشة وابنها أبو عبد الله الصغير يقاتلا الملك العربى ، الأب يؤثر لذته على مروءته ، ويسىء لولده إرضاء لزوجته ، والابن يحارب أباه ، وكل ذلك والعدو على الأبواب .

هذا العدو الذى لم يكفه ما اقتطع من بلاد العرب ، ولم يكفه ما أراق من دمائهم ، فهو لا يزال لما يرى من تخاذلهم وانقسامهم وغفلتهم ، يطمع فى القضاء عليهم[2] .

وانتزع أبو عبد الله الصغير هذا العرش المنحوس من أبيه ، وغلبه عليه

(1) وزواج الخلفاء بينات الأعداء ، كان من أكبر أسباب الضياع .

(2) هذا ما قلته وأذعته من أكثر من خمس وثلاثين سنة ، أسأل الله ألا يتكرر فينا الآن ، ومع عدونا الجديد قوم إسرائيل ، ومن يقف وراءهم ، ويحمى ظهورهم ، ويملأ بالطعام بطونهم ، وبالمال خزائنهم ، وبالسلاح أيديهم .

ولكن الإسبان جاؤوا فأسروا أبا عبد الله الصغير ، وحرموه بر الوالد ، ولذة الحكم .

وراحت عائشة تعمل عملها .. تستبيح كل شيء لتنقذ ولدها ، لقد غلبتها عاطفتها فنسيت حقوق الأمة ، وواجبات الدين ، وأحكام الشرف ، فعرضت على الإسبان معاهدة تخضع البلاد كلها لحكم ملك قشتالة ، ويؤدى أهلها الجزية إليه بعد أن كانوا هم الذين يأخذونها منه ، معاهدة الذل والخزى والعار ، ومع ذلك فقد تدلل الإسبان وأعرضوا ، وشمخوا بأنوفهم ، لأنه لم يعد يرضيهم وقد رأوا العرب يفقدون سلائق آبائهم ، وبطولات ماضيهم إلا أخذ كل شيء . ولم يطلقوا أبا عبد الله الصغير من الأسر إلا بعد ثلاث سنين . ودفعت البلاد حريتها ثمن حريته ، وبذلت كرامته وحياتها ليتربع على عرشه ـ وعاد معه الانقسام ، وانشطرت البلاد الإسلامية شطرين : شطر تبع هذا الملك الذى باع نفسه للشيطان كما فعل جده من قبل ، فكان ملكاً على المسلمين وعبداً للإسبان ، وشطر بقى على الولاء لعمه أبى عبد الله الكبير .

ووقعت الحرب الأهلية ، وأعان الإسبان صنيعتهم وتابعهم ، فطرد عمه وانفرد على هذا العرش الملطخ بالأوضار .

ورحل أبو عبد الله الكبير إلى المغرب ، وكان بطلاً مجرباً وقائداً حازماً أريبًا ، ورأى الإسبان أنه لم يبق فى الميدان إلا هذا الشاب الضعيف ، أبو عبد الله الصغير ، فقرعوا طبول الحرب ، وأعلنوا أن قد أزفت ساعة إخراج العرب من إسبانيا التى كان دخولهم إليها سبب نعم الله عليها ، نقلها من الجهل إلى العلم ، ومن الهمجية إلى المدنية ، وأقام فيها صرح الحضارة الخيرة التى أرساها على العلم والإيمان ، فأثمرت السيادة والسعادة والأمان وقبست أوربة منها ومن المشرق أسباب الثقافة والعرفان .

وكانت عائشة قد أغضبت الله لترضى الإسبان ، وألبست قومها الذل والعار ، ليستمتع ابنها بهذه اللعبة الحلوة التى اسمها العرش ، فلم تستبق العرش ، ولا رضا الإسبان .

وكانت المعركة الأخيرة ، وبدأ الهجوم الغادر على القرى المسلمة فى الضواحى ، فكان منها أمثال « دير ياسين» و « تل الزعتر » وورد اللاجئون بالآلاف المؤلفة على غرناطة ، وهاج الناس وماجوا يفتشون عن القائد . والمسلمون مهما قل عددهم ، ونضب موردهم وساءت حالهم ، وانقطع مددهم ، لا يفقدون بطولتهم ما داموا يجدون القائد الذى يقودهم فى المعركة الحمراء - فلما ظهر هذا القائد وكان البطل الفارس المغوار موسى بن أبى الغسان[1] ورفع لهم لواء الجهاد ، وسل سيف القتال ، عصفت فى رؤوسهم نخوة العروبة ، وغلت فى دمائهم عزة الإيمان وأقدموا يدافعون ، ولولا ضعف أبى عبد الله الصغير ، ولولا هذه الحاشية حاشية السوء ، ولولا الانقسام وتدخل النساء فى شؤون الملك لبدأت هذه الفئة المجاهدة ، عهداً جديداً فى تاريخ الأندلس ، قد يمتد قرونا أخر ، وما كان طارق يوم هبط هذه الجزيرة أقوى عدة ولا كان أكثر عدداً ، ولكن كان جنده أشد اتفاقاً وطاعة ، وأكثر إيماناً.

لقد أبدى موسى وهؤلاء الأبطال المجاهدون من ضروب البطولة ، وألوان التضحيات ، ما لم يعرف التاريخ أعظم منه روعة ، وأكثر جلالاً ، ولكن كانت لله إرادة فى العرب والإسبان ، فلم يكن لهذه التضحيات وهذه البطولات ثمرة تقطف من رياض النصر . لقد قر رأى هذا الملك الضعيف العاجز وحاشيته على التسليم وكانت الهدنة .

(1) لى مسرحية عنه مثلت فى (الأمنية) فى دمشق سنة 1932 م بقيت مخطوطة عندى حتى طلبها الرائى (التليفزيون) فى جدة ، وأعطاها لمخرج اسمه العورى فأضاعها وما خجل ولا اعتذر .

وعقدوا معاهدة جديدة مع الإسبان ونسوا أنهم كلما عاهدوا عهداً نقضوه. معاهدة ظنوا أنهم سيحفظون بها للعرب أملاكهم وحريتهم فى دينهم ودنياهم، فلم يكن منها إلا ما حدثكم التاريخ، وقص عليكم الرواة.

وتلفتوا يفتشون عن نصير، فلم يجدوا نصيراً، واستجاروا بإخوانهم المسلمين فلم يلقوا مجيراً، وكان آل عثمان فى أوج سلطانهم، يحكمون ما بين خراسان وأسوار فيينا، ولكن لم يلتفت إليهم السلطان سليمان عاهل آل عثمان، الذى كان يومئذ أعظم ملوك أوربة، رغم الصرخة القوية التى أطلقها الشاعر الأندلسى، فدوت فى أرجاء الأرض ولا تزال تدوى فى جواء الزمان.

وخرج الملك المسلم سليل الأبطال، ليضع بين يدى عدوه أمانة القرون التى انتهت إليه، ليلقى على قدميه بكرامة المسلمين وأمجادهم، ليفتح له عاصمة ملكه، ويبيحه أبهاء الحمراء ومقاصرها، فلما تلاقيا هم بأن ينزل عن فرسه، مترجلاً أمام فرديننـد، فمنعه من الترجل وتقبل خضوعه واستخذاءه، ثم جوله إلى زوجته إيزابيلا فقدم إليها طاعته وولاءه، وسلمها مفاتيح غرناطة.

وانتهى هذا السفر الضخم الذى ملأناه مجداً وفضيلة وعلماً، فكانت خاتمته الخزى والعار، وهكذا تقوض هذا الصرح الذى أقمناه على جماجم أبطالنا، ونضحنا عليه دماء شهدائنا، ثم هدمناه بمعاول التفرق والانقسام، وشهوة الحكم وانتهاب اللذات، وهكذا انتهت فى لحظة حياة ثمانمائة سنة عاشها العرب فى الأندلس، جعلوها فيها شعلة نور، وروضة زهر وثمر، على حين كانت أوربة صحراء موحشة، تائهة تحت سجف الظلام.

وبكى أبو عبد الله بكاء الجبان الذليل فصرخت أمه عائشة: ابك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ومشى أبو عبد الله حتى إذا بلغ تل غرناطة ، وقف وتلفت ينظر من بعيد إلى شرفات القصر الذى كان منزل آبائه وملعب صباه وعرش ملكه فصار لعدوه [1] .

فهو لن يدخل أبهاءه مرة ثانية ولن يمرح فى جناته ، ولن تكتحل عينه برؤية الماء يفور من نوافيره ولن يصافح أنفه ريا عبيره .

وأدار رأسه، ومشى إلى الأمام يستقبل الآتى المجهول . وغابت عن عينيه أبراج الحمراء إلى الأبد .

* * *

(1) اقرأ فى كتابى (قصص من التاريخ) قصة (محمد الصغير) إنها قصة متخيلة كتبتها أنا ، ولكن ما قرأها عربى مسلم إلا بكى .

الفصل الثانى

- حجة الإسلام
- الظاهر بيبرس
- السلطان الشهيد
- شيخ من دمشق

حُجَّة الإسلام

نحن اليوم فى نيسابور ، فى معسكر الوزير العظيم ، نظام الملك ، الذى كان يدير من هذا المعسكر فى ضاحية نيسابور ، أكثر من نصف بلاد الإسلام ، وكان قصره حافلاً أبداً بالعلماء ، ولكنه اليوم أحفل منه كل يوم ؛ لأنه يوم المباراة العامة ، وأنتم تعرفون المباريات الرياضية ، وتحتشدون لها ولكنكم لا تعرفون المباريات العلمية التى كانت تسمى المناظرات ، ويجتمع لها الناس ، ويشرف عليها الأمراء وقد يكون منها ما هو قاصر على فن من الفنون ، كالمناظرات النحوية والكلامية والفقهية ، ومنها ما يشتمل على أكثر من فن واحد . أما مباراة اليوم فعجيبة حقاً ؛ لأنها مباراة فى كل علم ، والمتبا رون العلماء جميعاً ضد رجل واحد ، يقدم [1] المعسكر للمرة الأولى .

شاب عمره ثلاث وثلاثون سنة . ولكن اسمه كان قد ملأ الأسماع ، وتآليفه سارت كل مسير .

وكان اليوم الأول للمناظرة فى فقه الشافعية : أصوله وفروعه ، واجتمع كبار الفقهاء ، وازدحم الناس يستمعون ، وحضر نظام الملك ، فأوردوا على هذا الشاب غرائب المسائل ، فأجاب عنها كلها بنظر دقيق ، واستخراج عجيب ، وأورد عليهم ما لم يستطيعوا له جواباً ، فأقروا له جميعاً بالإمامة فى المذهب ، وبايعوه على رياسة الشافعية فى تلك الديار .

ثم كان اليوم الثانى ، فناظر المتكلمين ، وأنتم تعلمون أن هاتيك الحقبة كانت العصر الذهبى للكلام ، وأن علم الكلام كان يومئذ خلاصة الفلسفة

(1) قدم يقدم على وزن علم يعلم ، أى جاء .

والشريعة ، وكان المطلب الأعلى للعلماء ، و إن كان من الواجب عليّ أن أقور هنا أن أسلوب القرآن في تقرير مسائل التوحيد هو الأسلوب الكامل ، الذى لا نحتاج معه إلى فلسفة ولا كلام . وكانت مناظرة هائلة ، استمرت ساعات ، وانتهت بالإقرار له بإمامة المتكلمين ، وبأنه فذ مفرد نسيج وحده ، لا مثيل له فى الرجال .

وكان اليوم الثالث موعد المناظرة فى الفلسفة اليونانية ، وجاء الفلاسفة الذين قرؤوا كتب أفلاطون وأرسطو متعالين شامخين بأنوفهم ، كأنهم يترفعون عن مناظرة هذا الشيخ الفقيه ، الذى لم يقرأ ـ كما ظنوا ـ كتب فلاسفة يونان ، ولا شروح فلاسفة الإسلام . وكانت المناظرة ، فما زالوا يتضاءلون ويصغرون حتى رأوا أن هذا الفقيه أعرف منهم بمذاهب الفلسفة وأشد إدراكاً لها ، ولم يخرجوا حتى أقروا بالتقدم فيها .

واستمرت هذه المناظرة العامة أياماً ، قهر فيها هذا الشاب الخصوم ، وغلب المناظرين ، وأعجب به نظام الملك ، الذى أسس المدارس الجامعة فى كثير من بلاد الإسلام : فى بلخ ونيسابور وهرات وأصبهان ومرو والبصرة والموصل ، ولم يفارق مجلسه حتى كتب له مرسوم تعيينه أستاذاً فى الجامعة النظامية الكبرى فى بغداد (1) .

ورحل إلى بغداد ، وبغداد حاضرة الأرض ودار الخلافة ، فناظر علماءها ، فكان له الغلبة عليهم جميعاً ، وأقروا له جميعاً بالرياسة والتقدم .

***

(1) وقد ذهبت ، ومكانها أول الشورجة ومدرسة مرجان الباقية إلى اليوم أنشئت فى جوارها . هذا ما عرفته لما كنت مدرساً فى العراق سنة 1936 ولست أدرى ما صنع الله بذلك الآن .

تسألوننى الآن : من هو هذا العالم ، وهل كانت له هذه المزايا كلها أم أنت تبالغ وتتخيل ، ومن أين جاء ؟ وكيف حصَّل هذا كله ؟

ثقوا ـ يا سادة ـ أنى لا أبالغ ولا أتخيل ، وأنه كان أكبر مما وصفت ، وأنه أحد العشرة الكبار جداً من رجال الفكر الإسلامى ، وأحد العشرة الكبار جداً من أرباب القلم ، وهو أقدر من لخص الفلسفة اليونانية ، وأقدر من رد عليها ، أيّدها وقوّاها ، ثم ضربها ضربة لم تقم لها بعده قائمة أبداً . وما قرأها على أستاذ ولكن نظر فى كتبها بنفسه ، لأنه كان يرى من المهانة لنفسه وللفكر أن يرد على مذهب أو رأى لم يفهمه . فلما فهمها ألف كتابه (مقاصد الفلاسفة) فأقبل الفلاسفة أنفسهم عليه ؛ لأنهم رأوا فيه تلخيصاً وفهماً لم يروه فى كتبهم ، ثم ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) فكانت كالضربة القاضية فى الملاكمة ، لا يقوم بعدها الخصم . وكانت له ميزة عجيبة هى القدرة على هضم كل فكرة ، وعرضها عرضاً واضحاً مفهوما ، يجمع بين البيان السهل ، والتسلسل المنطقى .

***

وقد انفرد بأمر لم يكن لسواه ، هو أن حياته قسمان : قسم للعقل وقسم للقلب ، وكان إماماً فى الحالين ، درس فى الجامعة النظامية فى بغداد وألف الكتب العجيبة ، التى كانت ولا تزال مطمح أنظار المفكرين والفقهاء ، ثم تجرد للعبادة والتأمل فألف (الإحياء) الذى كان ولا يزال غاية ما يطلبه المتصوفة وأرباب القلوب .

هل عرفتم الآن من هو ؟ . . هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى .

***

أما قصة تحصيله ودراسته فقصة عجب . . اسمعوا طرفاً منها لتدركوا كيف تكون الرجل العظيم عوامل ترونها ضعيفة ، ولتعلموا أنه ربما كان فى أولاد العوام ، وفى أبناء الفقراء ، من لو كتب له التعلم والدرس لكان منه عالم كالغزالى ، أو شاعر كالمتنبى ، أو وزير كنظام الملك ، أو ملك كالملك الظاهر .

أعود بكم إلى نيسابور ، لأقف بكم على دكان صغير لرجل عامى صالح يشتغل بالغزل . . رجل لم يكتب له أن يتعلم القراءة ، ولم يكن من العلماء ولكنه أهدى إلى الأمة الإسلامية هذا العالم الفذ ، ولولاه لم يكن قط عالماً .

هذا هو محمد بن محمد والد الغزالى .

كان ينتهى من عمله فيدخل المسجد ، فيقف على حلقات الفقهاء مستمعاً ، فيأسى على حاله ويبكى على جهله ، ويتمنى لو أن الله جعله فقيهاً ، ولكن ولى الشباب ومضى العمر ، ولم يبق له فى نفسه أمل فهو يأمل بولده ، فيسأل الله من قلب مخلص ، أن يرزقه ولداً فقيهاً ، ثم يقعد فى مجالس الوعظ ، فيسأل الله أن يرزقه ولداً واعظاً .

واستجاب الله دعاءه فرزقه ولداً صار من أعظم الفقهاء هو أبو حامد الذى أحدثكم عنه ، وولداً آخر كان من أكبر الوعاظ ، ولولا أن غطت عليه شهرة أخيه هذا ، لملأ اسمه صحف التاريخ .

وأدرك الوالد الموت والولدان صغيران ، فتقطع قلبه حسرة على ألا يكون قد علَّمهما ما فاته من العلم ، وكان له صديق صوفى ، فعهد بهما إليه ، وأوصاه أن ينفق على تعليمهما ، ولو أتى ذلك على كل ما خلفه لهما من مال .

فكان هذا الوالد أول عامل فى تكوين الغزالى العظيم .

والعامل الثانى هو هذا الصوفى ، لقد كان يسعه ـ وقد علَّمهما كل ما عنده ، وأنفق عليهما كل ما عندهما ـ أن يقول لهما : اكتفيا بما حصلتما ثم كونا

عاملين كأبيكما أو صوفيين مثلى ، وإذن لا يكون الغزالى ، إلا رجلاً عادياً مغموراً . وإن كان له نبوغ ، كان نبوغه محصوراً فى هذه البلدة الضيقة ، وهذه الدائرة الصغيرة ، ولكن هذا الصوفى الذى أجهل اسمه كان رجلاً مكشوف البصيرة ، فرأى بفراسة المؤمن ، وهى من نور الله ، أن الولدين خلقا ليكونا عالمين عَلَمَيْن ، وأن هذا الدماغ لا يمتلئ بما وضع فيه هذا الصوفى من علمه القليل ، فقال لهما :

لقد أنفقت عليكما كل ما كان لكما من مال ، وأنا رجل فقير ليس عندى ما أعينكما به ، وحرام أن تدعا العلم ، فعليكما بمدرسة من هذه المدارس .

وكانت هذه المدارس هى العامل الثالث فى تكوين الغزالى .

هذه المدارس التى أدركتم بقاياها فى دمشق ، فى العمرية فى الصالحية التى كانت جامعة حقيقية ذات فروع وأقسام ، وفى المرادية ، وفى البادرائية وغيرها .

هذه المدارس التى بناها الأخيار من الأمراء والأغنياء ، ووقفوا عليها الوقوف الكبيرة وفتحوها لطلاب العلم ، فهى تقدم لهم الفراش والطعام والشراب والكسوة والنفقة ، وتحمل عنهم هموم العيش ، وتفرغهم لطلب العلم ، وتعلمهم مع العلم ما هو خير من العلم ، وهو التقى والأخلاق ، والعلم بلا تقوى ولا أخلاق شر على صاحبه وعلى الناس . . الجهل خير منه ! وتعصمهم من مثيرات الهوى ، ومفاسد الحياة [1] .

---

(1) وقد عادت إلى دمشق هذه المدارس والحمد لله فى السنين الأواخر على أيدى نفر من خيار العلماء كالشيخ على الدقر ، والشيخ هاشم الخطيب ، والشيخ حسن حبنكة ، والشيخ ناصر الدين الألبانى ، والشيخ صالح فرفور ، والشيخ عبد الكريم الرفاعى ، والشيخ الرنكوسى ، والشيخ الطيبى ، والشيخ المجذوب ، والشيخ عبد الحكيم المنير وأمثالهم .

والعامل الرابع : الرحلات فقد رحل فى طلب العلم كما كان يرحل العلماء ، يقطعون الأيام والليالى مسافرين ، ليأخذوا مسألة ويتلقوا حديثاً ، رحلات خالصة لوجه الله ، ولطلب العلم ، لا للتسلية ولا للمتعة والتفرج ، ولا للتجارة والكسب . وفى إحدى هذه الرحلات تلقى درساً كان له فى نفسه وفى مستقبله أبلغ الأثر ، درساً لم يتلقه من عالم ولا محدث ولكن من قاطع طريق . . .

قاطع طريق خرج على القافلة التى كان فيها ، فجردها من كل شيء ، وكان مع الغزالى دفاتره التى يدون فيها ما يسمعه ، فجعل يبكى عليها ، ويتوسل إلى قاطع الطريق أن يردها ويقول له : أنا لا أبالى بالمال ولا بالثياب ولكن تعليقتى ، هى ثمرة كل ما حصلته ، فقال له متعجباً : وما تعليقتك ؟ قال : دفتر فيه علمى كله . فضحك قاطع الطريق . وقال له : كيف تقول : علمى ، وأنت لا تعلمه ، وإن ضاعت تعليقتك ، لم يبق لك منه شيء ؟ . ورماها إليه .

قال الغزالى : هذا رجل أنطقه الله ، ليبصرنى فى أمرى . ولما وصل إلى البلد حفظ كل ما فيها ، وصار لا يبالى إن ضاعت أو سرقت أو احترقت .

والعامل الخامس فى تكوينه : صحبة العالم العظيم إمام الحرمين ، فقد لازمه مدة طويلة ، وأخذ منه . وسار أولا على طريقته ، ثم استقل وشق لنفسه طريقة جديدة ، وفاق فى المعقولات إمام الحرمين ، وهو لا يزال إلى اليوم أكبر أئمة الفكر الإسلامى ، ونحن نقرأ كتبه ، مستفيدين منها ، معجبين بها ، كما استفاد منها وأعجب بها رجال عصره ، ولقد سما العقل خلال هذه القرون الثمانية ، واتسع العلم ، ولكن الغزالى لا يزال فى القرن الرابع عشر ، كما كان فى القرن الخامس ، إماماً يقتدى به ، وعبقرياً لا نظير له .

حياة الغزالى - يا أيها السادة - لها صفحتان ، هذه الصفحة العلمية والصفحة الصوفية .

لقد بقى فى نفسه أثر من أستاذه الأول ، الرجل الصوفى الذى أوصى إليه به أبوه ، وكان يتنازع قلبه التفكير العلمى الذى هو أثر من إمام الحرمين ، وهذا التأمل الصوفى ، ثم غلب عليه التصوف ، فاستقال فجأة من أستاذية الجامعة ، ورحل منقطعاً إلى العبادة ، آخذاً نفسه بالزهد والسهر وقلة الطعام، وما ابتدعه الصوفية من مناهج زعموا أنها هى التى توصل إلى الله ، مع أن أقرب الطرق إلى الله ، ما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه ، وكان يطوف على الترب والمقابر ، ويأوى إلى القفار ، ويجاهد نفسه مجاهدة شديدة ليقتل فيها حب الغنى والجاه والملذات ، ومع ذلك لم يقبل على الوعظ لأنه يرى أن الواعظ يجب أن يكون نموذجاً كاملاً لما يدعو إليه ، وأن يتجرد من حب الدنيا ولذائذها، وحب المال وجمعه ، قبل أن يعظ الناس . وفى هذه المدة حج ودخل الشام ومصر ، وكانت أكثر إقامته فى دمشق ، فى الأموى ، فى الغرفة التى يصعد منها إلى المنارة الغربية ، والزاوية التى عرفت بعد بزاوية الغزالى ، وفيها ألف كتابه العظيم إحياء علوم الدين .

ووقعت له فى دمشق وقائع عجيبة ، جاءها متنكراً فنزل السميساطية ، وكان يقهر نفسه على تنظيف المراحيض إذلالاً لها ، ويدخل المسجد بزى العوام ، وكان ليلة فى المسجد فجاء قروى يسأل عن مسألة ، فدلوه على دكة المفتين والعلماء ، فسألهم فلم يعرفوا جوابها ، فدعاه الغزالى فقال : ما مسألتك؟ قال : إن المفتين لم يعرفوا جوابها أفتعرف أنت ؟ قال : هاتها . فألقاها عليه فأجابه الغزالى عنها فعاد الرجل إلى المفتين ، وقال : أنتم لم تعرفوا الجواب وقد عرفه هذا العامى ، وخبرهم بما أجابه به ، فشدهوا وقاموا

إليه فقالوا : من أنت ؟ إن لك لشأناً ! واستحلفوه فخبرهم ، فاحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم من الغد مجلساً ، وبحثوا عنه في الغد فلم يجدوه ؛ لأنه كان قد هرب في الليل [1] .

ومن وقائعه أنه دخل المدرسة الأمينية مرة (وهي قائمة [2] في سوق الحرير وهي من أقدم المدارس الإسلامية في الدنيا) وكان متخفياً فسمع المدرس يقرأ كتبه ويشرحها ، فخاف أن تغلبه نفسه فيظهر أمره فهرب . . .

ثم عاد إلى بلده ، وأكرهوه على أن يعود إلى التدريس ، فعاد يدرس في الجامعة النظامية في نيسابور ، ولكن بغير النفس الأولى ، إذ كان منصرفاً عن المناظرات ، زاهداً في الجاه ، ثم استقال ، وذهب إلى طوس فأنشأ في داره خانقاه (أي تكية) ومدرسة وكان يصرف وقته في العبادة والذكر والتعليم .

حتى مات ميتة تدل على حسن الخاتمة وهو ابن خمس وخمسين سنة فقط .

* * *

هذا هو الغزالي الذي كان أحد أفذاذ المفكرين في العالم كله ، وأحد الكبار من أعلام الإسلام ، وكان عيبه ضعفه في الحديث ، وقد أقبل على روايته في آخر عمره ، ولكن الأجل لم يمهله . وكتاب الإحياء على جلالة قدره مملوء بالأحاديث الموضوعة ، ومن أراد أن يقرأه ، فليرجع معه إلى مَنْ خرّج أحاديثه كالعراقي ، أو ليقرأ مختصره للشيخ جمال الدين القاسمي [3] .

---

(1) وقد جعلت من هذه الحادثة قصة نشرتها في الرسالة في سنتها الثانية أو الثالثة .
(2) وقد هدمت ولم يبق منها الآن إلا بابها وصارت سوقاً .
(3) وخير منه منهاج القاصدين لابن الجوزي ومختصره لابن قدامة الذي طبعه في دمشق الأستاذ دهمان ، وللغزالي نفسه مختصر للإحياء ولكن فيه عيبي الإحياء : الأحاديث الموضوعة ، وبعض الصوفيات المخالفة للسنة التي بينها ابن الجوزي في المنهاج وفي تلبيس إبليس .

وشىء آخــر هو أن هذه الروح التى تتــجلى فى كــتــاب الإحــيــاء روح الانصراف عن الدنيا ، والميل إلى الفقر ليست هى الروح الإسلامية ، إن الروح الإسلامية تتجلى فى سيرة الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه ، والعجيب أنه ألفه فى العصر الذى توالت فيه الهجمات على الإسلام من مغول الشرق وصليبيى الغرب . فلو أخذ المسلمون بما يدعو إليه كتاب الإحياء ، لما وجدت قوة عسكرية ترد التتار المغول من هنا ولا الصليبيين من هناك .

هذا هو الغزالى ، والفكر الإسلامى من خمسين سنة إلى اليوم مطبوع بطابع شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولكنه بدأ يعود إلى طابع الغزالى كما كان من قبل ، وكلاهما عظيم ولكن الغزالى أعظم فى عالم الفكر ، وعالم البيان ، وابن تيمية أقرب إلى الكتاب والسنة ، وإلى ما كان عليه السلف .

رحمة الله عليهما ، وعلى كل من وضع لبنة فى هذا الصرح العظيم . . صرح الفكر الإسلامى .

* * *

الظاهر بيبرس

هذا الحديث عن بطل من أعظم أبطال الإسلام بل من أعظم أبطال الحروب فى التاريخ البشرى فى عهوده كلها ، عن الرجل الصالح المصلح ، القائد المجرب ، المحارب المظفر ، الذى تعرفه العامة بقصته التى كانت تشغل الناس الليالى الطوال فى المنازل والقهوات ، ويعرفه تاريخ الشرق وتاريخ الغرب ، ببطولاته وأمجاده فهو من أبطال التاريخ ، وهو من أبطال الأسطورة ، وهو أحد الثلاثة الكبار الذين جاؤوا تباعاً . فأسس الأول ، وشاد الثانى ، وأكمل الثالث ، فطهروا هذا الجزء من الوطن الإسلامى من أوضار (الاستعمار) ، وأقاموا فيه صرح العزة والمجد ، وتركوا فى دنيا المكارم والبطولات دوياً لا تخمده العصور : نور الدين ، وصلاح الدين ، وهذا الثالث الملك الظاهر بيبرس .

* * *

لقد كان واحداً من المماليك ، من هذه الطائفة التى كتبت فى تاريخنا أعجب الصفحات ، وهل أعجب من عبيد يشترون بالمال ، كما تشترى السلع ، ثم لا يلبثون حتى يصيروا ملوكاً ، يتحكمون برقاب الأحرار !

لقد كان عهد المماليك عهد خزى فى التاريخ الإسلامى ، ولكنه لم يخل من ثلاث مناقب ، الأولى كان على الغالب عهد حكام قادرين ؛ لأن الملك لم يكن إرثاً فيهم يرثه الابن من أبيه كما يرث جبته ودابته ووسادته ، بل كان للأقوى والأقدر ، فلا يصل إليه إلا شجاع قدير ، أو سياسى بارع ، والثانية :

أن تاريخهم مملوء بالفتوح العظام ، وحسبكم بفتوح هذا البطل الذى أحدثكم حديثه . والثالثة : أن جل الآثار الباقية فى مصر والشام هى من عهد المماليك ، ولهم آثار كثيرة فى الهند وغيرها من البلدان ، ومن آثارهم فى دهلى : منارة قطب ، وبقايا مسجد قوة الإسلام .

***

أصل الملك الظاهر من القفجاق (فى القفقاس) ، جلب منها إلى سورية ، وبيع فى سوق العبيد فى حماة بثمانمائة درهم ! ولكن المشترى رأى فى عينه بياضاً فرده بخيار العيب كما ترد البضاعة المعيبة ! فاشتراه مملوك للملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، ثم دخل فى مماليك الملك الصالح . وسيرته صفحتان مختلفتان أبعد الاختلاف ، متناقضتان أبلغ التناقض : سيرته قبل الملك ، وهى صفحة بطش ومؤامرات وغدر وقتل ، وسيرته بعده وهى صفحة إصلاح وبطولة ، ونبل وعظمة ، لم يصل إلى مثلها من عظماء الأمم كلها إلا القليل . اشتراه الملك الصالح وضمه إلى جنده ، فظهرت طلائع نبوغه وشجاعته من أول يوم ، وما زال يترقى حتى صار قائد الفرقة ، التى ردت مقدمة الحملة الصليبية التى كان يقودها ملك فرنسا : لويس التاسع ، الذى دعوه (القديس لويس) ، وشارك فى حربه ، حتى أسر وحبس فى دار القاضى ابن لقمان فى المنصورة . . . وقصته مشهورة لما فكر فى أن يعيد الكرة ، بعد إطلاقه ويأتى بحملة جديدة ، فقال له الشاعر :

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

ثم شارك فى المؤامرة على طوران شاه ابن الملك الصالح ، وغدر به بإيعاز من (شجرة الدر) التى حكمت مدة قصيرة ، حكماً سيئاً ، ثم لما اضطروها إلى الزواج بعز الدين أيبك ونزلت له عن الحكم ، فكان الحكم شركة ! كان الملك

الظاهر أحد الشركاء فيه . وكان عهد فساد ورشوة وظلم ، حتى أن المقريزى يقول عنه صادقاً : إنه لو ملك الإفرنج ما زادوا على هذا الفساد !! .

ثم وقع الاختلاف بين الشركاء ، وقتلت شجرة الدر زوجها عز الدين ، ثم قتلوها . فى هذا العهد المضطرب الفاسد ، وقع النداء فى مصر أن جيوش التتر قد توجهت تلقاء مصر ، التتر الذين أزالوا كل ما كان فى طريقهم من دول الإسلام من أقصى الشرق إلى مصر ، وهدوا عرش الخلافة العباسية ، وخربوا بغداد ، واعتقد الناس جميعاً أنه لم يبق فى دنيا الإسلام من يقف أمامهم .

هنالك قام الشيخ ، الذى سيأتيكم حديثه : العز بن عبد السلام ، الذى نفخ فى الناس روح الإيمان ، وأحيا فى نفوسهم سلائق البطولة ، ونصب عليهم القائد المجرب (قطز) ملكاً . وسار (قطز) بالجيش المصرى حتى واجه التتر فى موقعة (عين جالوت) ، وأنقذ الله به الحضارة والإسلام ، وكان الظاهر من قواده الكبار ، ولكنه ناوأه عقب المعركة وكاد له ، حتى إذا أدركه العجز أظهر له الود والتوبة ، فعفا عنه (قطز) وأعاده إلى مصر وأكرمه ، فكافأه على ذلك بأن قتله غدراً ، وتولى الملك بعده ، ولقب نفسه الملك الظاهر .

وهنا تبدأ الصفحة الثانية فى تاريخه .

***

ولى الملك ، والبلاد مضطربة ، والموظفون فاسدون مرتشون ، والمظالم مستمرة ، والأعداء فى الداخل وفى الخارج . فى داخل البلاد أمراء يطمعون بالملك من دونه ، فهم يتربصون به ، ويعدون العدد للانتفاض عليه ، وفى خارجها أقوى عدوين عرفهما التاريخ الإسلامى كله : التتر والصليبيون ،

فماذا يصنع هذا الرجل الواحد حيال ذلك كله ؟ .

لقد صنع العجب العجاب ، وجعل من هذه البلاد المتقسمة ، وهذه الحكومات الفاسدة دولة من أكبر دول الإسلام ، وقفت فى وجه الشرق والغرب ، وحاربت التتر والصليبيين معاً ، وكان لها الظفر عليهما جميعًا ، وكل ذلك بفضل الملك الظاهر ، العبد الذى بيع فى سوق العبيد بحماة بثمانمائة درهم ، ورد لعيب كان فيه . .

بدأ بهؤلاء الأمراء الطامعين بالملك ، ومد لهم الحبل حتى إذا استضعفوه وطمعوا فيه ، وأعلنوا الثورة عليه ، ضبطهم متلبسين بالجرم ، وقتل ثورتهم فى مهدها .

ثم اتخذ من ذلك ذريعة إلى ضبط المماليك ، فجمعهم وأكرمهم ورتب لهم الأرزاق ولكنه حجزهم ، وحال بينهم وبين إيذاء الناس والاعتداء عليهم ، وأفهمهم أن فى البلد ملكاً وحكومة ، وأن الفوضى قد انقضى عهدها ، ثم عمل على الإصلاح فأصدر سلسلة من المراسيم المتتابعة أبطل فيها المكوس ، ورفع المظالم ، وجعل للضرائب قانوناً عادلاً معروفاً ، وأصلح أسلوب القضاء ، ونصب أربعة قضاة للمذاهب الأربعة ، وأعاد افتتاح (الأزهر) ، وعمل على نشر التعليم ، ففتح المدارس وأقام لها المدرسين ، وأقر العدالة الاجتماعية ، فأحصى الفقراء ، وضمن لهم ما يعيشون منه ، وأصلح الطرق والترع والجسور ، ثم التفت إلى الجيش ، فأعاد تنظيمه ، وحرم على الجند النهب وإتلاف المزروعات ، وأخذهم بالطاعة والتدريب ، وترك الخمر والفحش .

ثم وجه نظره إلى السياسة الخارجية ، فعقد المحالفات مع الدول المجاورة ، خشية اتفاقها عليه وتأييد أعدائه ، مع بيزنطية وسلاجقة الروم ، والمغول ،

ومملكة صقلية ، ثم بدأ سلسلة المعارك العظيمة .

***

وياليتنى أستطيع أن أصف لكم هذه المعارك وأحدثكم حديثها ، ولكن هيهات ! وكيف ألخص فى دقائق أحداثًا شغلت المؤرخين ، وشغلت القصاص ، وكانت شغل الناس على مر الزمان .

خرج بجيشه من مصر إلى فلسطين ، وكانت المعاهدة مع صاحب يافا الصليبى قد انتهت ولم تجدد ، وحسب الصليبيون أنه أمير كهؤلاء الأمراء الذين عرفوهم من قبل ، لم يدروا أنهم أمام قائد عبقرى ، من أعظم العباقرة العسكريين فى التاريخ ، فلم تكن إلا جولة واحدة حتى فتحت يافا ، وتلتها طرابلس ، وأنطاكية ، وارتاع الصليبيون، لما رأوا أنَّ (بيموند) أعظم ملوكهم قد غُلب وأخذت منه أنطاكية ، واجتمعوا وفاوضوا التتر والمغول ، ليحالفوهم على الظاهر ، وهو ماض فى طريقه ، ووقف له الفرسان (الهسبتاليون) ، وكانوا أشجع فرسان أوروبة ، فلم يصنعوا شيئاً أمام فرسان المماليك ، واستمرت هذه الحروب عشر سنين حارب فيها مرة المغول والصليبيين فى وقت واحد ، ولم يغلب قط ولم يمتنع عليه حصن ، وكان فى شجاعته وثبات عزمه أعجوبة ، بنى الأسطول من أربعين سفينة حربية ، فتحطم كله ، فلم ييأس ولم يداخله القنوط، بل عاد يصنع غيره ، ويشرف عليه بنفسه، وكان أبداً على رأس الجيش وكان يتفقد الجرحى ويواسى أهل القتلى ، ويرتب لهم الرواتب .

وانتقض عليه مرة امبراطور القسطنطينية ، وحالف التتر ، فلم يبال بهما ، وصنع مراكب ثم نقلها على ظهور الجمال من بحيرة حمص ، إلى نهر الفرات ، وحارب الروم والتتر معاً ، وعاد الإمبراطور إلى الخضوع له واسترضائه ، وجدد من أجله المسجد الذى كان بناه مسلمة بن عبد الملك فى

القسطنطينية . وحارب الأرمن ، (وكانت مساكنهم فى قيليقية) لما نقضوا العهد ، وكانت كتبه إلى أعدائه أعجوبة فى الإيجاز والسخرية ، والواقعية ، واكتفى ببلاغة السيف عن بلاغة القلم ، ومن كان فعالاً لم يكن قوالاً ، ومن كان يكثر الأقوال فإنه يقل الأفعال .

***

أخذ البلاد وهى أوصال مقطعة ، تحكمها حكومات فاسدة شريرة ، ويعيث العدو فيها ، ويملك أطرافها ، وتركها وهى حكومة واحدة قوية ، تشمل سورية ومصر والنوبة والحجاز وأطراف العراق ، وتزلف إليه إمبراطور القسطنطينية وملوك إسبانيا ، وحكام الشرق والغرب ، وكان يطمع فى أكثر من ذلك ، فى أن يعيد توحيد البلاد الإسلامية كلها ويرجع الخلافة ، ويحيى رسومها . وجاء بأمير عباسى فبايعه بالخلافة ، ولكنه سن سنة سيئة ، فجعل الخلافة اسماً بلا رسم ، وجعل الخليفة رئيسًا بلا حكم . وقهر أقوى عدوين فى تاريخ الإسلام ، وخلف فى تاريخ الإصلاح الداخلى ، وفى تاريخ البطولات الحربية أروع الأمثلة وأعظم الأخبار .

هذا هو الرجل العظيم الذى كانت تقرأ العامة قصته فى القهوات ، ويقرأ الخاصة سيرته فى المدارس ، ويرى الناس آثاره حيثما ساروا ، فى الشام ومصر ، وهذا هو الدليل الثالث على أن هذه البلاد ، مهما انقسمت وضعفت وأخذ العدو من أطرافها ، لا يزال فيها من القوة والأيدى ، ما تنتفض معه انتفاضة فتلقى عنها هذه الأوضار ، وتعود حرة نظيفة طاهرة كما كانت .

***

وقبر الملك الظاهر فى دمشق ، فى مدرسته التى صارت دار الكتب ، ومثابة العلم . غفر الله له ، ورحمه ، وأجزل ثوابه .

السُّلطانُ الشهيدُ

هذا الحديث عن نور الدين زنكى ، نور الدين ابن الشهيد ، الرجل الذى مهد الطريق لصلاح الدين ، ووضع له الأساس ، وشرع له المنهج ، وكان إمامه وقدوته فى كل خير .

أحد الرجال الذين لم يعرف تاريخ البشرية كلها أطهر منهم نفوساً ، ولا أقوم سيرة ، ولا أعظم أثراً ، اللهم إلا الأنبياء الذين لا تجد عليهم مطعناً فى دين ولا خلق ولا سياسة ولا قيادة ، والعظماء من غيرهم إن استكملوا ثلاثاً من هذه الأربع نقصتهم الرابعة . الرجال الذين لا تجد أمثالاً لهم فى غير التاريخ الإسلامى : أبى بكر وعمر ، وعمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى ، وأورانك زيب ومن سار سيرتهم ، وسلك طريقتهم .

***

جاء الشيخان فى صدر الإسلام حيث الدين غض ، والزمان مقبل ، وجاء هذان [1] والزمان مدبر ، والدين ضعيف ، والعدو الغاصب يملك أكثر من نصف الشام ، والمسلمون دول وحكومات ، كل بلدة دولة ، وكل قرية حكومة ، حتى صرخد [2] فقد كان لها إمارة وملك واستقلال . وكانت خلافة بغداد اسماً بلا جسم ، وخلافة القاهرة جسداً بلا روح ، والدولة السلجوقية

(1) أعنى : نور الدين وصلاح الدين .

(2) ويسمونها اليوم : صلخد .

تصدعت كنجم الفجر ، ففى كل جهة منه شهاب . وقد استفحل هذا الداء الذى رمانا به معاوية ـ رحمه الله ـ : داء توارث الملك ، وتمكن وعظم شره ، حتى صارت القاعدة فى دول الإسلام ، ولا سيما فى بلاد الشام أنه كلما مات ملك ، تقاسم أولاده ملكه ، كما يتقاسمون أمواله ودوابه . ومن هنا صار فى الشام نحو من عشر دول صليبية وإسلامية ، وكانت الشام كلها قديماً ولاية صغيرة من دولة الإسلام .

ولم يَخْلُ الميدان من أمراء أولى نجدة وبأس ، ناوشوا الإفرنج ونازلوهم ولم يدعوهم يستريحون يوماً واحداً ، أمراء السلجوقيين : (ألب أرسلان ، وقليج أرسلان) ، ونتش ، وابن عمار ، وابن منقذ ، وطغتكين ، وبورى ، وآق سنقر : جد نور الدين . وآق سنقر مملوك لألب أرسلان السلجوقى ، بدا نبوغه، وظهر فضله ، وسمت به مواهبه إلى محاولة جمع هذه الدويلات فى دولة واحدة قوية تنازل العدو الغاصب ، الذى أسس فى السواحل ، وفى فلسطين : دويلات ألقت مراسيها ، وطوت أشراعها ، وحسبت أنها ستبقى فيها إلى الأبد . ثم جاء من بعده ابنه زنكى : عماد الدين زنكى ، العاقل الجرىء المحارب البطاش ، الذى قتل غيلة فسمَّوْه : (الشهيد) ، ثم جاء نور الدين.

وكان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة ، لا خمس سنين[1] وكانوا أعداد الرمال تمدهم أوربة كلها ، لا حفنة من يهود . وحسب الناس أنها لن تزول هذه الغمة ، فما هى إلا أن ظهر الرجل الذى نشر راية القرآن ، وضرب بسيف محمد ، حتى عاد النصر يمشى فى ركاب المسلمين ، وعاد أمرهم إلى الزيادة ، وأمر الصليبيين إلى النقص ، وبذلك يكون لنا ـ كلما شئنا ـ النصر .

(1) لما أذيع هذا الحديث كان عمر دولة إسرائيل ـ قصف الله عمرها ـ خمس سنين .

إن راية القرآن لم تهزم قط ، ومن هزم من أمراء المسلمين فى هذا التاريخ الطويل ، إنما هزموا لأنهم كانوا يستظلون برايات المطامع والأهواء ، والعصبيات والأحقاد، ما استظلوا براية القرآن ، وكانوا يضربون بسيف البغى والإثم والعدوان ، وما ضربوا بسيف محمد .

إنه ما ضرب أحد بسيف محمد ونبا فى يده سيف محمد!

* * *

لما مات عماد الدين تنفس الإفرنج الصعداء ، وألقوا بأنفسهم على فراش الأمن ، يستبشرون يحسبون أنه قد خلا العرين بموت الأسد . ما دروا أنه الآن قد دخل الأسد العرين ، ما دروا أنه قد جاء نور الدين .

قتل عماد الدين الشهيد غدراً على أبواب (جعبر) . فما بكى ابنه بكاء النساء، ولا ثار بالقاتلين ثورة الصبيان ، بل وقف أمام جسد أبيه وقفة الرجل ، وأخذ خاتم الملك من إصبعه ، وجمع الجنود وتوجه تلقاء حلب ، يوطد فيها أمره، ويؤسس فيها ملكه ، وأطمع موت عماد الدين الإفرنج ، وخرجوا كما تخرج الفيران من جحورها إن شهدت مصرع القط ، وجاء أمير أنطاكية بجنوده يغير على أطراف حلب ، وكان اليوم السابع من ولاية محمود نور الدين ، فترك حفلات التتويج ، وأبهة الملك ، وخرج بجيشه فضرب جيش الإفرنج ضربة أطارت من رؤوسهم الفرحة بموت عماد الدين ، وفتحت عيونهم رهبة ورعباً ، وأعلمهم أن اليوم الذى كانوا يبكون فيه من عماد الدين ، سيبكون عليه من نور الدين .

وتلفت حوله ، فإذا الإفرنج فى كل مكان ، فى كل ناحية لهم ملك وسلطان . وإذا هو يرى العدوان من أقرب الناس إليه : أمير دمشق ـ وهذه

علتنا أبداً يا أيها السامعون . علتنا الانقسام والاختلاف . ولو أننا تركنا الاختلاف بيننا ، ما قوى علينا إنس ولا جان !

فركز نور الدين غرضين[1] ، ونذر حياته لإصابتهما ، غايتين جعل همه كله بلوغهما : توحيد المسلمين فى دولة قوية ، وطرد الإفرنج من بلاد الإسلام .

بدأ المسعى للوحدة بتقوية الروابط الروحية فتزوج بنت ملك دمشق ومدبر أمرها ، وبنت صاحب قونيه (ابن قليج أرسلان) .

ولكنه لقى من أمراء هذه المماليك الألاقى .

جاهره صاحب دمشق بالعداء ، وهدده بالاستعانة بالإفرنج ، فتلقاه بالحلم مع الحزم ، وصبر عليه ، حتى إذا وقعت الحرب بينه وبين صاحب صرخد ، وتصوروا كيف كانت قرية صرخد حكومة مستقلة ! وأراد صاحبها تسليمها للإفرنج ، استنجد مجير الدين ملك دمشق بنور الدين ، فأعانه وسير جيشاً ضخماً يساعده على الإفرنج ، وذلك فى سبيل الغايتين معاً : توحيد المسلمين وطرد الغاصبين . وأوقع بالإفرنج وقعة لم ينسوها .

***

فى هذه الظروف يا سادة ، جاء الجيش الصليبى الضخم ، الذى قدر المؤرخون عدد جنوده بمليون ، أى بعدد يهود الأرض ، وهى الحملة الصليبية الثانية ، ولم يكن جيشاً واحداً ولكن جيوش أوربة جميعها ، جيوش كل أمة فيها ، يقوده ملوك وأمراء وبارونات ، على رأسهم لويس السابع ملك فرنسا ، و (كونراد) ملك ألمانيا . وتوجه من وصل منهم إلى الأرض المقدسة ونجا من

(1) الغرض فى الأصل الهدف أى المرمى .

سيوف السلجوقيين إلى كنيسة القيامة ، فصلوا صلاة الموت ، وقصدوا دمشق. وأصبح أهل دمشق يوماً ، وإذا جيوش الإفرنج فى المزة ، وفسطاط ملك الألمان فى الميدان الأخضر (الملعب البلدى) وخيمة ملك فرنسا فى ميدان الحصى (الميدان) . فهبت دمشق ، ولدمشق المؤمنة المجاهدة هبّات تَشْدَه التاريخ ، واستنجد صاحبها بنور الدين فى حلب ، وأخيه سيف الدين فى الموصل ، فأقبل الشقيقان بالجيش اللجب ، وقابل المسلمون أوربة كلها ، وردوا جيوشها عن دمشق . وقد أتى شبابها ومتطوعوها من البطولات الأعاجيب .

وقفل الشقيقان إلى بلدهما ، وتركا دمشق لصاحبها .

ومات ملك دمشق ، ومال القوم بعده إلى الإفرنج حسداً لنور الدين واستعانوا بهم عليه ، فلم يجد بداً من حصار دمشق ، فضرب عليها نطاقاً من السهم والنيرب ، ومن المزة وحجيرة والقدم [1] . وضرب خيمته فى عيون فاسريا فى (دوما) وامتدت جيوشه إلى الضمير ولكنه لم يقاتل أهلها ، ولم يستحل أن يريق دم واحد من المسلمين . وجاء الصليبيون لنصرتها فردهم، ولم يكن يطلب مالا ، ولا يطلب حكم البلد ، بل كان كل مطلبه أن ينضم جيش دمشق إلى جيشه ليحارب الصليبيين .

* * *

وكانت سيرة نور الدين قد ملأت كل قلب محبة له ، وكل لسان ثناء عليه ، فقام أهل الشام على ملكهم ونقبوا السور لنور الدين من جهة الباب الشرقي،

(1) وكلها أماكن حول دمشق معروفة إلى اليوم بأسمائها هذه ، والنيرب قد تدعى بالنيربين وهى اليوم (الدواسة) على السفح بين أعالى كيوان والربوة ، والمشهور أنَّ فى (القدم) آثار قدم الرسول ، ولا أصل لذلك ، ولم تطأها قدمه ـ ﷺ ـ ، ولم يصل إلى أبعد من (بصرى) فى حوران .

فدخل من حيث دخل خالد بن الوليد من قبل ، واستقبلوه بالهتاف والأهازيج :

نور الدين يا منصور وبسيفك فتحنا السور

وبقى هذا الهتاف بذاته فى دمشق إلى اليوم يهتفون به فى المظاهرات ولا يفهمون مأتاه .

واستسلم مجير الدين ، فلم يقتله ولم يعاقبه ، وإنما تركه ينفى نفسه من الشام ، ويرحل إلى العراق .

* * *

وكان جوسلان ، بطل الإفرنج ، وفارس فرسانهم ، حامى حماهم ، قد أغار غدراً على ضواحى حلب وكسر حاميتها ، ورجع بالنصر والكبر والغنائم والأسلاب . وكان نور الدين قد ألف عصائب من أشداء التركمان ، فأرسل عصابة منها إلى جوسلان ، فذهبت وغامرت مغامرات المغاوير (الكومندوس) حتى انتزعته من فراشه ، وجات به غنيمة باردة ، ألقته تحت رجل نور الدين ، فكان وإياه كما قال ابن كثوم :

فآبوا بالغنائم والسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

* * *

وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المعارك المظفرة ، فتح قلعة حارم بعد ما لبثت سبعين سنة ـ وهى حصن الإفرنج ـ تجرع المسلمين الصاب والعلقم . واستعاد الرها (أورفة) ، وطهر الداخل : أكثره من الفرنج ، ولما توجهوا تلقاء مصر ، وعلم أن الوزير فيها (شاور) قد خان أمته ، بعث قائده شيركوه (أى أسد الجبل) فذهب هو وابن أخيه صلاح الدين ، ففتحا له مصر وطردوا الإفرنج

من دمياط .

أخذ البلاد وهى دول وإمارات ، كل بلد دولة ، وكل قرية حكومة ، وتركها وهى دولة واحدة ، تشمل الشام ومصر وأعالى الفرات ، وما ظلم أحداً ، ولا قتل مسلماً ، ولا أراق الدم الحرام .

وأشهد أنى قرأت تواريخ عظماء الشرق والغرب ، فما رأيت بعد الصحابة مثله ، وشهد هذه الشهادة من قبل المؤرخ ابن الأثير .

حقر الدنيا ، وزهد فى أبهة الحكم ، وبريق السلطان ، ونذر نفسه لله ، للغايتين اللتين سعى إليهما : وحدة المسلمين وقهر الإفرنج ، وما حاد قط عن طريقهما .

وكان قائداً منقطع النظير ، له قلب ملؤه الإيمان ، فلا يعرف الجزع الطريق إليه ، وكان يقول : لو كان معى ألف فارس لا أبالى بعدو ! والله لا أستظل بظل جدار أبداً .

اعترضه مرة نهر الفرات ، فابتغى مخاضة دله عليها دليل تركمانى ، فخاضه والجيش كله من ورائه فانهزم الأعداء من الدهشة والرعب ، قبل أن يهزمهم وقع الحسام .

ورأوه يوم حارم منفرداً عند التل ساجداً يمرغ وجهه بالتراب ، يناجى ربه يسأله النصر ، ثم أخذته الحال (1) ، وارتفع صوته يتضرع ويقول : اللهم انصر دينك ، لا تنصر محموداً (يعنى نفسه) ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر ؟

فنصره الله ذلك النصر المؤزر ، وما كان معه إلا قطعة من الجيش ، وكان جيشه فى مصر .

---

(1) كما يعبّر الصوفية .

وكان يأسف على أنه لم يرزق الشهادة ، ويقول : تعرضت لها غير مرة فلم تتفق لى ، ولو كان فى خير ، ولى عند الله قيمة ، لرزقت الشهادة .

وهذه ـ يا أيها السادة ـ منزلة الإيمان والصلة بالله لم يبلغها كثير من الزهاد والمتعبدين .

* * *

ترك الأذان بـ (حى على خير العمل) ، وهى بدعة الفاطميين [1] ، وعاد إلى الأذان الشرعى .

وكان يتبع السنة ويقف عند حدود الشرع . منع الخمر فى بلاده ، وأزال المنكرات ، ورفع الضرائب والمغارم . وكان فى عدله آية الآيات ؛ وقف مع خصمه أمام القاضى الشهرزورى . وأنشأ فى دمشق دار العدل ، وأقام البيمارستان النورى (مدرسة التجارة الآن) ، وكان مستشفى كأرقى مستشفيات الحضارة اليوم . وملأ الدنيا بالمدارس ودور الحديث ، ومعاهد الخير . ولبناء المستشفى قصة طريفة : أسَر مرة ملكًا من ملوك الإفرنج ، فسأل أن يفتدى نفسه ، فقبل منه الفداء ، وأخذ منه ثلاثمائة ألف دينار ، خصصها للمستشفى ولدار الحديث النورية .

وكان ليالى السلم ينام قليلاً ثم يصحو ، فيلبس الصوف ، ويأتى المسجد خفية فيصف فيه قدميه ، مصلياً وذاكراً إلى الفجر ، ويمضى ليالى الحرب فى المناجاة والتضرع [2] .

* * *

(1) أى العبيديين وما هم على الصحيح **بفاطميين** .

(2) ومن أراد سيرته فليرجع إلى **المحاضرة القيمة التى ألقاها** فى المجمع العلمى أخى القاضى ناجى الطنطاوى (المقتطف آب 1946) .

يا أيها الناس : إن مررتمُ بسوق الخياطين فوصلتم المدرسة النورية (وقد كانت منزل هشام بن عبد الملك) ، فقفوا على قبر هذا الرجل العظيم ، الذى كان وليا زاهداً فى ثياب قائد ، وكان عالماً عاملاً فى ثياب ملك ، وكان واحداً من الستة الذين لم يعرف مثلهم تاريخنا .

هذا الرجل الذى وحد البلاد ، وطهرها من الإفرنج ، ووضع الأساس الذى قام عليه بناء صلاح الدين ، فقولوا:رحمك الله يا نور الدين .

ويا أيها الناس : كلما دهمكم خطب جديد ، أو هبت عليكم من نحو فلسطين عاصفة عدوان ، فاذهبوا إلى نور الدين وإلى صلاح الدين ، لا لتسألوهما العون والنصر ، فما فى الوجود ميت يعين حياً ، ولست أدعو إلى شرك بالله ، وما النصر إلا من عند الله ـ ولكن لتذكروا أنها قد حاقت بفلسطين من قبل مصائب أكبر من مصيبة يهود ، ونزلت بها نوازل أشد ، واجتمعت عليها أوربة كلها ، وأقامت فيها دولاً لبثت أكثر من مائة سنة ، وكنا على حال من التفرق والضعف والجهل شر مما نحن عليه اليوم ، وقد انجلت مع ذلك الغمة وانزاح البلاء ، وصارت حكومات الإفرنج التى عاشت فى القدس وفى أطراف الشام قرناً كاملاً ، صارت خبراً ضئيلا ، يتوارى خجلاً فى زاوية من زوايا التاريخ ، لا يدرى به أكثر السامعين ـ وسيأتى يوم قريب يقول فيه مدرس التاريخ لتلاميذه : إن اليهود قد أسسوا مرة حكومة فى فلسطين ، وهَمَّ العرب أمرها ، ونال العرب شرها ، ثم ذكروا أين طريق الخلاص فخلصوا منها على أيسر حال .

الطريق ـ يا سادة ـ أن يظهر فى العرب نور الدين جديد ، ينشر راية القرآن التى لم تنهزم قط ، ويضرب بسيف محمد الذى لا ينبو أبداً .

فانشروا راية القرآن واضربوا بسيف محمد ، تطردوا يهود ، وتعيدوا مجد العرب .

***

شيخ من دمشق

-1-

هذه هي قصة شيخ من دمشق ، شيخ قال عنه السبكي : إنه لم ير مثله الناس ، ولم ير هو مثل نفسه .

شيخ لم يكد يرى تاريخ الإسلام في كل عصوره عشرين من أمثاله .

شيخ كان مفكراً كأحسن ما يكون المفكرون ، كان فقيها : فقيه النفس لا فقيه الحفظ . وكان له في الشريعة النظر الواسع المحيط بأسرارها ، الملم بأصولها وحكمها ، والنظر الدقيق الذي ينفذ به إلى بواطن المسائل ، ويدرك خوافيها ، كان يفكر بدماغ من خلايا مملوءة بالحياة والعبقرية ، لا يفكر بعقل من ورق الشروح والحواشي .

شيخ فرغ من شهوات بطنه ، وشهوات غريزته ، وشهوات المجد والغنى والجاه . وهانت عليه الدنيا فلم يطلب لنفسه شيئاً منها ، فجاءه منها كل شيء : المجد والجاه والمنزلة التي خضعت له بها الدنيا .

شيخ كان يهابه الملوك ، ويطيعه الشعب ، ويذل أمامه الجبارون .

شيخ كان له الموقف الذي أنقذ الله به الحضارة ، وحفظ الإسلام وحول مجرى التاريخ .

***

كانت مصر فى رجة رعب وجزع ، لقد أقبل عليها السيل الجارف ، الذى اجتاح فى طريقه كل شىء من أقاصى المشرق إلى أطراف الشام : المغول والتتر ، الذين كانوا تائهين وراء صحاريهم ، كلما رأوا غفلة من دولة الإسلام ، أغاروا على جوانبها ، فلا تزال جيوشها تطاردهم حتى تلجئهم إلى صحاراهم كما تلجأ الذئاب الكاسرة ، إذا دفعتها عن منازل القرية ، فتتركهم وتعود ؛ لأنها لا تجد لهم مجداً فتهدمه ، ولا بلداً فتملكه ، ولا راية فتطويها ، حتى نجم فيهم محارب من أفذاذ المحاربين ، مقاتل خطر بطاش هو جنكيز خان ، وكان المسلمون قد صاروا دولاً وانقسموا أقساماً ، فتمكن جنكيز خان منهم ، فأودى بأقرب ملك إليه منهم ، خوارزم شاه ، وفتح الباب لخلفائه ليسيروا نحو المغرب . وتساقطت إمارات الإسلام ، واحدة بعد واحدة ، بظلم أمرائها ، وخيانة ولاتها ، وانقسام شعوبها ، وضعف إيمانها ، وبعدها عن دينها الذى لا يكون إلا به عزها ، حتى كانت المصيبة الكبرى ، فسقطت بغداد ، وهوى تاج الخلافة .

وكانت بغداد أم الدنيا ، وكانت بغداد قصبة الأرض ، وكانت بغداد مثابة العلم والفن والذهب والجمال . تلتقى كلها فيها وتنتهى إليها ، كما تنتهى مياه الجداول إلى سيف البحر .

لم تجمع بلد ما جمعت بغداد من ثمرات العقل المفكر ، واليد المبدعة ، وما يصنع المال ، وتعمل القوة ، وتأتى به الحضارة .

فلم تكن إلا كرة واحدة فإذا عمران بغداد خراب ، وأنسها وحشة وجمالها تشويه ، وكتبها التى أودعت حصاد العقول وثمرات القرائح ، تلقى فى دجلة حتى يسود حبرها ماء دجلة .

وإذا المجد والخلافة والجاه ❊ كما يطمس السطور البنان (1)

(1) من قصيدة لأمين ناصر الدين فى رثاء دولة العثمانيين

سقطت بغداد ، وانكسر السد ، فانطلق السيل ، وساح في كل واد ، وانبعثت النار ، وامتدت ألسنتها تضربها الرياح الأربع فتسوقها إلى كل مكان . وخرج يأجوج ومأجوج ، وذهبوا يفسدون في الأرض .

وانبعثت جيوش هولاكو كالجراد ، يأكل الأخضر واليابس : يأكل المدن والأمجاد [1] والحضارات .

فَمَنْذا [2] يقف السيل بعدما اجتاح المشرق كله والعراق والشام ؟

منذا يطفئ النار وقد أكلت بغداد أم الدنيا ؟

منذا يرد يأجوج ومأجوج ، بعدما انتشروا في الأرض ؟

أي جيش يقف أمام جند هولاكو بعدما تمزق جيش الخلافة ، وهوت راياته وديست أعلامه ؟

لم يبق من دنيا الإسلام إلا مصر ، فهل تقدر مصر على ما عجزت عنه دنيا الإسلام كلها من أقصى خراسان إلى أدنى الشام ؟

مصر التي زال عنها سلطان الأيوبيين ، حفدة صلاح الدين ، وقام عليها حكام من مماليك الأتراك . عبيد غرباء يشترون بالأموال ، عبيد أجانب يحكمون أحرار العرب ، ويا ويل أحرار العرب إن حكمهم عبيد أجانب ! [3]

(1) قصروا جمع (فعل) على (أفعال) على المعتل مثل (أبيات وأسياف) وقالوا : لم يأت منه صحيحاً إلا كلمات دون العشر كـ (أفراح وأخواتها) وقد استدرك المتأخرون على المتقدمين نحواً من ثلاثين كلمة من الصحيح ، فدل ذلك على أنه يطرد في الصحيح والمعتل على السواء . وأن مجد تجمع على أمجاد . اهـ . هذا ما قاله أخي الأستاذ سعيد الأفغاني وهو اليوم المرجع في هذا الشأن وإليه الرياسة فيه في ديار الشام .

(2) هكذا يكتبونها (موصولة) .

(3) ولا يكون المسلم أبداً أجنبياً في بلاد الإسلام .

وكان مَلَكَ مصر ولد جاهل غرير ، ما أعطى الملك لأنه أقوى الناس عزماً، ولا لأنه أكثرهم فهماً ، ولا لأنه أشدهم علماً . بل لأنه ابن معز الدين أيبك .

وكانت حكومة المماليك شر حكومة ، هم رجالها ملء صناديقهم بالذهب، وملء بطونهم بالطيبات ، وملء قصورهم بالمماليك والمملوكات . .

فماذا تصنع مصر التى لم تكن تملك شيئاً ؟ . .

إن مصر ـ يا سادة ـ كانت تملك شيخاً دمشقياً نزح إليها ، وسكن فيها ، وصار قاضى البلد ، وخطيب الجامع . شيخ فى قلبه إيمان لو صبَّ فى الحجر الصلد لا نبجست منه الحياة ، ولو وجه إلى الجبل الراسى لأزاح الجبل .

شيخ كان يعلم أن هذا الشعب ، الذى هزَّه محمد ـ ﷺ ـ حتى أفاق وفتح الأرض ، لا تزال فى نفسه آثار البطولة التى فتح بها الأرض ، إن فى عروقه ذكرى المعارك المظفرة التى خاضها ، والدماء الزكية التى أراقها ، والنصر الأبلج الذى انتزعه من كل عدو ، كان يعلم أن هذا الشعب ما دعى مرة إلى التضحية والجهاد إلا لبَّى ، لأن فى نفسه الإيمان الذى يحول الهزيمة ظفراً ، والضعف قوة ، والفقر غنى ، ويصنع من الحجر قنبلة ، ومن العصا سيفًا ماضياً ، وصرخ الشيخ بأهل مصر : يا أهل مصر اثبتوا واستعدوا وحاربوا ، وأنا أضمن لكم على الله النصر .

* * *

أيقظ الشعب الذى نامت فى صدره البطولات ، فاستيقظ . وجمع الأمراء، فذكرهم كيف جاؤوا مماليك فجعلهم هذا البلد ملوكاً ، فمن حقه عليهم أن يدافعوا عنه ، عن حياتهم فيه وسعادتهم ، عن الحضارة التى أظلتهم بظلالها ، وجاء هؤلاء التتر ليقتلعوها من جذورها ، عن الإسلام الذى شرفهم

الله به ، وهداهم الله إليه .

فاستقادوا إليه ، وعزلوا الولد الذى كان ملكاً ، وأمّروا عليه البطل القوى ، والمحارب المتمرس بالحروب ، الأمير قطز وسموه الملك الظافر .

وقل الأمـراء:ليس عندنا أموال ، فـاطلب من الناس أن يتبرعوا لنا ، للجيش . قال الشيخ : لا . حتى تخرجوا ما عندكم ، وما فى قصوركم من الذهب والفضة ، وما عند نسائكم من الحلى ، وأن تخلصوا فى البذل لله وحده ، ليأتيكم منه النصر .

وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان ، فأخرجوا ما عندهم ، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى البذل والجود ، وكثرت الأموال ، فأعدوا العدة ، وجمعوا السلاح ، وأقيمت معسكرات التدريب فى كل مكان . واهتزت البلدة بالهتاف والتكبير ، حتى لكأن كل مصرى قائد مظفر ، وحتى صار كل مصرى يشتهى الوصول إلى المعركة ، كما يشتهى المحب وصال الحبيبة . والشيخ يعمل دائباً ، كلما خبت شعلة الإيمان فى بعض النفوس زادها منْ إيمانه ناراً ونوراً، فكانت كل كلمة منه فرقة جديدة فى جيش الجهاد .

وخرج الجيش المصرى على أتم هيئة ، وأكمل استعداد ، تتقدمه فرسان المماليك . ولئن كان المماليك حكام سوء ، لقد كانوا ـ والحق يقال ـ أرباب حرب ، وأبطال قتال .

وبلغ الجيش بيسان فى رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وأراد أن ينحدر من أعالى الهضبة إلى عين جالوت ، فوجد تحته السيل الذى جرف فى طريقه كل شىء من صحارى تركستان وأطراف الصين ، إلى عين جالوت : جيش المغول والتتر ، وكاد الجزع يخالط نفوس أجناد هذا الجيش الصغير ، لما رأوا هاتيك الجموع ، وذكروا كم اجتاحت فى طريقها من جيوش كانت أجل

وأعظم من هذا الجيش ، فما صنعت مع هذه الجموع صنيعاً ، ولكن الشيخ قام يذكرهم ما ضمن لهم من النصر ، استنجازاً لوعد الله ، واعتماداً على قوله : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : 7] .

فغلى الدم فى العروق ، وضربت الحماسة أقحاف الرؤوس ، ونزل جيش مصر نزول الموت ، يحث جنده الخيل ، يتسابقون إلى النصر والشهادة .

وكانت معركة خاف فيها الخوف ، وذعر فيها الذعر ، وانجلت عن . . . عن ظفر المصريين .

يا أيها السامعون لقد انهزم التتر الذين دكوا فى طريقهم كل قوة ، واخترقوا كل جيش . انهزموا أمام الإيمان الذى أذكاه فى النفوس هذا الشيخ الدمشقى .

انهزموا وأنقذ الله مصر ، وأنقذ الله دنيا الإسلام ، وأنقذ الله الحضارة والتمدن والعمران ، وضمت معركة عين جالوت إلى سلسلة المعارك المقدسة ، التى خضناها دفاعاً عن الحق والخير والعدل : بدر والقادسية واليرموك وجبل طارق وحطين .

ظفرت مصر . وستظفر الآن مصر . ستظفر [1] . ما فى ذلك شك أبداً .

أما الشيخ فهو . . . هو . . لقد انتهى الوقت أيها السامعون . وستعرفون قصة هذا الشيخ فى مثل هذه الساعة من يوم الجمعة القادم .

- 2 -

هو عز الدين بن عبد السلام . عالم من علماء بلدكم دمشق ، وقاض من قضاتها ، وخطيب من خطباء جامعها الأموى ، ولكنه ليس كمن تعرفون من

(1) أذيع هذا الحديث فى أوائل حوادث العدوان الثلاثى على مصر .

العلماء والخطباء ، وليس من أمثالنا من القضاة، وليس فينا من يشبهه أو يقاربه، ليمثل عليه به . إنه من طراز نادر لا تجود الدنيا بمثله إلا مرة واحدة فى القرون الطوال .

ولم يكن هذا الشيخ من أسرة كبيرة ، ولا من بيت علم ، ولم يقبل على الدراسة فى مطلع شبابه ، ولكنه طلب العلم على كبر ، فقد كان يبيت من فقره فى مدرسة الكلاسة ، بين الأموى وقبر صلاح الدين ، وكانت تغلق أبوابها ليلاً ويبقى وحده فيها ، فاضطر فى ليلة باردة إلى الاغتسال ، ولم يجد إلا بركة المدرسة ، فغطس فيها ونام ، فعاوده الاضطرار مرة ثانية فغطس ، فأغمى عليه من شدة البرد ، فشكا ذلك إلى شيخ فى المدرسة ، فأفهمه أنه لو كان عالما لما أقدم على ضرر نفسه ، ولعرف أن التيمم يغنى عن الغسل إن كان الغسل يؤدى إلى المرض .

كذلك ـ يا سادة ـ لا يصلح التقى إلا بالعلم ، ولا يصلح العلم إلا مع التقوى ، فالمتعبد الجاهل ، يضر نفسه وقومه ، والعالم الفاسق يتخذ علمه وسيلة إلى الدنيا ، وسلماً لبلوغ الغنى والجاه .

وأقبل من ذلك اليوم على طلب العلم بهمة ليس لها مثيل ، يسهر ليله كله فى العلم ، فلم تمر عشر سنين حتى صار أحد أفذاذ العلماء وأعلام الدنيا ، وكان فقيراً ولكن بين جنبيه نفس ملك ، وكان زاهداً فى الدنيا يراها أهون من أن يهتم بها ويحرص عليها ، فلم يستعبده مال ولا جاه ولا امرأة ، فمن هنا جاءت هذه الأخبار العجيبة عن جرأته على الملوك والأمراء ، فاسمعوها ولكن لا تحاولوا أن تجربوا ، حتى تتخلقوا بالخلائق التى دفعته إليها ، وحملته عليها ، حتى تعلموا أنه لم يعملها تظاهراً ، ولا إرضاء للناس ، ولا اكتساباً للجاه ، بل عملها وهو يراها الشىء الطبيعى كالتنفس والطعام .

ولى خطابة الجامع الأموى مع القضاء ، بعدما شرط شروطاً قبلوها منه ، وأخذ عليهم العهود أن يطلقوا يده فى الإصلاح ، فأصلح وأبطل بدعاً كثيرة ، منها صلاة الرغائب ، وصلاة نصف شعبان ، لأن ما يفعله الناس من إحياء ليلة نصف شعبان ، والدعاء فيها بهذا الدعاء المعروف ، لا أصل له فى الدين والعلماء متفقون على أنه من المحدثات .

وكان يحضر خطبته الملوك والأمراء ، ويجلونه ، ويكبرونه ، فلما وقع الخلاف بين الملك الصالح إسماعيل فى الشام ، وابن عمه ملك مصر ، استعان الصالح بالإفرنج الصليبيين وحالفهم على ابن عمه . ومن عجائب المصادفات أن هذا الملك الخائن كان يلقب الملك الصالح ، وأن فاروق كان يلقب الملك الصالح .

وأعطى الإفرنج بلدين من بلدان المسلمين ، فغضب الشيخ لله ، وقام فى الجمعة التالية على منبر الأموى فخطب فى ذم موالاة الأعداء ، وتقبيح الخيانة ، وانتهت الخطبة وقام للدعاء للملك ما هى العادة ، والملك حاضر فى المسجد ، فما كان منه إلا أن أعلن أن الملك قد خان ، وأن الخائن لا ولاية له ، وأعلن إسقاطه من الحكم !

لم يراع صداقته ، ولم يحرص على عطفه ، ولم يلجأ إلى زاوية مظلمة فيتلفت حواليه ، ثم يقول بصوت خافت : اللهم إن هذا منكر لا أرضى به ، ولا أقدر على إزالته ! بل صدع بالحق على المنبر ، فقبض عليه . وضج الناس وتكلم العلماء ، فأرسل الملك إلى الشيخ من يقول له : إن الملك يعفو عنه بشرط أن يقبل يده .

قال الشيخ للرسول : يا مسكين ، والله ما أرضى أن يقبل يدى فضلاً عن أن أقبل يده !

فحبسه ، ثم أرسله إلى الجبهة فسجنه في فسطاط قريب منه ، وكان يقرأ القرآن مرة في محبسه وعند الملك وفود الإفرنج فقال لهم : أتسمعون هذا القارئ ؟ إنه أعظم قساوسة المسلمين وقد حبسته لإنكاره تسليمي الحصون لكم وعزلته عن منصبه !

قالوا ـ واسمعوا ما قالوا ـ قالوا : والله لو كان قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما !! .

ثم أطلق فسار إلى مصر فأكرمه ملكها ، وولاه الخطابة والقضاء ، فكان منقطعاً إلي التدريس والإملاء والتأليف ، وخلف مؤلفات هي غاية الغايات في جودة البحث ، وتحقيق المقصد ، ووضوح الأسلوب ، وكان وفياً للعلم ، لا يبالي في سبيل الحق ورضاء الله ما يقوله الناس ، أفتى رجلاً لا يعرفه في مسألة، ثم ظهر له أنه أفتى خطأ ، ولم يكن في تلك الأيام جريدة ولا إذاعة ، فأخرج منادياً ينادي في شوارع مصر : يا أيها الناس ، من أفتاه أمس عز الدين بن عبد السلام في المسألة الفلانية ، فليعلم أن الجواب غلط ، وليأت ليسمع الجواب الصحيح ! .

لذلك سمي سلطان العلماء .

***

وكانت له في مصر وقائع مع الأمراء نسمعها اليوم فنراها من باب الخيال .

كان الحكم للمماليك فنظر الشيخ فرآهم لا يزالون في نظر الشرع عبيداً ، لم يتحرروا هم ، فضلاً عن أن يحكموا الأحرار ، فأعلن ـ بوصفه القاضي ـ أنهم سيباعون بالمزاد العلني وكان نائب السلطنة من المماليك الذين حكم الشيخ ببيعهم ! .

وحسبوه يهزل فإذا هو جاد، فشكوه إلى السلطان فنهاه فلم ينته ، فقال له السلطان كلمة فيها غلظة ، فما كان من الشيخ إلا أن . . .

إلا أن . . ماذا ؟ ماذا ترونه صانعاً، وهو لا يملك قوة ولا مالاً ، وقد أثار الحاكمين عليه ، وأراد أن يزيد على رقابهم في السوق ، ويبيعهم كما تباع الدواب !

ما كان منه إلا أن حمل أمتعته على حمار ، وأركب أهله على حمار آخر . وكانت هذه دنياه كلها ، دنيا تحمل على حمارين . . . وخرج من مصر .

تقولون : ثم ماذا ؟ وماذا يصنع خروجه ؟

لقد صنع العجائب يا سادة ، لقد خرج أهل مصر جميعاً ، بالضجيج والعويل ، يسيرون خلفه ، وارتجف البلد ، وزلزلت مصر ، وأسرعوا إلى السلطان يقولون له : تدارك ملكك لئلا يذهب بذهاب الشيخ !

فلحقه فأرجعه وأجابه إلى طلبه .

وذهب كبير المماليك بالسيف إلى دار الشيخ ليقتله ، ولم يكن على بابه حرس ولا حجاب ، وقرع الباب ، فنزل الشيخ وفتح له ، فلما رآه الأمير ، لم ير أمامه بشراً يخوفه بالسيف، ولكن رأى الشرع الذى لا تعمل فيه السيوف، فسقط السيف من يده .

ونفذت كلمة الشيخ فنودى على أمراء مصر فى سوق العبيد !

***

وخرج الملك الصالح أيوب يوم العيد إلى الصلاة بموكبه ودبدبته وعظمته : العسكر مصطفون بين يديه ، ووجوه المملكة يسيرون وراءه ، والأعلام تلوح على رأسه ، والأمراء يقبلون الأرض أمامه ، وإذا بشيخ يخرج من باب

مدرسته فيناديه باسمه : يا أيوب ! فالتفت السلطان ودهش ، ووقف ، ووقف الناس وشدهوا ، حتى كأن الطير على رؤوسهم ، فقال له الشيخ : ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ قال : هل جرى ذلك ؟ قال : الخمارة الفلانية يباع فيها الخمر ، وفيها المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة .

قال الملك : يا سيدى هذه من زمان أبى .

قال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا ؟

فأمر السلطن بإبطالها من ساعته .

فلما دخل المدرسة سأله تلميذه (الباجى العظيم) : يا سيدى لم فعلت ذلك ؟ قال : يا بنى رأيته فى تلك النعمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . قال : يا سيدي أما خفته ؟ قال : تصورت هيبة الله فصار السلطان قدامى كالقط !

* * *

يا أيها السادة ، هذا شيخ كان يعيش فى دنيا من عقيدته وإيمانه ، ترك دنيا الناس وزهد فيها ، ولم يحرص على متعها ولذائذها ، فانقادت له الدنيا ، وذل له جبابرتها ، حتى وقف هذه المواقف التى نراها أدنى إلى الخيال .

ومن خاف الله يا أيها الناس خافه كل شيء ، ومن أخلص له وضع هيبته ومحبته فى كل قلب ، أما من كان مثلنا يطلب الدنيا ويريد المال ، ويبغى الجاه، ويحرص على ثناء الناس ، فهيهات أن يقدر على شيء .

* * *

الفصل الثالث

- الوزير الشاعر
- شاعر يرثى نفسه
- سيد شعراء الحب العذرى
- سلطانة الهند

الوزيرُ الشاعِرُ

حديثي عن وزير أندلسي ، إن غدا اليوم مجهول الإسم لا يعرفه إلا العلماء . . فلقد كان اسمه في الأمس من أشهر الأسماء . . . وكان علماً من الأعلام ، يعرفه الخاص والعام .

إنه أحد العباقرة الذين أخرجتهم الأندلس الخضراء ، الفردوس الذى أضعناه ، بدأ من الحضيض بلا نسب ولا مال فرفعه ذكاؤه وأدبه إلى القمة ، فلما بلغها غلبت عليه أخلاق أهل الحضيض فغدر وخان ، فهبطت به خيانته ونزل به غدره من القمة إلى القبر .

وزير شاعر أديب ، لملك شاعر أديب ، هو محمد بن عمار وزير المعتمد ابن عباد .

وهو أشعر من ابن عباد ، و هر أحد السبعة الكبار من شعراء الأندلس إن لم يكن أشدهم أسراً وأجزلهم شعراً .

نشأ في شلب ، وهي مدينة كبيرة في (البرتغال) غربي الأندلس ، يزعم ياقوت أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر ولا يعاني الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر ، نظم من فوره ما اقترحت عليه في أي معنى طلبته منه .

في هذه المدينة الشعرية نشأ هذا الوزير الشاعر ، فكان ينظم الشعر يمدح به كل من يلقاه ، من عظيم وحقير ، وكبير وصغير ، جواهر يرمى بها ذات

الشمال وذات اليمين ، فتقع في الروض المونق وتقع في الوحل القذر. ثم اتصل بالمعتمد ، وكان المعتمد شاباً ، ينظم الشعر ، ويحب الأدب ، فما زالت حاله معه تقوى ، وصلته به تزداد ، حتى صار شقيق نفسه ، ورفيق أنسه ، وغلب عليه ، حتى انطلقت ألسنة الناس فيه ، فأمره والده المعتضد بإبعاده عنه ، فهام في مدن الأندلس شريداً طريداً يبعث إلى المعتضد بأروع الشعر ، من أمثال قصيدته التي بعث إليه بها من سرقسطه ، ومطلعها :

عليّ وإلا ما بكاء الغمائم　　　وفيّ وإلا ما نواح الحمائم

والقصيدة الأخرى التي جاء فيها بهذا البيت النادر :

السيف أفصح من زياد خطبة　　　في الحرب إن كانت يمينك منبرا

ولكن المعتضد لم يأذن له بالعودة إلى ولده ، فبقي ابن عمار مغترباً في أقاصي الأندلس حتى مات المعتضد ، وولي المعتمد ، وأعاده إليه ، وقربه منه ، حتى لم يبق فوق منزلته منزلة ، وحتى صار منه كجعفر البرمكي من هارون الرشيد . وكانت نهاية أمره معه ، كنهاية جعفر مع الرشيد .

لا ، لن أسرد عليكم تفاصيل حياته ، ما لكم ولتفاصيل حياته ، وليست الإذاعة (*) مدرسة لتعليم التاريخ ، ولستم تلاميذ في هذه المدرسة .

إني أسرد عليكم من حياته مواقف فيها الإمتاع لمن شاء الاستمتاع ، وفيها العبرة لمن أراد الاعتبار .

كانت حياة ابن عمار علواً وانخفاضاً ، وبؤساً يعقبه نعيم ، ونعيماً يكون بعده البؤس .

لما كان يدور بشعره على الناس ، يمدح من يلقاه ، وجه بقصيدة إلى تاجر

(*) أذيعت من إذاعة دمشق .

غنى فى شلْب ، وكانت لابن عمار دابة لا يملك ثمن علفها ، فوجه إليه الرجل بمخلاة شَعير ، ففرح بذلك ابن عمار ورآها من أسنى الجوائز ، ودار الدهر دورة ، وصار ابن عمار وزير المعتمد ، فتوجه يوماً إلى شلب ، ودخلها فى الموكب الضخم ، والجند الكثيف ، والعبيد والحشم ، فكان أول ما صنعه ، أن سأل عن هذا التاجر ، فلما جاءه أخرج المخلاة وكانت معه فملأها له دراهم ، ودفعها إليه ، وقال له : لو ملأتها يومئذ قمحاً بدل الشعير ، لملأتها لك اليوم دنانير بدل الدراهم .

ودار الدهر دورة أخرى ، فخان مولاه ، وأعلن الخروج عليه ، والاستبداد بالملك دونه ، فلما فشل وغلب على أمره ، وهرب فلم يجد مهرباً ، ولجأ إلى أمراء الأندلس ، فلم يلق عندهم ملجأ ، قبض عليه المعتمد وجاء به مقيدا ذليلاً ، وأخرج الناس كلهم:كبيرهم وصغيرهم ليروه على هذه الحال من المذلة والهوان ، وهم الذين كانوا يخرجون كلهم لاستقباله ، وهو فى العز والسلطان ، وكان أكبر المسرة للكبير منهم أن يدنو منه ، فيمس ركابه أو يقبل ركبته ، فصار أصغر من فيهم يرميه بحجر أو يبصق عليه . حتى وقفوه أمام المعتمد ، فذكره بإحسانه إليه ، ونعمه عليه ، ومقابلته ذلك بالغدر والخيانة ، فأطرق ولم يجد له جواباً ، فأمر به إلى السجن ، وبعث إليه من السجن بقصائد هى فى الشعر آيات معجزات ، منها قصيدته التى يقول فى مطلعها :

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

قصائد لو توسل بها ـ كما يقول صاحب المعجب ـ إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجع ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع .

وقابل المعتمد الضراعة بالإعراض ، وتذلل ابن عمار له بالتكبر عليه ،

وانتهى أمره بأن قتله بيده فى فورة غضب أعمى بصره ، وكأن نفس ابن عمار كانت تحدثه بهذا المصير ، فلقد كان يوماً مع المعتمد ، فقربه إليه حتى حلف أن يناما معاً على وسادة واحدة ، فرأى فى منامه أن المعتمد يقتله فقام مذعوراً ولف نفسه فى حصير ونام فى الدهليز ، فلما افتقده الملك وقام يفتش عنه رآه على هذه الحال ، فسأله فخبره الخبر ، فطمأنه أن ذلك مستحيل ، ولكن هذا الذى رآه مستحيلاً وقع .

ودار الدهر دورات أخرى وإذا بالملك يقاسى من ابن تاشفين ما قاساه منه وزيره ابن عمار .

خان الوزير فأنزله ملكه من سدة الحكم إلى ظلام السجن وأذاقه مرارة النقم بعد حلاوة النعم ، فجاء ابن تاشفين فصنع بالمعتمد ما صنع المعتمد بابن عمار ، نقله من القصر إلى القفر ، ومن مدن الأندلس إلى قرية فى صحراء أفريقية ، ومن أوسع الغنى إلى أضيق الفقر ، حتى قتله الحزن .

وهذه هى الدنيا : إقبال وإدبار ، وعلو وانخفاض ، وسيد يصير مسوداً . ومسود يصبح سيداً .

وليست حظوظاً ولا مصادفات ، ولكنها خطة مدبرة من لدن حكيم قدير .

* * *

شاعر يرثي نفسه

لقد وعدتكم أن أضرب فى هذه الأحاديث بكل سهم ، وأسلك كل واد ، وأتحدث عن رجال الفن كما أتحدث عن رجال العلم ، وأن أجيئكم مرة مع شاعر أو موسيقى ، كما أجيئكم مرات مع الأئمة والقواد .

وها أنذا آتى اليوم ومعى شاعر .

شاعر لم يغنِّ مع الحمائم فى الروض الأغن ، ولم يهم مع السواقى فى الوادى الضائع ، ولم يدلج مع النجم فى الأسحار الندية بعطر الفجر ، ولم يتبع الشمس فى العشايا السكرى بخمر الغروب ، ولم يرقب طيف الحبيب فى الليالى التى تكتم أسرار الهوى .

ولئن سابقت شاعرية الشعراء الزمان فسبقت الشباب ، وظهرت بوادرها فى مدارج الصبا ، وملاعب الفتوة ، فإن هذا الشاعر لم تنبثق شاعريته إلا على سرير الموت ، وشفا الردى ، على عتبة الدنيا خارا منها ، وعتبة الآخرة داخلاً إليها . وفى الساعة التى يعيا فيها الشاعر ، ويؤمن فيها الكافر ، ويضعف فيها القوى ، ويفتقر فيها الغنى ، ولم تنبثق إلا بقصيدة واحدة ، ولكنها كانت نفحة من عالم الخلود فخلد بها .

* * *

قصيدة وهبها للموت ، إذ تغنى له فيها ، فوهب له الموت بها الحياة .

لم يتفلسف فيها تفلسف المعرى ، ولا تجبر تجبر المتنبى ، ولا أغرب إغراب

الدريدى ولكنه جاء بأقرب الأفكار ، فى أسهل الألفاظ ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة .

والفنون كلها تموت يا سادة إن أكرهتها على الحياة فى جو التكلف ، التكلف فى التفكير أو التعبير . إن الفنون لا تحيا إلا فى الانطلاق والحرية . كل الفنون : الكتابة والشعر والتصوير والموسيقى ، حتى الإلقاء ، فليفهم ذلك من يظن أن الإلقاء الجيد هو التشدق والتقعر ، وإمالة اللسان ، وقلب الحناجر ، وضخامة الأصوات . . . وما نسمعه كل يوم فى الإذاعات .

* * *

شاعر لم يعش شاعراً ، ولكنه مات شاعراً .

عاش عمره كله يغنى بسنانه للحرب ، لا يغنى بلسانه للحب ، لا يعمل لوصال الأحبة ، وسلب القلوب ، ولكن يعمل لقطع الطرق ، وسلب القوافل . كان لصاً من أشهر لصوص العصر ، ثم تاب ومشى إلى الجهاد فى جيش ابن عفان ، حتى أدركته الوفاة وهو على أبواب خراسان ، فرثى نفسه بهذه القصيدة ، التى لا أعرف فى موضوعها [1] إلا قصائد معدودات فى آداب الأمم كلها .

وإنها لتختلف الألسنة والألوان ، وتتبدل المذاهب والأديان ، وتتباعد المنازل والبلدان ، ولكن شيئاً واحداً لا يختلف بين نفس ونفس ، ولا يتبدل بتبدل الأعصار والأمطار ، هو العواطف البشرية ، إن أناشيد المجنون لليلى أناشيد كل عاشق أينما كان ، وقصة (بول وفرجينى) قصة كل شاب مغرم فى كل زمان ، وخطب (فيخته) هى خطب كل أمة قد هبّت تبنى المجد ، وتعمل للحياة .

---

(1) أى رثاء الشاعر نفسه .

ومن هنا جاءت عظمة الأدب ، وجاء خلوده ، إنه ليس كالعلوم . إن قرأ طالب الطب فى كتاب أُلِّف قبل أربعين سنة سقط فى الامتحان ، أما طالب الأدب فيقرأ شعراً قيل من ألف وخمسمائة سنة ولا يزال جديداً كأنه قيل اليوم. لا ، لا تقولوا:إن العلوم تترقى وتتقدم وتسعى إلى الكمال ؛ لأن الجواب حاضر ، إن الأدب قد بلغ سن الرشد ، وحد الكمال ، من قبل أن يولد العلم ، وقد عاش البشر دهوراً بلا علم ، ولكنهم لم يعيشوا يوماً بلا أدب . إن آدم قال لحواء كلمة الحب ، لم يحدثها فى الكيمياء ، ولا حل معها مسائل الجبر فى رياض الجنة [1] . والحب أول كلمة فى سجل الأدب .

الشعر أخلد من الكيمياء ، وأبقى من الرياضيات . كم مرة تبدلت نظريات العلم ، منذ نظم هوميروس قصيدته ، إلى اليوم . وأشعار هوميروس لا يزال لها رونقها ومنزلتها .

لا أعنى الشعر الذى هو الرنات والأوزان ، ولا الألفاظ المنمقة التى لا تحمل معنى ، ولكن أعنى بالشعر : حديث النفس ، ولغة القلب ، وكل ما يهز ويشجى ويبعث الذكريات ، وينشئ الآمال ، ويقيم النهضات ، ويحيى الأمم . الشعر الذى يشعرك أنه يحملك إلى عالم غير هذا العالم . سواء بعد ذلك أكان منظوماً أم كام منثوراً . إن عقد اللؤلؤ لا ينزل قيمته أن ينتثر ؛ لأن ثمن الخيط نصف قرش !

وإليكم الآن مقاطع من هذه القصيدة ، ولو اتسع المجال لشرحتها شرحاً ينسى الناس الأصل ، ولكن أين المجال ، والوقت ربع ساعة ؟

عربى عاش عمره كله فى جزيرته ، ما استمتع بحياته ، ولا ناجى طيف ذكرياته ، ولا انتشى برحيق آماله ؛ لأنه لم يجد يوم راحة ، يخلو فيه إلى نفسه

(1) هذا كلام الأدباء .

فيحس لذة الأحلام ، وجمال التذكر ، وسحر الأمل ، لينبثق فى نفسه الشعر المخبوء فيها ، كما يختبئ الماء فى بطن الجبل ، يرقب معولاً يفتح له الطريق .

وها هو ذا الآن ملقىً على صعيد غريب عنه ، فى بلاد لا يعرفها ولا تعرفه، ولا يألفها ولا تألفه ، فهو يتذكر الآن . . الآن فقط . . بلده وأرضه ، ويدرك قيمة تلك النعم الجسام ، ولا يدرك المرء قيمة النعم إلا بعد زوالها ، وتثور فى نفسه الأمانى ، فلا يتمنى إلا أن يبيت ليلة أخرى بجنب الغضى ، وأن يسوق كرة أخرى إبله إلى المرعى ، ويذكر كيف كان يزدرى هذه النعمة التى يراها الآن عظيمة ، ويتمنى - وليس ينفع التمنى - لو أنه لم يسر من تلك الديار ، أو لو طال مشيه فيها قبل أن يخرج منها حتى تطول متعته بها .

واسمعوه الآن يقول هذا بألفاظه ورنته ، وقافيته الباكية التى تذكركم بقصيدة أخرى من وزنها ورويها ، لشاعر يمانى غريب هو عبد يغوث :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى[1] أزجى القلاص النواجيا[2]
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان فى أهل الغضى (لو دنا الغضى)
مزارٌ ولكن الغضى[3] ليس دانيا

---

(1) الغضى : نبت من نبت البادية ، شديد اخضراره ، حامية ناره ، رأيناه فى رحلتنا فى البادية إلى الحجاز سنة 1935 ، تلك التى كشفنا فيها طريقًا للسيارات وتكلمت عنها فى كتاب (الذكريات) .

(2) أزجى : أسوق سوقاً رفيقاً . والقلاص : الإبل ، والنواجى : السريعة .

(3) هذا التكرار ، والذكر فى موضع الإضمار ، من أساليب البلاغة ، وأعلى الأمثلة عليه سورة ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ ومنه قول الشاعر : ليلاى منكن أم ليلى من البشر .

ويلوم نفسه ويعجب منها كيف سوغت له أن يقبل بهذا النفى راضياً مختاراً ، ويعجب من أبويه كيف لم ينهياه ، وما الذى جاء به إلى باب خراسان وقد كان نائباً عنه .

ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى
وأصبحت فى جيش ابن عفان [1] غازيا
لعمرى لئن غالت خراسان هامتى
لقد كنت عن بابىْ خراسان نائيا
فلله درى يوم أترك طائعاً
بنىّ بأعلى الرقمتين [2] وماليا
ودر الظباء الساحنات عشية
يخبِّرن أنى هالك من ورائيا
ودر كبيرىّ اللذين كلاهما
علىَّ شفيق ناصح لو نهانيا

واسمعوه كيف يفتش عمن يبكى عليه فلا يجد أحداً ، لا يجد من يبكيه إلا سيفه وفرسه ، وليس ينفع الميت أن يذكره ذاكرٌ إلا ذاكراً بدعاء أو صدقة ، ولا يضره أن ينساه الناس ، وليست حفلات التأبين للميت ولكن للأحياء يصعدون على قبر الميت ليقولوا للناس : انظروا إلينا ، واسمعوا بياننا ، وصفقوا لنا .

(1) هو سعيد بن عثمان بن عفان ، وباع الضلالة بالهدى ، أى اهتدى بعد الضلال ، لأن ما تدخل عليه الباء يكون هو ثمن المبيع .
(2) هما موضعان فى بادية البصرة .

ولقد صدق سبنسر إذ قال :

كلنا يبكى فى المأتم وكل يبكى على ميته .

ليس ينفعه بكاء ولا نواح ولكنها غريزة التمسك بالحياة والاستكثار منها .

تذكرت من يبكى علىَّ فلم أجد
سوى السيف والرمح الردينى [1] باكيا
وأشقر خنذيذ [2] يجرعنانه
إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

وأرجو أن تتجاوزوا عن كلمة (خنذيذ) التى ترونها غريبة ولم تكن غريبة فى أيامه . وانظروا إلى جمال الصورة وروعتها . هذا الحصان يتلفت يمنة ويسرة ويدور وينعطف يفتش عن صاحبه فلا يلقاه ، فينسى الطعام والشراب ، حتى يبرح به العطش ولا يجد من يسقيه ، فيجرعنانه . (انتبهوا إلى دقة الوصف فى جر العنان ، أى : الرسن) إلى الماء .

لو أنَّ مصوراً صور معنى هذا البيت لكان لوحة من لوحات العبقرية ، وما أكثر ما فى هذه القصيدة من الصور .

***

وهاكم هذه اللوحة التى بلغت من الروعة أبعد الغايات ، والتى تذيب القلوب ، فتسيلها دموعاً .

هذه اللوحة التى أعرضها كما هى ، لا أحب أن أفسدها بشرح أو تعليق :

(1) منسوب إلى ردينة ، وهى امرأة كانت تثقف الرماح ، أى تقومها .
(2) الفرس الطويل الصلب .

ولما تراءت عند مرو منيتي

وحل بها جسمي وحانت وفاتيا

أقول لأصحابي : ارفعوني فإنني

يقر لعيني أنْ سهيلٌ[1] بدا ليا

فيا صاحبيْ رحلي دنا الموت فانزلا

برابية ؛ إني مقيم لياليا

أقيما على اليوم أو بعض ليلة

ولا تعجلاني ؛ قد تبيَّن ما بيا

وقوما إذا ما استل روحي وهيئا

لي السدر [2] والأكفان ثم ابكيا ليا

وخطا بأطراف الأسنة مضجعي

وردا على عينيّ فضلَ ردائيا

ولا تحسداني - بارك الله فيكما -

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خذاني فجراني ببُردي إليكما

فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

يعلم أنه لن يجد من يقوم على قبره، ويشيد بذكره ، فيرثي هو نفسه ،

(1) سهيل نجم يطلع من نحو بلده .

(2) شجر كالأشنان يغسل بمائه الميت .

ويكشف عن فعاله بمقاله :

وقــد كنــت عطافاً إذا الخيــل أدبــرت

سـريعاً إلـى الـهَـيْـجـا إلـى مـن دعـانيـا

وقـد كنت مـحـمـوداً لدى الزاد والقـرى

وعن شـتـمـيَ ابـن العـم والجـار وانـيـا

وقـد كنت صبّـاراً على القِـرْن فى الـوغى

ثقيـلا عـلـى الأعـداء عضـبـًا لـسـانـيـا

ويعود إلى إتمام هذه اللوحة الرائعة ، فيتصور مسير أصحابه وبقاءه ، وحيداً فى هذه الفلاة :

غـداة غـد يا لهف نفـسى على غـد

أدلجــوا عـنـى وخُـلِّـفـتُ ثـاويـــا

وأصـــبح مـــالى من طريف وتالد

لغـيـرى وكـان المال بالأمس مـاليـا

* * *

ويسأل رفيقيه حاجة له هى آخر حاجاته من دنياه ، أن يحملوا نعيه إلى أهله ، إلى بئر الشبيك ، حيث يزدحم بنات الحى ، يملأن الجرار ، ويستقين ، فيصرخ ، فيدعن ما هن فيه ، ويتلفتن إليه ، وتسمع زوجته ، فيلقى إليها بوصاته ، وما وصاته إلا أن تقف على القبور علها تذكرها بقبره الضائع ، حيث لا زائر ولا ذاكر :

وقوما على بئر الشُّبَيك فأسمعا ... بها الوحش والبيض الحسان الروانيا

بأنكما خلفتماني بقفرة ... تهيل عليَّ الريحُ فيها السوافيا

ولا تنسيا عهدي خليلي إنني ... تَقَطَّع أوصالي وتبلى عظاميا

فلن يعدم الوالون بيتا يُجِنُّني ... ولن يعدم الميراث مني المواليا

* * *

ويا ليت شعري هل تغيرت الرحى

رحى المثل [1] أو أضحت بفلج كما هيا

إذا مت فاعتادي القبور فسلمي

على الريم [2] أسقيت الغمام الغواديا

ويختتم القصيدة بهذا المقطع :

أقلب طرفي فوق رحلي فلا أرى

به من عيون المؤنسات مراعيا

وبالرمل منا نسوة قد شهدنني

بكين وفدين الطبيب المداويا

فمنهن أمي وابنتاها وخالتي

وباكية أخرى تهيج البواكيا [3]

وما كان عهد الرمل مني وأهله

ذميما ، ولا بالرمل ودعت قاليا

---

(1) مواضع في ديار قومه . (2) القبر . (3) زوجته وكانوا يكنون عن الزوجة .

يا سادة . لقد مات مع مالك فى تلك السفرة آلاف وآلاف ، ولا يزال الناس قبله وبعده يموتون ، فينساهم ذووهم ، ويسلوهم أهلوهم ، وهذا الشاعر جعلكم تذكرونه ، وتبكونه بعد ألف وثلاثمائة سنة ، وأنتم لا تعرفونه .

وهذه هى عظمة الشعر ، وهذا هو خلود الشاعر .

* * *

سيّدُ شُعَراء الحُبّ العُذريّ

هذا فصل فى الحب ، فلا تقولوا : يا عجباً ! شيخ وقاض ويتكلم فى الحب؟! وما الأدب كله ، وما الشعر ، إن لم يكن كلاماً فى الحب ؟ ومن حرم على المشايخ القول فى الحب ، وهم كانوا الأئمة فى كل شىء ، وكان من كبارهم ثلاثة ألفوا فيه كتباً لم يؤلف مثلها ، عملوا فيها الناس أفانين الهوى ، ولقنوا (أصول العشق) كبار العاشقين ، وهم ابن القيم ، وابن حزم ، وابن داود ، ثلاثة من جبال العلم ، وأعلام الإسلام .

ومن كبار الفقهاء ، من كان من شعراء الغزل الكبار ، ولقد جمعت مرة فى الرسالة [1] طرائف من غزل الفقهاء ، يؤمن من يقرؤها أن التَّزَمُّتَ والتوقر لم يكن دائماً سمة العلماء ، وأن فى علمائنا ، من كانوا هم أرباب الظرف ، وكانوا هم أصحاب القلوب .

وما لى أذهب فى الاحتجاج بعيد المذاهب ، وهذا الشاعر الذى جئت أحدثكم حديثه ، كان من (أئمة) الدين ، وكان من (قضاة) المظالم ، وكان نقيب الأشراف ، وكان إمام الحج ، وكان مع ذلك شاعراً ، بل كان أعظم شعراء الحب العذرى فى أدب العرب ، بل ـ سأقولها ولا أبالى ـ كان أعظم شاعر فى الدنيا ، هتف للجمال ، وغنى للحب ، وصور نوازع النفس ، وصبوات القلب ، ولوعات الهوى ، ولذات الوصال ، ولقد قرأت أكثر أشعار لامارتين وموسه وبيرون وغوته ، فما وجدت فيهم من قال فى هذه المعانى ،

(1) العدد « 644 » 25 مارس 1946 والذى بعده وهى فى كتابى (فكر ومباحث) .

أدق ولا أرق ولا أحلى ولا أشرف مما قال شاعرنا .

وما أنكر عليه أهل زمانه ما قد تنكرونه اليوم ، ما أنكروا عليه أن جعل من (الموسم) الأكبر [1] ، موسماً للقلوب الهائمة ، والأبصار الشاردة ، وأنه قرأ قصائد الجمال مكتوبة فى وجنات العذارى ، بكل لغات الأرض ، وقال فيها أربعين قصيدة ، هى (الحجازيات) التى دان بها الأدب العربى ، والتى لو ترجمها إلى الفرنسية أو الإنكليزية ، بليغ فى ذلك اللسان ، لفتنت الفرنسيين والإنكليز ، أضعاف ما فتنهم شعر الخيام . وأين الخيام من الشريف ؟

وأنا أعجب والله كيف استطاع أن يصرح بما لو لمح إليه شيخ من مشايخ هذه الأيام ، لما تركوه يستطيع المشى فى الأسواق ؟

لقد عرفت السبب . . .

ذلك أنهم وثقوا أنه كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون ، وأن دينه وعفافه كانا فى مكان لا ترتقى إليه الشبهات ، وأنه لم يكن يعشق امرأة كما يفهم شباب اليوم من العشق : ا فيرضاها ، ثم يتبعها فيهواها ، ثم يتخذها زوجاً بلا زواج . كلا . ولقد كان الشريف شريفاً حقاً ، وكان زوجاً أخلص زوج ، وكان أباً خير أب ، وكان سيداً مرموقاً ، ولو علم الناس أنه واقع بعض ما يقول لأوقعوا به ، ولكنهم علموا أنه ما كان عاشقاً شاعراً ، وإنما كان شاعراً عاشقاً ، وما اتخذ الشعر حرفة يستجدى بها الأكف ، ولقد كان عند نفسه وعند الناس أكبر من ذلك :

وما لىَ يا لمياء بالشعر طائل سوى أن أشعارى عليكِ نسيب

(1) هذا كلام قلته أنا ، وأنا أنكره اليوم ، ولا أقر الشريف ولا ابن أبى ربيعة من قبله ، ولا أقر أحداً أن يجعل من موسم للعبادة موسماً للأدب ، ومعرضاً للجمال ، وغفر الله لى ولهم .

ولكنه كـان يعـشق العـشق ، ويحب الحب ، إن كـان هذا التـعبيـر منى صحيحاً ومفهومًا . وما هذه المواطن التى يرددها الشريف ، وما هذه الأسماء التى يسميها ، إلا حجب يخفى وراءها نوازع قلبه الهائم ، ومطارح حبه التائه، وإن كانت كحجاب النساء فى هذه الأيام ، يخفى المعايب ، ويجمل بالوهم غير ذات الجمال .

لم تكن هذه المواطن أكثر من صحارى مقفزات ، ولكن لمسة من يد الشاعرالعبقرى ، تجعل الصحارى جنات وارفات الظل ، فاتنات المسارب ، هادرات السواقى ، وتحيلها عالماً مسحوراً ، كأنه جنة عبقر التى يتحدث عنها العرب . وأنت تسمع اليوم أسماء بلودان ، وفالوغا ، ونبع الصفا ، والقناطر الخيرية ، وراوندوز ، وكشمير ، وما شئت من مرابع الخيال ، ومراتع الغيد ، ومراتع الأحلام ، فلا تحس لهذه الأسماء برجفة فى قلبك ، ولا بوثبة فى خيالك ، كالذى تحسه وأنت تسمع أسماء تلك الفلوات : البان والعلم ، والخيف ومنى ، وسلع والمصلى ، حث يهتف بها الشريف .

وهذه عظمة الشعر ، يمر بسحره على القفاز فيجعلها تزرى بجنان المصايف، وروائع الأودية ، ذات العيون والسواقى .

من معيد أيام سلع على ما كان منها ؟ وأين أيام سلع !

***

أيها الرائح المجد تحمل حاجة للمتيم المشتاق
أقْرِ عنى السلام أهل المصلى فبلاغ السلام بعض التلاقى
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد أن قلبى إليه بالأشواق

***

لا لن أتحدث عن (الرجل) ، ماذا أكل وماذا شرب ، ومتى سافر وأين أقام؟ ما لى وما للرجل ، والرجل فان ؟ إنما أتحدث عن (الشاعر) ، فالشعراء خالدون [1] . وسأعلو بكم ما استطعت إلى جوه ، وأدخل بكم إلى عالمه ، فإن للشعراء عوالم ، لا يحيط بها علم الناس ، عالم لا تعرفون عنه إلا هذه الومضات التى تلمحونها عندما تسمعون الأغنية الحالمة فى الليل السكران ، أو تطالعون القصة العبقرية ، تطرق باب المجهول . أو تفتحون فى سجف الذكريات كوة على الماضى المنسى ، أو تستغرقون في ذكر الله فى هدآت الأسحار . وتلك وحدها أنس النفس المؤمنة ، ورواح الروح .

عالم كل ما فيه غريب لا يشبه دنيا الناس . هذا هو عالم الشريف الرضى

***

إن كنتم تسمعون بآذانكم ، فأهل هذا العالم يسمعون بأفواههم ، فإن ناجاها لم يضع فمه على أذنها ، بل فاه على فيها :

عندى رسائل شوق لسـ اذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وإذا أبصرتم أنتم بالعيون ، أبصروا هم بالآذان :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى

فلعلى أرى الديار بسمعى

وإذا كان الناس عندكم هم وحدهم الذين يروون الأحاديث ، بالكلمات والحروف ، فإن كل شىء فى عالم الشاعر يحدث بلا حروف ولا كلمات . . .

(1) خلود الذكر فى الدنيا ، والخلود الحق إنما يكون فى نعيم الجنة ، أو فى عذاب النار .

النَّفس يتحدث فهل تفهمون لغة الأنفاس ؟

خذى حديثك عن نفسى من النَفَسَ

وَجْد المشـوق المعـنى غيـر ملتبس

فماذا قال النفس

قال :

الماء فى ناظرى والنـار فى كـبدى

إن شئت فاغترفى أو شئت فاقتبسى

والعين ، والقلب ، عندكم أعضاء فى الجسم ، هكذا يقرر أساتذة كلية الطب لا يعرف المساكين من العين إلا أنها (فوتوغراف) ، ولا من القلب إلا أنه (مضخة)أما نحن ـ نحن الأدباء ـ فإن عندنا للعيون علماً مستقلا ألفت فيه كتب كبار ، أما قرأتم كتابى (سحر الفتون فى سر العيون) الذى أنوى أن أؤلفه يوماً وسأدرسه لطلاب التخصص فى أمراض العيون فى كلية الطب ؟ وإذا كانت قلوب الأطباء ، ما فيها إلا دم أحمر كدم الخروف ، فإن قلوب الشعراء العشاق ، فيها الماضى والحاضر ، وفيها الزمان و المكان ، وفيها الذكر والآمال ، وفيها من العجائب والأسرار ما لا يستطيع الأطباء أن يصلوا إلى علمه وهى بعد أحياء مستقلة لا أعضاء ، العين لها وحدها حياة ، والقلب له وحده حياة ، وقد تفرح العين والقلب متألم .

وإن شككتم فهاكم الدليل من شعر الشريف :

تلـذ عينـى وقلبى منك فى ألـم فالقلب فى مأتم.والعين فى عرس

وللعين (دائرة استعلامات) تتجسس لها على القلب ، فتهتك ستره ، وتذيع سره ، والشاعر حائر بينهما ، متعجب منهما :

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علـــم العيـن أن القلـب يهـــواك ؟

صحيح والله .. من علم العين ؟!،

والعين تبصر من الحجاز مَنْ في العراق ، وترمى بسهام فتونها ، من ذى سلم فتصيب من فى بغداد ، فتسبى وتصبى ، لا تمنعها شوامخ الجبال ، ولا شواسع البيد .

سهـم أصـــاب وراميـه بـذى سلـم

من فى العراق ، لقـد أبعــدت مرمـاك !

والعين تحصى عدد شهدائها ، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها ، وتقرؤه على الشا عر من وراء صاحبتها ، فيشهد جناية العين ، ويقرر براءة الحبيبة لأنها لا تدرى ما جنت عيناها .

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا

بما طـوى عنك من أسـماء قتلاك

ولا تعجبوا من نطق العين ، فإن العين ، تحدث الأحاديث الطوال فهى تأمر وتنهى ، وتعد وتؤمل ، ولكنها لا تفى ، ولا تصدق منها المواعيد .

وعد لعينيك عندى ما وفيت به

يا طــول ما كذبت عينـى عينـاك

والقلب يتلفت ، نعم يتلفت ، فلا تصدقوا أخبار العواذل ، من الأطباء الذين يرجفون بأنه ليس إلا عضلة ملساء ...

ولقد مررت على ديارهم وطلـولها بيـد البلى نهـب

فوقفت حتى لج من لغب نضْوى ولج بعذلى الركب

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

يتلفت ليرى المنازل وأهلها ، ثم يبعد الركب فلا يرى إلا هياكلها ، ثم يبعد الركب أكثر فلا يرى إلا دخانها ، ثم ترمى بالركب المرامى فلا يرى شيئاً، عندئذ يبصرها القلب بعينه التى لا يحجبها النأى ولا الليل ولا المنام .

تلفتُّ حتى لم يبن من بـلادكـم دخـان ولا مـن نارهـن وقـود

وإن التفات القلب من بعد طـرفه طوال الليالى نحوكـم ليـزيد

والهوى يتجسم فى عالم الشريف إنساناً ، ويزور الشعر فينصحه ألا يفارق أحبابه ، فإذا لم يسمع نصح الهوى ، جاء القلب فكلمه وضرب له الأمثال :

ولما تدانى البين قـال لى الهـوى رويدا ، وقال القلب : أين تـريـد ؟

أتطمع أن تسلو على البعد والنـوى وأنـت على قـرب المزار عـميد ؟

والدموع فى عالم الشاعر ، ليست ماء تسفحه العين على الخدين ، بل هى رسائل إلى الحبيبة ، ترسلها بالبريد المسجل ، والموزع هو الزفير ، أما قلت لكم : إن كل شىء فى هذا العالم لعجيب ؟

ولقد بعثت من الدموع إليكُمُ برسائل ومن الزفير بحادى

وأنتم تعيرون القصعة والماعون ، ولكن الشاعر يعير دموعه للعشاق المعاميد ، الذين أحرقت نيران الجوى قلوبهم ، ولا دمع لديهم ، يطفئون بها النار ، حتى إذا أعارها كلها ، ولم يبق عنده ما يبكى به ، راح يسأل العشاق أن يبكوا (بالوكالة) عنه ..

وابك عنى فطالما كنت من قد سـل أعيـر الدمـوع للعشـاق !

وكانت تهبُّ نسائم الصبا ، فتخالط أنفاسه فيستروح بها رَوْح الأحبة ، فماذا يصنع وقد انقطعت فلم تهب رياح ؟

فماذا يصنع ؟ إنه يرسل أنفاسه إليها مع ريح الصبا ، لتقف لها على طريقها، فتلاقيها :

خذى نَفَسِى يا ريح من جانب الحمى

فلاقى بها ليلاً نسيم ربى نجد

فإن بذاك الحى إلفاً عهدته

وبالرغم منى أن يطول به عهدى

ولكن الريح ،ويح الريح ! ليست معه دائماً ، إنها عليه مع العذال ، تغار إن رأت به نعمة الوصال ، حتى تحاول أن تفرق بينه وبينها ، فهى تشد الفضول من أطراف ثيابها ، والشوارد من خصلات شعرها .

تقولون : ومن أين علمت الريح بساعات الوصال ؟

إن لها ـ يا سادتى ـ جاسوساً من بنى عمها ، هو الطيب الذى يفوح من أعطاف الحبيبة ، كما أن للنهار جاسوساً عليه من قومه ، يَنُمُّ له ، هو البرق الذى يضوِّئ مكانهما ، مجتازاً بهما :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا

على الكثيب فضول الريط واللمم

يشى بنا الطيب أحياناً وآونة

يضيئنا البرق مجتازاً على إضم

ويطلع الصبح ، وهما غافلان عن الدنيا وما فيها ، وهل يرى المحبون في الوجود شيئاً ؟ حتى يتكلم العصفور ، نعم يتكلم كل شيء في عالم الشاعر يتكلم :

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم

وأرجو منكم يا أساتذتنا مدرسي البلاغة ، ألا تضيعوا هذه (الحقائق) بكلامكم عن الحقيقة والمجاز ، وتلك الأحاجي والألغاز ، دعوها لطلابكم تنفرونهم بها من الفن ، ودعونا في غمرة اللذة بسحر البيان

إنكم يا أساتذتنا ، إذ تشرحون ببلاغتكم بيتاً ، لا تبقون منه إلا كالذي يبقى من الحسناء بعد أن (يشرِّحها) مبضع الجراح .

❊ ❊ ❊

وبعد فهذا مجلس مع الشاعر الذي كان إماماً في العلم وفي المنصب ، وإماماً في الحب والغرام ، شرب الكأس وترك للشعراء الثمالة . وورد الصافي وخلى لهم العكر .

❊ ❊ ❊

سلطانة الهند

أنتقل معكم اليوم إلى بلد بعيد ، وزمن بعيد . رحلة طويلة فى الأرض نقطع فيها البوادى والصحارى ، ونعبر فيها أنهاراً ونركب بحاراً ، ورحلة طويلة فى الزمان نطوى فيها سنينًا وأدهاراً ، حتى نصل إلى دهلى قبل ثمانية قرون .

إلى المدينة التى كانت قرية فجعلها ملوك الإسلام من أعظم مدن العالم .

إلى المدينة التى افتتحها السلطان قطب الدين أيبك سنة 584 هـ وكان مملوكاً جاهلاً ، فشراه القاضى فخر الدين الكوفى ، فخرّجه فى العلم والتقوى، ثم شراه السلطان شهاب الدين الغورى ، فنشأه على الشجاعة والقتال ، وكانت له همة ، وكانت له عبقرية ، فجعلته ملكاً بعد أن كان مملوكاً ، وكتبت له شرف فتح عاصمة الأرض بعدما طرق بابها فى الزمان الأول الفاتح الشاب محمد بن القاسم الثقفى ، ثم جاس خلالها السلطان القائد محمود بن سبكتكين الغزنوى [1] .

وكان لقطب الدين مملوك نبيه اسمه للمش كما يضبطه ابن بطوطة ، أو التمش كما يقول غيره ، ولا يهمكم بالطبع أكان اسمه التمش أم أشلميش . . . وإنما ذكرت ذلك خشية أن يكون فى المستمعين من وقع على قصته فهو ينتقدنى إن حرفت اسمه .

ولا تعجبوا من مماليك يصيرون ملوكاً ، فإنها سنَّة ذلك العصر (مع

(1) انظر حديث (بقية الخلفاء الراشدين) .

الأسف) ، لقد مر على البلاد الإسلامية فترة حكمها فيها المماليك ، وقد كان منهم خير كثير ، وكان منهم شر ، وليس هذا مجال الكلام عن شرورهم ولا عن خيراتهم .

أقول : إن التمش هذا كان عبداً مملوكاً لقطب الدين ، فرباه على خلال الخير ، وصفات الرجولة ، فلما مات قطب الدين ، جمع التمش القضاة والمفتين ، والوجوه والأعيان ، وأعلن استقلاله بالملك ، وفتح القاضي فمه ليتكلم ففهم التمش وتبسم ، وسبقه فأخرج من تحت مصلاه كتاباً مختوماً ، ودفعه إليه ليقرأه على الأشهاد ، فإذا هو كتاب عتقه وتحرره من الرق . وتمت البيعة ، وسار في الرعية مثل سيرة قطب الدين ، وكان محباً للعدل ، مقيماً للحق، سن فيه سنة خير وبركة ، هي أن لباس عامة أهل الهند البياض ، فجعل لبس الثوب الملون علامة التظلم والشكوى ، فمن ظلمه أحد كائناً من كان ، لبسه وعرض له في أي مكان ، فأنصفه من ظالمه ، ثم خاف ألا يرى المظلوم ، فجعل على باب قصره (جرساً) كبيراً يقرعه المتظلم في أي ساعة من ليل أو نهار .

وكان محارباً مظفراً ، وإدارياً حكيما ، و سياسياً موفقاً، وحاكماً عادلاً ، ولكن أولاده لم يكونوا مثله ولم يسلكوا طريقه بل لقد أفسدهم النعيم وفتنتهم الدنيا ، فانصرفوا إلى لذاذاتهم ، ورغبات نفوسهم ، وبذل في إصلاحهم جهده ، فلم يفد في إصلاحهم جهد ، فيئس منهم ، وكانت له بنت،وهب الله لها جسدا يجمع متانة التركيب ، وقوة الأسر ، إلى جمال الخلقة ، وفتنة النظر ، وأعطاها قلباً ذكيا، وفكراً نافذاً ، وذكاء يكشف بواطن الأمور ، ويحل معضلات المشكلات ، وشجاعة تقحم الموت ، ولا تبالي الأخطار ، بنتاً اسمها: رضية ، فصرف همه إليها ، وجعل معوّله عليها ، ووكل بها المعلمين والمربين ،

ثم درّبها على فنون القتال ، وخدع السياسة ، ومرّسها بالحرب ، وكان إذا غاب ولاها الأمر مكانه ، فسدت ما كان يسده أبوها وربما زادت بفضلها عليه .

ولما مات ولى السُلطنةَ ابنه الأكبر ، ركن الدين فيروز شاه ، فأساء وظلم ، وهدم ما كان بنى أبوه من الحب والهيبة ، وبلغ من عدوانه أن قتل أخاه معز الدين ، وامتلأت قلوب الناس بغضاً له و خوفاً منه ، وتمنوا زواله ، ولم يجرؤوا عليه فلم يكن من رضية إلا أن بدأت هى الثورة . . . تراءت للناس من سطح دارها ، وقد لبست الملون شعار المظلومين على عهد أبيها ، فاجتمع عليها الناس ، دعتهم إلى نصرتها فأجابوا ، وقادت الثائرين فنازلت بهم أخاها وقبضت عليه وحكمت عليه بـ (الإعدام) [1] قصاصاً له بقتل أخيه .

وتولت هى السلطة وكان ذلك فى يوم 18 ربيع الأول سنة 604 هـ .

وكان ذلك حدثاً فى الإسلام ، وكان شيئاً جديداً وغريباً لم يعرفه التاريخ الإسلامى ، وهذا الحدث هو موضوع حديثى اليوم أيها السادة .

ليس الحديث عن التمش وما ذكرته إلا تمهيداً ، ولكن الحديث عن السلطانة رضية التى ملكت الهند الإسلامية أربع سنوات .

وسيحظى هذا الحديث بتعليقات كثيرة ، ويثير جدالاً ، بين من يرى للمرأة الاشتغال بالسياسة ، وبين من يدعو إلى اكتفائها بما خلقت له ، بأن تكون ربة البيت ، (والبيت هو الوطن مصغراً) وأم الأولاد (والأولاد هم الشعب مختصراً) .

وسيجد كل دليلاً منه على ما يذهبون إليه ، ويقول الأولون : هذه امرأة

---

(1) الإعدام بمعنى الموت لم تعرفه العرب وهو مُوَلَّد ظهر على ألسنة المصنفين والمؤلفين من القرن الثامن .
والإعدام فى اللغة:الفقر ، الذى عدم المال والذى أعدمه المال هو الله ، لذلك قيل له : (المعدم) بفتح الدال .

وليت السلطنة ، وحكمت وحاربت وجمعت من المزايا ما لم يجتمع إلا لقليل من أبطال الرجال . ويقول الآخرون : ولكن انظروا مبلغ نجاحها ومدى صلاحها لما عرضت له ، وأقدمت عليه ، أما أضاع عليها كونها امرأة كل ما جمعت من مزايا ؟

أما أنا فلا أقول اليوم شيئاً . أنا أسرد تاريخاً والتاريخ هو الذى يقول .

***

بويعت بالملك ، فودعت أنوثتها واتخذت زى الرجال ، ولبست لباسهم ، وبرزت للناس ، متخذة هيئة الجد والصرامة ، وحسبت أنها تستطيع بهذا التبديل ، أن تبدل خلقة الله فيها ، وأن تجعل من نفسها رجلاً ، وجمعت أطراف الأمور كلها فى قبضتها ، وأعادت سيرة أبيها فى عدله ، وفى شجاعته، وكانت تحل المشكلات بنفسها ، وتسوس الرعية ، وتخوض المغارك . وشهد لها المؤرخون أن عهدها كان أحسن عهد عرفته الهند .

ولكن الناس مع ذلك لم يكونوا راضين ، وكانوا يأبون أن تحكمهم امرأة ، وانطلقت ألسنة المحدثين والناقمين والطامعين ، وتكررت على المنابر الأحاديث من أمثال (ذل قوم ولوا أمورهم امرأة) ، وبدأت هذه الحملات همساً ، ثم ظهرت وتبينت ، ثم استحالت إلى مؤامرة محكمة ، تولى تدبيرها أخوها الأصغر ، والوزير نظام الملك ، ورؤوس القادة والفرسان ، وأصبحت يوماً فإذا هى سجينة فى قصر مطوق بالأعداء ، فلم تستكن وبعثت تستثير أنصارها ، فهب لنصرتها حاكم أود ، وجاء بالجيش يدافع عنها ، ولكن الثائرين كانوا أقوى منه ، فغلبوا جيشه ، وأحكموا قيده ، وألقوه مع الأسرى ، فمات من قهره ، وبقيت السلطانة بلا نصير .

هنالك عادت مرغمة إلى طبيعتها ، إلى أنوثتها التى زعمت أنها قد ودعتها إلى الأبد ، واستعملت السلاح الذى هو أقوى من السيف ، سلاح المرأة الذى تقهر به الرجل دائماً [1] ، وحاربت به الأمراء فشكت بسنانه قلوبهم ، وألقت به العداوة بينهم ، ثم استعانت ببعضهم على بعض ، حتى إذا لم يبق أمامها إلا الأقل منهم ، ضربتهم ضربة من لا يرحم ، فلم تُبْقِ منهم ولم تذر .

واستقامت لها الأمور كرة أخرى .

ولكن هل استمر نجاحها ؟ .

لقد جمعت من العقل والحزم ، والشجاعة وحسن السياسة ، ما لم يجمع مثله إلا الأفذاذ من الرجال ، ولكنها أُتيت من كونها امرأة . إنها سلطانة ولكنها بشر كذلك ، فإن تزوجت تبعت بحكم الطبيعة زوجها واستقادت له ، وكان هو القوام عليها ، فصار هو السلطان دونها ، وإن أعرضت عن الزواج كانت فى حرب مع طبيعتها وغرائزها ، وإن اتخذت من اللهو مثل ما يتخذ الرجال ، وكان لها بهم مثل علاقات الحاكمين بالنساء كانت المصيبة الكبرى [2] .

إن المجتمع يغفر للرجل زلته ، ويقبل توبته ، ولا يغفر للمرأة أبداً . فيكون الغنم - إن كان غنم - لهما معاً والغرم عليها وحدها ، لذلك كان على المرأة إن فكر الرجل مرة قبل أن يقدم على (ذلك الأمر) ، أن تفكر هى عشر مرات ، ومن هنا كان الهجوم على هذه السلطانة .

كان لها عبد حبشى اسمه ياقوت ، تأنس به ، وتثق بإخلاصه ، فرفعته من مرتبته الصغيرة إلى رتبة أمير الأمراء ، فأطلقت بذلك ألسنة الناس بالكلام

(1) وهو جمالها وأنوثتها .

(2) وهذه حجة من لا يرى للمرأة السياسة والحكم .

عليها ، فزعموا أن بينها وبينه أكثر من هذا ، وأنها إذا أرادت الركوب تركته يحملها ، حتى يضعها على ظهر الفرس ، وأثاروا أمراء الأقاليم عليها ، فكان أول من أعلن الثورة حاكم بتهندا ، فسير إليها الجيش ، فأسرعت تقود جيشها إلى المعركة ، وهي واثقة من النصر ، ولكن الجيش الذى أوغرت صدره تلك الشائعات ، لم يعد يرى فيها سلطانة ، بل امرأة قبيحة السيرة ، مهتوكة الستر ، فلم يكد يبصر راية الحاكم الثائر ، حتى انضم إليها وتخلى عن ملكته .

وأسر الحاكم الملكة ، وجمع الأمراء فأعلنوا خلعها ، ونصب أخيها الأصغر ناصر الدين بهرام شاه ، وعادت امرأة كما خلقها الله ، فتزوجت بحاكم بتهندا ، أو هى أرغمت على زواجه ، وسارت معه إلى إقليمه ، هنا لك سلت سلاح أنوثتها مرة أخرى ، وملكت به أمر زوجها ، فأسلمت قياده فوثبت به تلقاء العاصمة دهلى ، لتستعيد ملكها فكان وجودها على رأس الجيش سبب عصيانه من جديد ، وتخليه عنها ، ولم ترض أن توقع بنفسها فهربت .

ضلت أياماً وهى بلا زاد ولا مأوى حتى نال منها التعب والجوع ، فلجأت إلى حراث منفرد فى البرية ، يحرث أرضه ، فسألته القرى فلم تجد عنده إلا كسرة خبز ، فأكلتها ونامت من التعب مكانها ، وهى بلباس القواد .

وكانت نومتها الأخيرة .

رأى الفلاح طرفاً من شعارها (ثيابها الداخلية) فعلم بأنها امرأة فاحتال عليها . . . ثم قتلها ، ودفنها فى الحقل ، وأخذ ثيابها يبيعها فى البلد ، فشك الناس فيه ، وقادوه إلى الحاكم ، فاعترف بفعلته فقتل ، وأخرجت الجثة فدفنت فى قبر مهيب ، وكان ذلك فى 25 ربيع أول 637 .

قال ابن بطوطة : وقبرها يزار ويتبرك به !

وكان ذلك نهاية هذه القصة . قصة لو أخرجت كما هى فلماً سينمائياً لكانت فى حقيقتها أروع وأمتع من كثير من الأفلام ، قصة بها بطولة ، وفيها عبرة، وفيها درس بليغ للمرأة .

هى تجربة لاشتغال المرأة بالسياسة ، فكيف رأيتم مبلغ نجاح التجربة ؟

***

الفصل الرابع

- الشيخ طاهر الجزائرى
- الشيخ بدر الدين الحسنى
- الشيخ على الدقر
- الشيخ محمود ياسين

الشيخ طاهر الجزائرى

هذا رجل لا يكفى للحديث عنه مقالة ولا رسالة ، لأن له في كل مظهر من مظاهر الحياة فى الشام اليوم أثراً ، وفى كل ناحية من نواحى الإصلاح عملاً ، ولأنه باعث نهضة ، وكان معلم جيل .

هل هلال النهضة العربية فى بلاد الشام ، ومن الشام ـ ساحله وداخله ـ انبعثت أنوارها حتى ملأت دنيا العرب فكانت نهضة عربية إسلامية ، حفزت العرب إلى الزهو بمجد آبائهم ، والعمل على إعادة ذلك المجد . تسلحوا لها بالعلم ، وكان الشيخ من أوائل من رغب فيه ، ودفع إليه . وعادوا إلى اللغة الفصحى والبيان العربى وكان فى مقدمة من أعاد الناس إلى الفصحى وجلا لهم وجه البيان ، وبنوها على الهمم الشم والعزائم الرواسخ ، وكان من السابقين إلى تثبيت هذه العزائم ، وإعلاء تلك الهمم ، وهو الذى تخرج به الصفوة المختارة من رجال الرعيل الأول ، فى العلم وفى الأدب وفى السياسة .

ولم آسف على فوات لقائى برجل من رجال هذا العصر ، كما أسفت على أنى لم ألق الشيخ طاهراً الجزائرى ، وأن كل حظى من قربه أنى شيعت ـ رحمه الله ـ جنازته . ولكنى قرأت الكثير عنه ، ورويت الكثير من أخباره عن أقرب الناس إليه ، أستاذى محمد كرد على وخالى محب الدين الخطيب ـ رحمهما الله ـ ولقد عرفت رجالاً ، وسمعت برجال كانوا أعلم علماً ، وكانوا آدب أدباً ، وكانوا أكتب ، وكانوا أخطب ، وكانوا أعظم جاهاً ، وأضخم

اسماً، وأبعد ذكراً من الشيخ طاهر ، ولكن للشيخ طاهر مزية . لم يكن مثلها ـ فيما أعلم ـ لواحد منهم ، اللهم إلا جمال الدين الأفغانى ، الذى كان صوته أول صوت أهاب بالقافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود المسير ـ وسرا فى نشأته وفى خلقه ، هو أنه كان يترك أثراً من الخير أينما حل ، فكان مجلسه حيثما جلس مدرسة ، ولقاؤه أينما لقيته درس : يعلمك مسألة ، أو يرشدك إلى كتاب ، أو يلقنك خلقاً من أخلاق الخير ، وكان يعلم بفعله لا بقوله ، دعا إلى النظر فى الكتب ، فلم يكد يدع كتاباً لم ينظر فيه ، ودعا إلى التأليف فكان له من التواليف ما عده من مكثرى المصنفين ، ودعا إلى حفظ الوقت ، فلم يكن يضيع من وقته لحظة فى عمل غير نافع ، ودعا إلى ترك هذه المجاملات والرجوع إلى أخلاق المسلمين الأولين : من الصراحة والصدق ، وقصد الحقائق وترك الأباطيل ، فكانت حياته كلها كذلك .

وكاد ييأس المصلحون ، ولكن الشيخ لم ييأس ، ولم ير مستحيلاً إيقاظ هؤلاء العرب ، الذين ناموا دهوراً طوالاً تحت أغطية الجهل والعامية والخمول ولم يسلك طريق الطفرة ، فالطفرة لا تأتى بخير ، ولا الثورة ، فالثورة تبيد ولا تشيد ، بل عمد إلى إزالة أسباب الداء ، وإلى الترغيب فى العلم ، والحث عليه ليحارب الجهل ، ورد الناس إلى اللغة ، وتعريفهم فضلها، ليدفع العامية، ونشر أخبار السلف، وتاريخ الفتوح ، لينفى الخمول.

وكان يعطى كلاً ما يناسبه ، كالطبيب الذى يحمل دواءه الشافى ، ويدور على المرضى ، فلا يعطى إلا بمقدار ، ولا يداوى إلا عن بينة من المرض ، يجمع حوله طائفة من أعلام الشباب ، هم صفوة خلطائه وعيون مريديه ، فيصرح لهم الرأى ، ويبين لهم الطريق ، وطائفة من الشيوخ يعرض لهم تعريضاً ، ويمهد لهم تمهيداً ، وطائفة من الفتيان ينشئهم على برنامجه ،

ويسيرهم من حيث لا يشعرون فى طريقه ، وطائفة من العامة يقنع منهم بتقويم الأخلاق ، وإصلاح المجتمع ، وكان يجالس الموظفين الكبار والباشوات الأتراك ، يأمل أن ينال منهم خيراً وقد نال منهم فى الحقيقة خيراً كثيراً .

كانت الكتب المخطوطة متفرقة فى المساجد والزوايا ، يخشى عليها الضياع، ويخاف التلف ، فعمل على جمعها فى مدرسة الملك الظاهر (التاريخية) فى دمشق ، فقام عليه الجاهلون من أصحاب النظر القصير أعداء كل إصلاح ، وقالوا : (شرط الواقف) ، فاستعان عليهم بصديقه الوالى حمدى باشا ، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب ، ولم تنشأ دِار الكتب الظاهرية التى نعدها اليوم من مفاخر الشام .

وكان التعليم فى دمشق : الكتاتيب للصغار ، وحلقات المساجد للكبار ، فكان من أكبر العاملين على افتتاح المدارس العصرية ، ووضع بذور (المعارف) فى سورية ، والغريب أنه قد افتتح مدارس للبنات من تلك الأيام، وأن الناس قد أقبلوا عليها ، ولدى عمتى التى تعيش معنا إلى اليوم [1] ، شهادة عليها خاتم الشيخ طاهر تاريخها سنة 1301 هـ . ولولا صلته برجال الحكم من الأتراك ما كانت المدارس .

وكان فى طرف مقبرة الباب الصغير تل ، لا يمسى مساء كل يوم ، حتى يستحيل إلى ساحة حرب ، يقتتل فيه أهل الميدان وأهل الشاغور ، بالحجارة والعصى ، عصبية جاهلة كان لها فى بلاد العرب كلها أمثال : فمثل (الزكرتكيات) فى الشام (الفتوات) فى مصر ، و(القبضايات) فى لبنان و(أبو جاسم لر) فى العراق .

وعلم الشيخ ـ وكان من أعلم الناس بخطط دمشق ـ أن تحت هذا التل

(1) توفيت ـ رحمها الله ـ بعد كتابة هذا الفصل .

مدافن نفر من آل البيت ، فسعى حتى أزال التل ، وأبرز القبور ، وآخى بذلك بين الحيين ، وإن كان قد فتح بذلك باباً جديداً للبدع المنكرة من حيث لا يريد .

وكان أشد خلق الله تشجيعاً للناشئين ، وتنشيطاً للعاملين ، يحاول أن يوصل الناس جميعاً إلى المثل الأعلى ، لا يرفعهم جميعاً إليه ، فإنه لا يمكن أن ترفع الناس كلهم إليه ، ولكنه يقربه إليهم ، ويسهل بلوغه عليهم ، حتى ترتفع بهم هممهم إلى محاولة بلوغه . وكان يقول لأصحابه :

ـ إن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له : إن هذا مستحيل ، بل علموه . فلعل اشتغاله هذه الثلاثة الأيام بالنحو ، تحببه إليه فيقبل عليه .

وكان كلما رأى مخايل النجابة في أحد سيّره في طريق العلم ، ووصله بشعبة من شعبه ، وكان أكثر اهتمامه بإدخال العلم إلى بيوت (الأكابر) وهو الذي دفع صديقنا الأستاذ سامي العظم (وكيل وزارة العدل السورية بالأمس ونزيل مصر اليوم) [1] إلى طريق الباب .

وكان له ـ وهو شيخ ـ ذهن رجل درس في أوربة ، معرفة بقيمة هذه العلوم الجديدة ، وبالصحافة وأثرها ، وبالعمل المنظم . فرغ من أمر طعامه ولباسه ، فكان مضرب الأمثال في ذلك ، وكانت ثيابه عجباً من العجب ، لأنه لم يكن يفكر فيها ، ولا يريد منها أكثر من أن تستر وأن تدفئ ، وكان يتخذ من جيوب الجبة مكتبة ، ففي جيب [2] كتاب مخطوط ، وفي جيب رسالة ، وفي جيب أوراق ودفاتر ، وفي الجيب الرابع خبز وقطع من الجبن ومن الحلاوة . . .

(1) توفي بعد كتابة هذا الفصل ـ رحمه الله .

(2) الجيب فتحة عنق القميص ، لكن استعملت الكلمة بالمعنى الذي يعرفه الناس .

حدثني الشيخ قاسم القاسمي ـ رحمه الله ـ أن أصحابه رأوا جبته قد أبلتها الأيام وصيرتها شيئاً نكراً ، فاحتالوا عليه حتى اشترى جبة جديدة ، وأخفوا عنه القديمة فاضطر إلى لبسها ، ولم يكن أصعب عليه من لبس الجديد ، وذهبوا به إلى مجلس في (دمر) في قصر الأمير عمر الجزائري ، وكان المجلس حول بركة عظيمة لها نافورة عالية مشهورة . وكان فيه جلة علماء ذلك المشرب، الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي وأمثالهما ، وإذا بالشيخ ينزع الجبة ، ويقوم بها إلى البركة فينزل بها فيها : غمساً غمساً ، ثم ينشرها على شجرة ، حتى تجف وتنكمش وتقرمد فيلبسها، وسأله سائل منهم ، فيقول :

ـ كانت جديدة شغلتني بالخوف عليها عن العلم ، فالآن استرحت من التفكير فيها .

كان يسهر الليل كله ، يدور على بيوت أصحابه ومريديه ، أو يقبع يدرس ويؤلف ، وكان أكثر مقامه في مدرسة عبد الله باشا في طريق بين البحرتين في دمشق القديمة ، فإن كان مشغولا وطرقه طارق ، أطل فقال له : « مشغول ، عد في وقت آخر » ، مهما كانت منزلته .

حدثني أحد وجهاء العامة ، قال :

ـ ذهبت إليه مرة ، فردني ، وأبى أن يدخلني ، فتألمت وأزمعت هجره ، ثم قلت : أعامله بمثل ما عاملني به ، فجاءني مرة ، ففتحت له ، وقلت : «مشغول ، عد في آخر وقت آخر» ، فذهب مسروراً يقول : « بارك الله ، هكذا ، هكذا ، (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) ، صدق الله » .

فإن دخل عليه الغليظ من حيث لا يشعر ، دفع إليه كتاباً ، وقال : « خذ ،

اقـــرأ هـذا » ، وتـركـــه وعـــاد إلى مـــا كـــان فـــيـــه . ومـــن قـــوله فى ذلك : «اشغلوهم ـ يعنى الغلاظ ـ قبل أن يشغلوكم » .

وكان يطيل المشى وحده ، ومعه كراس ينظر فيه ، مشى يوماً فى (وادى الشاذروان) فى دمشق ، وهو أجمل أودية الدنيا بإجماع أئمة الذوق ، فلحقه أحد الثقلاء ، وكان من عادة الشيخ الإسراع فى المشى . فجعل يسايره يسرع معه ، يحدثه حديثًا له أول وليس له آخر ، عن جده الذى مات ومن ورثه ، وكيف قسموا الإرث ، وخلاف من خالف فى ذلك ، وما يقول كل من الفريقين المختلفين ، حتى وصل معه إلى قريب (الهامة) ، والشيخ لا يسمع منه ولا يلتفت إليه ، حتى انتهى فقال :

ـ سيدى . هل أصبنا أم أخطأنا ؟

فما رد عليه ، فأمسك بيده حتى إذا انتبه ، قال :

ـ هل أصبنا أم أخطأنا ؟

ـ قـــال : نعم بلى ـ وكـــانت هذه لازمـــتـــه ـ نعم بلى ، الإنســـان يخطىء ويصيب ، الإنسان يخطئ ويصيب .

وترك الرجل مصعوقاً من الدهشة ، ومضى . . .

* * *

أما إباؤه ، وعزته فى نفسه ، فلم يكن بعدهما زيادة لمستزيد .

نزح إلى مصر ، لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته وأخذ يبيع من كتبه ، ومن ذخائر المخطوطات التى أفنى حياته فى اقتنائها ، وكان يأبى الثمن الغالى من مكتبة المتحف البريطانى ، وأمثالها من المؤسسات الأجنبية ، أو من أفراد الناس الذين يشترون الكتب للتجارة ، ويبيع بنصفه لدار الكتب المصرية ،

ليبقى الكتاب فى أيدى العرب ، ولا يخرج منها إلى أيدى الإفرنج .

فلما كادت تنفد كتبه ، سأل أحمد تيمور باشا الشيخ على يوسف أن يكلم الخديو (وذلك سنة 1913) فى منحه مرتباً دائماً أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء ، ونجحت الوساطة ، ومنح الراتب ، فلما خبر به غضب أشد الغضب ، وقال للشيخ على :

ـ كأنى بك قلت للخديوى : إن الشيخ طاهر أثنى عليك . نعم إنى أثنيت عليه لتأييده مشروع زكى باشا فى خدمة الكتب العربية ، ولكن ما الذى يضمن لك ، ألا يأتى الخديوى بضد هذا العمل الطيب يوماً فأذمه ؟ فلماذا تسود وجهك بسببى ؟ ومن أذن لك أن تدخل نفسك فى خصوصيات أمرى ، اذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه . . .

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقى من كتبه .

فكان الشيخ على يوسف يقول بعد ذلك :

ـ كنت أظن أن هذه الطبقة قد انقرضت ، فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية منها .

***

وبعد فإنى ما رأيت الشيخ ، ولكنى رأيت آثاره الخيرة فى كل مكان ، والثناء عليه وذكر مناقبه على كل لسان .

كان من المؤلفين المكثرين ، إن عد المؤلفون المكثرون ، وكان من أئمة المربين إن ذكر المربون ، وكان من رؤوس المصلحين ، ومن العلماء العاملين ، وكان من الأركان الكبار فى هذه النهضة التى نأوى اليوم إليها ، ونتفيأ ظلالها ، وننعم بخيراتها .

رحمه الله ، وطيب ذكراه .

الشيخ بدر الدين الحسنى

لقد فتحت عينى على الدنيا ، وأنا أسمع الناس فى دمشق ، العالم منهم والجاهل ، يصفونه بأنه شيخ الشام ، وأنه المرجع فى كل أمر : فى الخاص والعام ، إن قال وقف العلماء عند قوله ، وإن أمر لم يخالف أحد عن أمره ، يجمعون على تقديمه وتعظيمه ، يرون طاعته من طاعة الله ، لأنه يبين للناس حكم الله ، ويعلمهم شريعة الله ، ولئن كان الشيخ طاهر الجزائرى رجل الإصلاح ، فهذا رجل العلم .

رجل عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم ، ما جرى فيها بغير العلم لسانه إلا أن تكون كلمة لابد منها ، يوجز فيها العبارة ، ويستعين على إفهامها بالإشارة ، ثم يعود إلى درسه وكتابه ، ما ترك الدرس قط ولا يوم وفاته ، وما تركه إلا ساعة احتضاره ، الرجل الذى لبث ثمانين سنة ، ما مس جنبه الأرض وما اضطجع إلا فى مرض الموت ، ما مرض قبل ذلك قط ، وما نام كما ينام الناس ، بل كان يجلس فى الليل ليقرأ ، فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أعدت له فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل متقطعات ومن النهار ساعة ، الرجل الذى كان يراقب الله والناس عنه غافلون ، ويقرأ العلم ويسبح والناس نائمون. تخلف عن قافلة العلماء العاملين الأولين إبراهيم والحسن وسعيد والسفيانين ليجيء وحده فى آخر الزمان ، وما تنكب عن السنن ولا حاد عن الطريق ، كما تتخلف الزهرة عن النجوم لتكون نجمة الصبح هادية المدلجين ومرشدة الضالين ، وكما تتخلف الزهرة الأخيرة فى الروض لتكون هدية الملوك وتحفة الأبهاء .

كان عجباً في علمه وإحاطته واستقامة ذاكرته التي لم تلوها الأيام ، وتوقد ذهنه الذي لم تطفئه السنون ، عجباًوالله لا ينقضي به الإعجاب ، كان فهرساً حياً لكل مخطوط ومطبوع من الكتب ، في كل فن فلا تكاد تسأله المسألة حتى يقول لك:هات الكتاب الفلاني ، وافتح ، فتفتح كيفما جاء معك فيقول : قبل أو بعد ، حتى إذا دنوت أخذ الكتاب فقلب صفحتين أو ثلاثاً فإذا جواب مسألتك كأنما وضعه بيده . كان هذا شأنه أبداً لم تكن هذ نادرة من نوادره وكان ذلك منه في صعاب المسائل وغرائبها . يقع عليها في غرائب الكتب قبل أن تقع أنت على الكلمة في القاموس ، وكان والعلماء في دمشق متوافرون ، وأهل الاختصاص كثيرون ، يعد الإمام المرجع في كل فن : في اللغة وغريبها، وفي الصرف ، وفي النحو ، وفي فقه المذاهب الأربعة المدونة، والمذاهب التي لم تدون : مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة من أمثال الأوزاعي والليث والظاهري والطبري ، وفي البلاغة ، وفي الحديث:رواية ودراية ، وفي معرفة الرجال والأسانيد ، وفي الكلام والفلسفة والأخبار، يقرأ دائماً لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائماً أو في صلاة أو درس ، أو في طريقه من المسجد إلى البيت ، ما فارق الكتب قط ، ولا استعان على النظر بنظارة ، وقد مات وهو حديد البصر صحيحه ، ما أحب في الدنيا غير الكتب ، وأواني الخزف الصيني ، فكان يشتري الكتاب يسمع به ولو كان مطبوعاً في أقصى الهند ، ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهباً ، ولا يدع كتاباً حتى يقرأه ، أو يتصفحه تصفح المتثبت كأن عينيه زجاجة فتوغراف ودماغه لوحته ، فلا يرى مسألة إلا ثبتت صورتها فيه إلى الأبد . وكان يقرأ ويقرئ أبداً ما شاء وشاء الطالب ، أقرأ الرياضيات قوماً لما طلبوها منه والفلك والفلسفة كما أقرأ الحديث وكان درسه في الأموي أعجوبة من رآها ووعاها فقد رأى إحدى عجائب الزمان ، وكان

كمجالس الإملاء الأولى التى كانت الدعائم الكبرى فى صرح تاريخنا العلمى ، وإذا كان السيوطى قد قال:إنه آخر من أملى فى اللغة والحديث فقد قال ذلك لأنه لم يدرك الشيخ بدر الدين ، وكم ترك الأول للآخر .

وأعرف من كتب من هذا الدرس عشر مجلدات ضخام وفيه يبدو علم الشيخ وهذه الذاكرة التى لا تمن بمثلها الدنيا مرة كل مائة سنة ، فكان يأخذ حديثاً كيفما جاء ، فيذكر طرقه كلها ، ويعرف بالرواة جميعهم ، ثم يشرحه لغة ونحواً وبلاغة شرح إمام من الأئمة الأولين ، فكل كلمة بشاهدها وكل شاهد بتفسيره ، ثم يذكر تعليقات المحدثين بأسانيدها ومصادرها ، ثم يذكر ما أخذ منه الفقهاء وما اختلفوا فيه ، وأدلة كل منهم ثم يوازن بينها ويرجح راجحها من انتهاء الصلاة إلى أذان العصر ، ما يقف ولا يتلعثم ولا يعيد كلمة ولا يقطع جملة كأنما يقرأ من كتاب مفتوح .

وكان يبدل موضوع الدرس بمناسبات عجيبة إذا رأى ما يدعو إلى تبديله ، وقف مرة على حلقة العلامة الأجل أصولى العصر الشيخ محمد بخيت فأوسع الناس له ودعوه إلى الدخول فدخل كالكاره وقعد متعظماً ، كأنه يترفع عن أن يجلس من أحد مجلس التلميذ ، وكان بعلمه وفضله أهلاً لهذا الترفع فحول الشيخ الدرس حتى جاء على مسألة أصولية وكان الدرس فى أوله وأفاض فى علم الأصول ساعتين وربعاً والشيخ بخيت يلم أطرافه ويضم ثوبه حتى جلس على ركبته وطفق ينظر مشدوهاً فلما انتهى قام إليه كأنه يشير إلى تقبيل يده والشيخ يتملص إذ كان يكره أن تقبل يده ولا يحب ذلك من العامة فكيف من شيخ الإسلام وقال له الشيخ بخيت « ربنا يخليك ما فيش فى الدنيا النهار ده واحد تانى زيك » .

كان علمه عجيباً وكانت سيرته أعجب من علمه ، عاش أكثر من ثمانين

سنة ، وما عاش في الحقيقة إلا يوماً واحداً أعيد ثلاثين ألف مرة فكان في ثباته واستقامته مثلاً مفرداً ، كان ينهض من منامه بعد نصف الليل ، وما كان ينام في الحقيقة وإنما كان يجلس يقرأ الليل كله كتلميذ ليلة الامتحان ، فإذا غلبه النعاس أمال رأسه على الوسادة فأغفل ثم أفاق والمصباح إلى جانبه وأمامه مائدة عليها أطباق صغار فيها الفراني [1] والمعجنات والفواكه ينال منها ، فإذا نهض توضأ من البركة في داره الكبيرة التي بقيت إلى الآن فارغة ، وكان في شبابه يكسر بيده الجليد ويتوضأ في الشتاء ، فلما شاخ كان يعد له الإبريق على المدفأة ليجده إذا احتاج إليه ساخناً .

ثم يقوم فيصلي ما شاء الله أن يصلي ، فإذا كان السحر خرج فوجد بعض مريديه وتلاميذه ينتظرونه أمام الباب تحت الشاذروان (الرواق) لا يثنيهم مطر ولا برد حتى يخرج فيمشوا معه إلى الأموي فيصلي فيه مع الجماعة ويمضي إلى دار الحديث إلى غرفة له فيها صغيرة مبسوطة بالبسط ، ما فيها إلا جلد و(طراحة) ومخدات من قش ، ولطالما دخل هذه الغرفة من ناس : من رجال الدين ورجال الأديان ، وطالما دخلها علماء أعلام وأمراء وحكام كانت ترتج الأرض من تحتهم وترتجف القلوب من خشيتهم ، فإذا دخلوها نزعوا أحذيتهم وجلسوا على ركبهم ، وتخشعوا وصمتوا ، جمال باشا ، (وما أدراكم ما جمال باشا) وولاة من قبله ومفوضون سامون من بعده ، فكان جلال هذه الغرفة يجعل الجبار طفلاً ، والعالم العلامة تلميذاً ، والكبير عند نفسه وعند الناس صغيراً أمام هيبة العلم والتقى والدين .

فيبقى فيها في إقراء وذكر وصلاة حتى يقترب الغروب فيمشي إلى داره ليفطر ؛ لأنه كان يصوم الدهر وفاء بنذر نذره ما رآه أحد إلا بين داره ومدرسته

(1) الفراني جمع فرنية وهي (الكاتو) .

والجامع الأموى إلا إذا أخذوه فى نزهة وذلك شىء كالنادر .

وهو ابن نفسه ، شيخه كتابه ، ما عرف عنه أن قرأ إلا على الشيخ أبى الخير الخطيب أخذ عنه مبادئ العلوم ثم اشتغل وحده وأقبل على المطالعة ، ما ترك النظر فى الكتب ساعة من نهار عمره كله ، وما ترك الإقراء قط . ولقد كان موعد درس من دروسه قبل وفاته بساعتين ، فلما رأى الطلبة ما به هموا بالرجوع فأشار لهم أن يقرؤوا وهو يستمع .

ولقد كان يعيش فى سعة من دنياه ولكن الدنيا كانت فى يده لا فى قلبه ، وكان اعتماده على الله لا على المال فلا يحرص عليه حتى يناله من غير حله ولا يجزع إن ذهب بغير علمه ، ولا يتسع المجال إلا لشاهد واحد هو أنه اشترى مرة مجموعة من الزبادى الصينية النادرة بنحو مائة ليرة ذهبية ، وقد قلت لكم:إنه لم يكن له رغبة إلا فى شيئين يشتريهما ولو بأغلى الأثمان : الكتب والصينى ووضعها فى دهليز مغلق بجانب الغرفة يكون فيه دائماً أكياس من السكر والرز يعطى منها فقراء الطلبة فقال للشيخ صادق أبى قورة ـ رحمة الله على الإثنين ـ: يابا ادخل . . . أى أن يأخذ شيئاً من السكر والرز وكان قليل الكلام إن كفت الإشارة ترك العبارة وإن أجزأت الكلمة قطع الجملة فدخل يأخذ وأمال الكيس فرماه على الصينى الذى شرى بمائة ليرة ذهبية فطحنه طحنًا وتراكض الطلبة فكفهم الشيخ وقال:لا يابا (وكانت تلك كلمته) .

وراح يطيب خاطر الشيخ صادق لئلا يخجل . ومد يده بشىء من المال فدفعه إليه .

أما دينه وعبادته وصلته بالله فهاكم عليها شاهداً آخر . . شاهداً واحداً أيضاً حدثنى السيد كامل باش إمام ـ رحمه الله ـ قال : لما مدت سكة الحديد

الحجازية ـ أعادها الله ـ وسار أول قطار كان فيه الشيخ ، فوقف القطار في البرية في غير محطة لشيء طرأ على المحرك فنزل الركاب يصلون المغرب .

وإنهم لفي الصلاة ، وإذا بالقطار يسير فتركوا صلاتهم ولحقوه يتعلقون به وبقي الشيخ لم ينتبهوا له حتى بعد القطار فتفقدوه فلما لم يجدوه أرجعوا القطار فإذا هو لا يزال في مصلاه في الصحراء الواسعة حيث لا ماء ولا عمران ولا إنس ولا جان لم يشعر بسير القطار .

وكان من أعجب أمره أن لم يغتب أحداً قط ولم تجر في مجلسه غيبة وهذه مسأله قد يستسهلها من لم يجربها فجربوا أن تدعوا الغيبة وسماعها يوماً واحداً فقط ثم قولوا : يرحم الله الشيخ ، الذي كان في عمله وفي سيرته بقية السلف ونادرة العصر والذي سيمر وقت طويل قبل أن ترى مثله ديار الشام . . لا ، بل بلاد الإسلام

* * *

الشيخ علىّ الدقر

الرجل الذى هز دمشق ، من أربعين سنة هزة لم تعرف مثلها من مائتى سنة ، وصرخ فى أرجائها صرخة الإيمان ، فتجاوبت أصداؤها فى أقطار الشام ، واستجاب لها الناس ، يعودون إلى دين الله أفواجاً ، يبتدرون المساجد ويستبقون إلى حلقاتها ، وأعانه عليها زميله وصديقه الشيخ هاشم الخطيب ، وملأ ذكرهما البلد و شغل أهلها ، ودخل أثرهما كل دار ، وكان الاختلاف فيهما فى كل مجلس ، وصارا حديث الناس ، فمن لم يكن معهما متحمساً لهما كان عليهما متحمساً فى عدائهما .

. . . وإذا كان من القراء من لم يسمع باسم الشيخ على الدقر قبل الآن فإن اسمه عندنا على كل لسان ـ وهو فى الشام علم الأعلام ـ وإذا كان من المصلحين من طارت (شهرتهم) فى الآفاق . فإن الشيخ على ممن عرفوا فى بلادهم ، وجهلوا فيما وراءها . وهوتلميذ الشيخ بدر الدين . ما طالت قراءته عليه ، ولا بلغ بين تلاميذه مبلغ الشيخ محمود العطار ، فضلاً عن أن يبلغ فى العلم منزلة الشيخ البدر أو يدانيه .

ولكنه أعطى من التوفيق فى العمل ، والعمق فى الأثر ، ما لم يعط مثله الشيخ بدر الدين ، ولا غيره من مشايخ الشام فى تلك الأيام .

لقد أمضى شطراً من عمره ، لا يدرى به أحد ، وشطراً لا يجهله فيه فى دمشق أحد ، ولقد سمعنا به أول مرة ، سنة 1344 ، ونحن طلاب فى المدارس الثانوية . وكان من أوائل (المواد) فى منهج دعوته ترك المدارس الحكومية ،

والإقبال على طلب العلم الدينى . فكنا نذهب إليه لنسمع هذه الدعوة العجيبة، ولا نستطيع أن نجهر بإنكارها ، خوفاً من مريدى الشيخ المؤمنين بها ، الذين يبطشون بخصومها ، ثم نال منا كلام الشيخ ، وأثرت فينا مواعظه فجعلنا نذهب لنستمع إليها ، نخرج من المدرسة ، فنكتب دروسنا على عجل ، ونسأل أين درس الشيخ اليوم ؟ فإذا عرفنا مكانه ، أسرعنا إليه .

نقعد فى الحلقة قبل موعد الدرس بساعة نخشى من كثرة الازدحام ألا نجد إن تأخرنا مكاناً ؛ لأن (الشيخ على) كان يدرس فى مسجد صغير ، عند باب الجابية فى دمشق ، فكان يمتلئ كله ، ويقف الناس على أبوابه وأمام نوافذه ، ولم يكن فى الدرس علم غزير ، ولكن كان فيه شيء لا يجده سامعه عند ذوى العلم الغزير ، فيه الموعظة التى تخرج من القلب لتقع فى القلب فتحرك فيه خامد الشعور ، وتثير فيه كامن الإيمان ، فيه ما يملأ بالدموع الأماقى ، ويبكى من الخشوع العيون ، فيه ما يقيم ويقعد ، ويلين أفئدة كانت أشد من الصخر ، ويستخلص من أيدى الشيطان نفوساً كان قد تملكها وتحكم فيها الشيطان ، فيه ما يشعر حاضره أنه انتقل من هذه الدنيا ، إلى مجالس الجنان .

فيه ما لا أستطيع أن أعرف القارئين به ؛ لأنه شيء يرى ولا يوصف ، ويذاق ولا يعرف وكان الشيخ يسأل : من أين يأتى بهذا الكلام الذى يلقيه على الناس ، ومن أى كتاب ينقله ؟ فما كان يجيب ولو أجاب لقال : بأنه ينقله من الصلاة فى ظلمات الليالى ، والمناجاة فى هدآت الأسحار ، ومن حلاوة الإيمان التى يذوقها فى ساعات الخلوة بالله ، والتوجه إليه ، والقيام بين يديه ، من هناك يملأ هذه (البطارية) التى يعيش أهل الدرس ساعة على ضوئها .

ولم يكن فى سيرة الشيخ على قبل تلك السنة حادث يستحق التسجيل ، فلقد كان أبوه من سراة التجار ، وكان له أخوة أكبر منه يشاركون أباهم أعماله ،

ويعاونونه فى تجارته ، على حين كان يتبع هو العلماء ويحضر الدروس ويقرأ على الطريقة الأزهرية التى لم نكن نعرف طريقة لطلب العلم غيرها ، وهى أن يأخذ الشيخ نسخة من الكتاب ، ويأخذ كل تلميذ نسخة ، فيقرأ لهم ويشرح ، أو يقرؤون عليه ويفسر ، لا عمل له إلا بيان قصد المصنف ـ رحمه الله ـ وتوضيح عبارته ، أما تلخيص الموضوع ، والكلام فيه ، والإلمام بجوانبه ، وأمثال هذا مما يهتم به طالب العلم اليوم ، فلم يكن من همهم ، فإذا ختموا الكتاب شرعوا بغيره ، فلا يدرس طالب العلم علوماً ولكن يقرأ كتباً .

كانت هذه طريقة العلماء جميعاً ، وهى التى سلكها الشيخ على ، ولم يظهر عليه نبوغ فى علم من العلوم ، يسترعى الانتباه ، ولكنه ظهرت عليه بوادر الصلاة ، وحضور القلب ، وإنه إن وعظ لم يأت بألفاظ حلوة ، تقرع الأذن ثم لا تجاوزها ، بل بمعان تصل إلى القلوب ، قبل أن تصل الألفاظ إلى الآذان .

وانتهى من طلب العلم ، واكتفى بما [illegible]ل منه ، وقعد يدرس فى المسجد الصغير ، عند باب الجابية فى دمشق (المعروف بجامع السادات) ويحضر درسه نفر ، كانوا لقلتهم تتسع لهم سدة المسجد ، فكان الشيخ يقرأ فيها لا ينزل منها .

وكان أبوه يحتاج إليه ، لمعاونته فى أعماله الكثيرة ، وتجارته الواسعة ، وكان مقياس صلاح الرجال عنده : القدرة على الأعمال ، وعلى اكتساب المال، فلما رأى ما انتهى إليه ، تألم وشكاه إلى صديق له ، بقّال أمام المسجد ، وقال له : ما أدرى والله من أين يعيش ، وكيف تكون حاله بعدى؟!

واستمر الشيخ علىّ فى درسه ، وكانت أيام الانتداب فى الشام ، وقد بدأ الفساد يدخل إلى البلاد ، والشيخ لا يدرى بشىء ، لأنه لا يعرف من دنياه إلا

داره ومسجده وكتابه وصلاته . وجاءه من قص عليه خبر ما جد فى البلد من التكشف ، وكان كل الذى جد أن امرأة واحدة ، معاونة مديرة دار المعلمات سارت فى الطريق مكشوفة الوجه .

وخبر المدارس التى تعلم علوماً ما سمع بها الشيخ وما عرفها ، من علوم الكفار ، وأن مدرسيها من الذين تعلموا فى بلاد الإفرنج أو على أيدى الإفرنج .

فعظم عليه الأمر ، وفكر ليالى طوالاً . . ماذا يعمل ؟

وظهر أثر هذا التفكير الطويل فى دروسه ، فلم يعد يقتصر على شرح عبارة الكتاب بل صار يتكلم من عنده ، يرقق القلوب ويذكر بالآخرة ،ويدعو إلى الإصلاح ، فكثر المستمعون حتى ضاقت عنهم السدة ، فنزل إلى أرض المسجد ، ثم ضاق عنهم المسجد ، فصار يدرس فى (جامع السنانية) الكبير .

وكان لصفاء قلبه يقول : نحن نحن ، ما تبدل فينا شىء ، فلماذا هذا الإقبال ؟

وتسابق الناس إليه ، وازدحموا عليه كما ازدحموا على زميله فى الدعوة الشيخ هاشم رشيد الخطيب ، وأشهد لقد سمعته مراراً ، فوجدت أن عنده ما يدفع إلى هذا الازدحام ، ولم يكن فى دروسه ـ كما قلت ـ علم غزير ولكن كان فيها من روعة التذكير ، وشدة التأثير ، ما ليس له نظير .

كان يخشع هو فيخشع السامعون ، ويبكى فيبكون ، وربما قال كلاماً (عاديًا) تسمعه كل يوم ، فتحس إذا سمعته منه كأنك لم تسمعه من قبل .

وعظم الإقبال عليه فما تبدل فيه شىء ،وما اغتر ولا تعاظم ، وكان من أجمل سلائقه أنه لا يمد يده إلى أحد ، وأنه كان يعطى ولا يأخذ ، لم تستهوه الدنيا ولم يفتنه المال ، ولم تغرره المناصب ، وبقى على ما كان عليه .

وكان غنياً من جهتين : غنيًا بماله الذى ورثه عن أبيه ، وغنياً بقلبه ، وهذا

هو الغنى ورب رجل يملك من الأموال ما لا تأكله النيران ، وقلبه قلب فقير ، وفقير لا يملك قوت يومه ، وبين جنبيه نفس ملك .

وكان أقرب الناس إليه : التجار وأبناء القرى ، لا سيما قرى حوران ، وحوران قطر عظيم فى جنوبى الشام ، على حدود البلقاء (الأردن) كانت فيه قديماً مملكة الغساسنة . ولكنه كان يعيش يومئذ فى (جاهلية) مزدوجة ، ففيه الجهل الذى هو ضد العلم ، والجهل الذى هو ضد الحلم ، وكان كثير من أهله يعيشون عيشة من لم يدر أن رسولا بعث ، وقرآنا نزل .

فعمد الشيخ إلى كل بلدة ، أو قرية ، يأخذ من أولادها من يعلمه ويفقهه فى الدين فيلازم الشيخ سنوات ، يعود بعدها إلى بلده معلماً ومرشداً ، فأحيا الله به تلك الديار ، وردها إلى شرعة الإسلام .

ولم تمر على دعوته شهور حتى تجاوبت أصداؤها فى أقطار الشام كلها ، وأحس بها القاصى والدانى ، واعترف بقوتها العدو والصديق ، ولكنها عنيت بالمظهر أكثر من عنايتها بالجوهر ، وقامت على ! لاح (الخارج) قبل إصلاح (الداخل) ، فتسابق الرجال إلى لوث العمائم على الطرابيش ، حتى لم يبق فى البلد (شاش) ، وأسرع النساء إلى اتخاذ الإزار الأبيض ، بدل الملاءات السود ، حتى فقد من السوق القماش ، واستراح الحلاقون من العمل فى وجوه الرجال ، فعطلت الشفرات وعملت الأمشاط

ثم مل العامة من هذا كله ، وفترت حماستهم ، وذهبت حدة هذه الدعوة من نفوسهم ، وزال بريقها فى عيونهم ، فانصرفوا عنها ، وكان أثرها فيهم كحريق القش اليابس ، يلتهب فى دقيقة ، لينطفئ بعد ساعة ، ولكن النار التى أوقدها الشيخ لم تنطفئ ، ولئن خبت عند العامة ، فلم يبق لها لهيب ظاهر ، فلقد بقيت فى الخاصة خفية ولكنها دائمة ، كنار الفحم الحجرى ، بطىء اشتعالها ، بطىء زوالها .

ذلك أن الشيخ لما رأى إقبال أولاد القرى عليه ، من حوران ومن البلقاء ورآهم غرباء فى دمشق ، لا نادى لهم فيها ، خاف عليهم من الفساد ، وأشفق عليهم من التعب ، وكان فى دمشق غرف كثيرة فى المساجد موقوفة على طلبة العلم ، قد تسلط عليها ناس ليسوا من أهل العلم ، ولا من طلابه ، يتخذونها مجالس للتسلية ، أو بيوتاً للسكن ، أو مخازن لعروض التجارة . فاستخلص منها ما استطاع استخلاصه فأسكن فيه هؤلاء الطلاب . ثم رأى أن هذا كله لا يكفى ، وأن طلبة العلم فى حاجة إلى مسكن قائم ومورد دائم ، فألف من هؤلاء التجار الذين يحفون به جمعية ، سماها (الجمعية الغراء لتعليم أولاد الفقراء) وهو اسم غريب ، ولكن العبرة بالمسمى لا بالاسم ، وعملت هذه الجمعية عملاً عظيماً ، ففتحت مدارس للصغار ، ومعهداً علمياً للكبار .

* * *

وكان فى دمشق مدرسة كبيرة بناها نائب الشام على عهد المماليك ، الأمير تنكز [1] وكانت فى الأصل فى ظاهر دمشق ، فصارت اليوم لب البلد .

وكانت الدولة العثمانية ، قد جعلت منها مدرسة حربية ، ثم ورثها الفرنسيون لما اغتصبوا الحكم فى الشام ، فاستعان الشيخ على بالشيخ بدر الدين على جعل المعهد فيها .

وكان الشيخ بدر الدين ـ كما قلت لكم ـ شيخ دمشق ، أمره فيها الأمر ، لا يخرج عليه حاكم أو محكوم ، وكان لا يمشى إلا إلى مسجده ومدرسته ، فلما استعان به الشيخ على ، قال : امش يابا .

وكانت كلمته لكل من يخاطبه من كبير أو صغير : (يابا) ، فمشى معه

(1) المؤرخون يرادفون بين اسم جنكيز وتنكز ، فلعل هذا من ذاك .

الشيخ على وتلاميذه من ورائه . . حتى دخل الشيخ المدرسة فأسرع إليه مديرها وكان ضابطاً فرنسياً كبيراً ، يستقبله ، ويكرمه ، ويسأله عما يأمر به ، فقال له (والترجمان يترجم) :

ـ يابا ، هذه مدرسة دينية ، وفيها مسجد وأنتم ما لكم فيها حق ، فأعطوها للشيخ على يجعلها معهداً علمياً .

فقال له الضابط :

ـ كما تأمر ، لكنا نحتاج إلى مهلة حتى نفتش عن محل ننتقل إليه ، وننقل إليه متاعنا .

قال الشيخ :

ـ طيب يابا .

ولم يمر شهر حتى استلمت الجمعية الغراء المدرسة وكانت واسعة الرقعة و تصل بين شارع النصر وميدان المرجة ، ولكنها مخربة ، قديمة البناء ، فشرعت الجمعية بتجديد بنائها ، وجمعت لذلك الأموال الكثيرة قدم جلها أعضاء الجمعية ، واشتغلت فى ذلك سنينًا ، حتى أعيد بناء المدرسة كلها ورجعت كالعروس بعد أن صارت كالعجوز .

وأنا أحب ـ والكلام عن الشيخ على وشيخه البدر ـ أن أعرض للقراء صفحة مطوية من تاريخ الشيخ بدر الدين ، هى رحلته فى سنة 1924 م مع الشيخ على الدقر والشيخ هاشم الخطيب ، من دمشق إلى دوما إلى النبك إلى حمص إلى حماة إلى حلب ، هذه الرحلة التى طافوا فيها بلاد الشام (سورية) كلها ، وكانوا كلما وصلوا بلدة أو قرية ، خرج أهلها على بكرة أبيهم ـ كما كان يقول أجدادنا ـ لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب ، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد ، فتكلموا فيه ووعظوا وحمسوا ، وأثاروا العزة الإسلامية فى النفوس ،

وذكروا بالمجد الغابر ، وحثوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله ، فكانت هذه الرحلة هى العامل الأول والمباشر لقيام الثورة السورية ، التى امتدت سنتين ، وأذهلت ببطولتها أهل الأرض .

والثورة كما نعرف نحن وقد رأيناها رأى العين ، ويعرف كل شامى أدرك تلك الأيام ، قد قامت فى الغوطة ، قبل أن تقوم فى الجبل (جبل الدروز)، وقد بدأت بخروج طلبة العلم ، بدافع الجهاد ، ومن أوائل من خرج إليها شيخ من تلاميذ الشيخ هاشم ، لا يزال حياً ، فاسألوه فعنده الخبر اليقين هو الشيخ محمد إسماعيل الخطيب ، ومن هؤلاء الذين خرجوا وعملوا العجائب ، البطل الشهيد حسن الخراط (وقد كتبت عنه فصولاً طوالاً فى مجلة الناقد التى كانت تصدر فى دمشق سنة 1930 م) وكان حارساً ليلياً ، أمياً، قاد عصابات المجاهدين ، ووقف بهم فى وجه فرنسا ، يوم كانت فرنسا أقوى دولة برية فى أعقاب الحرب الأولى ، وغلبها واحتل دمشق ثلاثة أيام .

وكانت معارك (جسرتورا) تهتز بأخبارها أسلاك البرق ، وأمواج (اللاسلكى) وتتناقلها أكبر جرائد العالم ، فهل تعرفون ما جسر تورا ؟

جسر قديم ، على نهر عرضه خمسة أمتار ، كانت تقف وراءه المئات من الثوار تحتمى بحيطان البساتين ، وبشجر الزيتون والمشمش ، وترد بالبنادق العثمانية العتيقة حملة فيها عشرة آلاف ، ومعها المصفحات ، ويقودها جنرال !

وليس الكلام عن الثورة . ولكن قلت ما قلت ، لأبين أثر الشيخ بدر الدين وتلميذيه على وهاشم فى قيامها .

* * *

وبعد فإن (حركة) الشيخ على لم تقف ، ولا تزال بعد موته قريبًا مما كانت فى أواخر حياته فمعهده لا يزال قائماً . ومن طلابه الذين ينهجون نهجه ،

ويتبعون أثره اثنان من علماء الشام : الشيخ حسن حبنكة ، وله معهد ضخم يبث فيه العلم وينشر روح الإسلام ، والشيخ عبد الكريم الرفاعى وعنده مئات ومئات من الطلاب ، وهو قائد من أفضل قواد الجبهات الإسلامية إخلاصاً ، وعلماً ، وعملاً ، وعفة يد ، ونزاهة نفس ، وحسن خلق .

وكان سر نجاح الشيخ على : صلاحه ، وعبادته ، وورعه ، وأنه موقن بما يدعو إليه ، يقيم الحق الذى يراه على نفسه وأهله ، قبل أن يقيمه على الغريب ، وكان من منهجه أنه إذا جاء رمضان ، وقف دروس العلم وانصرف إلى العبادة وتلاوة القرآن وذكر الله بالقلب وباللسان ، معتكفًا هو وتلاميذه فى المسجد ، تاركين الدنيا وراء بابه ، قلوبهم مع الله ، وألسنتهم رطبة بذكر الله ، يعيشون فى جنة من جنان الخلد ، ولكنها فى الدنيا ، فيكون لهم من رمضان مدد روحى وذخر يدخرونه زاداً للسنة كلها .

وكان الشيخ على (كالشيخ بدر الدين) جميل الصورة ، ناصع البياض ، أزرق العينين ، حلو التقاسيم ، له لحية بيضاء كبيرة تزيده جمالاً ، وكان كلاهما يتخذ العمامة التجارية من القماش الهندى المطرز ، لا العمامة البيضاء عمامة العلماء .

قلت : إن والد الشيخ شكاه مرة إلى صديق له بقال عند باب الجابية . . وقال له : ما أدرى كيف يعيش هذا الولد وكيف يصير إذا كبر ؟! .

وعمر هذا البقال حتى بلغ الشيخ ذروة مجده ، وازدحمت عليه الألوف ، وأقبلت عليه القلوب ، وكان يوماً فى دكانه ، فرأى الشيخ خارجاً من المسجد ، ووراءه الحشود من أرباب العمائم ، فذكر ما قاله الأب ، واستغرق في الذكرى ، حتى غاب عن حاضره ، وعرته حال روحية غريبة فنزل من الدكان واتجه إلى مقبرة (الباب الصغير) وصرخ بأعلى صوته :

ـ يا أبا صادق ، يا أبا صادق ، ارفع رأسك فانظر ابنك عَلِى كيف صار ! .

الشيخ محمود ياسين

في هذا الحيّ المعتزل الساكن الذى كان آخر البلد ، ما بعده إلا المقبرة ، فنبعت من ورائه اليوم شوارع فساح وساحات ، وقصور عامرات ، وكان آخر دمشق القديمة ، فصار أول دمشق الجديدة ، ولكنه بقى على شرقيته وشاميته ، لم يصل إليه الجديد ، ولم يألف أهله التقليد ، والذى كان أبداً مسكن الصالحين ، لم يخل من عالم زاهد ، وفقيه معلم من يوم كان القرية التى خرج منها الأوزاعى إلى أن شيد فيها الجامع المأنوس الذى أسس من يوم أسس على التقوى ، وأقيم على الهدى ، وبنى على أنقاض الخان الذى كان ماخوراً ، فجمع الله به بين فضيلتين : باطل يرفع ، وحق يوضع ، وذهبت الغانيات الفاتنات ، وجاء العابدون المتبتلون ، فمن ذلك سمى (جامع التوبة) .

في حارة ضيقة إذا مد الرجل يديه بلغتا جداريها ، في دار فيها صغيرة ، صحنها بركة حولها مجاز ، وبناؤها غرفتان فوق درج كان يقيم الشيخ الزاهد حقاً الشيخ (محمود ياسين الحمامى) رحمه الله رحمة واسعة .

وفي تلك الساحة باب ، إن أنت جزته دخلت إلى بستان فسيح ، وروض أنيق ، فيه ما اشتهيت من ثمر ، وما رجوت من زهر ، جمعت فيه فواكه الشتاء والصيف ، وأزهار السهل والجبل ، وجنى اليوم والأمس من كل غض جديد وقديم مرت عليه قرون وما فقد جدته ولا أضاع غضارته ، وفيه اللذة وفيه الربح وفيه المتعة وفيه النفع ، وفيه نهر إن شئت عللت منه وإن شئت نهلت ، وإن شئت ملأت ، وإن شئت سبحت ، وفيه قصر مسحور تشرف منه

على الدنيا كلها : غابرها وحاضرها ، تستمع منه كل حديث ولو قضى محدثوه من عصور ، وتجالس فيه كل عالم وأديب ولو مات من دهور ، ثم إن أردت أقبلوا عليك ، وإن أشرت سكتوا عنك ، لا يغضبون ولا يعتبون ، وإن استعدت أعادوا عليك .

والمكان بعد - يا سادة - ذرعه خمس في خمس ، ولكنه حوى هذا كله وأكثر منه . هذه هي مكتبة الشيخ ، وهذي هي الغرفة التي قلما كنت أجد مكاناً هو أحلى في عيني وأمتع لقلبي منها ، وقلما أجد ذكريات بقعة أعز على وأطهر وأغلى من ذكرياتها ، فكنت كلما جئتها شعرت بأنس الروح ولذة الاطمئنان .

وإذا كانت دمشق قد بكت في صاحب هذه المكتبة يوم توفي ، رجل الصلاح والإصلاح ، فقد بكيت فيه مع العلم العمل ، ومع الزهد الرضا ، وكانت حياته في نظري درساً لمن أراد أن يتعلم كيف يكون المرء سعيداً وكيف يجمع الدنيا والآخرة ، واللذة والشرف ، وكيف يثق أن السعادة ليست بالمال الذي يتقاتل الناس عليه ، ولا الجاه الذي يسعون إليه ، ولا بالقصور الشم والمنازل العوالي ، فقد زرت القصور وجالست الملوك وصاحبت الأغنياء ، ولازمت الرؤساء ، فلم أر السعادة على أتمها وأكملها إلا في أمثال هذه الدار التي لا تتجاوز غرفة مفروشة بالسجاد النظيف على الخشب ، على جوانبها مقاعد ، والجدران كلها كتب ، يخلع الداخل إليها نعله ثم يجلس على الأرض ، فحيثما جلست دفء ونظافة تشعرك نظافة الروح ودفء الحب ، يستقبلك فيها هذا الشيخ بوجه تقرأ في أساريره الطيب والإخلاص ، وترى في عينيه الحب والطهر ، يسلم عليك ، يرحب بك لا ترحيب المتكلف وسلام المنافق ، وترى منه الود الصادق ، والرأي المحكم والنكتة والتواضع ، وتراه حائراً فيما يكرمك به .

يلزمك محبته ، ويشعرك إجلاله ، لا يتصنع لذلك ولا يريده ، ولا يتطلبه بلفظ ولا فكر ، ولكن منظره ومخبره يوحيان إليك بذلك كله .

كان سعيداً لأنه كان مؤمنا بالله ، يعلم بأن كل ما جاءه فمنه ، وكل ما ذهب منه فبحكمه . كان راضياً أبداً إن أعطى أو منع ؛ لأنه كان راضياً عن الله ، ويوقن بأن الرزق مقسوم وأن الله هو المحيي لا المال ، فكان المال أهون شيء عليه ، فإن جاءه أكل منه وأطعم ، وإن بعد عنه صبر وعف .

وكان ينعم بمتعة الطرفة على أحسن ما نعم بها بشر ، فكان يعيش في قفر الحياة في واحة مخضرة ظليلة ، وروضة ممرعة أنيقة .

وكان واسطة عقد جماعة من كرام الناس أحبهم وأحبوه ، ودعاهم إلى الخير فاتبعوه ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فأطاعوه ؛ فاتحدوا قلباً وقالباً ، فهم يقرؤون معاً ، ويصلون معاً ، ويذهبون ويجيئون ، ويجدون ويهزلون ، كل دار لأحدهم دار لهم كلهم ، وكل ماله مالهم ، يجيء الشيخ محتاج منهم فيعطيه كيس ماله ليأخذ منه ما يريد ، ولكنه يضيق فلا يأخذ منهم، خلة فيه رحمه الله .

تآخت أسرهم ، وتوادت نساؤهم ، حتى أن أربعة منهم ، أحدهم الشيخ ، رأوا حاجة الناس إلى الاصطياف ، ورأوا فساد المصايف فاختاروا بقعة في (الهامة) من فوقها الجبل الأشجر ، ومن تحتها ومن حولها الخمائل المتتالية ، والنهر يجري أسفل منها زاخراً فياضاً ، فبنوا فيها داراً ، مشتركة فيهم مهايأة ، قسموا بينهم أيام الصيف وأيام الشتاء ، وليالي القمر وليالي الظلام ، فكانت شيوعية إسلامية .

وكان رجل دين حقاً ، لست أعني أنه من هؤلاء الواعظين المحترفين الذين

يعظون من ألسنتهم لا من قلوبهم ، قد لبسوا ثياب الصلاح على المنبر ، كما يلبس الممثل ثياب الملك على المسرح ، فإذا تم الوعظ وانقضى التمثيل ، نضيت تلك الثياب ، فعاد الملك صعلوكاً والواعظ طماعاً خبيثاً ، ولا الذين يتخذون التُقى دعوى يكسبون بها الدنيا ، والنسك شبكة يصطادون بها المال ، يزهدون الناس ولا يزهدون ، ويعظون ولا يتعظون ، ولا الأتقياء في المجان فقط يصلون مائة ركعة ، ويسبحون ألف تسبيحة ، ويسكنون المساجد ، يعانقون المصاحف ، ثم لا تجود أكفهم بقرش إلا إن جاد بالمال الحديد الأصم ، ولا تلين قلوبهم لعطاء إلا إن لان جلمد الصخر ، ولا من الذين طلقوا الدنيا ثلاثاً ، وحرموا على أنفسهم طيباتها ، وعافوا لذيذ المأكل وناعم الملبس ، بل أعني التقي حقاً الذى يتبع الشرع ويقف عند أمره ونهيه ، ويجد حلاوة الإيمان ولذة العبادة ، وما رآه أحد يصلى إلا اشتهى الصلاة ، كما يشتهى المرء أكلة طيبة رأى حسناء تأكلها من كثرة خشوعه وظهور إخلاصة وطيب صلاته .

لا يجلس متجهم الوجه يعظ أبداً ، ويتلو الأحاديث ولا يتظاهر بخشونة الثوب وتطويل السبحة وتعريض الجبة كما يصنع هؤلاء الذين يدعون الولاية دعوى بلا دليل ، فإذا جاءت الدنيا وعرضت المطامع نسوا دعواهم ، بل كان زاهداً حقاً ، وهو يأكل ويشرب ، ويستمتع ويؤم البساتين ، ولا يأكل محرماً ، وكانت زهادته فى المال عرضت له الفرص ليكون موظفاً كبيراً فأبى ، وآثر تعليم الصبيان فى مدرسة صغيرة ، فلما جاء الفرنسيون جعلوا للمدارس الخاصة معونة على أن يفتشوها فأبى ، وكان وحده المعارض فأُغلقتْ مدرسته ، ولم يكن يملك شيئاً فعرض عليه القضاء فأبى إلا أن يكون كاتباً فى المحكمة الشرعية ، ثم عين مدرساً ، وكل المدرسين يأخذون المال بلا عمل ، فحمل كتابه وذهب فدرس ، وكان ينفق بعد هذا إنفاق من لا يخشى الفقر ولا يرجو إلا الله

ولا يعتمد إلا عليه ، يجيئه الأصحاب فيأخذون من ماله ومن علمه ، يقرؤون عليه . . ويأكلون عنده .

يا سادة :

لو شئت أن أحدثكم عن الشيخ محمود ـ رحمه الله ـ صديقاً وجدت له فى رأسى ذكريات من أقدس وأنفس ما عرف الناس من ذكريات الصداقات ، ولو شئت أن أحدثكم عنه معلماً لوجدت مآثره فى التعليم . ولو شئت أن أحدثكم عنه مصلحاً لوجدت جهده فى الإصلاح ، ولكن الوقت ضيق ، وأنا أريد أن أحدثكم عنه على أنه الرجل التقى السعيد .

إنى لأعرض سير من أعرف فلا أكاد أعرف رجلا كان فى ظنى أسعد منه ، وإذا كان المعلمون يأخذون الأجر من الطلاب ، فإن الشيخ يعطى الطلاب أجرة ولم يرزأ أحداً شيئاً ، يعطى ولا يأخذ ويتفضل ولا يقبل أن يتفضل عليه .

هذى ـ يا سادة ـ لحظات مع رجل عاش سعيداً ومات حميداً ، فما رأيت فى الناس من أحبه الناس حياً وبكوه ميتاً مثلما أحبوه وبكوه ، ولقد كانت جنازته مأتمًا عاماً ما تدرى فيه من المعزِّى ، ومن المعزَّى وهو الذى ستظل مآثره وتظل سيرته درساً لمن أراد أن يعرف كيف يجمع الإنسان سعادة الدارين ولذة الحياتين ـ رحمه الله ـ .

* * *

الفصل الخامس

- الشيخ عزيز الخاني
- الشيخ كمال الخطيب
- الشيخ كمال القصاب ـ الشيخ بهجة البيطار
- الشيخ الكافي

الشيخ عزيز الخانى

قعدت أتذكر ما أعرفه عن الفقيد ـ رحمة الله ـ على روحه ، وأعرض أصباحى معه وأماسىّ ، وما رأيت منه وما سمعت عنه ، فإذا أنا أمام الآلاف من صور الخير والجمال تمر بى مواكب إثر مواكب ، وكل حافل بالنبل ، فياض بالفضل ، وإذا أنا أغيب فى نشوة هذه الذِّكَر الحلوة كأنى غائب عن نفسي على أجنحة حلم شهى فاتن ، وإذا أنا أرى فيها (فلْمًا) يكر مسرعاً تتداخل صوره وتتعانق مشاهده ، لولا أنه فلْمٌ واقع حققته هذه النفس النبيلة العظيمة ، لم يبدعه الخيال المجنح ، ولا اخترعته العبقرية المبدعة ، ولم أدر ماذا آخذ منه وماذا أدع ، ولو تركتمونى أتحدث ما أشاء لحدثتكم عنه أياماً وليالى حديثاً يهز قرارات القلوب ويحرك أعماق النفوس ، وما كذبت فيه ولا بالغت ، ولكن ربع ساعة هل أستطيع أن أجمع ذكريات ثمانى سنين كنت فيها فى صحبة الفقيد ، أجلس بقربه ، جنبى إلى جنبه ، ثمانى سنين رأيته فيها فى رضاه وفى غضبه ، وصحبته فيها فى حضره وفى سفره ، كيف أدخل هذه السنين الطوال فى هذه الدقائق القصار ؟ إن ذلك لا يكون إلا بمعجزة وقد مضى عصر المعجزات .

يا سادة : إن القلم يقف إن لم يمده قلب واع وذهن مفكر ، وإنه ليقف إن طغت على القلب العواطف وازدحمت على الذهن الفكَر ، فاعذرونى إذا أنا أجملت ولم أفصل ، وأشرت ولم أوضح ، ومررت بهذه الحياة مر الطيارة بالمدينة الحافلة بكل عظيم وجميل .

إنى أذكر - يا سادة - يوم سعيت إلى لقائه من عشر سنين أول ما وليت القضاء أحييه تحية القاضى الصغير للقاضى الكبير ، أمشى على تردد ، أخشى ألا أصل إلى قلبه وبيننا مسافة عشرين سنة فى العمر وبيننا مسافات فى الدرجة وفى الزى ، وكنت أصدق ما يقول المراجعون من أن دون المشايخ حجاباً من الجد والصرامة وما لا أسميه ، فلم أكد ألج الباب حتى أحسست بنفحة من لطفه وظرفه كما يحس الضال فى الصحراء المحرقة حين يدخل الواحة وتهب عليه نسائمها ، وتلقانى بالتحية والتجلة ورفعنى حتى صغرت فى عين نفسى بمقدار ما كبر فى عينى ، وحدثنى عن كتبى ومقالاتى وأبى وجدى ، ولم تمض ربع ساعة حتى شعرت أنى من حبى له حيال والد أو عم كريم .

وكلما أوغلت فى صحبته رأيت الدلائل الجدد على نبله ، ورأيت أن ما بدأنى به أول يوم يعاد كل يوم حتى أنى إذا قمت لحاجة أبى إلا أن يقف لى ويودعنى وإن رجعت بعد لحظة أبى إلا أن يقف لى ويستقبلنى ، ووجدت أن ما صنعه بى يصنعه بالناس جميعاً ، مع ظفين والمراجعين والزائرين ، ينادى كلاًّ بأحب الأسماء إليه ويزيل وحشته ويطرح كلفته ويتحمل غلظته ويغتفر غلطته .

تمده ذاكرة قوية يعرف بها الناس ، فيسأل كلاًّ عن أهله وعياله وعن خاصة أمره سؤال المحتفى به ، فيشعر بذلك كل واحد أنه صديقه الأوحد وصفيه الأدنى ، وكانت هذه الخلة من أطيب الخلال،وبمثلها امتلك مجدد العصر صديقنا الشيخ حسن البنا قلوب الناس ، ما رأيت مثلها إلا له ولقليل من الناس منهم الشيخ محمد محمود الصواف .

وكان يعطى من قلبه مثلما يعطى من لسانه ، فكان أوفى الناس لصديق وأبرهم به وأقضاهم لحاجته ، وما أعرف رجلاً سأله أمراً يقدر عليه إلا أجابه

إليه ، وكان يذيع الحب أينما سار كحامل المسك حيثما مشى فاح منه العطر ، وكان يتسع قلبه للصديق والعدو ، والتقى والشقى والمسلم والكافر ، وكان يحسن حتى لمن يسيء إليه ، وينفع من يضره ، وأشهد أنى ما سمعت منه على طول ما صحبته كلمة سوء بإنسان جرى بها لسانه ، ولا عرفت أن قلبه انطوى على كره إنسان .

وكان يعطي من جيبه مثلما يعطى من قلبه ، ولطالما رأيته يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، يمد يده بالعطية وعلى لسانه كلمة الاعتذار ، وعلى شفتيه بسمة التحية خشية أن يجرح بها شعور السائل أو يدخل بها الهوان على نفسه ، وما كان يرضى قط أن يركب سيارة لا يدفع أجرتها أو يدعوه أحد ولا يجدد له دعوة أو يهدى إليه شيئاً ولا يضاعف له الهدية ، كل ذلك على ضيق فى ذات يده وقناعته براتبه وعلى ما باع من إرث أبيه وجده ، وما عرفته مع ذلك كله أخذ قرشاً من كشف وكان ذلك حقه هو ، ولكنه كان يترفع عنه ، أما نظافة يده وبعده عن الحرام فأمر يعرفه كل من كانت له صلة به .

ولم يكن لطفه من ضعف وكان من أعز خلق الله نفساً ، وكان يأبى الدنية ويرى أن له الصدر ، لا لذاته بل لأنه يحمل لواء الدين بين أبناء الدنيا ، وما عرفت ولا عرف الناس أنه رضى مرة بغير الصدر ولو كان فى مجلس الرئيس، لا ركب على غير اليمين ، ولا خرج إلا أولا ، وقد آتاه الله من الهيبة والجلال ما مكن الله له ذلك حتى عند من لم يعرفه ، ولو كان يتسع المجال لسردت عليكم من قصصه فى مصر حتى عند ضباط الإنجليز . ولما زرت معه القلعة سنة 1947 وكانت لا تزال فى أيديهم لسمعتم عجباً .

والغريب أنه كان يبلغ ذلك بلطفه ورقته ، ولقد بدا منه فى أخريات أيامه جانب ما كنت أعرفه هو جانب الشدة والصرامة.وله فى مسألة دين الدولة مواقف مثل مواقف الجبال الرواسخ .

ليتنى أستطيع أن أمضى فى الحديث ولكن أزف الوقت وإن فى الحفلة[1] لخطباء أنصع منى بيانًا وأفصح لساناً فعفواً يا سادة إن لم أصف كل ما أعرفه عن الفقيد ، والعفو يا سيدى يا سماحة القاضى العزيز والسلام عليك . . سلام القلب . . سلام الحب . . سلام الإخاء . . سلام الوفاء . سلام عليك لئن أورث الأغنياء مالاً وترك العلماء كتباً فلقد خلفت لوعة فى كل قلب وحسرة فى كل فؤاد وحسبك سيرتك باباً إلى الخلود إن أنت لم تترك مصنفات وتآليف ، وما أكثر من خلد من الأعلام بسيرته وحدها من لدن سفيان والفضيل ابن عياض إلى الشيخ بدر الدين .

السلام عليك سيمر دهر طويل قبل أن نرى بعدك رجلاً مثلك له قلب مثل قلبك ونبل مثل نبلك ، ومن له هيبتك وهيئتك وعزتك وعفتك ، وما أسفت إلا اليوم على أنى لم أكن شاعراً .

ولكن لا ، لا والله ما ينفعك اليوم شعر ولا نثر ، ولا تفيدك الخطب ولا المقالات ما ينفعك إلا دعوة صالحة ه جل صالح ، اللهم وما أنا بالعبد الصالح وإنى لمقر بذنوبى معترف بعيوبى ، ولكن رحمتك وسعت كل شىء ، اللهم اغفر له وارحمه ، وزد فى حسناته ، وتجاوز عن سيئاته ، وألحقه بالذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين و الشهداء والصالحين ، اللهم وزميله الشهيد الذى قتل ظلماً وعدواناً ، ولم يذكر فى حفل ، ولم تقم عليه خطب : عادل العلوانى .

أيها السادة : أحضروا قلوبكم واجمعوا خواطركم وتوجهوا إلى الله قائلين : آمين .

---

(1)ألقيت هذه الكلمة ، فى حفلة التأبين فى القاعة الكبرى فى جامعة دمشق .

الشيخ كمال الخطيب

رجل كان فذاً بين الرجال ، لا ترى مثله العصور الطوال . وإذا كان الرجل العادى المهذب كالنسخة المطبوعة من الكتاب ، كان الشيخ كمال نسخة مخطوطة مفردة ، وقد يكون فى المخطوطة خرم أو نقص ، أو يكون على صفحاتها أثر من دهن أو بلل ، ولكنها مع ذلك أثمن من المطبوعة وإن كان ورقها نظيفاً وطبعها متقناً ، لأن هذه واحدة فى الدنيا ، ولأن من تلك آلاف الآلاف .

كان الشيخ كمال بقية عصر مضى ، ولكنه أبى أن يمضى معه ، فعاش فى القرن الحاضر كما كان فى القرن الماضى ، فكان تحفة فى (متحف) ولكنها تمشى ، وصفحة من (تاريخ) ولكنها تتكلم . وكان بطلاً فى جسم عجوز وغنياً فى ثياب سائل ، وكان فكرة استحالت رجلاً ، ومثلا أعلى سوى إنساناً . ولكل منا مثل أعلى يتمثله إذا انفرد بنفسه . أما مثل الشيخ الأعلى فهو أعماله التى يعملها .

ولكل منا أفكار يفكر فيها إذا خلا بعقله ، أما أفكار الشيخ فهى كلماته التي يقولها . وكل منا يعرف حقائق الناس ومثالبهم وعيوبهم ولكنه يكتمها عنهم ، أما الشيخ فكان يقول لكل إنسان ما يعرفه عنه لا يستثنى من ذلك أحداً من الناس أبداً . وليس الذى بالشيخ ما يسمونه الصراحة أو الوقاحة ، بل هو شىء لا أعرف له اسماً لأنى لم أجده عند شخص آخر : يقول لكل رأيه فيه بأوضح عبارة وأقصرها وأشدها ، ثم يمشى لا يريد بها جلب منفعة ولا دَرْء

مضبرة. ثم يحبه مع ذلك الناس كلهم ويحترمونه ويخافونه : رجال الشعب ورجال الحكومة ، والعلماء والجهلاء والأغنياء والفقراء لا يسلم من لسانه أحد ولكن لا يكرهه أحد . ولم يكن يبالى حبهم ولا كرههم ، ولا يحفل بإكبارهم ولا احتقارهم ؛ لأنه يعيش من نفسه فى عالم ، غاية مطلبه من الدنيا قماش يستر عورته ، ولم أقل : جبة ولا رداء ؛ لأننى لم أكن أدرى ما كان يلبس على التحقيق : أجُبّةً غيرها طول البلى حتى صارت من قصرها وثنيها كالرداء، أم رداء أبلته الأيام فصار كالجبة ؟ وشىء يملأ جوفه، سواء عنده أكان هذا الشىء خبزاً يابساً أم كان أرزاً ولحماً ، ومكان يضع عليه جنبه : سريراً أو فراشاً أو قطعة ممهدة من الأرض الفضاء ، فإن وجد ذلك لم يطلب شيئاً بعده ، لا يرجو جاها ولا مالاً ، ولا يخاف سجناً لا رهقاً .

أخوه الأصغر (زكى بك) زعيم كبير من زعماء الشام . ولى الوزارة مراراً ورياستها (بالوكالة) مرة ، وهو محام معروف ، وأخوه الآخر كان طبيباً كبيراً ، وأهله ذوو ميسرة وغنى ، ولكنه لا يرزأ أحداً شيئاً ، ولا يجرؤ واحد منهم على دعوته إلى طعام أو منام .

ولقد حدثنى الأستاذ زكى بك أنه ما افتقر هذا الفقر إلا لأنه كان كبير إخوته. مات أبوه وخلف له هذين الصغيرين ، فباع ما له كله ، وأنفق عليهما حتى استكملا الدرس فى إستانبول ـ وكانت باريس تلك الأيام ـ ثم أبى أن يأخذ منهما قرشاً واحداً ، وإذا عرضا عليه هدية أو دعواه دعوة ، غضب أشد الغضب ، فتركا ما يريدان لما يريد ، فعاش أغنى الناس ، لا لأنه كان أكثرهم مالاً ، بل لأنه كان أقلهم حاجة ، ولا فرق بين أن تكون لك كنوز قارون وأموال فاروق فتنال بها كل ما تطلب ، أو أن تكون مطالبك هينة يسيرة فلا تحتاج إلى مال كثير لتنالها ، ومن هنا قال مَنْ قال : إن السعادة هى القناعة .

قنع من الحياة بأيسر ما تحفظ به على صاحبها الحياة : رغيف يسد جوعته ، وقماش يستر عورته ، وكان إذا طلب الناس المصايف واتخذوا لها الدور وأعدوا لها العدة حمل عباءته وعيبته ومشى مشياً إلى (بسيمة) درة الوادى وجوهرة العقد فى جيد (بردى) ، فوضع العباءة والسفرة فى المغارة فوق (العين الخضراء) ، ثم نزل فدار بالقهوات ، وجالس الجماعات ، فوعظ ونصح وأمر ونهى ، لا يرزأ أحداً طعاماً ولا شراباً ولا مالاً ، ولا يدخل جوفه من عند أحد شيئاً ، ثم عاد إلى المغارة فأكل فيها ما استطاع أن يعده لنفسه رغيفاً ولحماً ، أو خبزاً وزيتوناً ، أو شاياً وكسرات يابسة من خبز الأمس. وحمد الله ونام ، لا يخشى السرق على مال ولا الخسارة فى تجارة ، ولا تحقق الشر من عدو ، ولا خيبة الأمل فى صديق .

وهذا هو عمله فى دمشق : ينزل من قبل أذان الفجر إلى جامع بنى أمية فيصلى ويقرأ أجزاء من القرآن ، ثم يبقى فى الجامع ، يمر على الحلقات ، فإن وجد ما يعجبه شجع المدرس بكلمة ، وإن أنكر شيئاً رد عليه ، وإن أحس غموضاً وضح ، أو إيجازاً شرح ، أو مللاً من السامعين نفّس عنهم بنكتة ، ويعرف له المدرسون ذلك ، فلا يأبونه منه ، وإن أبى بعضهم سلقه بلسان حديد؛ فحط من كبريائه وألان من إبائه ، حتى كان شيخنا الشيخ صالح التونسى (مدرس الحرم النبوى الآن سنة 1372)[1] يسميه (مفتش الجامع) .

ويحضر المحاضرات العامة فيسلك فى الجامعة والمجمع مسلكه فى الجامع . حضرته مرة فى المجمع العلمى العربى من نحو ثلاثين سنة وقد جاء محاضر لبنانى فتكلم فى الحضارة الجديدة وأنه ينبغى فى رأيه أن نأخذ كل ما فيها وذم لباسنا ومدح لباس القوم ، ولما انتهى وأقبل الناس ـ أعنى المتزلفين المنافقين ـ

(1) سنة كتبت هذه المقالة ونشرت فى الرسالة .

يهنئونه ، صاح الشيخ فى آخر القاعة بصوته الذى كان يغلب عشرة مكبرات للصوت ولهجته المُعرقة فى العامية : (ولْك : الحمار حمار ولو لبس بدلة وينطرون ، والإنسان إنسان ولو حط مجلال ...)[1] .

فانصرف الناس بكلمة الشيخ وتركوا المحاضرة فى مكانها .

ويدور فى الأسواق ، يراقب الناس ويدرس أحوالهم ، وهو يعرف أكثر أهل دمشق وآباءهم وأجدادهم ، وتمر به المرأة المحجبة فيعرفها من أى أسرة هى ، أمضى سبعين سنة وهو فى هذه المراقبة . فإن رأى حقيراً رفعته الأيام بلا سبب فتكبر ، رماه بكلمة كالقنبلة فعرفه قدره وجرأ الناس عليه ، وإن رأى دجالاً انخدع به الناس فحسبوه عالماً حط منه فصرفهم عنه . وإن أبصر جاسوساً أو ممالئاً للفرنسيين صرخ : (الله يلعن الجواسيس والمنافقين) ، وإن نظر إلى أم ولدها وسخ قال لها : (ولك ، هاى الماء روحى غسلى وجهه ، النظافة من الإيمان) ، وإن رأى بائعاً يغش مشترياً ، أو مشترياً يضايق البائع ، أو شاباً يتحرش بالنساء أو امرأة تتصدى للشباب ، أو رأى معتدياً على آخر فى جسده أو ماله أقام القيامة عليه فكأن البلد كلها مدرسة والناس تلاميذها وهو المعلم فيها .

وهو قاموس حى ، فيه تاريخ دمشق وأنباء أحداثها وأخبار رجالها ونسائها ، حوادث رآها ووعاها ، وناس عاشرهم وخبرهم ، وله آراء فى السياسة صائبات وأنظار ثاقبات ، وله كلام مغطى تعوده أيام الاستبداد الأولى أيام السلطان عبد الحميد ، حين كان الجواسيس يخالطون الناس فى أسواقهم ومجامعهم ومدارسهم وطرقهم ، وحين كان للجدْران آذان ، وكان يؤخذ الناس فى أوساط الليل من بيوتهم ، بلا محاكمة ولا تحقيق إلى حيث لا يدرى

(1) الجلال : البرذعة فى لغة عامة أهل الشام .

أحد . وكان الناس يستمعون له ولا يجرؤون على معارضته [1] .

وكان يتوسط فى الخصومات ويعرض لحل المشكلات ، ويقضى بين الناس بلا محكمة ولا مرسوم جمهورى فيسمع من الخصمين ويوازن بين حجج الفريقين ثم يقضى . والويل من جحيم لسانه لمن لا ينفذ حكمه ، فكم ألف بين زوجين وأصلح بين شريكين وكان يأخذ من الأغنياء سطوة واقتداراً ، أو حباً وإكباراً ، فيعطى الفقراء المستورين ، فيسعف الله به وجوها لولاه أذهب ماءها حر السؤال .

وكان قديماً خطيب الجامع الأموى ، ولم أدرك أنا ذلك ، فضايق الحكومة بكشف عيوبها ، وضايق العلماء الرسميين بذكر سجايا العلماء العاملين ؛ فتألب عليه علماء السوء ؛ فأغروا حكام السوء حتى عزلوه فاتخذ من كل مكان منبراً يخطب عليه ، ولبث على ذلك حتى توفاه الله من نحو سنة .

* * *

هذا هو الشيخ كمال ، نسخة مخطوطة نادرة من مخطوطات الرجال ، رجل فرغ من مطالب نفسه ، وعاش للناس فكان مثله الأعلى هو عمله ، وأفكاره هى قوله ، وكانت دمشق مدرسة وكان فيها الأستاذ .

* * *

(1) هذا ما قالوه عن السلطان عبد الحميد ، وقد تبين أنه حديث مفترى ، ولكنه صار بعده واقعاً يُرى .

الشيّخ كامل القصّاب والشيخ بهجت البيطار

سألنى من أيام أحد الإخوان ، قال : هل كنت تلميذ الشيخ كامل القصاب؟ قلت : لم أدخل مدرسته ، ولكنى بمنزلة تلميذ صغير من تلامذته ، قال : وماذا تعرف عنه ؟ قلت : أعرف الكثير . ولكن خبرنى أولا ، ما الذى دفعك إلى السؤال عنه ؟ ومن أين سمعت به ، وعرفت أنى تلميذه ؟ قال : لقد كتب ذلك الأستاذ محمد حسين زيدان ، أفلم تقرأ ما كتب ؟ قلت : لا ، وإن كنت أحب أن أقرأ للأستاذ زيدان منذ رأيت مقالته فى رثاء شيخنا الرافعى سنة1356 . وأقصى النجاح لكاتب فى أيامنا أن يقرأ الناس ما يكتب ، لأن المطابع ترميهم كل يوم بما يعجزون أن يقرؤوا عشر معشارة ، فلابد أن ينتقى المرء ما يقرأ . وأنا حين أرى المقالة فى الصحيفة أو المجلة ، أنظر أول ما أنظر إلى اسم كاتبها ، فإن كان من الأسماء التى أعرفها ، وأقرأ فى العادة آثار صاحبها ، قرأتها ، وإن لم أرض عنها وإن خالفته الرأى فيما قال فيها ، وإذا أبصرت اسماً جديداً ، أعرضت عن المقالة . ويتكرر ورود هذا الاسم على ويتكرر إعراضى عنه ، حتى يتفق أن يجىء يوماً بموضوع يهمنى ، أو يفتتح المقالة بكلمة تسترعى انتباهى ، فأقرأ له ، فإن أعجبنى وضعته فى ذهنى في قائمة أسماء من أقرأ لهم.

وأحسب أن أكثر القراء فى هذا مثلى .

* * *

أما الشيخ كامل القصاب فإن فى سيرته فصلاً كاملاً من تاريخ الشام

الحديث : تاريخها العلمي ، وتاريخها السياسي . فهو من أركان التعليم فيها . أنشأ المدرسة الكاملية ، وكانت تسمى حينا المدرسة العثمانية ، كما تسمى المدرسة التجارية بمدرسة الاتحاد والترقي ، على اسم الجمعية التي كانت تحكم البلاد . وبلغت الكاملية مرتبة عالية بين المدارس ، علم فيها أعلامًا من أهل الشام ، كالدكتور عبد الرحمن شهبندر ، والأستاذ خير الدين الزركلي ، والدكتور أسعد الحكيم . وتخرج منها جماعة من الأعلام منهم : شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار ، ومنهم أستاذ كل من قال في دمشق : أنا طبيب؛ الدكتور أحمد حمدي الخياط ، الذي درس في كلية الطب في الشام من سنة 1920 . وكان أحد الذين عربوا المصطلحات الطبية ، وقاموا بذلك العمل العظيم ، وأخرج مع زميله الدكتور مرشد خاطر « المعجم » ، الذي ينتقده ويعلق عليه من سنين في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق الأستاذ العالم الدكتور حسني سبح ، وهو زميل الدكتور الخياط . وسأتحدث عنه بالتفصيل إن شاء الله . ولكن أقول الآن : إني كنت مرة مع بعض الإخوان في إدارة « المقتطف » في مصر ، وقد صدر العدد الجديد من « المقتطف » وفيه خبر شيء استحدث في عالم الطب ، نسيت الآن ما هو . وكانوا يفخرون بالسبق إلى نشره فقلت لهم : إن عندنا أستاذاً في المعهد الطبي (وكان ذلك اسم كلية الطب في دمشق) اطلع عليه ووصفه في الكتاب الذي يدرسه لطلابه من آخر السنة الماضية ، فعجبوا .

وكان هذا الأستاذ هو الدكتور حسني سبح شيخ أطباء الشام ، بل من كبار أطباء العرب . وهو الآن رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق .

***

أَقْدم ذكرياتي عن الشيخ كامل أنه كان قبل موقعة ميسلون ، يخطب في دمشق، في الطرق والساحات ومجتمعات الناس ، يثيرهم ويحمسهم ، فلما

كانت الهزيمة المتوقعة ، التي كنا نستحقها لأننا خالفنا عن أمر ربنا الذى قال لنا : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : 60] ، وقال : ﴿ وَلا تَهِنُوا ﴾ [آل عمران : 139] فسرحنا الجيش ، بعد أن أقبلت الحكومة إنذار غورو ، التى قالوا : إن حسن بك الحكيم الذى كان مدير البرق والبريد لم يرسلها . وسيأتى الكلام عن الوطنى المجاهد النزيه حسن الحكيم .

لما كان ذلك وقضى الله علينا بأن يحتل الفرنسيون بلادنا ، أصدروا قائمة بأسماء جماعة حكموا عليهم بالقتل ، كان أول اسم فى هذه القائمة اسم الشيخ كامل القصاب ، فجاء المملكة ، فجعله الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مديراً للمعارف . ثم استقال وذهب إلى حيفاً .

قابلته عند خالى محب الدين سنة 1928 على ما أذكر ، ولكن حبلى لم يتصل بحبله إلا سنة 1937 . لما عاد إلى الشام ، وعدت فى إجازة الصيف من بغداد ، ولزمته وصرت من المترددين عليه ، العاكفين على حضور مجالسه ، والمشاركين فى أحاديث هذه المجالس .ولما أعاد افتتاح مدرسته ، وجعلها مدرسة شرعية ، فكانت نواة الكلية الشرعية ، كلفنى تدرس التاريخ والأدب ، وكان من الطلاب جماعة صاروا اليوم من كبار الأساتذة ، وصار منهم من هو أعلم منى ، من هؤلاء الدكتور عبد الحميد الهاشمى . ثم كان منهم لما صارت كلية رسمية ، الأستاذ محمد القاسمى ، والدكتور أديب صالح ، والأستاذ أحمد الأحمد ، والأستاذان الجنادى والخطيب ، وكان منهم حيناً الدكتور وهبى الزحيلى ، وعبد الرحمن رأفت الباشا . وكان بين الطلاب طالب بلحية طويلة ، علمت بعد أنه ليس من أهل السنة والجماعة ، رأيته مرة يغش فى الامتحان ، فقلت له : إن عاقبتك العقوبة التى تستحقها منعتنى لحيتك ، وإن سكت عنك وكرمتك حجزتنى سرقتك ، فماذا أصنع لك ؟ .

ومما وقع لى يوم الامتحان أنى كنت أراقب الطلاب، وما كانوا يحتاجون إلى مراقبة دقيقة ، إذ كان عددهم قليلاً ، وكان وقت الامتحان طويلاً ، ووجدت أمامى « الكامل » للمبرد ، فجعلت أقرأ فيه ، وطال الوقت ، وقرأت منه نحواً من ثلاثين صفحة .

فلما خرجت وانتهى الامتحان دعانى الشيخ كامل لحضور امتحان الأدب، وكان فى كتاب « الكامل » ، وكان الطلاب قد قرؤوا منه ما لا يزيد عما قرأته آنفاً ، وكانت اللجنة مؤلفة من أستاذنا سليم الجندى ، والأستاذ الشيخ عبدالحميد القنواتى ، وأظن أن الثالث الأستاذ عز الدين التنوخى - رحمهم الله جميعاً - فكان الطالب يقرأ ، فيمر بالأبيات فأسأله أو يسأله غيرى عن تفسير كلمة فيها ، أو شرح جملة ، فإذا وقف ، قلت له : أذكر أن هذا التفسير مر قبل صفحة أو صفحتين ، أو سيمر الشرح بعد صفحة أو صفحتين ، فلما طال ذلك منى ، قالوا : عجباً ، أتحفظ « الكامل » ؟ فلو قلت : نعم ، أو سكت ، لشهد لى هؤلاء الأساتذة الثلاثة الكبار بأنى أحفظ « الكامل » .

فهل يمكن أن يكون بعض ما يروى عن حفظ الأولين ، بعضه لا كله ، من هذا القبيل ؟ .

***

الناس الذين يدخلون حياتنا منهم من يمر كما يمر النهر على الصخر ، لا يترك أثراً ولا ينبت زهراً ولا ثمراً ، ومنهم من يمر مرور الماء على الأرض البكر تكون قبله قنوات قاحلات وتصير بعده جنات ممرعات ، ومن يمر مرور السيل الدفاع ، يدمر العمران ، ويقتل الحيوان ، ويؤذى الإنسان .

وكل من تلقاه أو تحدثه يأخذ منك ويعطيك ، يترك فى نفسك أثراً منه ،

حسناً كان أم سيئاً ، مؤقتاً أم باقياً .

ما قعدت بين يدى معلم فى المدرسة ، ولا جلست أستمع إلى محدث فى ناد ، أو واعظ فى مسجد بل ما صحبت صاحباً ، ولا اتخذت رفيقاً ، إلا كان له فى نفسى أثر ، يكون عميقاً تارة فيبقى فيها طويلاً ، أو يكون ضحلاً فيمحى منها سريعاً .

وممن أثر فىّ ناس تحدثت عنهم ، منهم الشيخ عيد السفرجلانى ، والشيخ صالح التونسى ، والشيخ عبد القادر المبارك ، والأستاذ سليم الجندى ، وناس أرجو أن يوفق الله إلى الحديث عنهم كالأستاذ محمد كرد على ، والأستاذ عز الدين التنوخى ، والشيخ محمد الكافى التونسى ، ورجل أتحدث عنه الآن هو الشيخ بهجة البيطار .

كان التلميذ الأكبر (علماً) للجمال القاسمى ، كما قرأ عَلَى السيد / محمد الخضر حسين لما كان فى دمشق ، ثم عاد إلى مصر وصار شيخ الأهر ، والشيخ بدر الدين الذى كان يلقب بالمحدث الأكبر ، وأستاذه الذى انتفع به ، وسار على طريقته واستنار بـ « مناره » هو السيد / رشيد رضا .

فى سنة 1921 ، لما كنت تلميذاً للشيخ حامد التقى ، وهو أسن تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمى - رحمه الله ورحمهم - فى مدرسة أنموذج المهاجرين فى دمشق ، كان يحدثنا عن زميل له فى القراءة على الشيخ جمال الدين هو الشيخ بهجة البيطار ، الذى كان يومئذ معلماً فى مدرسة أنموذج الميدان الابتدائية . وذهبت بعد ذلك بسنوات إلى الميدان فصليت الجمعة فى جامع الدقاق فسمعت خطبته ، فإذا أنا أجد ما لا أجد مثله فى المساجد التى كنت أصلى فيها . لم يكن يقرأ الخطبة من ديوان قديم . كما كان يصنع يومئذ أكثر الخطباء ، ولا من ورقة مكتوبة يضع عينه فيها ، ولا يرفع رأسه عنها ، بل كان

يخطب ارتجالا ولم يكن يلقى كلامه ذلك الإلقاء الملحن المطوط الذى يسبب النعاس ويستدعى الملل ، بدلا من أن يثير النشاط ويبعث الأمل ، بل كان يلقى إلقاء طبيعياً عادياً ، كما تلقى المحاضرات .

وصرت كلما استطعت ركبت الترام فذهبت إليه فصليت عنده، ورجعت، ثم افتقدته فسألت عنه ، فقالوا : إنه سافر إلى الحجاز ، فحضر مؤتمر العالم الإسلامى الذى عقده الملك عبد العزيز سنة 1345 هـ فى مكة المكرمة ، وأن الملك استبقاه عنده ، فجعله مديراً للمعهد العلمى السعودى فى مكة ، أو مشرفاً، فلست أدرى الآن على التحقيق ، وولاه القضاء ، فاشتغل به مدة ثم استعفاه منه ، قائلا مقالة الشيخ محمد عبده : خلقت معلماً لم أخلق قاضياً .

فولاه وظائف تعليمية وجعله مدرساً فى الحرم ، وعضواً فى مجلس المعارف . ثم استأذنه للعودة إلى دمشق ، فعاد سنة 1350 إليها وإلى الخطبة فى جامع الدقاق .

عرفته فى تلك الأيام فوجدتنى معجباً به ، ولكنى مخالف له . لقد وجدت أن الذي أسمعه منه يصدم كل ما نشأت عليه ، فقد كنت فى العقائد على ما قرره الأشاعرة والماتريدية ، وهو شيء يعتمد فى تثبيت التوحيد من قريب أو بعيد على الفلسفة اليونانية ، وهى فلسفة بدائية . وكنت موقناً بما ألقوه علينا وهو أن طريقة السلف فى توحيد الصفات أسلم ، وطريقة الخلف أحكم ، فجاء الشيخ بهجة يقول لى : بأن ما عليه السلف هو الأسلم وهو الأحكم . وكنت قد نشأت على النفرة من ابن تيمية ، والهرب منه ، بل وبغضه ، فجاء يعظّمه لى ، ويحببه إلىّ ، وكنت حنفياً متعصبًا للمذهب الحنفى ، وهو يريد أن أجاوز حدود التعصب المذهبى ، وأن أعتمد على الدليل ، لا على ما قيل .

وتأثرت به ، وذهبت مع الأيام مذهبه مقتنعاً به ، ولكن لم يكن هذا التحول هيناً ولا سهلاً ، وما كنت قط سهل القياد ، ولا سريع الانقياد ، بل ناضلت دون ما كنت أعتقده ، وأمضيت عشرات من الجلسات والسهرات في المجادلات والمناظرات ، أنا باندفاعي وحماستي وعنفي ، والشيخ بهجة بسعة صدره ، وطول أناته ، وغزير علمه ، وقوة حجته ولقد عرضت في الجزء الأول من كتابي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، إلى ما مر علي من أدوار : كيف نشأت مقلداً مؤولا كارهاً لابن تيمية ، ثم أثر فيّ الشيخ بهجة فغدوت سلفي العقيدة ، متمسكًا بالدليل ، ثم صحبت الشيخ زاهداً الكوثري حيناً فرجعت إلى ما كنت عليه ، ثم أقمت عند خالي محب الدين في مصر واقتربت من السيد رشيد رضا ، فعاد أثر الشيخ بهجة في نفسي قوياً ، ثم ثبت عليه .

***

بقيت أكثر من ثلث قرن أصلي الجمعة عنده أنا والأستاذ التنوخي ، والأفغاني حينًا ، والشيخ ياسين الرواف أحيانًا ، وكان عنده كل جمعة جماعة ، منهم بعض الأفاضل الذين يعز لقاؤهم في غير هذا المكان ، كالأمير شكيب أرسلان لما قدم الشام (في السنة التي أتكلم الآن عنها) وكنت أعرفه من بعيد عظيماً في جهاده وفي كتابته وفي علمه ، فعرفته من قريب عظيماً في تواضعه وفي سيرته .

أكلنا فقال الأمير : إن من عادتي أن آخذ سنة من النوم بعد الأكل ، فقام الشيخ مسرعاً فقال الأمير : إلى أين ؟ قال : أعد لك السرير ، قال : مالي وللسرير ؟ وأخذ وسادة من الوسائد التي كنا نستند إليها ، فوضعها على الأرض في وسط الغرفة ، وألقى برأسه عليها ، وقال : السلام عليكم ، وأغمض عينيه ، فقال الأستاذ عز الدين التنوخي : أي نعم (وكانت تلك كلمته

التى يرددها) هذا هو الصحيح ، وأخذ وسادة فألقاها إلى جنبها وفعل مثل ما فعل ، وقلدهما الحاضرون ، وصارت الوسائد دائرة صغيرة ، عليها الرؤوس ، والأجساد ممتدة خطوطا من حولها .

وكنت كلما حضرت خطبته وانصرف إلى داره فانصرف معه جماعة من الناس ، فوجدوا المائدة معدة ، ففى كل جمعة وليمة ، فيأكلون ويبقون يتحدثون ويستمعون إلى الشيخ فيستفيدون حتى يؤذن العصر فيصلوا ويذهبوا .

وكنت آخذ إليه كل من عنده شبهة فى الدين ، أو كلام فى الإسلام سمعه من غير المسلمين ، فيزيل الشيخ الشبهة ، ويدفع الاعتراض ، ويوفق فى أكثر الأحوال ، وقد يقول فى بعضها كلاماً طويلاً لا يشفى الغليل .

وكان يغلب عليه حينا التفكير فى أمر يشتغل به ذهنه ، فإذا دعى إلى الكلام خاض فيه ، وإن لم يكن هو مجال المقال ، وإن لم يناسب الحال .

وهو مطلع على جوانب من علوم شتى ، وملم بالفرنسية فهمًا وكتابة ، درسها فى المدرسة العزرية [1] فى دمشق . أفليس عجيباً أن يكون الشيخ بهجة من تلاميذ المدرسة العزرية النصرانية دخلها حيناً من الدهر ؟ .

وهو الذى عرفنى بالشيخ ياسين الرواف ، أول ممثل للمملكة العربية السعودية فى دمشق ، ثم بأخيه الشيخ عيد ، الذى حل محله ، ثم رشيد باشا الذى صار سفير المملكة بعدهما ، وهو من أذكى الناس ، ضعف بصره فى آخر أيامه أو كف ، فكنت أدخل عليه مع الشيخ فأخفف الوطء ، ولا أنطق ولا أسلم ، وأقعد ساكناً ، فيوجه الكلام إلىّ حيثما كنت من المجلس كأنه يرانى ، ثم بالسفير عبد العزيز بن زيد ، وكلاهما كان من جماعة ابن الرشيد ، ولكن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ، ورحم كل من ذكرت ـ على عادته فى تألف من كانوا أعداءه ، وامتلاك قلوبهم بالإحسان إليهم ، جعلهما من أوفى الناس له

(1) ولعلها منسوبة فى الأصل إلى العذراء (أم سيدنا عيسى) فحرف الناس اللفظ والله أعلم ، فما عندى عن ذلك علم .

وأقربهم إليه .

كان الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقرب الشيخ ، ويعرف له قدره ، وكان له عليه عطف خاص لم يكن لغيره .

***

المرء يتجمل للناس ، ويعرض نفسه عليهم في أحسن أحواله ، وإن تكلم أمامهم احترس في كلامه وانتبه إلى أقواله ، ولكن يبرز لذويه ولمن لا يحتشم منه على حقيقته : صورة بلا « رتوش » ، ووجهاً بلا « مكياج » ، لأن الحجب قد رفعت بينه وبينهم ، فصار يحس معهم كأنه وحده . وكذلك يكون الولد مع أبيه ، وكذلك كنت مع شيخنا الشيخ بهجة ونفر من أساتذتي ، فضلا عن أصدقائي . عرفوني كما أنا ، فما كان يفيدني أن ألقاهم بقناع يستر نقائصي ويخفي عيوبي . منهم الشيخ عبد القادر العاني ، والأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، والأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » ، والأستاذ عز الدين التنوخي ، والدكتور عبد الوهاب عزام وجماعة لس الآن في مجال إحصائهم ، وسيمر إن شاء الله ذكرهم .

كان أول اتصالي بالشيخ بهجة سبب أزمة لي في حياتي . فلقد كان أكثر مشايخي ، بل أكثر مشايخ الشام ، ممن يميلون إلى الصوفية ، وينفرون من الوهابية ، وهم لا يعرفونها ولا يدرون أنه ليس في الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابي ، ولكن ذلك أمر افتراه عليهم خصومها [1] ، ينفرون منها كما ينفر الإنسان من عدو خطر مجهول . وكان عندنا ـ كما قلت من قبل ـ جماعة من المشايخ يوصفون أو يوصمون بأنهم من الوهابيين ، على رأسهم الشيخ محمد

(1) لا أقول هذا لأني أعيش في المملكة ، بل قلته مفصلاً في مقالة لي في (الرسالة) من نحو خمسين سنة .

بهجة البيطار وزميله فى القراءة على الشيخ جمال القاسمى الأستاذ حامد التقى . ومن أعجب العجب أو والد الشيخ بهجة صوفى من غلاة الصوفية، القائلين بوحدة الوجود على مذهب ابن عربى وابن سبعين والحلاج . كما أن الشيخ خالد النقشبندى ، المفسر السلفى كان جده المدفون فى سفح قاسيون هو الذى حمل الطريقة النقشبندية إلى دمشق . ومن تبع أمثال هذه الظاهرة فى تاريخ علمائنا وأدبائنا وجد منها الكثير ، ولعل من أغربها أن صاحب «الأغانى» أبا الفرج الأصفهانى ، أموى النسب شيعى المذهب ، ومن أبنائى الأستاذ محمد سعيد المولوى ،وهو سلفى العقيدة وعمه شيخ المولوية وأبوه من مقدميها .

من هنا كان اتصالى بالشيخ بهجة سبب سخط هؤلاء المشايخ على ، حتى أن أحدهم لقينى مرة ، فسألنى عن حالى ، فقلت فى نفسى : لماذا لا ألقى بالحقيقة الثقيلة عارية فى وجهه ، وما شاء فليفعل ؟ فقلت له : أقرأ كتاباً لابن تيمية على الشيخ بهجة فى دار الشيخ ياسين الرواف ، أى أننى جمعت له الوهابية من أطرافها ، فأخذنى إلى مدرسته ، وكان مدير مدرسة أهلية فلقينا الشيخ أمين سويد وهو من كبار علماء الشام ، وقد جاء به الشيخ محمد على زينل يدرس فى مدارس الفلاح هنا ، ثم أخذه يدرس فى مدرسة الفلاح فى بومباى . وكان الشيخ أمين شيخ أبى فقال له : يا سيدى هذا ابن الشيخ مصطفى، صار وهابياً ينكر التوسل . فقال الشيخ ـ رحمة الله عليه ـ: يا بنى ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . دعه فلا شيء لك عليه .

وكان الشيخ بهجة فى بداية أمره معلماً فى المدرسة الابتدائية ، فى الميدان. كما كان بين المعلمين مجموعة من المشايخ الفضلاء . استولت عصبة فى تلك الأيام من الماسونيين أعداء الدين ، على وزارة المعارف ، فنكبوا بهم ونقلوهم

إلى مدارس صغيرة ، منها ما هو بعيد عن الشام ، فنقل شيخنا ، الشيخ حامد التقى ، إلى قرية دمر ، فبادلته على الوظيفة ، وكنت معلماً فى الشام ، وكان التبادل مقبولا عند الوزارة ، فأعدته إلى الشام . وكان من هؤلاء المشايخ الشيخ سعيد البرهانى ، وكانوا يؤذونه لمشيخته ، والشيخ صالح الخطيب . وكنت يومئذ رئيس لجنة الطلاب ، حولى آلاف منهم يطيعون أمرى، ويمشون ورائى ، ويتحركون بإشارة من يدى . فأخذت نفراً من أقويائهم ، وذهبت إلى مدير المدرسة التى كان فيها الشيخ سعيد البرهانى ، والمدرسة التى كان فيها الشيخ صالح الخطيب ، فدخلت عليه وقبلت يد الشيخ أمامه ، وأفهمته أن الشيخ لا يستحق إلا التجلة والإكرام ، وأن من يمسه ويعتدى عليه أهل للعقوبة فما عادوا بعد ذلك إلى إيذاء واحد منهم .

ثم دعى الشيخ بهجة إلى إنشاء دار التوحيد فى الطائف ، وأخذ معه ولديه، وهما نابغان أحدهما : الدكتور يسار ، من خبراء المال ، والثانى : الأستاذ عاصم من أعلم مدرسى ا‍‍ٍ‍ حو اليوم ، وأحسنهم طريقة فى التدريس . ولقد اشتغل سنينًا فى المملكة هنا .

أخذوا الشيخ بهجة إلى روسيا و إلى أمريكا . أما أهل أمريكا فيدعون الضيف يرى ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويتخذون من الأسباب ما يبطل كل دعوة إلى الخير ، وكل إرشاد إلى إصلاح ، بالوسائل التى تشتمل عليها حضارتهم ، وما تحمل من اللذات المحرمة ، واللهو الصارف عن الخير .

وأما الروس فلا يدعون الضيف يرى إلا ما يريدون هم أن يراه ، ولا يمشى إلا إلى حيث يحبون هم أن يمشى ، ولا يلقى من الناس إلا من يسمحون له هم بلقياه ، ثم لا يخلون بينه وبينهم . بل يبثون حوله العيون ، وينشرون الجواسيس، يسجلون عليه كل حركة وسكنة ، وكل همسة وكلمة .

ولقد خدع أكثر من ذهب إلى روسيا من العلماء والمشايخ ، حتى شيخنا الشيخ بهجة . وكانت لى دروس ليلية فى مسجد الجامعة فى دمشق ، وكنت أتكلم ليلة عن الشيوعية ، فدخل شيخنا الشيخ بهجة . ففرحت ، وقلت له : تفضل يا سيدى أهلاً وسهلاً ، حدثهم عما رأيت فى روسيا .

فكان مما قال : إنه لم ير عورة بادية ، ولا ذراعاً عارياً ، ما رأى إلا الحجاب السابغ ، فتألمت ، ووجدت أنه ـ غفر الله له ـ سيهدم علىّ ما بنيت ، وينقض ما أبرمت . فسألته لأنبه الشباب السامعين ، وكم هى درجة الحرارة هناك يا سيدى؟ فقال : عشرون تحت الصفر . فأفهمتهم أن هذا الحجاب للخوف من البرد لا للحرص على الفضيلة .

وفى كثير من مشايخنا الكبار مثل هذا البعد عن المكر ، حتى أن الواحد منهم يُمكر به فلا يشعر مع أن عمر كان يقول : « لست بالخب ، ولكن الخب لا يخدعنى » ، من ذلك أنه لما كان الحاج أمين الحسينى يناضل الإنكليز فى فلسطين سألوا مفتى مصر يومئذ عن وظيفة المفتى فأجابهم . قالوا له : وهل من عمله الاشتغال بالسياسة ؟ فأجاب قائلا : لا . فأخذوا من جواب مفتى مصر حجة على مفتى فلسطين .

***

كنا عند الشيخ بهجة كأننا فى بيوتنا ، إن جعلنا طلبنا الطعام ، وإن نعسنا ذهبنا إلى الغرفة الأخرى لننام ، وإن أنسنا قعدنا ، وإن استعجلنا استأذنا فانصرفنا . وهو فى الحالات كلها مشرق الوجه ، باسم الثغر ، لين القول ، يتحرك لسانه ما بين ترحيب بنا ، أو كلام نافع لنا ، فقوله درس ، وسلوكه قدوة ، ومجالسته متعة ما بعدها متعة ـ رحمه الله ـ ولقد رأيت آلافاً من الرجال ، وعاشرت مئات منهم ، فما رأيت مثله إلا قليلاً ، فى فهمه للإسلام ،

وتمكنه من العربية ، واستحضاره للشواهد ، وقدرته على نظم الشعر .

كان حلاّلاً للمشكلات ، يستمتع بالنكته ويقولها . لازمته أكثر من أربعين سنة ، سافرت معه ، شاركته في لجان التحكيم ، وفي لجان رسمية ، فكان في الحالات كلها الرجل الكامل الفاضل .

***

وبعد ، فقد فتحت على نفسي وعلى القراء باب خير واسعاً ، في الكلام على من عرفت من الرجال ، ولكن هل أستطيع دخوله ؟ إن دون الوصول إليه حفراً وعقبات وعوائق شديدات ، فهل أبلغه وأدخله ؟ .

إنه طريق طويل طويل ، كلنا يجتازه ، نحط الرحال ، وننصب السرادق ، يمر بنا السائرون يقيمون ما يقيمون ، ثم يرحلون فلا نلقاهم أبداً . لكل منهم موعد ، يدعوه فيه داعيه ، فلا يملك إلا أن يجيب ، ثم يأتي موعدنا نحن ، فيأتي من يحملنا ، شئناً أم أبينا ، إلى حيث يريد من أرسله ، لا إلى حيث أردنا ، فلا نعرف وقد فارقنا خيمتنا ، إلى أين مصيرنا ، ثم يجيء بعدنا من يسكن فيها مكاننا ، يستأجرها كما استأجرناها ، ثم يخلفها كما خلفناها :

رب ركب قد أناخوا عندنا   يشربون الراح بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حالا بعد حال

***

الشّيخُ الكافى

هذا رجل لا تعرفونه ، ولكن تعرفون طرفاً من آرائه فى إنكار حركة الأرض، ورده على من قال بها ، واستدلاله على ما ذهب إليه بما لا دليل فيه ، على ما يدعيه . شيخ من تونس هبط دمشق مع هبوط السلام بعد الحرب العامة الأولى ، وكان الذين صاحبوه وعاشروه أبى وأعمامى . لقد خلطوه بأنفسهم حتى غدا كأنه واحد منهم . ولم يكن عجيباً أن يتصادق تونسى وسورى فإن هذه الحدود لم تكن قد ظهرت ، ولقد كان عندنا مدرسون من تونس ومن الجزائر ومن طرابلس الغرب التى صارت تسمى الآن ليبيا ، واسمها قديماً لوبية، وعندنا مدرسون من الترك ، ومدرس من اليمن اسمه الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعى .

***

ولقد كتبت من قديم أن الرجل المهذب الذى يألف ويؤلف ، والذى يتكلم فيضع الكلمة موضعها ، فلا تجرح السمع ، ولا تحرج السامع ، والذى لا يفعل إلا ما يليق بمثله أن يفعله ، والذى لا ينكر الناس من سلوكه شيئاً ، ولا يحسون له على قلوبهم ثقلاً ... هذا الرجل كالنسخة المطبوعة الطبعة الأنيقة من الكتاب، ورقها صقيل ، وجلدها جميل ، ولكن مثلها فى السوق مئات أو ألاف .

وإن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة ، ربما كانت ناقصة ، أو مخرومة، أو مس الزيت أطرافها ، فأفسدها ، ولكنها أثمن وأغلى ؛ لأنها واحدة لا ثانية لها .

وأنا لا علم لي بالمخطوطات ، ولكني عرفت من دهاقينها ، ومن أهل الخبرة فيها قوماً بقى منهم صديقنا الأستاذ أحمد عبيد ، مد الله فى عمره . وأعرف من الطبقة التى نشأت بعدهم ، فسارت على نهجهم الصديقين : الدكتور صلاح الدين المنجد ، والأستاذ زهير الشاويش .

الشيخ الكافى الذى أتكلم عنه مفرد فى بابته [1] ، فهو فقيه مالكى متمكن من المذهب ، وهو مقلد شديد التقليد ، وما هذا الذى يميزه ، فما أكثر الفقهاء المقلدين فى ذلك الزمان ، ولكن ميزته أنه يعيش كما يريد . لم تكن له وظيفة ، أى راتب ، فهو يدارى رؤساءه لئلا يضار فى وظيفته . ولم يكن من أهل السياسة ليرضى العامة ، ويتألف الجماهير ، استبقاء لزعامته ، ولا كان من أهل السوق فهو يساير الناس لئلا ينفض عنه زبائنه ، ويبتعد عنه عملاؤه ، وما عرفته احتاج إلى أحد فهو يرعى خاطره لئلا يتغير عليه . كان يعيش من مورد له فى تونس ، يأتيه منه مال يكفيه ، ويعيش منه ، وأحسبه مورداً زراعياً؛ لأنه كان فى بعض السنين يبيع زيت الزيتون التونسى ، لمن يحب أن يتناوله .

خبرنى قبل موته بعشرة أيام أنه دخل المائة الثانية من عمره ، وقلت ذلك حين أبّنته فى مقبرة الدحداح عند الدفن ـ رحمه الله .

أصله من بلده أو قرية فى تونس ، اسمها كاف ، لا أعرف أين هى ، لأنى لم أذهب إلى تونس . وقد دعيت إليها مرتين تفضل فى أحدهما السفير فدعانى بنفسه ، فاعتذرت بعلو سنى ، وثقل حركتى ، وشكرت الداعى .

عاش هذا العمر كله ولم يتزوج . تخلص من قيود الزواج ، كما تنصل من روابط الوظيفة والمجاملات الاجتماعية .

---

(1) يقال : فلان من بابة فلان أى من أشباهه وأمثاله .

سكن الدار التى كانت دارنا ، وبقى فيها ثلاثين سنة ، وهى دار صغيرة فى حارة الديمجية . ولدت أنا فيها ، ونشأت فيها ، ولما مات أبى سنة 1343 هـ عينت مكانه إماماً فى مسجدها الصغير ، ويدعى جامع رستم . وقالوا : لابد للإمام من عمامة ، كأن العمامة من شروط الإمامة ، فأدرتها على رأسى ، فقالوا : لابد من لحية ، قلت : العمامة اشتريت قماشها ، وأحكمت لفها ، فمن أين آتى باللحية وأنا لم أكمل السابعة عشرة ؟ .

سكن الشيخ الكافى فى هذه الدار لما خرجنا منها ، وأسكن معه أسرة من المدينة ، أظنها أسرة الخيارى . وهذا الخيارى رجل طيب صالح ، كان يتولى رعاية الشيخ ، كما يعد أهله طعامه الذى يحمله هو إليه فى غرفته .

❊ ❊ ❊

وكان الشيخ يحب الولائم ، لا أن يكون دوماً المدعو فيها ، كما يحب كثير من المشايخ ، بل يدعو ويدعى ، وكان حضور دعواته مما أرغب فيه ، لأننى أستفيد منها فى بطنى وفى ذهنى . أستمع إلى من كان فيها من العلماء ، ومن الأفاضل ، فأتعلم ، ونأكل الكسكسى الأصلى (1) ، ونشرب بعده الشاى الأخضر ، وكان الشيخ الكافى أقرب إلى نفسى من شيخنا الشيخ صالح التونسى ، الذى مر ذكره ، والذى استفدت منه كثيراً ، ولا أنكر فضله على ، وهو رفيق الكافى وصديقه ، وكان الكافى يلين أحياناً حتى نألفه نحن الصغار . وكان يأخذنا إلى « السيران » ، و« السيران » فى الشام نزهة فى البساتين أو فى الوادى ، ويدعو من أجلنا الكبار ، ويبتكر اللعب المسلية ، ويجعل الجميع يشتركون فيها يقيم حجراً يجعله هدفاً ، فمن أصابه نال كذا ، أو يجعلنا

(1) ولا أكاد أعرف فى أصناف الطعام أطيب منه ، وهو الأكلة المفضلة لإخواننا المغاربة جميعاً على اختلاف مناطقهم .

نتسابق ، وكل مرة يخترع لعبة جديدة لا يعرفها الناس .

يدع في السيران جده وحدته ، ويكون منبسطاً كأحسن ما يكون الانبساط ، لينا أكثر ما يكون اللين ، يسوق النوادر ، ويروى الطرائف ويضحك ، ويضحك من معه ، ويتسلق الشجر ، حتى أنه ليصعد شجرة الحور حتى يبلغ رأسها ، وهى تميل به فيميل معها .

وكانت له أجوبة عجيبة . نام فى بيت عمى فسأله فى الصباح عن مبيته فقال : إن الفراش صالح لنوم الشتاء .

فلم نفهم حتى بين لنا ، فإذا هو فراش صغير ، فإذا نام المرء فى الشتاء ضم جسده من البرد فاتسع له ، فإذا نام فى الصيف ضاق عنه ، وكنا مرة نمشى معه فى جنازة ، فسأله رجل عن المتوفى - بكسر الفاء - فقال : المتوفى : الله ، فحسبه يكفر ، وهم بجمع الناس عليه . فشرحنا له أن الله هو الذى يتوفى الأنفس حين موتها ، وهذا الميت يقال له : المتوفى - بفتح الفاء - .

كان الشيخ صالح - رحمه الله ورحم الكافى - يحلو له فى الولائم أن يسألنى على ملأ من المشايخ الحاضرين ، وكنت تلميذه فى المدرسة الجقمقية ، فقال لى مرة : أعرب .

أقاطن قوم سلمى أم نووا ظعنا إن يظعنوا فعجيب عيش من قطنا

وكنت فى الصف الخامس الابتدائى ، فنسيت أن « قوم » تعرب على أنها فاعل لقاطن ، سد مسد الخبر . ونسيت أن هذه الفاء فى الجواب واجبة الذكر ؛ لأن الجواب جملة اسم[illegible] رسكت فَهَمَّ بأن يتناولنى ، فانبرى له الشيخ الكافى ، وقال : تنغص على الولد طعامه ؟ أهذا وقت السؤال ؟ وتناقشا فاغتنمت انصرافهما إلى المناقشة ، وانصرفت هارباً ، خرجت وعقلى فى الكسكسى الذى حرمنى منه « قوم سلمى » الذين ما حلا لهم الظعن إلا وأنا

آكل ، وأنا ما لى وما لسلمى وقوم سلمى قطنوا أم ظعنوا ؟ .

***

كان شديد التمسك بما يراه ، ما عنده فى كل مسأله إلا قول واحد ، من قال به فهو مقبول ، ومن خالفه فهو مردود ، وكان يمنع القيام لاستقبال القادم ، ولقد كان يوما مع والدى وجماعة من العلماء والفضلاء ، فدخل مراقب الأوقاف العام ، وكان إليه أيام الانتداب الفرنسى الإشراف على أوقاف سوريا ولبنان ، فكان أكبر من وزير ، فقاموا إليه يستقبلونه ، وبقى هو قاعداً .

وقدم دمشق مرة قاضى بغداد : الشيخ الشواف وهو صديقى ، فأخذته إلى علماء الشام ، وكان معى الشيخ عبد الغنى الدقر ، فجعلنا ننتقل من حى إلى حى ، نزور فى كل حى علماءه فيحسنون استقباله وإيناسه حتى وصلنا إلى العقيبة ، فزرنا شيخنا الشيخ أبا الخير الميدانى ، والشيخ محمود ياسين ، ثم أخذته إلى الشيخ الكافى .

فقلت له أعرفه به : فضيلة قاضى بغداد . قال : لا ، السلام أولا ثم التعريف . فلما انقضى السلام ، وبدأ الكلام ، وكان حديث من أحاديث العلم ، أشار الشيخ الكافى خلال كلامه إلى حديث رواه ابن عمر ، فقال القاضى الشواف : نعم . فسأله الكافى : تعرفه ؟ فسكت فأعاد عليه السؤال ، قال : لا . قال : فلماذا قلت نعم ، توهم أنك تعرفه ؟ وكنا نمضى فى كل زيارة ربع ساعة ، فبقينا عنده ساعة وربع الساعة فى حديث علمى نافع . فلما خرجنا خفت أن يكون القاضى قد استاء فأحببت أن أخفف عنه ، فقال : ما سرنى لقاء أحد ممن زرته ما سرنى لقاء هذا الشيخ .

كان يؤلف الكتب ويطبعها على نفقته ويوزعها ، ألف أولاً « الأجوبة الكافية على الأسئلة الشامية » . على طريقة العلماء المتأخرين ، كلما نزل

أحدهم بلداً ، ألف مثل هذا الكتاب ، ثم ألف « المسائل الكافية » . وكان ينكر دوران الأرض ويكفر من يقول به ، حتى كفر الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، وما صدر هنا من بضع سنين من كتابات حول هذا الموضوع ، كثير منه مأخوذ مما كتب الشيخ الكافى ، منقول عنه حرفياً تقريباً .

وكان ينكر على أرباب الطرق الصوفية ، حتى أنه كان فى تونس فى يوم يجتمع فيه الصوفية بمناسبة لهم ، ينشدون الأناشيد فى مدح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بألحان أهل الغناء الممطوطة ، التى تحرف الكلم عن مواضعه، وتقطعه وتصله ، وقد يخرج الكلام بهذا اللحن عن معناه ، فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه ، ومعهم عصى الخيزران ، ففرق جمعهم، وأفسد نظام سيرهم ، فأخذته الشرطة إلى والى البلد ، فلما دخل عليه قال له ، بمثل النغمة التى كانوا ينشدون بها : السلام على ، على ، عليكم، عليكم ، كم ، كم ، ما أح ، ما أح ، ما أحلى عيونك ، وما أبهى جبينك يا سيد الملاح ، لاح.

فغضب الوالى فقال : ما هذا هل أنت مجنون ؟ أهكذا يخاطب الولاة ؟ قال : هل الوالى أعظم من رسول الله ؟ قال الوالى : معاذ الله ، وأين أنا من رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : إذا غضبت لأنى سلمت عليك بهذا النغم ، وتغزلت فيك هذا الغزل ، فكيف تدعهم يوجهون هذا إلى مقام سيد البشر وخاتم الأنبياء ـ ﷺ ـ ؟ قال الوالى : الحق معك .

وهذه الأناشيد التى يسمونها « النبوية » ، وكنا نتعلمها ونحن صغار ، وننشدها فى المدرسة فى المو[illegible]د ، وفى الحفلات ، فيها هذا كله ، وفيها ما هو أكبر من هذا كله ، وهو أنها تشتمل على بعض الشرك الذى لا شك فيه ، وعلى دعاء الرسول بما لا يدعى بمثله إلا الله .

ولما صار الأستاذ أحمد عسة أيام الشيشكلى ، على ما أذكر ، المدير العام للإذاعة فى سوريا ، وكان يوماً تلميذى ، كلمته فى هذه الأناشيد وسألته منعها ، فمنعت ، وقام علىَّ المشايخ حتى إخوانى وأساتذتى ، محتجين بأن الرسول ـ ﷺ ـ سمع وصف النساء من كعب بن زهير .

وهذا خبر مستفيض رواه الأدباء فإن صح عند المحدثين فلا حجة فيه ، لأنى لا أتكلم فى حكم سماع الغزل ، بل فى مدح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما يشبه الغزل ، جلّ قدره عن ذلك وارتفع .

وكنت أعجب من الشيخ الكافى ، كيف يكون تارة سلفياً يحارب البدع والمحدثات ، ويجابه العلماء والعوام ، ومجابهة العوام أصعب من مجابهة الحكام ، ثم يعظم كتاب « الإبريز » فى مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ ، وينقل منه كأنه يعتمد عليه ، وفى هذا الكتاب ما هو كفر صريح ، ما له تأويل ، ولا تعليل ، ولا يعتمد على دليل ، ثم تبين لى أنه مقلد حتى فى هذا الإنكار ، فهو يتبع فيه ابن الحاج فى « المدخل » يمشى وراءه ويتبع خطاه ، فما أنكره ابن الحاج أنكره .

وكان الشيخ يستمع الغناء من غير آلات ، وكان من المشايخ فى الشام قوم كلما سمعوا دوراً قديماً للحامولى أو عثمان وأمثالهما ، أو أغنية لصالح عبد الحى وأضرابه ، أو نغمة لسيد درويش ، أخذوا لحنها فوضعوه على كلام غالبه سخيف ، ينظمه جماعة اختصوا به ، منهم الشيخ عبد الرحمن القصار ، وهو شاعر والشيخ أبو السعود مراد ، وهو نظام لا شاعر يمدحون به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مدحاً لا يليق بمقامه ، وكان فى الشام رجل موسيقى ما له نظير فى حفظ الألحان القديمة ، اسمه على الكردى أبو عزت ، كان منقطعاً إلى الغناء فى المجامع والحفلات ، وكان له « تخت » ، فلما قامت نهضة المشايخ

على يد الشيخ على الدقر والشيخ هاشم الخطيب ، اتخذ العمامة وترك الموسيقى. وقد عاش حتى جاوز الثمانين ، وحنجرته لا تزال طرية ، وصوته لا يزال عذباً . ومثله فى ذلك توفيق المنجد الذى تسمعونه من إذاعة الشام فى رمضان . وكان الشيخ شريف الخطيب ، ابن خالتى ، مدير المدرسة الأمينية ، يجمع بعض الأصدقاء والمشايخ فى داره ويأتى أبو عزت ، والشيخ صبحى الإمام ، الذى كان رئيس ديوان النيابة العامة فى وزارة العدل ، فاستقال لما قامت نهضة المشايخ ، وانقطع لطلب العلم ، واتخذ العمامة . وكانت له لحية مثل لحية أبى عجاج الخطيب الذى مرّ ذكره ، وكانتا أكبر لحيتين فى الشام ، أما صوته فمثل صوت وديع الصافى ، بل إن صوته كان أقوى قوة ، وأوسع مدى وأحلى رنة فى الأذن .

وكانوا يغنون مرة دوراً قديماً لا أعرف مطلعه فيه :

من بعادك داب فؤادى إمتى أنا أفرح بالوصال

وجعلوا على عادتهم يرددون الكلام ، قل لى امتى ـ امتى امتى ـ امتى نفرح امتى ـ يا سيدى امتى ـ يا روحى امتى ـ امتى نفرح امتى . ثم يقول : آه ويمدها ويرجعها ، ويعاونه الحاضرون ، حتى تستمر هذه الآه ثلاث دقائق ، وتميل على الأنغام والمقامات ، ثم تعود إلى المقام الذى بدأت منه .

فلما أطالوا ملّ الشيخ ، وقال : روح اسأله امتى ؟ ما تقعد هنا تقول امتى امتى .

وضحك أهل المجلس وعدّوها نكتة طريفة .

وكان الشيخ يتعصب لما يرى أنه الحق ولو كانت المسألة خلافية ، لا يجوز لمن أخذ برأى فيها أن ينكر على أهل الرأى الآخر ، إن كان المختلفون جميعاً من

أهل السنة والجماعة ، ولم يكن الخلاف على أمر يتصل بالعقيدة ، أو أمر ورد فيه النص القطعي ، كان الكافي صورة للشيخ المتعبد، الذاكر الشاكر ، قائم الليل . كان صدّاعاً بالحق ، ولكنه يعيش بعقل القرون الماضية، وهو بين أهل القرن الحاضر . الحق عنده ما تعلّمه وحفظه . لا يقبل غيره ، ولا يرتضى سواه .

فقيه مالكي متعصب لمذهبه ، يرفض ما لا يعرف ، لذلك أنكر حركة الأرض ، وكفر من قال بأنها تدور .

هزّ دمشق هزتين : الأولى حين أنكر القيام فى الموالد ، وأنكر أشياء ينسبونها إلى الدين . وما لها أصل فى الدين ، فقام عليه المشايخ فى الشام ، لاسيما المتصوفة منهم ، فلم يبال بهم وثبت على رأيه . والثانية : وكانت هزة أقوى وأشد ، حين حكم بالكفر على كل من يقرأ بهذه المصاحف التى كتبت على طريقة الإملاء العصرى ، ويرى أنه لا يجوز فى المصاحف إلا الكتابة الأولى ، كما قال الإمام مالك ، ولكنه جاوز رأى القائلين بالتمسك بالرسم العثمانى ، إلى ما لم يخطر لهم على بال ، وما لم يقل به أحد ، وهو أن مصحف عثمان ليس فيه نقط ولا شكل ، فعلينا أن نلتزم به فى مصاحفنا ، بلا نقط ولا شكل ، وألف رسالة فى ذلك ، كان فيها على عادته صريحاً عنيفاً ، أنكر هذه الزيادات التى زيدت على مصحف عثمان ، وهى النقط على الباء والتاء والثاء ، والجيم والخاء إلخ . . . والشكل أى الفتحة والكسرة والضمة إلخ . . . وشدد النكير على من يقرأ فى هذه المصاحف ، أى على المسلمين جميعاً .

فانفض عنه إخوانه وأصدقائه . وجاء الشيخ محمد الأهدلى، من زملائى فى القضاء الذين كانوا أقدم منى فيه وأفضل ،وهو عالم جرىء فاضل يمانى الأصل ، فصور صورة دعوى من امرأة تطلب الطلاق من زوجها ، لأنه ارتد عن الإسلام بقراءته فى هذه المصاحف ، ولا تحل له بعد ذلك .

وأصدر أعجب قرار صدر عن المحاكم وأطوله وأحفله بالأدلة العلمية والبحوث النافعة ، والنقول النادرة ، وكشف فيه خفايا مقاصد عامة المستعمرين ، نقلا عن دهاقينهم ، وردّ فيه على طه حسين فى كتاب « الشعر الجاهلى » ، وعلى الرصافى فيما نقله عنه أمين الريحانى ، واشتمل القرار على نص فتاوى المفتين لاسيما فتوى مفتى الحنابلة فى دمشق ، الشيخ جميل الشطى ، المؤرخة فى شوال سنة 1360 هـ التى يقول فيها : « إن ادّعاء الإجماع على وجوب موافقة رسم القرآن ، لرسم مصحف عثمان ، ادعاء لا يقوم عليه برهان ، كما سيأتى البيان ، ومن ادعى ذلك فعليه هو أن يأتى بالدليل » ، واشتمل قرار القاضى على ما يؤيد ذلك من ملاّ على القارى فى شرحه للشاطبية ، وعن زكريا الأنصارى فى فتاواه ، وعن العز بن عبد السلام الذى قال كما نقل عنه الزركشى فى البرهان : « لا يجوز كتابة المصاحف الآن على الرسم الأول ، لئلا يوقع الجهال فى الخطأ » واشتمل القرار على رد شيخ قرّاء الشام الشيخ محمد سليم الحلوانى ، الذى كان أقرب الناس إلى الشيخ الكافى بعد أبى وأعمامى ، وكان يرافقه ولا يفارقه . فلما أصدر هذه الرسالة قاطعه وابتعد عنه ، وعندى صورة من هذا القرار ، لكنها ناقصة مبتورة . فلعل عند أهله صورة كاملة منها ، ولعل بعض الناشرين ينشرها فى كتا ب بإذن منهم . وللشيخ الأهدلى بنت طبيبة فاضلة فى دمشق ، وبنت هنا زوجة لطبيب فاضل ، فيمكن أن يطلب نص القرار منهما .

❊ ❊ ❊

وقع الشيخ وقعة انكسر فيها ظهره ، وقرر الأطباء أنه لا شفاء له ، وأن عليه أن يبقى مثبتاً بالكرسى ، ما بقى له من أيام .

وقامت الحرب العامة الثانية ، وهو على هذه الحال ، وانقطع ما بيننا وبين تونس فلم يعد يرد عليه من المال ما كان يرد ، ففكرت أنا وابن عمى الدكتور سامى ـ رحمه الله ـ فى شىء نقدمه إليه ، فلم نقدر على أكثر من أربع ليرات

ذهبية انكليزية ، وذهبنا إليه ولكن حرنا كيف نقدمها له . فجعلت أمهد بكلام طويل للوصول إلى ما جئت من أجله ، فأحس وقال وهو يضحك : قُل رأساً ماذا تريد ؟ قلت : شيء قليل من أولادك ، أنا وسامي قال : هات ، وأخذها من غير تردد ، فعجبنا . وكنت يومئذ قاضياً في دوماً وكان فيها بعض المغاربة ، وكنا ندعو مسلمي الشمال الأفريقي جميعاً مغاربة ، لا نفرق بين طرابلسي (ليبي) وتونسي وجزائري ومراكشي (مغربي) .

فجاءني بعد أيام أحد هؤلاء المغاربة ، وكان رجلاً صالحاً كبير السن ، فجعل يثني على الشيخ الكافي ويدعو له ويقول : لقد عرف حاجتي فأعطاني أربع ليرات انكليزية .

وأختم بحادثة طريفة ، حدثني بها السيد مكي الكتاني ، وهو ابن الكتاني الكبير السيد محمد بن جعفر ، صاحب الرسالة المستطرفة التي لا أعرف في بابها مثلها . قال : قدم الشام الشيخ صالح التونسي فدعاه الشيخ الكافي هو والشيخ زين العابدين (كلاهما شيخي أنا وأستاذي) إلى الغداء وحدد لهما ساعة الطعام .

فجاءا قبل الموعد بأكثر من ساعتين . قال : أنا ما دعوتكما الآن ، دعوتكما الساعة كذا : « وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » فاذهبوا ، وارجعوا في الموعد . فغضبا ولم يرجعا .

قال السيد مكي ـ رحمه الله ورحمهما ـ : وجئته فخبرني ، فقلت له : إنك تحب سماع الحق ، ولو كان ممن هو تلميذك ، ومن هو مثل ولدك . قال : نعم . قلت : الحق أنك أخطأت . قال : كيف ؟ قلت : ضيفان جاءاك ، والشيخ صالح قادم من سفر ، أفما كانا يستحقان منك خيراً مما رأيا ؟ قال : وما العمل ؟ قلت : تُعدّ لهما دعوة جديدة ، وتدعوهما . قال : فإن لم يحضرا ؟ قلت : (أي قال السيد مكي) أنا أحضرهما . قال : وذهبت إليهما في بيت

الشيخ زين قالا : أرأيت ما صنع الشيخ ؟ قلت : وما صنع ؟ فخبراني . قلت : أفلا عذرتماه ؟ رجل مقعد مربوط بكرسيه يحتاج أن يبول أو أن يتوضأ وأنتما قاعدان أمامه ، تقيدان حريته وتمنعان حركته ؟ إن الأولى بكما ، وأنا تلميذكما ومثل ولدكما ، أن تحمدا الله على الصحة ، وأن تعذراه فى المرض ، قالا : وما العمل ، قلت : أنا أجعله يجدد الدعوة لكما ، فهل تستجيبان إن دعاكما ؟ قالا : نعم .

وكذلك يصنع أهل العلم ، وأصحاب الدين ، يختلفون ولكن سرعان ما يرجعون فيتفقون ، لا يحمل أحدهم غلاً للآخر ، ولا يدخل قلبه الحقد عليه أو البغض له .

* * *

الشيخ الكافى صورة للعالم الذى يعطى من ذاكرته أكثر مما يقدم من فكره ، مستقيم فى ذاته لكن لا يخالط المجتمع حتى يقوم غيره . عنده الكثير ولكن ليس عنده الأداة التى ينقل بها ما عنده إلى الناس ، فليس بذى قلم ، ولا أعطى لسان محاضر أو خطيب .

إنه لا يصلح داعياً إلى الله ، ولا موئلاً للشباب يدلهم على الله . ليس الفارس الذى يحمل العلَم ، ولا الجندى الذى يخوض غمرة القتال ، ولا الخطيب الذى يبعث الهمم ويثير العزائم ، ولكنه مثل أمين المستودع الذى تودع فيه الأموال ، ويحفظ فيه العتاد . فهو أمين عليه يؤديه كاملاً عندما يحتاج إليه .

وأمين المستودع يؤجر ويشكر ، ولكن لا يكون كالقائد الذى يرسم الخطط ، ويقود الجيش ، ويحمى البلاد .

إنه طراز من العلماء نحتاج إليه لكن لا نعول عليه .

* * *

الفصل السادس

- الشيخ عبد المحسن الأسطواني
- حسن الحكيم القوي الأمين
- مع بعض مشايخي
- الشيخ أمجد الزهاوي
- أنو العطار شاعر الحب والألم والطبيعة

الشيخ عبدُ المحسن الأسطوانى

لما كتبت عن الشيخ الكافى وقلت : إنه دخل المائة الثانية من عمره ، ظن ناس أنى أبالغ ، واستكثروا أن يبلغ عمر امرئ فى هذه الأيام مائة عام ، مع أنى أعرف من المعمرين كثيرين عاشرتهم وخالطتهم ، أو أدركتهم وسمعت عنهم ، أو دنوت منهم وإن لمْ أداخلهم .

منهم شيخ علماء الشام وكبير قضاتها : الشيخ عبد المحسن الأسطوانى الذى عاش مائة وثمانية عشر عاماً .

لا أقولها مجازفة كما يجاز ف العامة من المسنين ، حين يسألون عن أعمارهم ، فيزعم أحدهم أنه عاش مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ، وما له على دعواه دليل ، وإن لم يكن إلى تكذيبه من سبيل . بل أقولها عن تحقيق ، فمما يثبت ما قلت أن الجامع الأموى فى دمشق قد احترق فى مطلع القرن الرابع عشر سنة 1311 ، وأعاد الشاميون عمارته ، هذه العمارة التى تبهر الزائر ، وتدهش السائح . كان الشيخ عبد المحسن الأسطوانى مساعد رئيس اللجنة العليا التى أشرفت على البناء . وكان نائب دمشق فى مجلس النواب العثمانى قبل الحرب الأولى بزمان طويل .

***

لو رجعتم بمناسبة الحديث عن احتراق الجامع ، إلى كتابى « الجامع الأموى» الذى طبعته وزارة الأوقاف فى دمشق أيام الوحدة ، وهى تبيعه للسياح [1] ، لوجدتم فى الصفحة الثالثة والثمانين منه هذا الكلام :

(1) وتقبض هى الثمن ! ! .

أجدادنا الأولون كانوا أهل حزم وعزم ، وكانوا أصحاب فكر وبيان فكتبوا . . . تاريخهم كله ، وسجلوا مفاخرهم ومعايبهم ، وأخبار جدهم وهزلهم ، فنحن نعرف عن القرون الأولى التى مر عليها أكثر من ألف سنة كل شيء ، كأننا نعيش فيها ، ونجهل من أخبار القرون الأخيرة كل شيء ، لا سيما القرن الماضى .

« وهذا شيء عجيب ولكنه الواقع » .

« ولقد أردت أن أكتب قصة الأموى ، فلم أجدها فى تاريخ من التواريخ فاعتمدت فى حديثها على أستاذنا الأكبر الشيخ المعمر الجليل عبد المحسن أفندى الأسطوانى ، وهو ـ حفظه الله ـ ، أعجوبة العجائب ، جاوز المائة (كتبت هذه المقالة سنة 1379) ولا يزال فى حدة ذهنه ، وقوة ذاكرته ، وكثرة علمه ، وسرعة بادرته ، وحضور نكتته ، كما كان فى شبابه .

« وبعد فهذه هى القصة أذكرها هنا لأن كثيراً من كهول أهل الشام فضلاً عن شبانهم نسوها ، ولا يعرفون قصة حريق الأموى وبنائه :

« كانت ضحوة يوم السبت رابع ربيع الثانى سنة 1311 هـ ، وكانت دمشق آمنة مطمئنة ، والناس منصرفون إلى أعمالهم فى الأسواق المطيفة بالأموى ، والنساء فى بيوتهن الحافة بالجامع ، فما راعهم إلا صريخ يصرخ كأنه النذير العريان : أن لقد احترق الأموى ، فترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون ، وصعد النساء على السطوح ، وتراكض الناس من كل جهة ، وإذا الدخان ينبثق من سقف الجامع ، ولم يكن فى دمشق فى تلك الأيام مصلحة إطفاء (وقد أنشئت على إثر هذا الحادث) ، وحار الناس ماذا يصنعون فاستبقوا إلى سجاد المسجد ومصاحفه يخرجون ما يصلون إليه منها ، وعمد

بعضهم إلى الماء يصبّونه ، وإلى المعاول علّهم يحصرون النار ، ولكن النار كانت أسرع منهم ، إذ كان خشب السقف قديماً جافاً ، وعليه من الأصبغة والأدهان طبقات ، فما شم رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة ، كأنما قد صب عليه البنزين . وكانت الرياح فى ذلك اليوم غربية شديدة ، فما مرت نصف ساعة فقط حتى صار السقف كله شعلة واحدة ، وجعلت قطع النيران تتساقط من كل مكان ، فالتهب الجامع كله ، ولم يعد أحد يستطيع أن يقترب منه ، فوقفوا ينظرون ، وكأن النار التى تأكل مسجدهم تأكل قلوبهم ، ولكن العجز أمسكهم وقيدهم ، وكانت عمد (أى أعمدة) المسجد قديمة أكثرها ، ومربوطة بأطواق الحديد ، فتشققت من النار ، ثم هوى البناء كله ، وزلزلت الأرض ، وكانت ساعة من ساعات الهول ، وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية إلى الأسواق المحيطة فى المسجد ، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل . لم يبق من الأموى إلا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن ، عدا الرواق الممتد بين باب النوفرة إلى مشهد الحسين . أما سبب هذه الكارثة فهو أن أحد العمال الذين يشتغلون على سطح المسجد ، راقه المنظر من حوله ، فاشتهى أن يدخن نارجيلة (شيشة) فأحرقت هذه الشيشة الجامع كله » .

ولست أريد الآن أن أذكر حريق الأموى ولكن أريد أن أقول : إن هذا الشيخ (الشيخ عبد المحسن الأسطوانى) كان التاريخ الحى الذى يمشى لدمشق . كان يعرف كل بقعة منها ، ويروى تاريخها .

سألته مرة ، فقلت له : إن سور دمشق لا يزال باقياً ، والأبواب السبعة معروفة قائمة : باب الفرج (باب المناخلية) ، وباب الفراديس (باب العمارة)، وباب السلامة (باب السلام) ، وباب توما ، والباب الشرقى ، والباب الصغير (باب الشاغور) ، وباب الجابية . **فأين** الباب الثامن الذى كان

يسمي باب النصر ؟ قال : وأين تقدر مكانه ؟ قلت : في رأس سوق الحميدية، فضحك وقال : أصبت كان هناك وأنا أعرفه .

قلت : لماذا نجد للقلعة خندقاً من الجهة الشرقية (في العصرونية)[1] ، وليس لها من الغرب خندق ؟ قال : وماذا يوجد في موضع الخندق ؟ قلت : سوق الخجا . قال : هو ذاك ، لقد استأذن والد محمد أفندي الخجا الحكومة، فاشترى منها الخندق ، وردمه وبنى هذا السوق[2] .

وأنا أعرف أخوين من آل الخجا ، بنى أحدهما مسبحاً ، والآخر مسجداً ، ومنهم رجل هاجر إلى المدينة اسمه كامل أفندي الخجا ، رأيته في زيارتي الأولى للمدينة المنورة 1353 هـ .

ومن المصادفات الغريبة أن أول شارع فتح في دمشق : وهو شارع جمال باشا ، لما انقضت الحرب وأرادوا أن يمحوا اسم جمال باشا فلا يذكر ، سموه شارع النصر ، يريدون النصر على الأتراك ، فجاءت مصادفة ، كأنها عن تعمد، فأصابوا الحقيقة من حيث لا يقصدون .

***

أمضى الشيخ هذا العمر الطويل في مناصب الإفتاء والقضاء ، وكان معدوداً من صدور العلماء ، يرجعون إليه ، ويعتمدون في الفتوى عليه ، لما كان العلماء في دمشق متوافرين وكانوا كثيرين . ولقد خطر على بالي وأنا أكتب هذا سؤال هو : كيف نحكم على الرجل بأنه عالم ؟ ما هو مقياس العلم؟

---

(1) نسبة للقاضي ابن أبي عصرون من قضاة الدولة الأيوبية .

(2) وقد سمعت الآن أن سوق الخجا قد أزيل كما أزيل ما كان يحجب الأموي من غربيّه وجنوبيّه .

لما وضعنا نظام قسم الدراسات العليا فى كلية الشريعة فى مكة أصرّ نفر منا على اعتبار الشهادة هى المقياس الذى لا يعتبر غيره ، فلا يكون مدرساً فيها إلا من هو دكتور ، وعارضت أنا ، وقلت لمعالى الوزير العالم ابن العلماء ، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ : لو بعث الله جدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب هل كنت تستطيع أن تجعله مدرساً ؟ بل لو جاء أحمد بن حنبل وهو لا يحمل شهادة ، هل كنت تملك أن تجعله معلما فى مدرسة متوسطة ؟ إن الله الذى أبلغ ابن عبد الوهاب وابن حنبل ما بلغاه بلا شهادة ، قادر على أن يبلغ ذلك غيرهما ، وأول من حمل شهادة الدكتوراه فى الدنيا من منحه إياها ؟ إن قلنا: إنه دكتور دخلنا فى باب المحال ، أى فى الدور والتسلسل ، فلم يبق إلاّ أن نقر بالواقع وهو أن أول من منح الشهادة كان رجلا لا يملك شهادة . فالشهادة شرط لا ألغيه ، ولكن لا أجعل المعول كله عليه .

وإن جاوزنا حد الوظائف الرسمية ، فمن هو العالم ؟ كيف نميزه ؟ إن كانت الشهادة ليست الشرط اللازم الكافى ، وكانت الشهادة يمكن أن تكون شهادة زور ، تؤخذ بالحيلة ، أو تشترى بالمال فهل نميزه بالتأليف ؟ هذا الشيخ عبد المحسن الذى أتكلم عنه شيخ علماء الشام ، بل هذا المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى الذى يقر له علماء الشام جميعاً بالرياسة ، ما تركا تأليفاً ، وأمثالهما كثير . كثير من العلماء ما خلفوا أثراً ، ولا ألفوا كتاباً بل ما كتبوا مقالة فهل ننفى أنهم كانوا علماء ؟ .

ما هو المقياس الصحيح للعالم ؟ المقياس الذى لا يتخلف ولا يخطئ ؟ أنا أعلم من جواب هذا السؤال نصف العلم ، فأقول : لا أدرى .

ولكن الذى أدريه ، أن علماء القرن الماضى والذى قبله كان علمهم غالباً

علم رواية ، حتى أنك عندما تنظر فى ترجمة أحدهم ، تجد أنه قرأ كتاب كذا وكتاب كذا فى النحو ، وفهمها وحفظها ، ولكن ما حصلت له الملكة التى تجعله يقول فلا يلحن ويقرأ فلا يخطى . وأنه قرأ الكتاب الفلانى والكتاب العلانى فى الفقه وفى الأصول ، ولكن ما استنبط ولا حاول أن يستنبط من الأدلة مثل الأحكام التى حفظها ، وأن يبين حكم الله فيما جدّ للناس من معاملات ، كما بيّن الأولون ما كان منها أيامهم . أى أنهم يحيطون بما وجدوا علماً ويقتلونه فهمًا ، ولكن لا يزيدون عليه شيئاً .

وعلماء هذه الأيام يلمّون بالعلم أكثر مما يغوصون فى الكتب ، يفكرون ويكتبون ويؤلفون لكن اطلاعهم على ما كتب الأولون أقل مما ينبغى لهم .

عالم القرن الماضى علمه أكبر من عقله ، وعالم اليوم عقله أكبر من علمه .

ولست أعمم الأحكام ولكن أصف ما عرفت ، والذى عرفته قليل من كثير .

الشيخ عبد المحسن الأسطوانى سَنين الشيخ بدر الدين الحسنى (أى أنه فى مثل سنه) ، بل لقد رأيتهما مرة والشيخ عبد المحسن يقول للشيخ بدر الدين أنا من سنك . والشيخ بدر الدين ، على عادته فى قلة الكلام ، وفى قطع الجملة وإتمامها بإشارة من يده قال : لا ، يابه ـ وكانت تلك كلمته ـ أنت وأشار بيده إشارة تدل على أنه أكبر .

الشيخ بدر الدين كان رجل جدٍّ ، قليل الكلام ، لا يكاد ينطق إلا جواباً لمسألة ، أو شرحا لمعضلة ، وإن كانَ فى درسه يتدفق تدفق النبع الفياض .

أما الشيخ عبد المحسن فكان رجلاً مع علو منزلته ، وكبر قدره مزّاحاً يحب النكتة ، ولا يمسكها ، ولو كان مجيئها من تحت خط الاستواء البشرى (أى من

تحت معقد الزنار) وأحفظ عنه في ذلك الكثير ، ولكن لا سبيل إلى ذكره في جريدة سيارة تتلقفها أيدى الرجال والنساء والكبار والصغار .

وما ذلك بقادح فيه ، فإن من سلف هذه الأمة من علمائها الكبار ، من كان يمزح مثل هذا المزاح .

***

لما تركت التعليم وانتظمت فى سلك القضاء سنة 1941 وانتقلت بعد سنوات قاضياً فى محكمة دمشق الكبرى ، كان الشيخ عبد المحسن كبير القضاة ، وكان رئيس محكمة التمييز الشرعية ، وكنا نرجع إليه إذا اعترضتنا معضلة .

كنا جماعة من القضاة نتناقش فى مسألة تتعلق بالنفقة ، وكنت أعرف أنها فى حاشية ابن عابدين فرجعت إلى الحاشية فلم أجدها . وأصررت على أنها فيها ، وأنكر زملائى أن تكون المسألة فى الحاشية . فذهبنا إلى الشيخ عبدالمحسن ، وكانت المحكمة الشرعية ومحكمة التمييز فى دار كبيرة من الدور الدمشقية الفخمة القديمة ، وذلك قبل بناء القصر العدلى الذى جمع المحاكم كلها ، فسمع منى ومنهم ، وقال : الحق معك ، ولكن لماذا لم تجدها وهذه الحاشية أمامك ؟ فسكتُّ . قال : لأنها لم تذكر فى باب النفقة ، ولكنها جاءت عرضاً فى باب أدب القاضى .

كان اطلاع الشيخ عبد المحسن على كتب المذهب الحنفى : أصوله وفروعه ، اطلاعاً عجيباً وكان فى الجملة جوّال الفكر ، متحرر الذهن ، ولكن لما صدر قانون البينات وأنقذنا من القيود الشكلية التى لا داعى إليها ، ولا ضرورة لها فى سماع الشهادات ، وجعل قبول الشهادة أو ردها للقاضى ، على أن يعلل للقبول أو للرد ، عارض الشيخ هذا القانون ومنع تطبيقه فى

المحاكم الشرعية وأعادنا إلى ما فى « المجلة » وهو أن القاضى آلة مسجلة ، عمله أن يسمع شهادة الشاهد ولا يناقشه ، فإن كانت الشهادة مصرحاً فيها بكلمة « أشهد » وكانت جامعة لشروطها الشكلية قبلها ، وإن نقص شرطٌ منها ردها ، وإن كان الصدق يظهر من كل كلمة فيها ، وإن نطق الشاهد بكلمة «أشهد » وأدى الشهادة على هيئتها قبلت ، ولو كانت كاذبة رائحة كذبها تملأ جو المحكمة ، والكذب يقطر من كل حرف فيها .

ثم تكون « التزكية » ، والأصل فى التزكية أن تكون من إنسان معروف بالصدق والأمانة ، له منزلة فى النفوس ، لا يختلف اثنان فى عدالته . ولقد كان من سنن القضاة الأولين أن القاضى الذى ولى قضاء بلد يبحث ويحقق ، ثم يسمى من يرتضى أمانتهم ودينهم ، وهؤلاء هم العدول ، فمن كان يريد تثبيت عقد أشهدهم عليه ، فكان عملهم قريباً من عمل كتّاب العدل فى أيامنا .

وأقول بالمناسبة إن الذى وضع كلمة « كاتب العدل » ترجمة لكلمة «نوتير» الفرنسية هو الأستاذ مصباح محرم ، من قدماء القضاة أيام العثمانيين : الذى كان رئيس محكمة التمييز فى دمشق على عهد الشريف فيصل بن الحسين . وكان أبى رئيس ديوان المحكمة ، وذلك بعد خروج الترك من دمشق ، وقد أخذها من قوله تعالى : ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة : 282] .

هذا أصل التزكية ولكنها انتهت إلى أن صارت لعبة أو فضلاً من مسرحية . يسمع القاضى الشهادة ، فيكلف المدعى أن يأتى بمزكية ، فيخرج فيجلب اثنين ممن يجدهما أمامه فيزكيان الشاهدين ، وتنتهى الرواية ، ويصدر الحكم ، ويسدل الستار ، ولو اقتصر الأمر على هذا لهان ، ولكن كان عندنا شهود يدعوهم الناس شهود المصطبة يقعدون فى المحكمة ، وهم على درجات : شاهد من الدرجة الثالثة ، يحفظ ما تلقيه عليه ، ثم يدلى به إلى القاضى ، وهذا أرخص الشهود أجراً . وشاهد من الدرجة الثانية يكون على شىء من

العلم والفهم ، وشاهد من الدرجة الأولى أو من درجة ممتاز ، وأجره أيضاً ممتاز . يكون عارفاً بشروط الشهادة ، فقيها عالماً ، ولكنه كعلم إبليس ، يتخذه وسيلة للدنيا ، فكلما فتح عليه الخصم باب اعتــراض سده بما أصاب من العلم .

ولقد كنت وأنا صغير أذهب مع أبى لزيارة الشيخ عبد المحسن فأقبل يده وأيدى أمثاله من العلماء ، كما كان يصنع أمثالنا من الصغار ، مع أمثاله من الشيوخ الكبار . واستمر ذلك حتى صرت قاضياً عنده ، فكنت أقبل يده كلما دخلت عليه ، فيظن من يرانى أنى أفعل ذلك لأنه رئيسى ، فأفهمتهم أنها عادة تعودناها من الصغر .

ولكنى مع هذا التقدير له ، وهذا الإجلال لعلمه عارضته لما منع تطبيق قانون البيّنات ، وخطبت وكتبت أرد عليه ، وأذكر أن البينة لا تنحصر فى الشاهدين ، بل إن الشاهد الواحد مع يمين المدعى مما ثبت به الأثر ، وأن الأخذ بالقرائن القضائية أمر معتبر ، وقد وردت فى ذلك السّنة ، وأن الإسلام لا يحجر على العقول ، ولا يجمّد الأفكار ، وكان اعتمادى فيما قلت على كتاب « الطرق الحكمية » لابن القيم أولاً ، وعلى كتب أخرى كثيرة .

فتغيّر الشيخ علىّ قليلاً ولكنى ما باليت ، لأن علىّ أن أكون مهذباً مؤدباً وأن أوقر الكبير ، ولكن إذا جاء الدين فلا مجاملة لأحد . ومضيت فى معارضته ، أخطب فى النوادى وأكتب فى الصحف ، وأثير من يقدر على الإفصاح ، وكنت فى شبابى إلى العنف أقرب منى إلى الرفق ، وإلى الشدة أدنى منى إلى اللين ، فتبدلت الآن مع الشيب والصلع وصرت أرفق وألين ، وإن كان الطبع لا يتبدل بالتطبع :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وانتهى الأمر بأن انتصرنا ، أعنى انتصر الحق الذى نؤيده ، وطبق قانون البينات فى المحاكم الشرعية ، وبقى فى نفس شيخى عليّ شىء .

بقى على رأس عمله إلى أن بلغ السنة الثالثة بعد المائة ، ولا تعجبوا من ذلك فإن قانون التقاعد فى سوريا (قانون المعاشات) لا يطبق على علماء الدين من الأئمة والمفتين ، بل يبقى الواحد منهم فى عمله حتى يخرجه منه ملك الموت .

لما ترك الوظيفة صار يمضى أكثر وقته فى بيته بل فى فراشه . والعجيب أن جسمه قد صغر وتضاءل وانضم بعضه إلى بعض ، حتى صار كجسم ابن عشر سنين . والإنسان ينمو ثم ينمو حتى يبلغ أشده ثم يأخذ بالنقص فتقصر قامته ، وتضمر عضلاته ، ولقد نقص طولى أنا الآن عما عليه كان .

حتى صار فى آخر أمره يرقد على سرير ، وأمامه سرير عليه زوجته التى عاش معها أكثر من سبعين سنة ، فإذا دخل عليه بعض الضيوف تغطت بلحافها .

وجئنا مرة نزوره مع الشيخ العانى ـ رحمه الله ـ ، والأستاذ يوسف الحسنى ، وجماعة . وأظن أنه كان معنا الأستاذ سعيد الأفغانى ، فوجدنا السرير الثانى فارغاً ، فجئنا نقعد عليه ، فصرخ بنا بلهجة تمثيلية مضحكة : «المرة ، المرة » (المرة بمعنى المرأة وردت فى الشعر القديم) فنظرنا فإذا هى لما رأتنا دخلت تحت اللحاف فصارت من ضآلة حجمها كأنها كومة ثياب .

واختلفنا مرة فى عدة المرأة التى يفرق القاضى بينها وبين زوجها بطلبها ، هل تبدأ عدتها من تاريخ حكمه بالتفريق ، أم من تاريخ تصديق محكمة التمييز؟ فقلت أنا : من تاريخ الحكم ، لأن محكمة التمييز لا تنشئ طلاقًا

جديداً ، ولكن تثبت الطلاق الأول . وقلت : نحتكم إلى الشيخ عبدالمحسن . فقال قائل [1] منا : إنه كبر ، يشير إلى أنه ربما أثر الكبر على ذهنه ، فأضعف ذاكرته وأفسد محاكمته . وكان عمره يومئذ مائة وإحدى عشرة سنة .

فقلت : سترون . وغدونا إليه ، فعرفنا ودعانا بأسمائنا ، ورحب بنا . فعرضنا عليه المسألة ، فمال إلى قولي ، وجعل يأتي بالدليل بعد الدليل من حفظه ، ويدعو بالكتاب بعد الكتاب من مكتبته ، فيقلب صفحات قليلات فلا يبطئ حتى يقع على المسألة فيعرضها علينا .

ولما أردنا الانصراف قال : سأبعث إليكم غداً مع الصغير بنصوص أخرى .

تدرون من هذا الصغير الذى سيبعث بها معه ؟ هو ولده الأستاذ عبد اللطيف المستشار معنا فى المحكمة (محكمة النقض) وكان قد قارب الستين من العمر .

❊ ❊ ❊

والشيخ عبد المحسن لو أوتى مع ذكائه النادر ، وعقله الوافر ، وعلمه الزاخر ، لو أوتى معها لساناً بليغاً ، وقدرة على البيان تعدل قدرته فى العلم لما قام له إنسان ، ومثله فى ذلك أستاذنا فى كلية الحقوق سعيد المحاسنى ، أقدر وأعلم وأذكى محام مدنى شرعى عرفته على طول ما أمضيت من عمرى فى المحاكم ، وما رأيت من البلدان ، ومثله أستاذنا ، وإن لم يدرسنا ، الذى كان سلفى فى القضاء فى محكمة النبك ومحكمة دوما ، ومحكمة دمشق الفقيه الحنبلى ، من أسرة كل رجالها فقهاء حنابلة ، هو الشيخ حسن الشطى ، ومثلهما أستاذنا سليم الجندى الذى كان فى العربية إماماً . وكذلك ترى أحيانا

(1) هو أخي رفيق الكلية ، وصديق العمر العالم المحقق البليغ الشيخ مصطفى الزرقا .

بلغاء أبيناء ، إذا كتبوا أورق القلم فى أيديهم وهو قطعة من خشب أو حديد ، وأثمر ما لا تثمر مثله الحدائق الغناء ، والبساتين الفيحاء ، وإذا خطبوا جعلوا أعواد المنابر شموعاً تضىء بلا نار ، وكهرباء تمشى فى الأعصاب بلا أسلاك ، فتوقظ النائم وتقيم القاعد ، وتجعل الأعصاب الباردة برد الثلج تغلى غليان ماء الشاى ، وتحول « مادرًا » ، من كان مثلاً مضروباً فى البخل ، إلى حاتم الذى كان رمز الكرم ، ولكنه مع هذه الفصاحة كلها ، وهذا البيان كله ، فارغ الرأس من العلم ، وتجد العالم المفكر الذى وسع رأسه ما أنتجت رؤوس العلماء وما اشتملت عليه كتبهم ، تجده عيياً إذا قال أو خطب ، ركيكاً أسلوبه إذا ألّف أو كتب ، كأن الله الذى لم يجعل هذه الدنيا دار كمال ، لم يؤت الكمال فيها أحداً غير الأنبياء .

***

لم يكن الشيخ عبد المحسن شجاعاً صدّاعاً بالحق ، ولكن لم يكن ناطقاً بالباطل ، كل ما يصنع أنه يبتعد ما استطاع عن مواقف الإحراج ، إلاّ إن ألزمه الشرع أن يبين حكم الله ، فما عهد عنه أنه كتمه أو قال بغيره .

وهو من كبار العقلاء لذلك قارب أن يعد من كبار الجبناء ، ذلك أن الشجاع لو فكّر وقدّر ما يتعرض له من المخاطر لما أقدم ، لأن « الإقدام قتال» ، كما قال المتنبى ، بل لو فكر المرء بعقله وحده وحسب احتمالات الضرر أو السلامة إن أراد أن يجتاز شارعاً تمر به السيارات ، ويزدحم فيه الناس لما اجتازه إلا إذا كان ينوى الشهادة فى سبيل الله ، فلا يكون الموت حينئذ موتاً ، بل هو الحياة الباقية التى لا موت بعدها .

لقد مضى ـ رحمه الله ـ ومضى علمه معه ، لأنه ما استودعه القرطاس ولا حفظه فى الصحف ، ولا روّاه (بتشديد الواو) تلاميذ له اصطفاهم وخرّجهم وعلّمهم . مضى معه علمه كما مضى علم الشيخ بدر الدين الحسنى الذى كان

فهرساً ناطقاً ومحساباً « كمبيوتر » حياً لأكثر ما تحت أيدى الناس من كتب فى علوم الدين وفى علوم الدنيا التى كانت معروفة فى عصره . دأب كل واحد منهما على المطالعة ، يمضيان فيها أكثر ساعات الليل والنهار ، لا سيما الشيخ بدر الدين الذى لم يكن له عمل إلا القراءة والإقراء ، ثم لم يؤلفا كتاباً ولم يتركا رسالة .

* * *

حَسَنُ الحكيم القويُّ الأمين

أتكلم عن معمَّر آخر ، وكلمة المعمر ـ بفتح الميم ـ أما الذى عمره ، فهو الله ، ومن شائع الأخطاء أن يقال : فلان من المعمرين ـ بكسر الميم ـ.

عن رجل كان يوماً على رأس الحكم فى الشام ، وكان اسمه على كل لسان، ثم نسيه الناس ، حتى أن كثيراً من قراء الجريدة من الشباب ، من أهل الشام ، سيقولون : من حسن الحكيم ؟ .

حسن الحكيم ـ يا شباب ـ واحد من بضعة رجال كانوا أنظف وأشرف وأعف من عرفته سوريا . لا أستثنى ولا أتحرج ، ولا أغلو ولا أبالغ .

رجل كانت أموال التبرعات للثورة ، تمر تحت يده لو شاء أن يأخذ منها ، كما أخذ غيره ، لما رآه أحد ، ولو رآه لما لامه من رآه ، لأنه ممن جمعت هذه التبرعات لمثله .

وجاء العيد فكتب إلى أهله فى الشام ، وكان فى وادى السرحان ، مع سلطان الأطرش ومن لجأ إليه من بقايا الثوار ، لما ضاقت بهم الديار .

جاء العيد فكتب إلى أهله ألا يحرموا الأولاد من فرحة العيد ، وأن يشتروا لهم الثياب والأحذية ، من أرخص الجيد ، لا أجود الرخيص ، ولكن من أين الثمن ؟ .

يسحبون من رصيده فى المصرف ؟ إنه لم يكن له طول عمره مال محفوظ فى مصرف ، ولا مدخر فى الدار ، بل يبيعون ما يستغنى عنه من الفرش التى ينامون عليها ، ما كانوا ينامون على أسِرَّة ، ومما يستغنون عنه من القدور

و(الطناجر) من المطبخ ، لا من الحلى ، فما كان أهله من ذوات الحلى ، ولا كن من المترفات المنعمات ، ولا يبيعون من فاضل الأثاث ، فما كان فى بيته من الأثاث أكثر من الضرورى ، يبيعونه وينفقون منه على أنفسهم ، ويرسلون إليه ما يفضل عنهم ليعيش به .

رجل تقلد أكبر المناصب . صار وزيراً غير مرة ، وصار رئيس الوزراء ، وما ملك إلا شقة صغيرة ، صغيرة جداً ، عادية جداً ، فرشها عادى جداً . وعاش أكثر عمره بعد أن ترك العمل على راتب تقاعدى (على معاش) ، لا يبلغ راتب معلم ابتدائى مبتدئ ؛ ذلك لأن الأسعار لما غلت ، والرواتب لما ارتفعت ، لم ينل ارتفاعها معاشات المتقاعدين إلا قليلاً ، فبقيت كما كانت أو قريباً مما كانت ، ما زادت إلا زيادة ضئيلة فى الأيام الأخيرة ، ولقد كنت أنا لما أحلت على التقاعد ، فى المرتبة الممتازة ، فى أعلى درجات السلم الوظيفى ، وما يبلغ معاشى الآن فى الشام ، بعد الخدمة الطويلة جداً ، ما يعادل خمسمائة ريال .

إن كان فى السياسيين وفى الزعماء وفى الرؤساء من يظن أنه صار من طينة غير الطين الذى خلق الله منه الناس فترفع عليهم ، ونأى بجانبه عنهم ، وشمخ بأنفه عليهم . . . . فإن حسن الحكيم بقى وهو وزير كما كان وهو موظف صغير ، بقى ابناً للبلد وأخا لأبناء البلد . بقى يحمل زنبيله (سلته) ويذهب إلى السوق فيشترى الخضر والفاكهة لأهله ، ويقف على الجزار يتخير القطعة التى يريدها ، فيقطعها له ، فيحملها إلى أهله ، كما كان يقف من قبل .

وهذا الذى يحبب الزعيم إلى الشعوب ، لا سيما نحن العرب . يحبون أن يشعر الزعيم الناس أنه مثلهم ، وهذه سنة سيد الزعماء ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما رأى الرجل يرتعد من هيبته ، قال له يطمئنه : إنما أنا ابن امرأة من

قريش كانت تأكل القديد . يقولها صادقاً ـ ﷺ ـ كما علمه الله أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مثلكم في ولادتي وموتي ، في مرضي وصحتي ، في تركيب جسمي : جهاز تنفسي ، وجهاز هضمي ، لكنني اختصصت بأنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف : 110] .

كانت أول مرة سمعت فيها باسم حسن بك الحكيم لما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية برئاسة المستر كراين ، التي أرسلها الرئيس الأميركي ، فكان هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر يصحبان اللجنة ليسمعاها رأي شعب الشام ، رأي الشعب السوري في الحرية وفي الانتداب ، حين كانت الأسواق تضج بهذا النشيد ، تصدح به الحناجر في كل مكان :

نحن لا نرضى الحماية . . .

لا ولا نرضى الوصاية . .

نحن أولى بالرعاية . .

لبني العرب الكرام .

ثم لم أسمع به إلا عندما أرسل الجنرال غورو إنذاره المشهور للملك فيصل ابن الحسين ، بأن يقبل الانتداب الفرنسي ، ويسلم سكة حديد سوريا للجيش الفرنسي ليستعملها ، وأن يقبل النقد السوري ليتعامل الناس به ، وأن يسرح الجيش . سمعت يومئذ اسم حسن بك الحكيم الذي كان مديراً عاماً للبرق والبريد ، وشاع في الناس أن الملك فيصل بن الحسين قبل الإنذار ، ولكن حسن بك لم يرسل البرقية بالقبول . ثم كذّب حسن بك هذا الذي شاع وبقي سر البرقية مجهولاً إلى الآن ، أو بقي مجهولاً مني على الأقل .

ولما كان الاضطراب الخمسيني العظيم ، النادر المثال سنة 1936 ، وكنت

قد ابتعدت رسمياً عن العمل الطلابى ، وصرت موظفاً ، وتولى أمر الطلاب جماعة من إخواننا أظهرهم الدكتور منير العجلانى ، قررت الكتلة فك الإضراب وفتح البلد ، وعارض هذا جماعة شهبندر وزكى الخطيب ، وكان حسن بك من أقرب الزعماء إليه وعارضه تبعاً له جماعة من الشباب كالأستاذ محمد كمال الخطيب .

كان من المقرر أن يخطب الدكتور العجلانى فى الناس ، ولكن صوته لم يسمع الناس ، فقدمنى للخطابة وكنت إلى جنبه فى شرفة قهوة الكمال ، تحت جامع تنكز . وإننى لأتخيل الآ ن المشهد كأنه أمامى ، مع أنه مر عليه الآن ثمانية وأربعون عاماً(1) . كانت ساحة المرجة (ساحة الشهداء) على سعتها ممتلئة بالناس ، حتى أنها لو هطلت الأمطار غزيرة لما بلغت الأرض منها قطرة . وما كان عندنا فى تلك الأيام مكبرات للصوت ، ولا عرفناها ، فخطبت خطبة ليس هذا موضع الكلام عنها ، لأننى إنما أتحدث عن حسن بك الحكيم وربما عدت إلى حديث الإضراب والمعاهدة .

لم أقابله مواجهة إلا فى العراق ، وكان لاجئاً إليه ، بعد أن لجأ حيناً إلى عمان ، وتوالت اجتماعاتنا وسهراتنا ، فوجدت فيه دمشقياً أصيلاً ، ومسلماً متمسكاً ، ورجلاً مستقيماً صادقاً صريحاً يعلن رأيه لا يبالى أوافق رأى من كان حوله أو خالفهم ، بعيداً عن الرسمات والمظاهر والتكلف ، أما نزاهته ونظافة يده وأمانته ، فإن ألد أعدائه لم يستطع أن ينال منها ، أو أن يطعن فيها ، أو أن ينكر عليه شيئاً منها .

كان أحد النفر الذين عرفوا بالنزاهة ، حتى صار المثل يضرب بهم فيها ، منهم عارف النكدى ، وقد مر بعض حديثه ، ومنهم زكى الخطيب الزعيم

(1)من تاريخ كتابة هذا الفصل .

الوزير المحامى ، وهو ابن عم أمى : أبوها الشيخ أبو الفتح الخطيب . وهو ابن الشيخ أبى الخير الخطيب ، فهو ابن عمها ، وابن عم محب الدين الخطيب .

عرفته من فوق المنبر فقد كانت العادة فى الشام ، كلما كان اجتماع ، ولو كان عقد نكاح فضلاً عن حفلات المناسبات الدينية والوطنية . كذكرى الهجرة وبدر ، كانت العادة فى الشام فى هذه الاجتماعات أن يخطب الخطباء والحفلة التى لا يخطب فيها خطيب كالعرس الذى لا تغنى فيها مغنية . وكان الخطباء يومئذ معدودين منهم زكى الخطيب ، والشيخ بهجة البيطار ، والشيخ جودة المارديني مدير المدرسة الكاملية ، وهو أول شيخ فى دمشق حلق لحيته ولبس الحلة (البذلة الإفرنجية) ، واعتمر فوقها بالعمامة ، فكان منظره مفرداً عجباً . ثم لما كبر على الطنطاوى ، وجاء على أثره مظهر العظمة ، ومحمد كمال الخطيب ، انضموا أو ضمهم الناس إليهم فصاروا من خطباء الحفلات، وكنت أنا من بينهم أكثرهم خطباً ، وكان الناس لى أشد طلباً .

ولقد خطبت فى عقود لا أحصيها ، منها عقد الشيخ مصطفى السباعى ـ رحمه الله ـ وعقد الشيخ الدكتور محمد الصباغ ، وعقد الشيخ فخرى الحسنى ، كما خطبت فى جنازات لا أستطيع عدها ، كجنازة الشيخ بدر الدين، والشيخ محمود ياسين ، والشيخ عبد القادر الخطيب ، والشيخ أبى الفرج خطيب الجامع الأموى ، وهو والد الصديق الدكتور عدنان نائب رئيس مجمع اللغة العربية فى دمشق ، وهو أيضاً ابن عم أمى ، أبوه هو الشيخ أبو الفرج الخطيب وشقيقه الأستاذ صلاح الدين الخطيب شيخ القضاة فى الشام ، هو والد زوجتى .

أعود إلى حسن بك الحكيم فأتساءل : هل هو سياسى يعد فى السياسيين؟ الجواب : لا أظن . إن للسياسة أخلاقا ما كان لحسن بك نصيب منها ، فما

ميزته إذن ؟ ميزته الصدق والأمانة ، وأنه إن ولى عملاً أداه على ما يرضى الله، ويريح الضمير ، ويكفل المصلحة .

ولما ولى رياسة الوزارة سنة 1941 مع الشيخ تاج ـ والشيخ تاج خال زوجتى، شقيق أمها ـ كنت قاضياً فى النبك ، فخاف قوم من بطشه وشدته ، وآمل قوم كانوا يتزلفون إليه بالترقى والنفع على يديه . فقلت للفريقين : إنكما على خطأ . إن حسن بك لا يعرف الحقد ولا الانتقام ، ولا يؤثر فيه التزلف ولين الكلام ، بل إنه لا يراعى فى المصلحة العامة أى صلة شخصية ، فهو يعزل أو ينزل صديقه الأدنى من الموظفين إن كان سيئاً لا يصلح ، ويرفع وينفع عدوه إن كان صالحاً ، فانتظروا تروا .

وانتظروا فكان كما قلت .

ما كان حسن بك عالماً ، ولكن كان على إلمام جيد بالعلوم الإسلامية والعربية ، يكتب كتابة لا يعد بها فى البلغاء ، ولكن يعبر بها بأسلوب صحيح عما يريد من المقاصد ، ينظم بعض الشعر ، وما كان شاعراً . وعندى مقطوعة بخطه فى وصف الشاى الأخضر الذى كنت أصنعه ، يثنى علىّ فيها ثناء الكبير على الصغير ، ليست الآن تحت يدى ولكنها عندى ، كتبها لما كنا فى بغداد فى عشر الثلاثين (أى فى الثلاثينيات) .

ولى وزارة المالية غير مرة ، وصار رئيس الوزراء وبقى يعيش كما كان يعيش أولا : يركب الترام ويقف على اللحام .

عندى مقالة طويلة وجهتها إليه لما ولى المديرية العامة للأوقاف ، ولم تكن لها يومئذ عندنا وزارة ، عنوانها « إلى القوى الأمين حسن الحكيم » فيها اقتراحات نافعة للأوقاف حقق ما استطاع تحقيقه منها ، وهى فى جريدة ألف باء يوم 18 أيلول (سبتمبر) 1937 .

وقدم مرة للحكومة ، برنامجاً إصلاحياً شاملاً . فكتبت في « النصر » أو في « الأيام » ، نسيت ، كلمة ـ ليست تحت يدي ـ أقول في آخرها : إما أن تأخذوا ببرنامج حسن الحكيم ، أو أن تنزلوا بضيافة أسعد الحكيم . وكان الأستاذ الكبير ، العالم الأديب عضو المجمع العلمي ، الدكتور أسعد الحكيم ، أول طبيب اختصاصي في الأمراض العقلية في الشام ، وكان مدير مستشفاها .

لما ولي رئاسة الوزارة أقبل الناس أفواجاً على شيخنا ، الشيخ محمد بهجة البيطار ، وهو ابن خالته ، وهو أصغر منه سناً ، ولكن حسن بك يعرف له قدره ويكبر فيه علمه ، ويصغي إليه ، ويستمع منه . وقد عرفتم أن شيخنا الشيخ بهجة لم يكن يرد سائلا ، ولا يرفض طلباً لطالب ، فحار ماذا يصنع . وكنا عنده ، فقلت له : تسمع اقتراحاً من تلميذك ؟ قال الشيخ : نعم . قلت : ليس بينك وبين حسن بك حاجب ولا بواب ، فتخبره بما أنت فيه ، وتسأله هو المشورة فيما تصنع .

فأخذ بذلك ، وعرض الأمر على حسن بك فاتفقا على أن يستمع الشيخ بهجة كل طلب وكل شكاة ، ويخبر بها الرئيس حسن بك ، ويقول للناس : أنا عليّ أن أوصل الطلب أو الشكوى ، وهو يقبل ما يراه حقاً ، ويرد ما يراه باطلاً . وكان ذلك فاستراح شيخنا ، ورضي الناس ، وأنصف أقواما من ظلامات كانت واقعة عليهم ، وكشف أقواماً كانت لهم مطامع يسترونها بمظاهر التقوى والصلاح . كان رجلا من طراز نادر ، لو أحصينا أمثاله في الناس لما وجدنا من أمثاله إلا قليلاً ، ولكننا أمة لا تقدر رجالها ، أمضى ثلث القرن الأخير من حياته التي امتدت مائة وأربع سنوات في حالة أدنى إلى الفقر وإلى الحاجة ، ما وجد منا من يكرم شيخوخته ، ومن يسهل عليه حياته .

في كتابي « مقالات في كلمات » الذي طبع سنة 1379 هـ فصل عنوانه

«تكريم الأحياء» ، قلت فيه : ذكرت البارحة معروف الأرناؤوط الذى وليت تحرير جريدته « فتى العرب » سنة 1930 م وكتابة افتتاحياتها ، معروف الذى غنى للجمال وهتف للحق والخير ، وخلف فى الأدب والصحافة أثمن تراث ، فعجبت من الأدباء ، وعتبت على الصحفيين ، كيف نسوه جميعاً وأهملوه حتى لم تقم له حفلة تأبين ؟ ومثله يوسف العيسى من كان فى فن الصحافة إماماً .

وأعجب منهما النابغة العبقرى الذى قُصِفَ قَصْفَ الغصن الطرى ، بعدما ملأ زهره الأرض عطراً أحمد شاكر الكرَمى ، الذى أعطاه الله ثلاثة إخوة أدباء ، فلم يخطر على بال واحد من الثلاثة أن يفى لأخوة النسب ولا لأخوة الأدب ، فينفض « الميزان » مجلة الأستاذ الكرمى حتى يخرج منها آثاره ، وينفض الأذهان حتى يجمع منا أخباره ، وتركوه ينسى خبره ، ويمحى أثره .

والعلماء ، هل كان حظ العلماء أوفر من حظ الأدباء ؟ [1] .

من ألف فى سيرة السيد محمد بن جعفر الكتانى [2] ، والشيخ عطا الكسم[3] ، والشيخ نجيب كيوان ، والشيخ أبى الخير عابدين ، والشيخ أمين سويد ، والشيخ مسعود الكواكبى ، والشيخ محمود ياسين ؟ ومن كتب عن الشيخ عيد السفرجلانى الذى لبث سبعين سنة كوامل ، يعلم الناس ، حتى كان من تلاميذه الولد ، وأبوه من قبله ، وجده من قبلهما ، وحتى صار نصف الكهول من المتعلمين فى الشام فى تلك الأيام من تلاميذه ، والشيخ عبدالقادر المبارك ، أستاذ البلد ، والشيخ محيى الدين الخانى ، شيخ المعلمين ، والذين مضوا من عباقرة الفن والصناعة ، وأعلام الخلق والنبل والإحسان ، من كل .

(1) بلغنى من قريب أن أحدهم كتب عنه كتاباً فتشت عنه فلم أصل إليه .

(2) وحفيده صديقنا الأستاذ المنتصر .

(3) وولده رئيس وزراء سورية اليوم .

رجل سيرته قصة بارعة من قصص الخير ، ودرس قيم من دروس الأخلاق . وإذا كنا ننسى الأموات لأنهم لا يذكرون ، لا يشكرون ، فَلِمَ لا نكرم الأحياء من العظماء ونقوم بحقهم ونكرم جهادهم ؟ .

لماذا لا يقيم القضاة والمحامون حفلات التكريم لشيخ القضاء مصطفى برمدا - واسمحوا لى أن أدع الألقاب فإنما أكتب مؤرخاً لا مادحاً - ولا يقيم أهل العلم حفلات للشيخ عبد المحسن الأسطوانى ، ولسليمان الجوخدار ، وأبى الخير الميدانى ، ولشيوخ التعليم : سعيد مراد ، وعبد الرحمن السفرجلانى ، ومصطفى تمر ؟ وأهل الأدب : كمحمد كرد على ، والمغربى ، والجندى ، والبزم ؟ ويقيم الجامعيون لشيوخ الجامعة : لشاكر الحنبلى ، وعبد القادر العظم ، وفارس الخورى ، وجميل الخانى ، ومصطفى شوقى ، وسعيد المحاسنى ، وأمثالهم من رجال السياسة والعلم والأدب .

إنى لأرجو ألا تذهب هذه الكلمة كما تذهب صيحة على شاطئ البحر الهائج ، لأن الأمة التى لا تكرم نابغيها ولا تقدر رجالها ، يقل فيها النبوغ وتقفر من الرجال .

هولاء الذين كتبت عنهم هنا كلهم ذهبوا إلى رحمة الله ، وكثير منهم نسيه الناس ، وهذا الرجل الكبير حسن الحكيم الذى تكلمت عنه اليوم نسيه الناس من قبل أن يموت . وكم من الرجال عظماء نشؤوا فينا فى هذه السنين الأواخر فأهملنا ذكرهم ، وطمسنا أثرهم ونسينا أسماءهم .

إن الميت لا ينـ[illegible] فى الد[illegible]يا ثناء ، إنما تنفعه مغفرة الله ، ودعوة صالحة ينالها بها . ولكن أدعو إلى ذكر هؤلاء والثناء عليهم وعلى أمثالهم فى كل بلد ؛ لتكون سيرهم عند نشرها قدوة للناشئين من الشباب ، ومشاعل تضىء لهم طريق الحق والصواب .

مع بعض مشايخى

كنت فى المدرسة كلما ذكر أستاذنا الجندى أو أستاذنا المبارك اسم كتاب أسرعت إلى مكتبة دارنا أفتش عنه ، فإن لم أجده بادرت إلى شرائه ، على ضيق ذات يدى وقلة مالى ، فسمعت يوماً اسم كتاب « المعمَّرين » لأبى حاتم السجستانى فاشتريته ، فإذا هو كتاب صغير جداً ، فيه مبالغات ، ولكن مؤلفه كبير بين الرواد ، ولما تحدثت عن الشيخ الكافى والشيخ عبد المحسن الأسطوانى ، وقد عاش الأول مائة سنة ، والثانى مائة وثمانى عشرة ، ذكرت بعض من عرفت من المعمرين .

منهم رجل يلى الشيخ عبد المحسن فى السن ، ولكن لماذا لا أذكر القصة من أولها ؟

كنت سنة 1363 هـ قاضياً فى دوما ، وكنت أركب الترام من دارى فى المهاجرين إلى المرجة وهى ساحة الشام الكبرى ، مركز البلد يومئذ ، ثم أركب الترام منها إلى دوما ، فكان الطريق يستنفد منى ساعتين كاملتين . وكنت يومًا فى الترام ، وكان مزدحماً براكبيه كما تزدحم فى العلبة أسماك السردين . وكان إلى جانبى فتى من المتأدبين ، فقال لى : من هذا الشيخ المهيب الطلعة ، البادى الأناقة ، ذو الشيبة المشرقة ، والعمامة الإسطنبولية ، الذى لا ينفك ينظر إليك ؟ فتلفت حيث أشار ، فلما أبصرته أسرعت إليه فقبّلت يده ، وحييته بتحية فيها المحبة والإكبار ، فجعل يسألنى عن حالى وعملى ، حتى بلغ الترام آخره فى ساحة المرجة ، التى سميت بعد ساحة الشهداء ، فقال لى : إلى أين ؟ قلت : إلى دوما ، فهل تتفضلون بزيارتها ؟ فضحك وقال : ألا تدرى أنى كنت سلفاً لك فيها ؟ قلت : لا والله يا سيدى ، فمتى كان ذلك ؟ قال :

احزر . فذهبت أقول قبل عشرين . . قبل ثلاثين سنة . . وهو يضحك فلما عجزت وسكت قال : لقد كنت قاضياً فى دوما سنة1301 هـ .

ولما فارقناه جعل صاحبى يلحف علىّ بالسؤال عنه ، وأنا ذاهل عن سؤاله لا أسمعه ، أفكر فى هذا الشيخ : أى تاريخ حى فى ذهنه ؟ أى دنيا فى ذاكرته؟ وأتصور هذا الدهر الطويل بين أيامه وأيامى فى دوما هذا العمر الكامل ، اثنتان وستون سنة ، كم تبدلت فيها الأيام ، وتغيرت الوجوه ، وقامت وقعدت الحكومات ، وكانت حروب وكان سلام ، وولد ناس ومات ناس ، وذهب الأتراك وجاء فيصل ، وذهب فيصل وجاء الفرنسيون ، وذهب الفرنسيون وجاء الاستقلال ؟ وكان حرب البلقان ، ثم حرب سنة 1914 ، وحرب 1939 ! ! .

ولقد تبدل فى البلد كل شىء ، وهذا الشيخ ثابت لم يتبدل ، مقيم على حاله لم ينزح عنها ، وأحاول أن أتخيل ما فى رأسه ، وكيف ينظر إلى هذه الدنيا . .

فأذكر به أهل الكهف . . وأى فرق بينه وبينهم ؟ وهل فى سكان دوما الذين يبلغون خمسة وعشرين ألفاً (فى تلك الأيام) من يعرفه لو جاءهم ، أو يذكر أنه كان قاضياً فيها ؟ وكم تكون سنه اليوم ، وقد كان قاضياً فى دوما منذ اثنتين وستين سنة ؟ وقضاء دوما أكبر أقضية سورية كلها ، ولم يكن يولاه يومئذ من هو دون الثلاثين ؟ .

وضاق رفيقي ذرعاً بسكوتي ، فجذب يدى فانتبهت ، فقال : من هذا الشيخ ؟ قلت : ألا تعرفه ؟هذا العالم الجليل ، هذا الذى كان مفتى الديار الشامية سنة 1325 ، قبل ولادتى أنا بسنتين ، بعد المفتى الأشهر محمود الحمزاوى ، والمفتى المنينى ، والمفتى شيخ قطنا ، وقبل أبى الخير عابدين ،

وعطا الكسم ـ رحمهم الله ـ والمفتي الأسطواني الذى جاء بعدهم ـ رحمه الله ـ أيضاً . ولى الإفتاء والبلد حافلة بالعلماء الأعلام ، فلم تطل ولايته ؛ لأنه أراد أن يسير الأمور على ساق الحق وحدها . والأمور فى الدنيا لا تمشى غالباً إلا على ساقين من حق وباطل . وهذه الكلمة مروية عن ابن عباس ، قالها عن على بن أبى طالب ، ولست أدرى هل قالها فعلاً أم تقوّلها الرواة عليه ، ونسبوها إليه ؟ .

نظر هذا الشيخ لما ولى الإفتاء فرأى الأوقاف يأكلها متولّوها ، وفيهم الباشوات والوجهاء الكبار ، وأهل الحل والعقد فى دمشق . ورأى بستان الأعجام الذى أقيم عليه اليوم حى الحلبونى من أفخم أحياء دمشق ، قد تقاسمه هؤلاء بحجج واهية ، وحقوق مزعومة أدّعوها على الأوقاف . فمنهم من كان له حق « القيمة » ، وهى فى عرفهم الجدران وجذور البرسيم والدمنة، يريد أن يمتلك البستان بها . وكان فى الشام رجل وجيه مسموع الكلمة فى الشام ، وعند السلطان فى اسطنبول ، فقام الشيخ يحاربه بسيف الحق ، وأقبل المتولون يحاربونه مع هذا الرجل بسيوف الشغب وإيفاد الوفود إلى حاضرة الخلافة فى اسطنبول ، وإرسال الكتب والمضابط . والحكومات فى كل زمان ومكان ، إنما تحب الموظف الذى يألف ويؤلف ، ولا يهيج الناس عليه ولا يثير اللغط عليها ، فنقلوه إلى منصب أعلى ، ورتبة أكبر ، ولكنهم أبعدوه عن إفتاء الشام .

ذهب قاضياً إلى المدينة المنورة ، إذا سألتم أحد الشيوخ من أهل المدينة، ممن يذكر تلك الأيام يخبركم خبرها .

وكان هذا الشيخ نائب الشام فى مجلس النواب العثمانى ، وكانوا أربعة نواب يقومون مقام المجلس النيابى فى الشام الآن بطوله وعرضه وارتفاعه ، ولاأدرى متى كان نائباً ، ولكنى أذكر أن شاعراً دمشقياً من شعراء تلك الأيام

أرّخ سنة إرسالهم على طريقة حساب الجمّل ، التى كانت رائجة ،.وكان الشعراء يتبارون فيها ، فكان التاريخ أسماء النواب الأربعة : « سليمان ورشدى والشفيق ومحمد » وهذا من عجائب التاريخ ، وسليمان هو هذا الشيخ الذى أتحدث عنه ، الشيخ سليمان الجوخدار ، ورشدى هو رشدى بك الشمعة ، والشفيق : شفيق بك المؤيد ، وآل المؤيد فرع من آل العظم ، ومحمد هو محمد فوزى باشا العظم والد خالد بك العظم .

كان هذا الشيخ الرئيس الأول لمحكمة التمييز (النقض) عشر سنين ، وكان وزير العدل مرات ، فكان على علو سنه أشد الوزراء مضاء ، وأحدهم ذكاء ، وأجرأهم على الإصلاح . هذا بطل معاهدة الشعبانى اقتنع بها ورآها فى مصلحة الشعب فدافع عنها ، وناضل دونها ، واحتمل فى دفاعه ما لا يحتمل سياسى فى الدنيا من أذى العامة ، وسخرية الناس ، وما عرضوه له من المهانة . ولم يَنِ ، ولّم يتقاعس ،ولم يؤثر السلامة .

كان هذا الشيخ أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق ، وكان قاضى منطقة الزيتون أيام العثمانيين ، وقد تنبه ببعد نظره ، وصدق فراسته ، إلى ما كان يبيته الأرمن ، ونبّه الحكومة إلى الخطر قبل وقوعه ، ولكنها لم تأخذ بتنبيهه ، فقامت ثورة الأرمن التى لا نزال نقرأ فى الجرائد عقابيلها وبقاياها وما يصنع الأرمن برجال الترك .

والعجيب أن هذا الرجل على علمه الكبير ، وعلى أنه ولى أكبر المناصب القضائية فى الشام ، وكان له أظهر الأثر فى السياسة لم يكتب عنه أحد ، حتى أن الأستاذ خير الدين الزركلى لم يذكره فى الأعلام .

اتصل بعد ذلك حبلى بحبله ، فكنت أزوره فى داره فى المهاجرين مع الأستاذ سعيد الأفغانى ، والأستاذ الشيخ عبدالقادر العانى ـ رحمة الله عليه ـ

والأستاذ يوسف الحسنى وجماعة ، فكنا نجد عنده تاريخًا ناطقًا ، ما قرأه فى الكتب فوعاه فى ذهنه ، ولكن عاشه .

كان منهجه اليومى أن يقوم قبل الفجر فيتهجد ، ثم يذهب فيصلى الغداة فى مسجد الحى ، ويبقى فيه إلى ما بعد طلوع الشمس ، ثم يعود إلى داره فيأكل شيئاً خفيفاً ، ثم يمشى ساعتين كل يوم ، فمن ذلك كنت ترى وجهه وهو فى هذا العمر مورداً طافحاً بالصحة والقوة ، ثم يشترى حاجات داره بيده، ثم يعود إلى الدار فلا يخرج منها إلا إلى الصلاة .

فإذا صلى العشاء انقلب إلى فراشه ، لا يكلم أحداً بعده إلا فى ضرورة لابد منها ، أو إيناس ضيف دخل عليه ، أو فى حديث العلم .

وقد خبرنى أنه لما صار قاضياً فى (القضاء) ـ والقضاء أصغر جزء فى التقسيمات الإدارية فى البلاد العثمانية والبلاد التى انبثقت عنها كالشام ، كان يجد الموظفين يسهرون كل ليلة عند قائم المقام ، فيمضون الوقت كله فى أحاديث تافهة ، أو فى اغتياب الناس ، أو فى الدس عليهم . أى أنهم يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع لهم فيه ، بل فيه الضرر عليهم ، فجعل يجمعهم على كتاب يقرؤونه أو درس يسمعونه ، ثم اخترع طريقة جديدة ما أظن أن أحداً سبقه إليها ، وهى أنه كان يعمد إلى الطبقة المتميزة من الموظفين ومن المتعلمين فى البلد الذى ولى قضاءه ، فإذا كانت جلسة اختار للجلسة التى بعدها موضوعاً من الموضوعات العلمية أو الفكرية أو الاجتماعية ، ثم قال لهم : ليعد كل واحد منكم نفسه للكلام فى هذا الموضوع فى الجلسة المقبلة، ودلهم على المراجع فى هذا الموضوع ، فمن أراد منهم وقدر رجع إلى هذه المراجع فدرسها فازداد بها علماً ، ومن لم يقدر ، أو لم يرد هيأ نفسه للكلام فيه ، ولقد جربت هذه الطريقة لما عينت قاضياً فى النبك سمة 1941 ـ وسيأتى الخبر

بالتفصيل ـ فوجدت فيها خيراً كثيراً .

هذا الرجل واحد من عشرات ، بل من مئات من الرجال ، كان فى حيواتهم [1] وفى أفكارهم درس للناس لو أن تراجم حيواتهم دونت وكتبت وألفت فيها الرسائل ، ولكن خبره ضاع فى الدنيا كما ضاع الكثير من أخبار أمثاله من كبار الرجال .

***

وممن عرفت من الجنود المجهولين والرجال العاملين الذين لم تصل إليهم أضواء الشهرة فيعرفهم الناس ، ولكن الله يعرفهم ويثيبهم برحمته ويجزيهم على أعمالهم : معلم الشام الشيخ عيد السفرجلانى ، وقد كتبت عنه كثيراً . وكان من أوائل من فتحوا المدارس الأهلية الابتدائية فى دمشق ، لبث سبعين سنة معلماً ، تعلم عنده الولد ، وأبوه من قبله ، وجده من قبلهما . وقد رأيت فى سجلاته أن أبا الجد قد تعلم عنده . كانت له مدرسة فى المناخلية فى دمشق ، إلى جنب باب الفرج ، وهو أحد الأبواب الباقية لدمشق . وسور دمشق وأبوابها لم تذهب به أحداث الزمان ، ولا يزال باقياً إلى الآن ، ثم انتقل إلى المدرسة الجقمقية ، عند باب الأموى الشمالى الذى يفضى إلى باب الفراديس من أبواب دمشق السبعة ، وهذه المدرسة من أجمل المدارس الأثرية فى دمشق ، وقد عنيت بها مصلحة الآثار أخيراً ، فجددت بناءها ، وأعادت نقوشها ، ولكنها أغلقت أبوابها ، والعمارة المطلوبة فى الإسلام ليست عمارة الأركان والجدران ، ولكنها عمارة العلم والإيمان ؛ ولذلك أثبت الله للمشركين أنهم عمروا المسجد الحرام حين قال : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [التوبة : 19] . ولكنه نفى عنهم عمارة

(1) حيوات جمع حياة .

العلم والإيمان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : 18] .

هذه المدرسة هي التي تعلمت فيها في نهاية الحرب الأولى ، ثم صرت معلماً فيها ، وكان أبي من تلاميذها ، وصار معلماً فيها ، وكل ذلك والشيخ عيد السفرجلاني هو صاحب المدرسة وهو مديرها ، وقد كتبت عنه كثيراً فلا أعود الآن إليه ، وأذكر أنه لما توفي سنة 1931 كنت أشتغل في جريدة « الأيام» عند الأستاذ عارف النكدي ، فكتبت مقالة عن الشيخ عيد ، فقال لي بعض إخواننا هناك : ومن هو الشيخ عيد ؟ أنشغل القرّاء بشيخ كتّاب ؟ .

فثرت عليه وأسمعته ما لا ينتظر سماعه مني ، وبينت له أن شيخ الكتاب هذا ، وأن معلمي مدارس الحضانة والمدارس الابتدائية ، هم الذين يضعون الأساس ، ولا يقوم البناء إلا على أساس ، مهما كثرت طبقاته وعلت شرفاته ، فينبغي أن نطالب معلم الابتدائي بالكثير من العلم ومن الخلق ، وأن نعطيه الكثير من المال ومن التقدير .

وكان لشيخنا الشيخ عيد السفرجلاني ولد هو أستاذنا عبد الرحمن السفرجلاني . كان من أقدم المعلمين في دمشق يدرس الرياضيات ، ثم صار المدير الثاني (وكيل المدرسة) في مكتب عنبر . وقد اخترع لنا ، لما كان مديرنا فيه ، مكافآت مطبوعة مذهبة مكتوبة بالخط الكوفي والخط الفارسي والثلث ، سماها الاستحسان والتقدير والامتياز ، وجعلها درجات ، ولا تزال عندي طائفة منها ، لو أنها وضعت في إطار وعلقت على جدار لكانت لوحة فنية ، يريد أن يحفز بها الطلاب إلى الجد وإلى الاجتهاد .

عاش عمراً طويلاً جداً ومات وقد بلغ عمره السابعة والتسعين ، لم يبق بينه وبين المائة إلا ثلاث سنوات . رأيته يوما في مجلس شيخ القضاء في الشام ، مصطفى برمدا ، الرئيس الأول لمحكمة التمييز (محكمة النقض) وكان يستقبل الناس صباح الجمعة إلى وقت الصلاة فإذا دنا وقت الصلاة ، استعد فذهب

وذهبوا إلى المسجد لأدائها ، لا كمجلس العقاد يوم الجمعة ، وقد حضرته مرة مع أخوى الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا ، والأستاذ نهاد القاسم ، وزير العدل أيام الوحدة ـ رحمة الله عليه ـ فوجدت القوم لا يصلون ، ويبقون فى هذا المجلس إلى الساعة الثانية ، فتركناهم وخرجنا . أقول : إنى وجدت الأستاذ عبد الرحمن مرة فى مجلس مصطفى بك ، وكان فى المجلس الأستاذ جميل بك الدهان ، الرجل المعمر الذى كان المدير العام للأوقاف ، وكان قبل ذلك متصرف حمص دهراً طويلاً ، فجرى ذكر أيام المدرسة فاشتركوا جميعاً فى الحديث عنها ، فاستأذنت وسألت مصطفى بك : هل كنتم فى مدرسة واحدة ؟ فقال الأستاذ عبد الرحمن : نعم ، فضحك مصطفى بك ، وقال : نعم ، ولكن كنا نحن التلاميذ ، وكان هو الأستاذ ، ودخل فجاء بصورة قديمة يبدو فيها مصطفى برمدا وجميل الدهان ولدين صغيرين واقفين مع التلاميذ ، والأستاذ عبد الرحمن قاعد على الكرسى مع المعلمين وله شاربان معقوفان .

وكان من تلاميذه شكرى بك القوتلى ، أى أنه عاش حتى رأى تلاميذه قد بلغوا أعلى المراتب وجاوزوا من أعمارهم الستين سنة . ولما أصدر حسنى الزعيم قراراً بإلغاء الأوقاف الذرية . واحتاجوا إلى من يحسب أنصبة المستحقين فيها ، وقد يبلغون أحيانا المئات فى وقت طويل يستمر عشرات من السنين ، كان أول الحاسبين الذين يقسمونها ويعرفون الفرائض ، ويتقنون الحساب الأستاذ عبد الرحمن السفر جلانى ، والشيخ جميل الشطى مفتى الحنابلة .

وكانت له أجوبة عجيبة . كنت مرة راكباً فى سيارة النقل الجماعى فى الشام ، وكنت فى الصف الأول ، والسيارة كبيرة ، فيها ستون راكباً وهى مزدحمة ، فسمعت ضجة من ورائى فسألت الجابى (الكمسارى) : ما القصة؟ فضحك وقرب فاه من أذنى وقال : والله شىء عجيب ، أترى هؤلاء البنات ؟ فرأيت ثلاث بنات شابات متبرجات واقفات فى ممر السيارة . قلت : نعم .

قال : لما صعدن تعرضن لهذا الرجل العجوز ، وأسأن إليه بالكلام ، فتناولهن بسلسلة من النكات والأجوبة المسكتة ، حتى جعلهن هزأة بين الناس ، ولا يزال يتكلم ينتقل من مثل إلى مثل ، ومن موعظة إلى موعظة ، ومن نكتة إلى نكتة ، وكلها تنصب على رؤوس هؤلاء البنات كصب الحميم ، ولم يكد يتم كلامه حتى سحبت إحداهن حبل الجرس ، لتقف السيارة . ووقفت ونزلن هاربات منه .

* * *

ولما كنا صغاراً كان شيوخ المعلمين فى الشام ثلاثة : الشيخ محيى الدين الخانى ، وأسرة الخانى منسوبة إلى خان شيخون . وهى أسرة كبيرة ظهر منها علماء أجلاء ، ورجال كبار منهم الدكتور حسنى سبح وصلاح والكواكبى وجميل الخانى ، أحد الذين وضعوا المصطلحات العربية الطبية مع إخوانه حمدى الخياط ومرشد خاطر وشوكت الشطى ، والثانى الأستاذ عبد الرحمن السفرجلانى ، وأسن منه وأكبر فى القدر يومئذ الأستاذ سعيد مراد .

ولما انتهت الحرب الأولى وأغلقت مدرستنا التى كانت منسوبة بالاسم لجمعية الاتحاد والترقى ، وإن لم يكن بين الجمعية وبينها صلة بالفعل ، وأغلقت هذه المدرسة ، ذهبت ـ كما عرفتم ـ إلى المدرسة السلطانية ، وكنا إذا قلنا : المدرسة السلطانية ، أردنا بها يومئذ المدرسة الثانوية ، كان المدير الأول أى المدير العام الأستاذ سعيد مراد ، وكان المدير الثانى أى مدير القسم الابتدائى الأستاذ شريف أقبيق ، وأسرة أقبيق أسرة دمشقية صغيرة ، وأظن أن معنى أقبيق باللغة التركية : الشارب الأبيض ، ولست متحققاً .

كان للأستاذ سعيد مراد يومئذ هيبة فى نفوسنا ، بل رهبة ، لعلو منزلته ولأنه المدير الأول ، الذى يأمر وينهى هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة ،

وهذا الجيش المحشود من الطلاب . وكنت أصنع أحذيتى عد حذاء كبير ودكانه مواجهة للباب الجنوبى لمسجد بنى أمية ، الذى يفضى إلى الحرام ، أى إلى بيت الصلاة رأساً . وكان صاحب هذه الدكان شيخاً بعمامة من آل الأسطوانى .

والمشايخ الذين كانوا يعملون فى التجارة والصناعة كثيرون ، ربما عدت يوماً إلى الكلام عنهم ، يتكسبون بعملهم لئلا تدفعهم الحاجة إلى الخضوع للحكام ، أو إلى استجداء احترام العوام ، أو إلى مد أيديهم إلى أصحاب الأموال ، وهذه سنة سلفنا من الصحابة والتابعين والأئمة الكبار ، يتكسبون أموالهم بعملهم ، وما ذل العلماء إلا عندما مدوا أيديهم إلى أرباب الحكم ، أو أصحاب الأموال .

أعود إلى الموضوع : ذهبت يوماً لأفصل حذاء جديداً ، وكنت تلميذاً فى السلطانية الثانية ، فرأيت فى الدكان ما جمد خطواتى ، وثبتنى فى مكانى فلم أستطع أن أتقدم ، وظهر ذلك علىّ ، وجذب الأنظار إلىّ ، فما الذى وجدته؟ .

وجدت مديرنا الأستاذ سعيد مراد ، وكان أقرب إلى الطول ، وكانت له لحية صغيرة شقراء ، فاستدعانى واستدنانى ، وثبت روعى ، وكلمنى كلام أب محب ، لا كلام أستاذ مرهوب .

ومرت الأيام الطويلة وصرت قاضى دمشق ، وكنت يوماً على قوس المحكمة أنظر فى قضايا الناس ، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين ، وكلهم مستعجل يريد أن ترى قضيته وينصرف ، فنظرت من الشباك ، فرأيت فى ساحة المحكمة رجلا كبير السن ، قائما على قدميه ، قد أحنى الدهر ظهره ، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد .

فقلت للإخوان : أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق ، ونزلت من فوق القوس ، وخرجت من القاعة ، وهم يحسبون أننى إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة ، لابد منها ، ولا يستغنى عنها ، وأنى ذاهب إلى الحمام ، فرأونى قد ذهبت إلى هذا الشيخ ، فقبلت يده وسألته أن يدخل معى لأقضى حاجته، إن كانت له حاجة . فدخل معى فأصعدته القوس إلى جانبى ، وقلت للحاضرين : هذا شيخ المعلمين ، وهذا أستاذى علمنى كما علم آلافًا وآلافا من أبناء هذه الأمة ، أفلا ترون من حقه على وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر لما جاء من أجله ؟ .

قالوا : نعم . وظهر الرضا على وجوههم ، وبان أن فى هذه الأمة لخيراً كثيراً ، وأن الكرم والنبل لا يزال فى أعماق قلوبها ، ولكن ربما غطت عليه المطامع أو هموم الأيام .

ونظرت فى حاجته وقضيتها ، فسألنى : من أنت ؟ قلت : انظر إلىّ لعلك تعرفنى . فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبينى . فقلت له : أنا فلان . فذكرنى ودعا لى وترحم على أبى . وأوصلته إلى باب القاعة حتى خرج ، ولا يزال منظر دموعه وهى تقطر من لحيته التى كانت يوماً شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج منظراً لست أنساه وأحمد الله عليه .

ولم تمض إلا أيام حتى جاءنى من يخبرنى أن أستاذنا سعيد البحرة قد توفى ، وأن داره قريبة من المحكمة ، وأن الناس على عادة أهل الشام يجتمعون فى بيت من بيوت الجيران للاستعداد لتشييع الجنازة ، وكذلك كنا . كنا إذا كان فرح ، أو كانت مصيبة ، فالفرح فرح أهل الحارة جميعاً ، والمصيبة مصيبتهم جميعاً ، يفتحون أبوابهم ويقدمون ما عندهم ، مشاركة فى الفرح أو مواساة فى الألم .

لم أكن أحضر مثل هذه الاجتماعات ولكنه أستاذنا ، كان يدرس الفلسفة ولم أقرأ عليه إلا مدة قصيرة جداً ، لذلك ذهبت فأجلسوني في صدر القاعة وحفوا بي إكراماً للمنصب لا لشخصي ، لأن لمنصب القضاء عند الناس حرمة ليست لغيره من المناصب ، وكان الناس يدخلون ويخرجون ، فنظرت فإذا بين الداخلين الأستاذ شريف أقبيق ، وهو مديرنا الثاني في المدرسة السلطانية ، لما كان الأستاذ سعيد مراد مديرنا الأول ، فقمت إليه فقبلت يده على عادتنا في تلك الأيام . كان فيها الصغار يقبلون أيدي الكبار ، يحترمون مدرسيهم وأولي الفضل فيهم ، وعزمت عليه إلا أن يجلس في مكاني وقلت للحاضرين : هذا أستاذي ، ومهما علا المرء ، أو اغتنى ، أو ارتفع قدره ، فإنه يبقى أمام أستاذه صغيراً ، كما كان من قبل ولداً صغيراً . وكان لذلك أطيب الأثر في نفسه .

***

ولست أحصي الآن من قرأت عليه ، أو جلست بين يديه ، أو استفدت منه فإنهم كثيرون لا يحصون ، ولكنها ذكريات ، أذكر ما حضرني منها ، وما دعت المناسبة إلى ذكره . ومن ذكرته لا أؤرخ هنا لحياته ، ولا أتتبع أخباره ، ولا أجمع آثاره ، فلست في مقام المؤرخ ، ولكني في موضع من يتذكر .

وكان في دمشق مجلس الشيوخ ، لست أعني مجلس الشيوخ الذي يكون في البرلمانات ، فما هذا بمجلس له سلطان ، ولا له صفة رسمية ، ولكنه مجلس يضم جماعة من أجل شيوخ البلد ، ولا يقبل فيه إلا من جاوز الستين من العمر ، فكان فيه جلة العلماء ، وكان فيه من كبار الموظفين الإداريين ، وكان فيه من الوجهاء الذين لهم في تاريخ البلد ذكر ، ولهم في إصلاحه أثر .

أذكر منهم ـ ولست أحصيهم ـ : الشيخ عبد القادر المغربي ، والأستاذ محمد كرد علي ، وفارس الخوري ، وبديع المؤيد ، ومحمود الصباغ ،

والرئيس هاشم بك الأتاسى ، وجماعة كثيرون لا تحضرنى الآن أسماؤهم ، ولكن فى ذهنى الكثير من أخبارهم ، ومنهم من سأعود إلى الكلام عنه إن شاء الله كلامًا مفصلاً .

ما كنت عضواً فى هذا المجلس ، ولكن كنت المراقب الثانى . أما المراقب الأول فهو الأستاذ جودة الماردينى ، كنت أحضره مستأذنًا منهم لأدون ما أسمع فيه من أخبارهم ، ومن ذكرياتهم ، ومن أخبار البلد التى لا أجدها إلا عندهم ، ولكنى وهذا من نقائصى لم أكتب شيئاً من ذلك ، بل استودعته ذاكرتى .

وكانت ذاكرة وفية ، وكانت قوية ، وكانت لا تضيع أمانة ائتمنتها عليها ، ولا تضعف عن حملها فأضعفتها الأيام ، فلم يبق مما حوت إلا القليل . وهذا القليل هو الذى أضعه فى هذه الصفحات .

* * *

الشيخ أمجد الزهاوى

لما كنا صغاراً كان شيوخنا أحسن الله إليهم ـ يبعدوننا عن كل ما يفسد ملكتنا الأدبية أو يدخل العجمة والضعف على أساليبنا ، لذلك لم أقرأ قصص « ألف ليلة » حتى كبرت وصلب عودى واشتد ساعدى ، فلما قرأتها وجدت شهرزاد « كلما أدركها الصباح سكتت عن الكلام المباح » .

فإذا انقضى النهار ، ودجا الليل ، عادت فوصلت ما كانت قد قطعت ، ومشت من حيث وقفت .

وأنا اليوم مثل شهرزاد ، مثلها فى حديثها ومقالها ، لا فى حسنها وجمالها .

قطعت الحديث فى الحلقة الماضية لما صعد المنبر الشاب العراقى الموصلى ، وفارقتكم قبل أن أسميه لكم .

فاعلموا الآن أن اسمه محمد محمود الصواف .

ولقد عرفتم أنى أقمت فى العراق سنينًا مدرساً فيها ، من سنة 1936 أتنقل ما بين البصرة فى أقصى الجنوب ، إلي كركوك فى الشمال ، ولكنى لم ألق الصواف ولم أسمع . وأنى ى لقاؤه أو معرفة اسمه ، وقد كان طالباً يمشى مع الآلاف والآلاف من أمثاله ، فى طريق بعيد عن أضواء الشهرة ، ثم تفجرت مناقبه رأساً ، فذهب إلى مصر طالباً ، ولم يكن فى سن الطلاب ، بل

كان كبيراً ، أحسب أنه كان فى الثلاثين من عمره ، وقد أودع الله صدره من الحماسة نبعاً لا يغيض .

وكل امرئ يأتى عليه حين من زمانه تتفجر فيه حماسته ثم تهدأ ، كالبركان يثور ثم يخمد ، والريح تهب ثم تركد . والصواف بركان ظل أبداً نشطاً عاملاً . لقد بلغ الآن السبعين ولو حاول أن يصبغ لحيته ، وأن يستر شيبته ، ولا يزال إن كلمك تورد وجهه ، وعلا صوته وهدرت كلماته ، وظهرت حماسته . وأنا من هذا القبيل ولكن حماستى كانت لهباً طويل اللسان ظاهراً للعيان ، فصارت ناراً بطيئة كمثل الفحم الحجرى ، وربما كانت نار الفحم الحجرى أشد حراً ، وأطول عمراً ، ولكن لا لهب لها . فإن ألقت فيها الأحداث وما أكثر أحداث الدنيا ، رشة من البارود الناعم صارت قنبلة .

أما أثره فى العراق فأرجو ألا يكون حديثى الذى سأتحدث به سبباً فى نقص ثوابه من الله الذى عمل له وحده ، وما أظن أنه طلب جزاء إلا منه وحده ، وأنا إن مدحته فما أمدحه رغبة ، وليس عنده شيء أرغب فيه ، ولا رهبة وما لديه ما أرهبه أو أخافه منه ، لذلك كان مدحى إياه ، أو مدحى غيره ، لله . كما أن نقدى - إن نقدت أحداً - لله ، لا نفع لى أرجوه من الأول ، ولا خطر علىّ أخشاه من الثانى .

ولو نظمت ديوانا فى مدح إنسان وهو حى ، أو ديوانا في رثائه وهو ميت ، لما نفعه ذلك ولا ضره ، ولعمل مثقال ذرة من الخير وترك مثقال ذرة من الشر أجدى على الإنسان وأرجح فى الميزان من ذلك كله .

بل أنا قد رثيته فعلاً لما شاع أنه قتل . . أيام حكم عبد الكريم قاسم . وألفوا

فى قصة قتله رواية لو أخرجت فيلماً لكانت من أخلد المآسى الأدبية . وكان لى يومئذ حديث دائم من إذاعة دمشق فذكرته وعرفت قصة قتله ، فلما جئت أقول : ـ رحمه الله ـ انعقد لسانى ، وشرقت بدمعى وغلبنى البكاء ونذرت زوجتى لما رأت جزعى إن كان الخبر مكذوباً أن تذبح لله خروفاً ، ثم تبين كذب الخبر وذبح الخروف ، وأظن أن الصواف ـ شفاه الله ـ سيحس فيدفع لى الآن ثمنه ! بل لا أريد ، قد سامحته ، على أن يذكر لى أنى وفرت عليه ثمن الخروف .

وكل هذا سيأتى خبره كما ستقرؤون خبر الجرائد اللبنانية التى كانت تمشى فى ركب الناصرية ، وترون عناوينها الكبيرة التى روت قصة « ذبح الشيخ الطنطاوى » يوم الانفصال ، يوم ألقيت تلك الكلمة التى لم تبق إذاعة عربية لم تعدها ، ولم تكررها . وفى هذه المقالات تفاصيل عن ذبحى لا أدرى بأى براعة صحافية استطاعوا الوصول إليها ومعرفتها ، وأنا المذبوح لم أعلم بها ولم أعرفها .

***

كان فى العراق كما كان فى الشام وفى مصر ، وإن كان الذى في مصر أكبر وأكثر ، بل كان فى كل بلد إسلامى ، علماء كبار ، تجل أقدارهم ، وترتفع فى الناس منازلهم ، وتقبل أيديهم ، ويطلب دعاؤهم ، ولكن أكثرهم على طريقة علماء القرن الماضى .

إنهم مشايخ صالحون يحفظون ما يقرؤون ، ويفتون الناس ويعلمونهم ما يحفظون ، ولكن لم يكن فيهم إلا قليل جداً من الذين يفكرون فيضيفون جديداً

إلى القديم الذى تعلموه وحفظوه . كان العلم عندهم أمانة أدوها كاملة ، ما نقصوا منها شيئاً ، لكن ما زادوا عليها شيئاً ، ولا جددوا فيها ، ولا بدلوا طرائقها . والكلام على علماء الأمس وعلماء اليوم ليس هذا موضعه ، وربما وجدت موضعه فأفضت فى الكلام فيه .

كان فى العلماء قليل جاؤوا بجديد ، استعملوا عقولهم ولم يجعلوا عمدتهم ذاكرتهم ، كالشيخ محمد عبده الذى سمعت به ولم أدركه ، والسيد رشيد رضا ، والشيخ مصطفى المراغى ، والسيد الخضر الحسين ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، والشيخ محمود شلتوت . ومثلهم كثير فى مصر . وليسوا سواء : منهم من غلب ذكاؤه وفكره على علمه واطلاعه كالشيخ محمد عبده ، ومنهم من كان علمه أكثر ولكن لم يبلغ بالذكاء والتفكير هذا المبلغ كالشيخ رشيد رضا . ومنهم من كان عبقريا كطنطاوى جوهرى ، والعبقرية إن رسمت لها خطاً بيانياً ـ كما يقول الرياضيون ، أو استحدثت آلة لتخطيطها وتوضيحها كآلة تخطيط القلب فى ضرباته ـ لرأيت هذا الخط يعلو كثيراً ويهبط كثيراً ، حتى أن العبقرية لتدنو أحيانا من الشذوذ فيختلط بها ، ولا يكاد يميز عنها .

وكان فى العراق الألوسيان : المفسر المعروف والأديب المصنف صاحب «بلوغ الأرب » الذى كان أستاذ الأثرى استفاد منه ، وروى عنه ، ووقف على طبع كتبه .

***

كنت يوماً أحدث الشيخ أمجد الزهاوى عن أيامى فى كركوك قبل الحرب الثانية فقال لى : أليس عجيباً أننا كنا نرى ناراً تخرج من بين الصخور ، أو

صخوراً إذا أنيت منها لهباً اشتعلت فلم يخطر على بال واحد منها أن يحفر حولها ليرى مصدرها وسرها .

بل إنهم أهملوا عقولهم حتى اعتقدوا أنها نار مقدسة ، وسموها باب كركر . وأعجب منه أن الأمم تتقدم ونحن أحياناً نتأخر . أجدادنا كانوا يحاولون دراسة كل ما حولهم ، يبحثون عن القانون الإلهى الذى يسيره ، لا يكتفون بالمراقبة والفكر ، بل إنهم يعمدون إلى التجربة ليتبينوا صحة ما يرون هل هو صحيح أم هو من خداع العيون ، فسبقوا بذلك الناس إلى العلم التجريبى ونحن نكاد نقدس النفط .

فلما جاء من يتخذ الوسائل ، ويعد العدة ، وينزل فى باطن الأرض بأجهزته وآلاته ، وصل إلى مصدر هذه النار فاستخرج النفط الذى أغنى البلاد، وأفاد العباد .

هو الذى قاله الشيخ أمجد ينطبق عليه هو . كان كنزا مخبوءاً فكشفه الصواف . عاش الشيخ أمجد قاضياً فى الموصل فما عرفه أحد ولا عرف أحداً، حتى إذاجاء الشيخ الصواف عرف به الناس واستفاد مما عنده من العلم ومن العبقرية ومن النبوغ . لولا حماسة الصواف لما ظهرت هذه العبقرية المخبوءة . ولولا عبقرية الشيخ ما أثمرت حماسة الصواف ، ذلك أنها إذا كادت تخبو النار فنفخت فيها اشتعلت ، ولكن إن نفخت فى رماد بارد لم يظهر لهب النار .

لقد أعدته حماسة الصواف . أفتحسبون أن العدوى إنما تكون فى الأمراض وحدها ؟ لقد قرر خبير من خبراء الجمال اسمه البحترى أن الجمال يعدى كما تعدى الأمراض ، أفتحبون أن أقرأ عليكم تقريره العلمى ولو خرجت عن

الموضوع ؟ بل لقد خرجت فعلاً فسامحونى .

أما الشيخ أمجد وإننى أنقل لكم ما كتبته عنه فى حياته بإذنه قرأته عليه قبل نشره .

الشيخ أمجد كان بركة العصر ، وإنى لا أعرف فى العلماء مثله ، استفدت من صحبته فوائد كثيرة فى خلقى وفى تفكيرى .

عرفت الشيخ أول ما عرفته فى دار العلوم (الكلية الشرعية فى الأعظمية فى بغداد) وكان أستاذاً فيها ، وكنت أدرس فيها الأدب وأنام فيها ، وذلك سنة 1937 أو قريباً منها ، ثم تركت العراق وعدت إلى الشام فلم أره إلا فى المؤتمر .

ولقد عجبت من هذا النشاط الذى عراه فى شيخوخة ، فى السن التى يخمد فيها عادة فى نفوس أهله النشاط ، وعهدى به أنه كان قاضياً منعزلا ، منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده ، فلما ترك العمل وبلغ السن التى يستريح فيها أمثاله انتفض انتفاضة فإذا هو يرجع شاباً : شاباً فى جسده ، وفى همته . وإذا هو ينتقل بقفزة واحدة من حياة بلغ فيها الغاية فى العزلة إلى حياة بلغ فيها الغاية فى الاختلاط ، فكان هو الرئيس لجمعية إنقاذ فلسطين وجمعية الآداب الإسلامية وجمعية الأخوة الإسلامية (أى الإخوان المسلمين) وجمعية التربية الإسلامية ، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف ، ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية ، وإذا هو يرحل إلى الهند أولا وثانيا ، ويرحل مرات ومرات إلى الشام والحجاز ومصر .

لما رأيته فى المؤتمر وسلمت عليه وذكرته بنفسى ، وقد درست معه فى مدرسة واحدة سنة كاملة ، قال لى : أنا لا أذكرك ، فحسبت ذلك منه تكبراً

وترفعاً واعتزازاً بالنفس وتجاهلاً للناس ثم علمت بعد ـ لما صحبته ـ أنه كثير النسيان ، وأنه صادق لا يعرف المداهنة ولا المجاملة ، فإذا كان لا يذكرنى فيستحيل أن يقول لى : إنه يذكرنى ، أو أن يجامل فيسكت إيهاماً وتضليلاً .

وقد ينسى من أمور الحياة ، القريب منها والبعيد . أما مسائل العلم فهو يذكرها مهما طال المدى ، ثم أخذت آلفه ثم أحببته ، ثم حل من نفسى من التجلة ومن المحبة محلاً لم يحتله إلا القليل ممن لقيت من فضلاء الرجال .

لما لقيته فى المؤتمر بهذه العمامة المشوشة دائما ، التى اتسخت جوانبها من كثرة العرق ، واحمرت من صبغ الطربوش ، ورأيت ثيابه التى كانت أقرب إلى أن توصف بالرثاثة ، ورأيت شعره الذى لم يعرف الحلاقة من شهور ، ظننته فقيراً ، حتى لقد احتلت فجئته بقميص وبشاش للعمامة ، وقدمت المقدمات ليقبلها منى ، فلما رأى ذلك ضحك وقال :

ـ أفندى ، ظننتنى فقيراً ؟ أنا أملك 16 ألف دونم .

والدونم ألف متر مربع ، وعلمت بعد أن له ذلك كله ، ولكنه لا يباليه ولا يفكر فيه . ورأيته لما كانت الرحلة قد تركه ومشى فى سبيل الله ، ولما فاض نهر دجلة وغرقت بغداد كنا فى كراتشى ، فحاولت مراراً أن أسأل عن مصير أرضه ، هل غرقت مع ما غرق أم هى قد سلمت مع ما سلم ، فكان يغضب ويقول :

ـ إنى خرجت فى سبيل الله فلا تشغل ذهنى بها !

وهذا هو الزاهد حقاً ، الدنيا ملء يده ، ولكن قلبه مملوء بمراقبة الله وذكر الآخرة . كان يأكل الطيبات وينزل في أكبر الفنادق ، ويلبس ـ إن وجد ـ الغالى من الثياب ، فإن لم يجد الغالى لبس الذى وجده ، لا يفرح بهذا الذى أتاه الله فرحاً يطغيه وينسيه دينه ، ولا يأسى ولا يحزن إن استرد الله ما أعطى أسى يؤيسه ويقنطه من رحمة ربه .

هذا هو الزهد حقاً ، زهد بعض الصحابة والتابعين وبعض الأئمة المتبوعين الذين كانوا يملكون الملايين : عثمان والزبير وابن عوف وأبي حنيفة والليث وابن المبارك ، لا زهد الصوفى الذى منع نفسه الفالوذج أربعين سنة ؛ لأن نفسه تشتهيه ، فعاقبها بمنعه عنها ، وهو قادر عليه من الحلال ، لأنه زعم أنه يخاف ألا يؤدى شكره ، فقال له الحسن البصرى : « يا جاهل ، وهل تستطيع أن تؤدى شكر الماء البارد ؟ » .

كان الشيخ أمجد كنزاً مخبوءاً فكشفه الصواف . كان كتاباً عظيماً مخطوطاً، لا يعرفه الناس فطبعه ونشره الصواف وعرف به الناس .

رأيته لا يبالى طعاماً ، إن جئته به أكل من طيباته ، وإن لم يجد صبر ، فكان لا يقول لشىء منه : هذا طيب ، ولا لشىء منه هذا ردىء . بل يأكل كل ما يقدم إليه ، وكنت أنا على الضد منه ، قلما أستطيع أن آكل فى هذه الرحلة ما أجد ، وطعامى فى بلدى ألوان قليلة معدودة ، فإذا تبدلت ، أو تبدلت طريقة طبخها . لم آكلها ، لذلك كنت ألقى من السفر عنتاً ، وهو ـ والحمد لله ـ صحيح الجسم ، قوى المعدة ، فلا يبالى اختلاف ألوانه ، ولا تبدل مواعيده . وإن تركته بلا طعام لم يذكر الأكل .

ولقد حسبت ذلك تظاهراً منه ، فأحببت مرة أن أختبره وهو لا يدرى ، لأعلم هل يتجاهل أم هو لا يدرى حقيقة ، فقلت لغلام الفندق (أى للنادل) : الشيخ لا يريد اليوم طعاماً .

فلم يأته بطعام ، فلم ينتبه ، ولم يسأل . فلما كان موعد العشاء رأيته يقبل على الأكل إقبال جائع ، فسألته لماذا لم يتغدَّ قال : لم يأتونا بطعام .

ولما شك فى طعام فنادق الهند لأن الدار دار قوم لا يؤمنون بالله ولا بالإسلام ، وليست دار أهل كتاب ، بقى شهرين اثنين لا يذوق إلا الخبز والشاى ، وهو يشكو القبض حتى مرض .

لباسه ما قد رأيتم وسمعتم والمال لا يباليه ، والجاه لا يلتفت إليه ، وطالما دخلنا على ملوك وأمراء ، فكانوا يقدمونه ويمدحونه فلا يستهويه المدح ، ولا يؤثر فيه التقديم ؛ لأن همه كله الأ‍ه الذى رحل من أجله وهو « قضية فلسطين» .

وأمره فى الوضوء والصلاة عجب ، فهو موسوس فى الطهارة لا فى النجاسة . فإذا لم ير النجاسة عيانا لم يبال . لذلك كان يصلى على الأرض ، وفى ممر الطيارة ، ولكن المصيبة فيما إذا تحقق النجاسة ، هناك وسوسته وشكه .

ولطالما كنا على موعد مع ملك أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء ، أو فى مؤتمر صحافى فكان يخرج ونصف جبته مبتل يقطر منه الماء ، فإذا لمته ، قال : أفندى تنجست .

وإذا سمع داعى الله ، ودخل وقت الصلاة ، قام من فوره أينما كان وكيفما كان . فهو يترك المائدة الملوكية والحفلات الرسمية ، رأيت هذا منه مرارا على مائدة الملك حسين فى عمان ، ومائدة رئيس وزراء باكستان ، وفى حفلات رسمية عديدة ، ويراه شيئاً عادياً ، ولا يفكر فى مخالفته للعرف ، وإن كانت السنة أن يكمل طعامه ثم يقوم للصلاة . ولقد كان عبد الله بن عمر أتبع الناس لسنة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكان يأكل مرة فسمع الأذان والإقامة واستمر يأكل ، فلما سئل بين أن هذه هى السنة . ولعل للشيخ دليلاً على ما كان يفعله ويذهب إليه .

وأدركنا رمضان فى سفر وفى مناطق استوائية . كنا فوق خط الاستواء تماماً . فلم يفطر رغم الحر والسفر ، وإن كان الفطر أفضل .

وهو فى الحقيقة رجلان مختلفان : إن جئت للعلم وجدت له ذهناً نفاذاً عجيباً ، يخترق كل معضلة علمية ، لا بالرأى المقول ، بل برأيه هو . ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل ، يتكلم فيها على الغالب وحده . وهذا يزيد ـ إن صح حسابى ـ على ألف ساعة ، فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل ، وربما ذكرت بالمناسبة بعضاً من آرائه فى هذه الذكريات .

ولكنه إلى جانب ذلك لا رأى له فى المشكلات اليومية ، ولا يحاول أن يعالجها ، وربما ترك الطريق الواضح المستقيم وسلك الطريق المعوج . لما كنا فى كلكتا ـ وسيأتى تفصيل الخبر ـ ترددنا بين الذهاب إلى دهلى (لا دلهى) أو الذهاب إلى بومباى قال : إنه لا نفع لنا من دهلى وذهبنا إلى بومباى ، ثم نصح

له من فيها بالعودة إلى دهلى فعدنا إليها ، واضطررنا أن نقطع عرض الهند مرتين ، وكانت أقرب إلينا لو قصدناها أولاً .

وأغرب من هذا أنه كان بين دهلى ولاهور مثل قاعدة المثلث المتساوى الساقين ورأسه كراتشى ، فسألته ونحن فى دهلى : أنزور لاهور ؟ قال : لا . فلما وصلنا كراتشى قال : إلى لاهور ، فقلت : أنا لا أذهب إليها ، لما كنت قريباً منها فعرضت عليك الذهاب أبيت ، أفموكل أنا بفضاء الأرض أذرعه لنعود إليها الآن .

وهو ينقاد فيما لا يعرفه كالطفل . كنا نركب الطيارة فأقول له : شد الحزام فيشده ، وأنسى أن أنبهه لحله إذا طارت الطيارة ، فيبقى الساعتين والثلاث ساعات وهو مربوط ، فيقول : أفندى هذا الحزام ، فأفكه له .

ورعه الورع الحق ، لا ورع التظاهر والرياء ، كان ينفق عن سعة من أموال الجمعية فى السفر والفنادق التى يراهـ ـرورية ، ولكنه لا ينفق قرشاً لحلاقة رأسه مثلا ، لأن ذلك ليس من نفقات السفر ، ولولا أنى أقسمت له مرة أن أدفعها منى ما حلق ، لأنه لم يكن يحمل معه مالاً .

وكانت رحلتنا لقضية فلسطين ، فإن لم يكن للقضية مصلحة من المقام فى بلد لم يقم فيه يوماً ، ولم يمش بغير هذا المقصد فيه يوماً ، ولم يمش بغير هذا المقصد متراً واحداً ، حتى أن (تاج محل) أجمل بناء على ظهر هذه الأرض ، لم يره ولم يمكنى من أن أراه . وقد كنا فى دهلى وهو فى (أجرا) وبيننا وبينه ساعتان بالسيارة ، والناس يقصدونه من أقاصى الدنيا ، لأنه لا مصلحة للقضية فى رؤية تاج محل ، وما جاء فى كتابى هذا من وصفه الذى قال من كتب عن

الكتاب أنه كان وصفاً رائعاً ، إنما كتبته على السماع .

وإذا وقف للصلاة ، نقى قلبه ونفى عنه كل ما يتصل بالدنيا ثم صرخ : «الله أكبر » فتحس أنها قنبلة ألقيت في وجه الشيطان .

وهو يكره المتفرنجين ويألف المشايخ ، يجلس حيث يجلسون على الأرض ، ويأكل معهم ، وأنا لا أستطيع أن آلف هذا الأسلوب فآكل بأصابعي مثلاً ، ولا أسلوب الإفرنج في الولائم الرسمية ، وكنت أتضايق في الحالين .

يكره تقليد الإفرنج لكنه يقرأ ما يصل إليه من كتبهم ،ويروى النافع من أقوالهم ، ويضيق صدره إن حدثته عنهم ، أو قلت له ما يشتم منه رائحتهم ، لا سيما فيما لا يعرف من أمورهم .

وهو لا ينتظر تمام الجملة، ولا يرقب الشرح ، بل هو يثور بي ويسكتني وأنا رجل أعرف له قدره ، وأراعي سنه ، ولكن حدة طبعي لا تحتمل ذلك من أحد . فكان يقع بيني وبينه ما يكون بين الولد وأبيه ، والتلميذ وأستاذه .

لما وصلنا بومباى تلقانا الرجل الكريم الذى منّ علينا وهو السيد عبد الله البسام فسألنا : « هل تنزلون في بنسيون ؟ » .

فغضب الشيخ غضباً ما رأيته غضب مثله ، وقال : « بنسيون ؟ بنسيون ؟ يحسب البنسيون ماخورا أو مكاناً للفسوق ، وحاولت أن أشرح له ما هو البنسيون فما تركني أتكلم . وأما ذهوله ونسيانه فعجب من العجب .

قال لي مرة ونحن في بومباى اذهب بنا إلى القنصلية السعودية ثم إلى العراقية فذهبنا فكانت القنصلية العراقية على طريقنا ، فقلت له : ندخل هذه

أولاً ؟ قال : باسم الله . فدخلنا وجلسنا جلسة طويلة ، وتحدثنا عن العراق وأهله . ولما خرجنا قال : هيا بنا إلى العراقية . قلت : كنا فيها . فغضب وقال : ليش ما تقولي . أنا أحسبها السعودية . قلت : أما رأيت العلم ؟ وصورة فيصل بن غازى ؟ أما حدثتهم عن بغداد ؟ ولكنه إلى جنب هذا يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة ، وهو فقيه حنفى متمكن ، له مشاركة فى كل علم ، كان محامياً ، ثم صار قاضياً ، ثم أمضى عشرين سنة رئيساً لمحكمة التمييز (النقض) ، وأستاذاً فى كلية الحقوق ، ومدرساً فى مدرسة قديمة من مدارس الأوقاف ، هى المدرسة السليمانية ، فلما منع القانون الجمع بين الوظائف وخير بينها اختار التدريس فى المدرسة الوقفية الصغيرة لأنها مدرسة أبيه ، ولأن العمل فيها لله وللدار الآخرة ، وترك رياسة التمييز .

وكان الشاعر الكافر الزهاوى عمه ، ولكنه قاطعه وهجره وأبغضه فى الله ، ولم يخرج فى جنازته لما مات .

هذا هو الرجل الذى كان لى شرف صحبته فكسبت منه علماً وديناً وخلقاً ، رحمة الله عليه وأجزل ثوابه .

* * *

أنور العطار شاعر الحب والألم والطبيعة

هذه حلقة مفردة ليست منظومة فى العقد ، بل إنها الفصل الذى يأتى بين فصول الرواية (انتراكت) فسامحونى إن أخللت بسردها ، وأعدكم أننى سأعود إليها .

أخذت جريدة « الشرق الأوسط » يوم الأربعاء 1 / 6 / 1405 ، فوجدت اثنين من بلدى ، هفا إليهما قلبى ، وأضرما - وما خمدت - لواعج الشوق إليه فى صدرى ، وضمخا بالعطر كل ما حولى ، فملأ الطيب مجلسى ، وكيف لا ، وهما عطار يكتب عنه عطرى .

فكأننى انتقلت معهما إلى الغوطة فى أذار ، وقد كللت هام الأشجار فيها الأزهار ، وغنت على أفنانها الأطيار ، وأين منى تلك الديار ؟ أين منى الغوطة - يا أسفى على الغوطة - لقد قطعوا شجرها ، وبددوا زهرها وثمرها ، وأقاموا عليها مقابر كبيرة للأحياء من البشر ، لا تختلف عن القبور إلا بأنها طبقات فوق طبقات ، وأن لها منافذ يدخل منها الضياء كما تدخل منها شياطين الإثم ، إذا تكشف سر الجار للجار ، حتى يراه فى مخدعه مع أهله ! .

فيا أيها الأستاذ عبد الغنى العطرى لك الشكر .

لقد أحييت فى نفسى طرفاً من ماضى الذى حسبته مات ، حين أثنيت على أنور ، ولا ترجو على الثناء جزاء ولا شكراً ، إنما هو الوفاء ، وما أقل فى

الناس الأوفياء .

لقد صحبت في طريق الدراسة الطويل ألوفا من الطلاب ، رافقتهم ثم فارقتهم ، مشينا معاً في الطريق واحد ثم انشعبت بنا الطرق ، واشتبكت المسالك ، فتفرق الشمل الجميع[1] ، وانقضت صحبة المدرسة ، أجمل صحبة وأنقاها ، وأثبتها على نوب الزمان وأبقاها .

أيا حبذا صحبة المكتب   وأحبب بأيامه أحبب

إنها الصداقة المبرأة من شوائب المطامع والمنافع ، البعيدة عن المجاملة والمخادعة والنفاق . كنا جميعاً على مقاعد مشابهة ، فرفعت الحياة ناساً منا فأعلت منازلتهم ، وخفضت ناساً ، وتبدلت المقاييس ، واضطربت الموازين ، فتقدم من كان متأخراً في دروسه ، وتأخر من كان متقدماً .

وكم منجب في تلقي الدروس   تلقى الحياة فلم ينجب
وصار إلى الفاقة ابن الغني   ولاقى الغنى ولد المترب
وقد ذهب الممتلي صحة   وصح السقيم فلم يذهب

لم يبق معي على الطريق من هؤلاء الألوف إلا اثنان ، أنور العطار ـ رحمه الله ـ وسعيد الأفغاني ـ سلمه الله ـ .

وغاب الرفاق كأن لم يكن   بهم لك عهد ولم يصحب
إلى أن فنوا ثلة ثلة   فناء السراب على السبسب

يقول الأستاذ عبد الغني العطري أن أنور العطار ظلم نفسه بعزلته وابتعاده

(1) (أي الجموع) .

عمن فى أيديهم مفاتيح الشهرة ، يفتحون أبوابها لمن يرونه معهم ، يغشى مجالسهم ويغلقونها فى وجه من ينأى عنهم .

ولكن هل ترى يا أيها الأستاذ العطرى أن هذا من صنع أنور ؟ هل طبعى أنا مثلاً من صنعى ؟ إن الله كما يخلق الرجل قصيراً أو طويلاً ، ولا يد له فى طوله وقصره ، يجعله مقبلا على المخالطة أو معرضاً عنها .

وإن كانت عزلة أنور ظلماً منه لنفسه ، فماذا تقول عنى أنا ؟ لقد كان هو الاجتماعى بيننا (أنا وهو) وكنت أنا المتوحد المتفرد . كان ينكر علىّ عزلتى ويدفعنى إلى غشيان مجالس الأد ب التى يغشاها ، ولقاء أهله الذين يلقاهم ، فكنت أستجيب له حينا ، وأتأبى سائر الأحيان .

لقد كتبت مقدمة ديوان أنور « ظلال الأيام » من نحو أربعين سنة (سنة 1367) ثم قطع الدهر ما بينى وبينه فابتعدنا قليلاً ، كان هو فى الشام وكنت فى الرياض ، فلما جاء الرياض ، كنت فى مكة ، ثم زرت دمشق إحدى زياراتى القليلة أيام إقامتى هنا فى المملكة ، فقابلته فى بيته وأخذت لنا صورة، ما كنت أدرى يومئذ أنها المقابلة الأخيرة ، وأن هذه الصورة ستبقى ذكرية عزيزة لأخ فقدته .

لما كان فى مستشفى المواساة فى مرض موته كنت أنا إلى جواره ، ما يفصلنى عنه إلا بضع غرف ، وكنت مقيداً إلى سريرى ، أجرى لى الصديق الدكتور مظهر المهاينى عملية ما استطعت بعدها أن أذهب إليه فأراه ، ولكن زوجتى زارت زوجته ، فخبرتنى أنه صار جلداً على عظم ، وأنه ليس أنور الذى عرفناه بل هو طيف له على صورته وعلى شكله .

ولما توفاه الله كنت قد خرجت من المستشفى ، فمشيت فى الجنازة وأنا والله فى دنيا غير دنيا الناس ، أصحبهم بجسدى وفكرى ونفسى مع أنور فى أيامنا الخوالى ، ثم لما انتهى الدفن ، ووقف أهله للتعزية تركتهم وجست خلال المقابر ، فقعدت بينها حيث لا يرانى أحد ، وما معى إلا قبور الموتى من حولى والماضى الذى حسبته مات فى خيالى ، وعلى يمينى من بعيد قبر أبى وأمى ، وأمامى من بعيد الحفرة التى ثوى فيها جسد أنور ، وكر شريط الذكريات فلم أعد أعرف أين أنا . لو لا أفكر فى المكان الذى أقعد فيه ، ولا فى الزمان الذى أعيش فيه ، لأن صداقتنا ولدت ذات يوم فى هذه المقبرة .

هل تحبون أن أكشف لكم طرف الستار عن هذه القصة الطويلة ، التى عشتها معه وعاشها معى ؟ .

لابد إذن أن سأعيد عليكم بعض ما كتبت فى مقدمة الديوان ، إنه فلْمٌ طويل ، فلم حافل بكل جميل ونبيل ، ويمر بك فى لحظات وقد تصرمت فى تأليفه وإخراجه خمسون سنة . فلم كنا نحن أبطاله ، وكنا نحن ممثليه ، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد .

الفصل الأول من هذا الفلم فى مكتب عنبر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (سنة 1923) . عندما أبصرت أنور العطار أول مرة ، أبصرت فيه تلميذاً رقيق العود ، دقيق الملامح أنيق المظهر ، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى

شارد النظرات ، يمر فى ظلال الجدران ، خفيف الوطء حالم الخطى ، كأنه طيف يمر على خيال نائم ، يعتزل التلاميذ لا يثب وثبهم ، ولا يلعب لعبهم ، فسألت عنه من يعرفه فقال : هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار .

وما كنت أؤمن يومئذ بغير شعراء الجاهلية والشعراء الإسلاميين ، ولا أرضى لنفسى أن أقرأ شعر المتنبى ، ولا يرضى لى ذلك مشايخى ، لئلا تفسد ـ كما قالوا ـ ملكتى . ولم أسمع باسم شوقى ، فما لى ولهذا الشاعر الذى اسمه أنور العطار ؟ لذلك ما طلبت صحبته ، ولا ظننت أنه سيكون بينى وبينه اتصال ، حتى كانت تلك المصادفة المسعدة التى كان لها فى حياتى أنا ، وفى حاته هو ، أبلغ الأثر .

كانت هذه المصادفة على باب المدرسة (البادرائية) فى ليلة من ليالى رمضان ، كنت داخلاً إليها ، فوجدت أنور خارجاً منها ، فوقف يحيينى ووقفت أحييه ، وكلمنى وكلمته ، واتصل الحديث ونحن قيام تحت مصباح الشارع ، حتى جاء ذكر شوقى فأنشدنى قصيدة له ، قرأها بصوت عذب حالم حنون ، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب منى ، فأحببت شوقى وأحببته . وأنت تلقى المرء أول مرة فتحس بأنك تحبه أو أنك تكرهه ، لا تدرى لحبك ولا لكرهك سبباً .

سر ركبه الله فى نفس الإنسان . وفهمت منه أنه يسكن فى حارة تجاور الحارة التى أسكن فيها ، فاصطحبنا ، وذكرت موت والدى فى تلك الأيام فحدثنى عن موت والده وهو صغير . وجعلنا طريقنا على مقبرة الدحداح ، والطريق منها إلى حارتنا أقصر ، وهنالك على قبر أبيه وعلى قبر أبى ، ولدت هذه الصداقة التى أثمرت شعراً ونثراً ، وحباً وإخلاصاً ، وكانت من أخلص الصداقات ، وإن لم تخل من منغصات ، شأن الناس فى هذه الحياة

وهنالك فى مدينة الأموات ولدت هذه المودة التى لم يستطع أن يعدو عليها

الموت ، لأنها محصنة منه ، ولأن الأدب أكسبها الخلود .

وكرت فصول الفلم تتوالى ، فرأيتنى قد غدوت صديقه وغدا صديقى ، يبثنى شكاته وأبثه شكاتى ، ويجد فى حياتى مشابه من حياته ، وأجد فى حياته مشابه من حياتى ، ألف بيننا اليتم ، وأننا كنا مستورين على حالة هى فوق الفقر ودون الغنى . . حتى كأنى هو ، وكأنه أنا .

وصار يسمعنى شعره فأجد بواكير شاعر متمكن ، لا محاولات طالب مبتدئ ، وأجد فى هذه البواكير قوة فى التعبير ، وجدة فى التفكير ، وأبياتاً سائرة وصوراً رائعة ، يرسلها تترى (أى متتابعة) يستقيها من معين ثابت لا ينضب ، وكنت بطول ما نظرت فى كتب الأدب ، وألفت من آثار البلغاء ، أستطيع ـ على صغرى ـ أن أميز الذهب الخالص من الكلام ، من النحاس المطلى بماء الذهب .

واستقبلت فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً ، وفتح له ولإخوانه الثلاثة جميل سلطان ، وزكى المحاسنى ، وأبو سلمى عبد الكريم الكرمى ، وكلهم رفاقنا فى المدرسة ، فتح لهم أستاذنا محمد كرد على أبواب المجمع ، فأقام لهم حفلة تكريمية أنشد فيها أنور العطار قصيدته : « الشاعر » التى رويتها من قبل ، والتى أشار إليها وأثنى عليها الأستاذ العمرى .

وكانت هذه الحفلة سنة 1346 هـ ونشرت قصيدته فى « الحديقة » التى كان يصدرها خالى محب الدين الخطيب فى تلك السنة .

وشعر أنور فى تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً ، ودموع صاغها البيان شعراً ، ومقطعات حلوة ما أدرى ما الذى زهد الشاعر فيها فلم يثبت منها فى

ديوانه « ظلال الأيام » إلا مقطوعة « الحمامة » .

ورأيت فصول الفلم تتوالى ، أبصر فيها كل دقيق وجليل من حياتي وحياة أخي في الصغر وفي الكبر ، ورفيقي في السفر وفي الحضر ، وأنيسي في المسرة وفي الكدر ، أنور ـ رحمة الله ـ على روح أنور .

رأيت أيامنا في المدرسة ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال ، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه ، لا نصدق متى ينقضي النهار حتى نفر إلى كتب الأدب ، لنقرأ كل بارع من القول ، ونتدارس كل رائع من البيان .

ورأيتنا وقد فرقت الأيام بيننا قليلاً ، فاشتغلت أنا بالصحافة ، وغامرت في السياسة ، وآثر أنور التعليم فكان مدير المدرسة الأولية في منين [1] ، في هذه القرية النائمة في حجر القلمون الأدنى ، ترى مواكب الأحلام بأجمل « عين » وأشدها سحراً وأكثرها فتوناً : عين منين . من لم ير عين منين ، ما عرف سحر العيون ، ولا رأى جمال الينابيع ، ولا رشف راح الجمال على مائدة الكون . . فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعيم ، أسكر سكرين سكر الجمال ، وسكر البيان ، وأخضع فيها لسحرين : سحر الطبيعة ، وسحر الشعر . وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة ، والآتي الشهي أملا مرجى في حاضر ضاع في نشوة اللذة ، حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه . نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور ، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من الحياة من

(1) منين : إحدى القرى القريبة من دمشق .

قلوبنا ، فصارت تحنو علينا ، وتولينا الحب . وأرقنا عليها البيان ، فأمست تحدثنا : تتلو علينا أحاديث الغابرين ، وتقص قصص الأفلام ، من غسان [1] أصحاب المجد المؤثل ، فنحس كأن قد عاد الماضى ، ورجعت «القصور البلق» عامرة ، وبعث المجد وعاش الحب ، حتى لكأننا نسمع همس العشاق، وآهات نشواتهم ووسوسة قبلاتهم ، ونرى خيالات العناق من وراء الستار .

أيام سعدنا بها ، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء ، ولكن بأحلام الشباب ، رحمة الله على تلك الأيام .

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً فى الجبل من دمشق فى المهاجرين ، وصار هو معلماً فى السفح فى الصالحية . فكنا نرتقب المساء ارتقاباً ، فإذا حل انحدرت أنا من هنا وانحدر هو من هناك ، حتى نلتقى عند العفيف [2] نفرح بهذا اللقاء، فرح حبيبين التقيا بعد طول فراق .

ورأيت أيام العراق زهرة أيامنا ، أنا وأنور ، وزينتها أيام بغداد . ـ وقد حدثتكم عنى وعنه وعن بغداد ـ كانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور ، ففيها اختزن فى نفسه أجمل الصور ، وفيها نظم أروع القصائد ، وفيها ابتدأ فى حياة الشاعر عهد جديد ، هو عهد القومية وشعر الحماسة الوطنية ، فازدادت بذلك هذه القيثارة وتراً جديداً ، خرجت منه أطيب النغمات .

ماذا أصف ؟ وعم أتكلم ؟ وكيف أستطيع أن أجمع فى كلمات دنيا من

---

(1) غسان : الذى ينسب إليه الغسانيون والغساسنة ليس رجلاً ولكنه نبع ماء نزلوا عليه وموضعه فى جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش .

(2) العفيف : حى من أحياء دمشق يقع فى أدنى سفح جبل قاسيون .

العواطف ، وعالمًا من الذكريات ، وآلافًا مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان ، لأنها بقيت وقد ذهب الزمان ، وكانت أجمل من العمر لأنها هى جمال العمر .

رأيت هذا كله ، وما هذا إلا تلخيص لحياة أنور ، الشاعر الذى عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلد الملهمون ، شعراء القلب والروح واللسان، لا شعراء الألفاظ والبيان ، الشاعر فى قلبه المتفتح أبداً للجمال ، المترع بالخير الممتلئ بالحب . وفى لسانه الذى يفيض أبداً بالجمال ، وينفث السحر الحلال .

وفى هذا التلخيص تحليل لشاعرية أنور ، فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن ، صديق الأسى ، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقرى ولا شىء يبعث الأدب العبقرى كالألم العبقرى كما قال الفريد دى موسى فى أبياته المشهورات .

لقد بكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة فى « الخريف » وخلد مظاهر الأسى فى النفس وفى الطبيعة . إذا أخذتم عليه ذلك فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غيره ، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهى ، ولكن يطبعه الله بطابع البيئة والزمان ، ويكون مشاعرة فى طفولته ، قبل أن يشعر هو ليكون مشاعره كما يريد ، ولو استطاع امرؤ أن يصغر فمه أو يجمل أنفه لاستطاع أن يبدل قلبه ويحول عواطفه .

لقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا ، وفتح عينيه على الدنيا والحرب العالمية الأولى قائمة ،ودمشق فى أشد أيامها ، ومظاهر البؤس والألم فى كل مكان : ولد فى السنة التى ولدت أنا فيها سنة 1327 هـ وقد كبره الأستاذ مؤلف الأعلام

وصغره الأستاذ العطرى ، وميلاده الحق هو ما قلته .

فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره ، وكان الفرح فيه مثل الفجر الأول ، لا يكاد يبدو بياضه فى الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل ، فهذا هو السبب .

ولا تلوموه إن تغزل ، فتكلم عن الرؤى والأحلام ، وترك الحقائق وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع ، وأنه عمم وجمجم ، فلم يكشف ولم يصرح ، فإن البيئة التقية التى نشأ فيها أنور لم تكن ترى فى الحب إلا ذنباً ، على صاحبه أن يستغفر الله منه . فإذا كان فى شعراء اليوم من قصر شعره على مخدع الزوجية بغير زواج شرعى ، وعلى ما يكون بين المرأة والرجل بغير إذن من الله ، وكان شاعر الفسوق والعصيان [1] ، فإن شعر أنور كشعر نُصَيْب الشاعر الذى سمى قومه « ليلى » ليتغزل بها .

إن أنور لم يتصل فى حياته بفتاة على نحو ما يفعل الشباب ، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر فى هذا أو أن يحاوله . وأنا أقول ما أقول عن معرفة به : أعرف عنه أكثر مما يعرف عنه ولده الذى انبثق من صلبه .

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه فى هذه الدائرة الضيقة ، وقصر عليها شعره ، ولم يخرج إلى الفضاء الأرحب ، ولم يعرف فى الدنيا الواسعة التى يعيش فيها أكثر الشعراء والناس . فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباى فى عالم ضيق ، كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى مكتب عنبر ، وتلك الساقية الصغيرة التى كتبت عنها فى مجلة « الرسالة » من اثنتين وخمسين سنة ، فارجعوا إليها لتقرؤوها ، وذلك الطريق الموحل الذى كان ينتهى عنده

(1) يأخذها جزافاً ، بلا وزن ولا (قبان) .

العمران ، ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص ، والذى كان اسمه (قفا الدور) وكان نهاية البلد ، فصار الآن شارع بغداد ، وصار فى وسط البلد .

إن أنور يخشى أن يفارق عالمه الشعرى الذى أحبه ، أو يتجاوز حدوده ، كما كان يخشى من قبل ، وأخشى أنا ، أن نتجاوز قفا الدور أو نتخطى مكتب عنبر .

ولكن عالم أنور الشعرى واسع على ضيقه ، لأنه عالم القلب ، إن لم يمتد على وجه الأرض فإنه يمتد فى العلاء صعداً ، حتى ليتصل شعره أحيانا بالدين ، والإيمان ذروة السمو فى هذه الدنيا ، وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر عليها ، ولا يضيق عليه متر واحد إن سما حتى اتصل بالسماء .

عاش أنور فى عهد جد ويقظة ، وإقبال على العلم والعمل ، وحفظ عشرات القصائد من جياد أشعار العرب ، فجاء أسلوبه كالماء الصافى : فيه عذوبة ولين ، وفيه إن تدفق قوة ومضاء ، وكان فى شعره أثر الجد ومؤهلات الخلود ، لا كأشعار أصحاب المناسبات ، وطالبى إعجاب العوام . وكان نسجه كالحرير المتين المصوف المنقوش النقش البارع ، لا كالنسج الرخيص الذى يتمزق من الشد ، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس .

ما مشى أنور على الطريق الذى فتحه له مَنْ قبله من الشعراء ، بل على طريق شقه هو لمن بعده من الشعراء . كان أنور إمام جماعة الشباب ، ولم يكن مؤتماً تابعاً ، ولولا نفس من شعر شوقى فى مثل قصيدته « ليل الحزين » من بواكيره، وروح من الأدب الفرنسى فى بعضها ، لقلت بأن أنور لم يقلد فى أسلوبه أحداً أبداً . وهل لشاعر مثل الذى لأنور فى وصف الطبيعة ، وفى وصف البلدان ،

وفى وصف الرؤى والأحلام ، حتى يقلده أنور ؟ .

***

لقد قلت يومئذ فى مقدمة الديوان : إنه ديوان الوفاء للعربية : نخل مفرداتها فاختار أطيبها ، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها . وديوان الوفاء لأقطارها : جرى بردى منذ الأزل ، وقام لبنان ، فهل قال شاعر فى بردى مثل الذى قال أنور ؟ هل نظم فى لبنان مثل ما نظم ؟ هل يعرف القارىء فى الشعر الحديث قصيدة فى وصف الطبيعة أعظم من « لبنان » التى اشتمل عليها هذا الديوان ؟ .

أنا لا أبالغ ولا أغالى ، وهذا الشعر الحديث بين أيدى الناس ، فمن عرف أعظم منها فليقل .

ولكن « المعاصرة » حرمان ، وأزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه ، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر ، الذى يلقى بين أيدى الناس ، فتميز الجوهر من الزجاج ، والذهب من النحاس ، وهنالك بعد أن يذهب الرجال ، وتنقطع الصداقات والعداوات ولا ينفع إلا الأدب الذى يستحق الخلود ، يومئذ تعرف قيمة قصيدة « لبنان » وقصيدة « بردى » ، وهنالك بعد أن يعدو النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع ، وتشغل الناس ، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين . .

هذا كلام قلته أكثر من أربعين سنة فإن لم يأت ذلك اليوم فلابد أنه آت .

كنا نعد الشعراء الكبار فى دمشق أربعة هم : خير الدين الزركلى ، ومحمد البزم ، وخليل مردم بك ، وشفيق جبرى ، وكان أصحاب الصحف يبدلون

المقاييس فيقدمون من يرونه هم أحق بالتقدير ، فيعرف الناس اسمه ، ويقرؤون شعره ، ويهملون غيره ، فلما هدأت هذه الضجة وانطفأت هذه القناديل ، وسطعت شمس الحقيقة ، احتل كلٌ مكانه الذى يستحقه . وكان شعراء الشباب من رفاقنا أربعة هم الذين كرمهم الأستاذ كرد على ـ رحمة الله عليه وعليهم ـ : خليفة الشيخ طاهر الجزائرى فى تشجيع الناشئين ، والأخذ بأيدى المبتدئين . وكان أنور العطار أشعرهم ، إن لم يكن أوسعهم أفقاً ، وأكثرهم تنويعًا ، فهو أجودهم ديباجة ، وأحلاهم أسلوباً وأحسب أنه سيكون أبقاهم ذكراً .

وبعد ، فالشكر للأستاذ نجدة فتحى صفوة الذى أعاد لنا ذكرى أنور العطار وما نسيناه ، والشكر للأستاذ عبد الغنى العطرى الذى دفعنى إلى نشر هذا الكلام .

إن الساعة إنما تسير عقاربها ، وتحركها حركتها هذه الملوبات (1) أى اللوالب ، وكان عندنا جماعة هم ملوبات (أى لوالب) الحركة الأدبية فى دمشق يدركون خامدها ، ويسيلون جامدها ، ويبعثون اليقظة فيها ، وكان منهم الأستاذ عبد الغنى العطرى .

أعتذر للقراء إن قطعت سلسلة الكلام عن رحلة الشرق وتكلمت عن أنور العطار ـ رحمه الله ـ وأعدهم أننى سأعود فى الحلقة المقبلة من السلسلة .

* * *

(1) الملوب : على وزن مكرم وهو ما يسميه الناس باللولب .

❖ الفهرس ❖